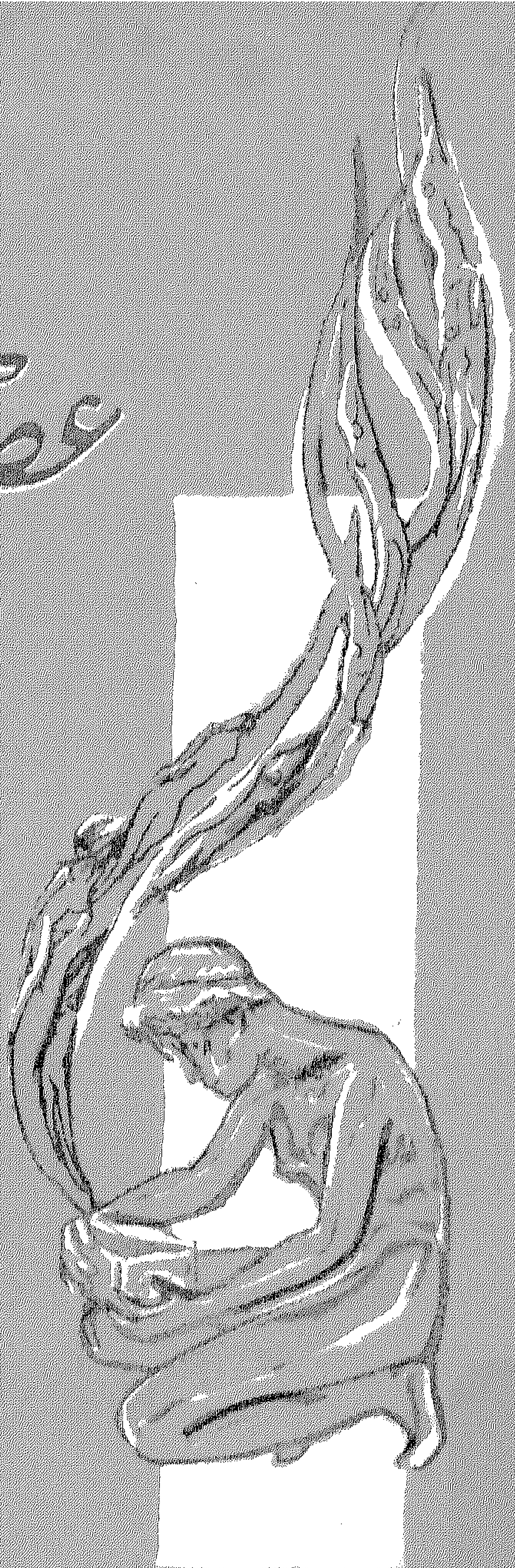
عصر الأساطير

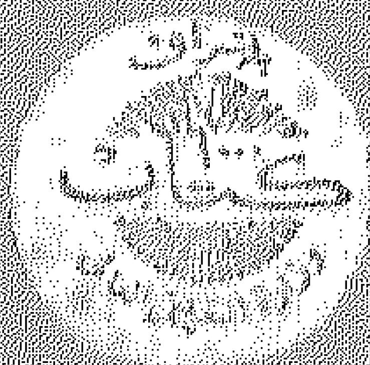


تأليف

توماس بلفينش

ترجمة : رشدي السيسي

راجعه : دكتور محمد صقر خفاجة



الألف كتاب ٥٦٤

عصر الأساطير

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

عصر الأساطير

تأليف: بلفنش

ترجمه
رشدي السيسي

راجعه
دكتور صقر خفاجة

الناشر
النهضة العربية
١٩٦٦

هذه ترجمة كتاب : The Age of Fable.

تأليف : Bulfinch.

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

الفصل السادس والعشرون

صفحة

صفحة

ما هى « الأسطورة » ؟

عندما يتناول القارئ المهتم بأساطير العالم القديم أية مجموعة منها ، تواجهه مشـــكلة أساسية ممعنة فى التعقيد : ماذا نعنى بالضبط عندما نستخدم لفظ « الأسطورة » ؟ .

لعله يجول بخاطر السواد الأعظم منا أقاصيص الجن وخرافات الأقدمين التى تحوى أحداثاً تتسم بالإعجاز ، وقد يستسيغها العقل أو لا يستسيغها ، ولعلنا أيضاً نقرن الأسطورة ، بما قبل التاريخ ، وبعض الأحيان نجد فعلا من يذكر لنا أن الأسطورة هي التاريخ الذى لا نصدقه ، وأن التاريخ هو الأسطورة التى نصدقها ، ولـكننا إذ نمعنا السؤال وتقصيناه بعناية أوفر ، ثم شفعناه بسؤال آخر : كيف ظهرت هذه القصص الأسطورية ؟ أو بتعبير آخر لعله أكثر سداداً : لما ظهرت ؟ وقفنا على شروح منوعة شتى فبلفنش يسوق فى الفصل الخامس والثلاثين من هذا الـكتاب أربع نظريات عن أصل الأسطورة ، ومنذ عهد بلفنش جاءت فى الأعقاب نظريات كثيرة ، ففى القرن التاسع عشر عندما بدأت الأسطورة تصبح مادة للدراسة الجادة اعتنقت مدرسة الأدب الشعبى فـكرة انحدار الأسطورة عن القصص الشعبى المتواضع الذى سبق أن طمس التاريخ معالمه ، وفى أعقاب علماء القصص الشعبى جاءت مدرسة علماء فقه اللغات التى قررت فى إصرار أن جوهر الأسطورة يمكن تلمسه واكتشافه فى أصول اللغات عند تحليلها ، أما المدرسة الشمسية (الممثلة فى نظرية بلفنش الطبيعية) فـكانت مؤمنة بأن جميع الأساطير قد انبثقت من الصراع المثالى الذى قام بين النور والظلام ، بين الشمس وأعدائها الأسطوريين ، ولم يتخلف القرن العشرون عن أن تـكون له نظرياته الخاصة بهذا الصدد ، فعلماء الأجناس مثل فريزر (Frazer) ومالينوسكي (Malinowski) ، وكذلك علماء النفس من أمثال فرويد (Freud) وجونز (Jung) وزالك

(Rank) قد أخضعوا الأسطورة للدراسة المتصلة وبالتفسير الفاحص .

وعلى الرغم من وجود خلاف كبير فى الرأى فهناك دليل أصيل وطيد فى أساطيرنا الموروثة لا يستطيع أى دارس أن يدحضه : فالأسطورة مألوفة لكل الشعوب البدائية الرفيعة ، وهناك تماثل عجيب بين أساطير مختلف الأجناس ، الأمر الذى أدى ببعض الدارسين إلى الزعم بأن الأسطورة هي سجل لإيمان الشعوب البدائية بالسحر واسترضاء آلهتهم بالطقوس ، ولهذه الأسباب يمكننا أن نصف الأسطورة بوجه عام بأنها مظهر لمحاولات الإنسان الأولى كى ينظم تجربة حياته فى وجود غامض خفى إلى نوع ما من النظام المعترف به ، وإنه لما يتفق مع طبيعة هذه الشعوب البدائية أن يشحنوا أساطيرهم الملفقة المصنوعة بالأخيلة الشعرية التى تضفي فيها البشرية على قوى الطبيعة سجاياها وهناتها ، ولكن على الرغم من عدم استطاعتنا التوغل إلى أبعد من ذلك دون نقد شائع قائم على أساس من ضروب التفضيل الفنى فإننا نستطيع أن نسير قدما صوب ملاحظات استذكارية معينة . فالأسطورة ، بصرف النظر ، عن أصولها ، تكون ضربا من هيكل أو أساس لثقافتنا ، وسواء أكانت الأسطورة فى الواقع « اختزالا طقسياً » أم تمثيلا عقائديا أو أصلا دينيا فهى ذات أثر بالغ على كل من كياننا الواعي وغير الواعى ، وهناك من يزعم ، بسبب هذا الأثر ، أننا أقرب جداً لأن نكون نتاجا لأساطيرنا لا لمزايانا العقلية الموروثة ، ذلك لأن أساطيرنا تحيط بنا على الدوام ، حتى لتنفذ إلى صميم قراراتنا الأخلاقية وألوان نشاطنا العقلي وضروب إيثارنا الاجتماعى .

وأصدر بلفنش مؤلفه فى علم الأساطير استجابة لحاجة ملحة بهذا الصدد ، ومنذ النهضة الأوربية حتى القرن التاسع عشر كان المتعلم يحصل على دراسة طويلة موفورة العناية للأساطير في أصلها اليونانى واللاتينى ، ولكن المعرفة تترا كم كالتاريخ سواء بسواء ، وفى القرن التاسع عشر ظهر تدريجياً للعيان أن عصر التخصص لم يعد يتيح للطالب وقت فراغ لدراسة اللغتين اليونانية واللاتينية

وآدابهما ، وكان كتاب « عصر الأساطير » الذى نشر عام ١٨٥٥ هو الوسيلة التى استخدمها بلفنش لتلافى هذه الخسارة الفادحة اللاذعة ، وأعقب هذا ظهور كتابه « عصر الفروسية » وبإصدار كتابه « أقاصيص شارلمان » عام ١٨٦٣ تمت المجموعة التى سرعان ما عرفت بين الشعب باسم « علم أساطير بلفنش » وبعد هذا فوراً أو نحو ذلك أصبحت أعظم مجموعة أساطير أثيرة عند كل من الطلاب والقراء العاديين على السواء ، وفى الوقت الحاضر منذ مولد وارتقاء علم العاديات وعلم أجناس الشعوب بالقرن التاسع عشر ، وقد أخذ الاهتمام الأدبى والدراسى بالأســاطير فى الازدياد ، ما يزال إنتاج بلفنش أبسط تمهيد منهجى لعلم الأساطير ودراستها .

وقد استقى بلفنش مادة كتابه « عصر الأساطير » من ينابيع عظماء المؤلفين بعالم الآداب اليونانية واللاتينية وهم هوميروس وهيرودوت وأوفيد وفيرجيل ، ولـكن علم الأساطير ليس مجرد ترجمة ، ولـكنه بالأحرى إنتاج أدبى خلاق من شأنه أن ينظم أساطير الأقدمين ويعيد روايتها كوحدة محكمة متصلة ، أما الطالب الذى يختلط عليه الأمر ويظل فى متاهات الفـكر عندما يطالع إشارات هوميروس الخفية إلى تدخل الإلهة أثينا (أو منيرفا وهو اللفظ اللاتينى الذى يؤثر بلفنش استخدامه) فى حرب طروادة ، فيمده بلفنش بظلال واضحــة تحــدد له الصور وتجلوها ، ولولا بلفنش لـما خامر الشــك ســوى القلة من القراء العصريين فى أن يوليسيس « الذى لا تفرغ جعبة حيله » كان أول « مخادع نموذجى » فى العالم الغربى .

بيد أن لهذا الـكتاب مزايا عظيمة تفوق تلك التى تتعلق بالمراجع البحتة ، فهنا قد تجمعت فى مجلد واحد محكم روائع الأدب فى جميع العالم ، غير مقتصر فى هذا على الأدب الغربى وملاحم الشعوب الجرمانية الحماسية الضاربة فى القدم بأكملها ، بيوولف ، ولـكنه ضم بين دفتيه المتواتر من أساطير الشرق أيضاً .

توماس بلفنش

(١٧٩٦ — ١٨٦٧)

ولد توماس بلفنش ، ابن مهندس نيو إنجلند المعمارى الشهير ، تشارلس بلفنش فى نيوتن ، ماساشوستس ، وتعلم فى مدرسة بوستن اللاتينية ، وأكاديمية فيلبس اكستر ، وجامعة هارفرد ، وعاش بلفنش طوال حياته تقريباً ، دون زواج فى فى بوستن حيث قضى فترة قصيرة فى تعليم اللغة اللاتينية بمدرسة بوستن اللاتينية. وفى عام ١٨٣٧ أسندت إليه وظيفة الإشراف على حسابات بنك بوستن التجارى وظل يشغل هذا المركز حتى وفاته ، وتابع بلفنش دراساته فى التاريخ الطبيعى والأساطير معاً بروح تتسم بعكوف الدارسين وحياء المتواضعين ، وإلى جانب علم الأساطير أصدر كتاب (التاريخ العبرى للأغانى) عام ١٨٥٣ ، وكتاب (الصبى المخترع) عام ١٨٦٠ ، وكتاب (أشعار من عصر الأساطير) عام ١٨٦٣ ، وكتاب (أوريجون والدورادو) أو (قصة خيالية عن الأنهار) عام ١٨٦٦ .

دانيال ب . دودسون

أستاذ زميل اللغة الإنجليزية

جامعة كولمبيا

الفصل الأول

مقدمة :

لقد تلاشت أديان اليونان وروما القديمتين ، حتى لم يعد لآلهة أوليمبوس (Olympus) المزعومة متعبد واحد بين الأحياء من البشر ، وهم الآن لا يمتون لعالم اللاهوت بصلة ما، بل ينطوون تحت جناح الأدب والذوق ، ومركزهم فى هذا المجال مازال مكيناً وسيظل كذلك ، ولن يطويهم النسيان ذلك لأنهم وثيقو الصلة بأروع نتاج الشعر والفن القديم والحديث .

وإننا لننوى أن نسوق الأقاصيص المتعلقة بهم التى انحدرت إلينا من القدماء ، والتى يشير إليها الشعراء والكتاب والخطباء المحدثون ، وأكبر الظن أن قراءنا سيستمتعون فى الوقت ذاته بأروع القصص التى ابتدعها الخيال ، ويحصلون على معلومات لا يستغنى عنها كل من يطالع فى إدراك أدب عصره الأخاذ .

ولزام علينا ، كى نستوعب هذه القصص ، أن نقف على الآراء المتعلقة بتكوين الوجود ، التى انتشرت بين اليونانيين ، وهم الأمة التى أخذ عنها الرومانيون ، وشعوب أخرى عن طريقهم ، علمهم ودينهم .

وكان اليونانيون يظنون أن الأرض مسطحة ومستديرة، وأن بلادهم تتوسطها، وأن مركز هذا الجزء الوسيط هو جبل أوليمبوس، مثوى الآلهة، أو دلفى (Delphi) الشهيرة بأنها مهبط الوحى فيها .

كذلك كانوا يظنون أن قرص الأرض المستدير يخترقه من الغرب إلى الشرق ويشطره إلى قسمين متساويين بحر ينعتونه بالبحر الوسيط أو البحر الأبيض

المتوسط (Mediterranean) وامتداده اليوكسينا (Euxine) ، وهما البحران الوحيدان اللذان كان لهم عهد بهما .

وحول الأرض يتدفق النهر المحيط(River Ocean)متخذاً مجراه من الجنوب إلى الشمال على الجانب الغربي من اليابس ، وفي اتجاه مضاد على الجانب الشرقي ، وهو يجرى في تيار ثابت منتظم ، لا تعتوره عواصف أو أنواء ، ومنه كان البحر وكل الأنهار على وجه الأرض ، تستمد مياهها .

وكان يسكن القسم الشمالي من الأرض ، كما يزعمون، شعب سعيد يطلقون عليه اسم « الهيبربوريين » (Hyperboreans) . يعيش في هناءة متصلة وربيع دائم خلف الجبال الشاهقة التي كان يظن أن من كهوفها تهب رياح الشمال الصرصر القارصة التي تصيب أهل هلاس (اليونان) بالقر الشديد ، وكانت بلادهم منيعة لا تطولها أرض أو بحر ، وقد عاشوا أصحاء لا يمرضون أو يسنون ، ولا يكدحون ويشقون ، ولا يحاربون ويتناحرون ، وقدم لنا مور (Moore) « أغنية الهيبربوري » فاستهلها كما يلي .

« إني قادم من أرض في واد تملأ جوانبه أضواء الشمس ،
حيث البساتين الذهبية تتألق في رونقها ،
وحيث رياح الشمال ، وقد أخذتها سنة من النوم ،
لم تعد تهب مثقلة بأصداف الشاطىء ومحاراته . »

وعلى الجانب الجنوبي من الأرض ، لصق مجرى المحيط ، كان يقيم شعب هانئ متمسك بأهداب الفضيلة مثل الهيبربوريين ، يعرف باسم الايثيوبيين(AEthiopians) وقد آثرتهم الآلهة وأنعمت عليهم حتى لقد اعتادوا أن يبرحوا في بعض الأحيان مواطنهم الأوليمبية ويذهبوا لمشاركتهم في قرابينهم ومآدبهم .

وعلى الحافة الغربية للأرض ، بجانب مجرى المحيط ، يقع مكان ترفرف عليه

السعادة ، السهل الأليزى (Elysian plain) ، حيث كان المنعم عليهم من بنى البشر الذين اختصتهم الآلهة برضوانهـا ، ينتقلون دون أن يذوقوا الموت ، وينعمون بهناءة الخلود ، وكان هذا الإقليم السعيد يدعى أيضاً : « حقول المغبوطين » و « جزائر المباركين » .

وهكذا نجد أن اليونانيين فى العصور الأولى عرفوا القليل عن أى شعب حقيقى فيما عدا أولئك القاطنين فى الشرق والجنوب من بلادهم ، أو على كثب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى غضون ذلك وفقتهم مخيلتهم إلى أن يعمروا الشطر الغربى من هذا البحر بالعمالقة والمسوخ والساحرات ، بينما أجلسوا حول قرص الأرض ، الذى يغلب أنهم اعتبروه صغير الحجم ، أمماً أنعمت عليها الآلهة وآثرتها بآلائها ، وحبتها بالسعادة والعمر المديد .

وذهب بهم الظن إلى أن الفجر والشمس والقمر كانت تطلع من المحيط ، على الجانب الشرقى ، ثم تنساق خلال الهواء ، مانحة الضوء للآلهة والبشر ، كذلك كانت النجوم ، ماعدا تلك التى تكون مجموعة الدب ، وجاراتها القريبة ، تطلع هى الأخرى من مجرى المحيط وتغوص فيه ، وهناك كان إله الشمس يستقل زورقاً مجنحاً يدور به من الجانب الشمالى للأرض ، ثم يعود إلى مكان طلوعه فى الشرق ، وأشار ملتن إلى هذا فى قصيدة « حفل بهيج » (Co mus) :

«والآن هاهى ذى عربة النهار المذهبة
تخفف من سرعة محورهـا الذهبى
فى مجرى المحيط الأطلسى الوعر ،
والشمس المنحدرة ، بشعاعها الصاعد
تمرق نحو القـــائم المعتم ،
المواجـــه للمرمى الآخر
من مثواه فى الشرق » . . . .

وكان موطن الآلهة فوق قمة جبل أوليمبوس فى ثسالى (Thessaly) وكان هناك باب من السحب ، تقوم على حراسته إلاهات تسمى الفصول ، وتفتح كى يمر منها السماويون فى طريقهم إلى الأرض ، وكان للآلهة أماكن متفرقة يأوون إليها ، ولكنهم كانوا جميعاً يخفون ، عند استدعائهم ، إلى قصر الإله جوبتر ، وكذلك كانت تفعل تلك الآلهة التى تسكن الأرض أو الماء أو تحت الأرض ، وكانت تقام المآدب كل يوم للآلهة فى بهو سراى الملك الأوليمبى ، حيث يتناولون طعام الآلهة (Ambrosia) ويحتسون شرابهم (Nectar) الذى كانت الإلاهة الجميلة هيبا (Hebe) تقوم بتقديمه إليهم ، وهم يتسامرون ويبسطون فى أحاديثهم عن شئون السماء والأرض ، وعندما كانوا يعبون شراب النكتار كان أبوللو ، إله الموسيقى يشنف آذانهم بأنغام قيثارته ، التى ترددها ، بصوتها الشجى ، إلاهات الشعر والرقص التسع (Muses) ، وعند مغيب الشمس كانت الآلهة تبكر راجعة إلى مواطنها كى تنام .

وستريك الأبيات التالية المقتطفة من الأوديسا (Odyssey) كيف كانت صورة الأوليمبوس فى خيال هوميروس :

وعند هذا القول نهضت مينرفا . الإلاهة ذات العيون اللازوردية ،
وصعدت إلى الأوليمبوس ، العرش الخالد الذائع الصيت ،
الذى تستوى عليه الآلهة ، والذى لا تعصف به الزوابع ،
ولا تغمره هواطل الأمطار ، أو تقتحم مباءته الثلوج ،
بل يشمله ، على فرط سعته ، السكون ، ويسطع نهاره فلا تشوبه غيوم ،
هناك يبتهج سكان السماء ويتهللون إلى الأبد .

كاوبر (cowper)

كانت مينرفا وإلاهات الرشاقة الثلاث (Graces) يقمن بغزل أردية الإلاهات

وغيرها من قطع ملابسهن ، وكان كل شيء صلب يتكون من مختلف المعادن ، وكان الإله فولكان (Vulcan) مهندساً معمارياً وحداداً وصانع أسلحة وعجلات حربية كما كان يقوم فى الأوليمبوس بكل الأعمال التى تستدعى مهارة فنية ، وقد بنى منازل الآلهة من النحاس الأصفر ، وصنع لهم الأحذية الذهبية التى كانوا يطئون بها الهواء والماء ، وينتقلون من مكان لآخر بسرعة الريح بل وبسرعة الفكر ، وصنع من النحاس الأصفر أحذية لخيول السماء المطهمة ، التى كانت تجرّ بعجلات الآلهة الحربية خلال الهواء أو فوق سطح البحر ، وكان قادراً على أن يمد مصنوعاته بالحركة الذاتية حتى لقد كان فى استطاعة الحوامل (كالمقاعد والمناضد) أن تتحرك بذاتها داخل بهو الآلهة وخارجه ، بل لقد وهب الإدراك للجوارى الذهبية التى صنعها للقيام بخدمته .

وعلى الرغم من أن جوبتر (Jupiter or Jove)أو زيوس(١) ــ Zeus ــ كان ينعت بأب الآلهة والبشر فهو نفسه كان مستحدثاً ، إذ كان زحل (Saturn) أو كرونوس ــ Cronos ــ أباه، وريا(Rhea)أو أوبس ــ Ops ــ أمه، وكان زحل وريا من سلالة الشياطين (Titans) وهم ذرية الأرض والسماء ، اللتان انبثقتا من خاؤس (Chaos) الذى سنسترسل فى الحديث عنه بالفصل التالى من هذا الكتاب .

وهناك نظرية أخرى فى نشوء الوجود ، أو قصة الخليقة ، تنص على أن الأرض واريبوس الظلام (Erebus) والحب (Love) كانت أولى الكائنات ، فالحب ــ Eros ــ ايروس انبثق من بيضة الليل التى كانت تطفو فوق خاؤس ، ثم اخترق بسهامه وشملته جميع الأشياء وأعاد إليها الحراك ، مبتعثاً الحياة والابتهاج .

ولم يكن زحل وريا هما وحدهما من ذرية (Titans) ولكن كان معهما من الذكور

(١) الأسماء التى بين شرطتين يونانية ، أما ماعداها فهى إما أسماء رومانية وإما أسماء لاتينية . المؤلف

أوكانوس (Oceanus) وهيبريون (Hyperion) ويابتوس (Iapetus)وأوفيون (Ophion) ومن الإناث ثيميس (Themis) ومنيموسينا (Mnymosyne) ويورينوما (Eyrynome) ، وهؤلاء يعرفون بقدامي الآلهة الذين انتقل منهم السلطان فيما بعد إلى آخرين ، فزحل خضع لجوبتر وأوكانوس لنبتيون (Neptune) وهيبريون لأبوللو ، وكان هيبريون أب الشمس والقمر والفجر ، فهو لذلك إله الشمس الأصيل ، وكانت الصورة التي يرسمونها له يحفها البهاء والجمال اللذان خص بهما الإله أبوللو فيما بعد .

« خصلات هيبريون هي جبهة الإله (Jove) نفسه . »

شكسبير

وقد تولى أوفيون ويورينوما الحكم على الأوليمبوس حتى أسقطهما زحل وريا عن العرش ، ويلمع ملتن إليهما في « الفردوس المفقود » قائلا إنه يبدو أن الوثنيين كانوا على بعض العلم بغواية الإنسان وسقوطه .

وذكرت الأساطير كيف أن الثعبان المسمى أوفيون ،
وبصحبته يورينوما (لعلها حواء التي اشتهرت بخطيئتها ،)
حكما في مبدأ الأمر جبال الأوليمبوس العالية ،
ومنها طردهما الإله زحل .

ولم تكن الصور التي رسمت لزحل شديدة التطابق ، فقد تواتر من جانب أن حكمه كان العصر الذهبي للبراءة والنقاء ، بينما جاء وصفه من جانب آخر ، كتنين كان يلتهم صغاره (١) ، ولكن جوبتر نجا من هذا المصير ، وعندما اشتد

(١) برزعدم التطابق هذا من اعتبار زحل الروماني هو بالذات الإله اليوناني كرونوس — Cronos — بمعنى الزمن ، الذي يصح القول بأنه كان يلتهم صغاره . إذ هو الذي يأتي بنهاية جميع الاشياء عقب ابتدائها .
المؤلف

عوده زوج متيس (Metis) إلهة الحذر التى أعدت جرعة ما كاد زحل يكرعها حتى لفظ صغاره ، وآنئذ تمرد جوبتر وأشقاؤه وشقيقاته على والدهم زحل وإخوته التيتانس ، وقهرهم وسجن بعضهم فى الجحيم (Tartarus) ووقع على البعض الآخر عقوبات مختلفة ، وصدر الحكم على أطلس (Atlas) بأن يحمل السموات فوق كتفيه .

وعند ما نزع العرش من زحل تقاسم أملاكه جوبتر وشقيقاه نبتيون (NePtune) أو بوسيدون ـ Poseidon ـ وبلوتو (Pluto) أو ديس ـ Dis ـ وكانت السموات من نصيب جوبتر ، والمحيط من نصيب نبتيون ، أما بلوتو فقد استقل بمملكة الموتى ، وكانت الأرض والأوليمبوس ملكا مشاعا للجميع ، وكان جوبتر ملكا للآلهة والبشر ، وقد اتخذ الرعد سلاحا له ، كما حمل درعا سماه إيجيس (Aegis) صنعه له الإله فولكان ، وكان العقاب طائره الأثير الذى يحمل صواعقه .

وكانت يونو (Juno) أو هيرا ـ Hera ـ زوجة جوبتر وملكة الآلهة ، أما أيريس (Iris) ، إلاهة قوس قزح ، فكانت تابعها ورسولها ، وكان الطاووس طائرها المحبوب .

وكان فولكان أوهيفايستوس ـ HePhaestos ـ الفنان السماوى ، ابنا لجوبتر ويونو ، وقد ولد أعرج فاستاءت أمه عند رؤيته حتى إنها قذفت به خارج السماء ، وثمة روايات أخرى تذكر أن جوبتر ركله قصياً لتشيعه لأمه فى خصام شجر بينهما ، فكان عرج فولكان وفقاً لهذه الرواية ، نتيجة سقطته ، وظل ينحدر فى سقطته نهاراً كاملا ، وأخيراً هبط على جزيرة ليمنوس (Lemnos) التى أصبح يقدسها منذ ذلك العهد ، ويشير ملتن إلى هذه القصة فى (الفردوس المفقود) ، السفر الأول :

« من الصباح إلى الظهيرة راح ينحدر ،

ومن الظهيرة حتى المساء المشبع بالندى ،

نهـار صيف ، ومع غروب الشمس ،
هبط من أوج المجد ، كنجم ساقط ،
فوق ليمنوس ، الجزيرة الإيجيـة . »

وكان مارس (Mars) أو أريس ـ Ares ـ إله الحرب ابنا لجوبتر ويونو .

وكان فويبوس أبوللو (Phoebus Apollo) إله رمى السهام ، والنبوءة ، والموسيقى ، ابنا لجوبتر ولاتونا (Latona) وأخاً لديانا (Diana) أوـأرتميسـ ـ Artemis ـ وكان إلها للشمس ، بينما كانت أخته ديانا إلهة للقمر .

وكانت فينوس (Venus) أو أفروديتا ـ APhrodite ـ إلهة الحب والجمال ابنة جوبتر وديونا (Diona) ، ولـكن هناك من يذهب إلى أن فينوس برزت من زبد البحر ، وأن رياح الغرب دفعت بها مع الأمواج إلى جزيرة قبرص (CyPrus) ، حيث استقبلتها آلهة الفصول وكستها ثم قادتها إلى مجلس الآلهة ، ففتنتهم جميعاً بسحر جمالها ، حتى لقد طلب إليها كل منهم أن ترضى به بعلا ، وأخيراً وهبها جوبتر لفولـكان ، اعترافا بجميله عليه لما أسدى إليه من خدمة بطرقه وصناعته للصواعق ، وهكذا أصبحت أجمل الإلهات زوجة لأشد الآلهة بشاعة ، وكانت فينوس تملك منطقة موشاة تسمى كستوس (Cestus) كانت لها القدرة على ابتعاث الحب ، وكان البجع والحمام طيورها الأثيرة والورد والآس زهورها المقدسة .

وكان كيوبيد أو إيروس ـ Eros ـ إله الحب ، ابنا لفينوس ، وكان رفيقها الدائم ، وإذ كان مسلحاً بقوس وسهام كان يصمى صدور كل من الآلهة والبشر برماح الشهوة ، وكان هناك إله يدعى أنتيروس (Anteros) كان يصور أحيانا على أنه المنتقم للحب المنبوذ ، وأحياناً يكون رمزاً للعواطف المتبادلة ، وتروى عنه النادرة التالية :

عندما شكت فينوس إلى ثيميس أن ابنها ايروس ظل طفلا لم يشب عن الطوق قط ، أخبرتها أن سبب ذلك هو أنه كان وحيداً ، وأنه إذا رزق بشقيق لأصبحا فى النماء صنوان ، فولدانتيروس فى أعقاب ذلك ، وسرعان ما أخذ ايروس ينمو فى البدن والعنفوان .

وكانت مينرفا — بلاس Pallas ، أثينا Athene ، إلاهة الحكمة — ابنة لجوبتر بلا أم ، إذ انبثقت من رأسه فى سلاح كامل ، وكانت البومة طيرها المفضل والزيتون نباتها المقدس .

ويشير بيرون فى قصيدة « الشاب النبيل هارولد » Childe Harold إلى مولد مينرفا كما يلى :

« هل يقهر الطغاة سوى الطغاة ،
وهلا تجد الحرية نصيراً أو وليداً ،
كن وجدته كولومبيا عندما وثبت ،
مثل بلاس ، متسلحة غير مدنسة ؟
ألزام أن تتغذى مثل هذه العقول ،
فى الأرض العذراء بالغابة غير المشذبة ،
وسط هدير مياه الشلالات العالية ،
حيث يفتر ثغر الطبيعة الحانية
للطفل وشنجتون ؟ هل عقمت الأرض
عن أنسال مثل هذه الذرارى ،
أو حرمت أوربا من مثل هذا الشاطىء ؟ »

وكان عطارد (Mercury) أو هرمس _ Hermes _ ابنا لجوبتر ومايا (Maia) وكان يبسط سلطانه على التجارة والمصارعة وغيرها من شئون الرياضة البدنية ،

بل وعلى اللصوصية ، وبالجملة كل ما يحتاج إلى مهارة وبراعة ، وكان رسول جوبتر ، وكان يضع على رأسه قلنسوة مجنحة ، ويلبس فى قدميه أحذية مثلها ، وكان يحمل فى يده قضيباً تلتف حوله حيتان يسمى (القضيب) كادكيوس[1] (Caduceus) .

---

(١) من هذا الأصل المتصل بالآلة كثيرا ما يستخدم لفظ «صدفة» كرادف للفظ «قيثارة» وينصرف مجازاً للموسيقى والشعر ، ولهذا يقول جراى (Gray) فى أنشودته الشعرية « ازدهار الشعر » :

« ياملكة الروح الطائع ،
يا باعثة الأنغام الهادئة
أيتها الصدفة الساحرة ! هذه الهموم القائمة
والشهوات الصارمة تلبى حكمك الرقيق » .

ويقال إن عطارد هو الذى اخترع القيثارة ، إذ عثر يوما على سلحفاة ، نزع صدفتها ، وصنع ثقوبا فى حافتها المتقابلة ، ووضع بينها أوتاراً من الكتان ، وبهذا تمت صناعتها وكانت الأوتار تسعة تكريماً لعدد إلاهات الموسيقى والفن التسع ، وأعطى عطارد القيثارة لأبولو وتسلم منه عصاه فى مقابل ذلك (كادكيوس) .

وكانت كيريس (Ceres) أو ديميتر — Demeter — ابنة للإله زحل والإلاهة ريا ، وكانت لها ابنة تدعى بروسيربينا أو بيرسيفونا — Persephone — التى أصبحت زوجة لبلوتو وملكة على دولة الموتى ، وكانت كيريس تتولى الإشراف على الزراعة .

وكان باخوس أو ديونيسوس — Dionysus — إله الخمر ابنا لجوبتر وسيميلا (Semele) وهو لا يمثل قوة الخمر المسكرة بحسب إنما يشمل إلى جانب ذلك آثاره الاجتماعية والخيرية ، لذلك كانوا يعتبرونه منشئاً للحضارة ومانحاً للشرائع ومحباً للسلام .

وكانت إلاهات الفن والموسيقى بنات جوبتر ومنيموسينا أو الذاكرة _ Memory _ وكان سلطانهن يشمل الأغانى كما كن يتحكمن فى الذاكرة ، وكان عددهن تسعاً ، كما كان لكل منهن سلطان على نوع معين من الأدب أو الفن أو العلم ،وكانت كاليوبا (CallioPe) إلاهة للشعر الحماسى ،وكليو (Clio) للتاريخ، ويوتربا (EuterPe) للشعر الغنائى ، وملبومينا (MelPomene) للمأساة ، وتربسيخورا (TerPsichore) للرقص التوقيعى والأغانى ، وايراتو (Erato) لشعر الغزل ، وبوليهمنيا (Polyhymnia) للشعر الدينى ، ويورانيا(Urania)للفلك وثاليا (Thalia) للملهاة .

وكانت إلاهات الرشاقة الثلاث (Graces) يتسلطن على الولائم والرقص وكل متع اجتماعية وفنون رفيعة ، وكن ثلاث هن : يوفروسينا (EuPhrosyne)، وأجلايا (Aglaia)، وثاليا (Thalia).

ويصف سبنسر مهمة هذه الإلاهات فيما يلى :

هذه الثلاث يسبغن على البشر كل الهبات الكريمة ،
التى تزيد البدن أو تجلو النهية السليمة ،
لتضفى عليهما جمالا فاتناً يسر الناظرين ،
بالملاحة والسماحة ورقة القوم المجاملين ،
والانسجام الكريم وأواصر التعاطف المكين ،
وكل قواعد اللياقة والأدب الجم المتين ،
كذلك هن يعلمن لأى مدى وبأية صورة ،
يلزمنا نحن أنفسنا أن نتواضع للأصاغر والأعلين ،
وللصحاب والأعداء ،، هذا هو الأدب فى رأى الراشدين .

وكانت إلاهات الأقدار أيضاً ثلاث هن . كلوثو _ Clotho _ ولاخيسيس _ Lachesis _ وأتربوس _ AtroPos _ وكانت مهمتهن أن ينسجن خيوط مصير البشر

وكن متسلحات بعقصات ضخمة يصرمنه بها عندما يحلو لهن ، وهن بنات ثيميس (Themis) بمعنى الشريعة، التي كانت تجلس بجانب جوبيتر علىعرشه لتمحصه النصح.

وكانت الأرنييس(Erinnyes)أوالفيوريس(Furies)إلاهاتالغضبوالانتقام ثلاث إلاهات يلسعن بحماتهن الخفية أولئك الذين لم تطلهم العدالة العامة أو تحدوها، وكانت الأفاعى تلتف حول رءوس (الفيوريس) ، ومنظرهن العام بشع مخيف ، وكانت تطلق عليهن أسماء : السكتو (Alecto) وتيسيفونا (TisiPhone) وميجارا (Megaera) كما كن يعرفن باسم يومنيديس (Eumenides) .

وكانت نيمسيس (Nemesis) إلاهة منتقمة تمثل غضب الآلهة الحق ، خاصة نحو المتكبرين وأوشاب الناس .

وكان بان (Pan) إله القطعان والرعاة ، وكان موطنه الأثير فى أركاديا (Arcadia)

وكانت الساتورس (Satyrs) آلهة الغابات والحقول ، وكانت الفكرة السائدة أنهم مغطون بشعر كالشوك ، وتزين رءوسهم قرون بارزة قصيرة ، ولهم أقدام كحوافر المعيز .

وكان موموس (Momus) إله الضحك ، وبلوتوس (Plutus) إله الثروة .

آلهة رومانية

السابقون آلهة اليونانيين ، وإن كان الرومانيون أيضاً قد دانوا لهم وعبدوهم ، أمامن يلي ذكرهم فقاصرون على علم الأساطير الرومانية .

فزحل كان إلهاً إيطالياً حاولوا مطابقته بالإله اليونانى كرونوس ، وذهبت الأساطير إلى أنه فر إلي إيطاليا بعد أن أسقطه جوبتر عن العرش ، وهناك استتب له الحكم حقبة من الزمن نعتوها بالعصر الذهبي ، وتذكاراً لحكمه الموسوم

بالجود كانت وليمة سترناليا (Saturnalia) تقام كل عام فى فصل الشتاء ، ومن ثم كانت تتعطل كل الأعمال العامة ، وتؤجل قرارات الحرب والأحكام الجنائية ، ويقدم الأصدقاء الهدايا بعضهم لبعض، والعبيد يستمتعون بحريات كبيرة ، فكانت تقام لهم وليمة كبيرة يجلسون خلالها إلى مائدة ، بينما يقوم سادتهم على خدمتهم ، لإظهار المساواة الطبيعية بين الناس ، وإن جميع الأشياء تخص الجميع دون تفريق ، فى مملكة الإله زحل .

وكان فاونوس (Faunus) (٠) ، حفيد زحل ، يعبد باعتباره إله الحقول والرعاة ، وكان اسمه فى الجمع يطلق على طائفة من الآلهة العابثين ، مثل الساتوروى عند اليونانيين .

وكان كويرينوس إله الحرب ، وقيل إنه لم يكن سوى روميلوس(Romulus) مؤسس روما ، أنعم عليه بعد موته ورفع إلى مصاف الآلهة .

بللونا (Bellona) إلاهة حرب .

ترمينوس (Terminus) إله التخوم كان تمثاله حجراً غشيماً أو نصباً غير موشى ، مقاماً فى الأرض غير المزروعة لتوضيح الحدود التى تفصلها عن الحقول .

باليس (Pales) الإلاهة التى تبسط سلطانها على المواشى والمراعى .

بومونا (Pomona) تبسط سلطانها على أشجار الفواكه .

فلورا (Flora) إلاهة الزهور .

لوكينا (Lucina) إلاهة الوضع .

فستا (Vesta) — هستيا Hestia عند اليونان — كانت الإلاهة التى تبسط سلطانها على المواقد العامة والخاصة ، وكانت توقد فى معبدها نار مقدسة تشرف عليها ست كاهنات عذارى يحملن اسمها ، ولما كانت سلامة المدينة

---

(٠) وأيضاً كانت هناك الإلهة التى تدعى (Fauna) أو بونا ديا (Bona Dea) .

متعلقة بالمحافظة عليها ، كما يتوهمون ، فإن إهمال العذارى ، إذا هن تسببن في إطفائها ، كن يعاقبن في صرامة ، ويعاد إشعال النار من أشعة الشمس :

لـيبر (Liber) هو الاسم اللاتيني لباخوس ، وملـكيبر (Mulciber) لفولـكان .

وكان يانوس (Janus) حاجب السماء ، فيفتتح العـام ومنه أخذ أول شهر اسمه ، وهو الإله حارس الأبواب ، ولهذا يمثل عادة برأسين ، إذ يبدو لـكل باب مسلـكان ، وكانت له معابد متعددة في روما ، وفي زمن الحرب كـانت أبواب المعبد الرئيسي مفتوحة دائماً ، أما في وقت السلام فـكانت تغلق ، ولـكنها لم تغلق سوى مرة واحدة بين حـكم كل من نوما (Numa) وأغسطس (Augustus) .

وكـانوا يعتقدون أن بيناتيس (Penates) هم الآلهه الذين يشرفون على شئون الرخاء والأسرة ، واشتق اسمهم من بينوس (Penus) بمعـنى مخزن المؤن الذي كـانوا يقدسونه ، وكان رب كل أسرة هو كاهن آلهة البيناتيس لمـنزله الخـاص .

ولاريس (Lares) أو لارس (Lars) كانت أيضاً آلهة منزلية ، ولـكنهم كانوا يختلفون عن بيناتيس في أنهم يمثلون أرواح البشر بعد رفعها إلى مصاف الآلهة ، وكان المعتقد أن أسرة لارس هم أرواح الأسلاف الذين يحرسون ويحمون ذراريهم ، وأن لفظي ليمور ولارفا يطابقان إلى حد كـبير لفظ الشبح (Ghost) عندنا .

وكـان الرومانيون يعتقدون أن لـكل رجل جنيوس (Genius) ولـكل امرأة يونو (Juno) ، وكل منها روح تمنـح صاحبها الوجود وتحميه خلال حياته ، وفي أعياد الميلاد كان الرجال يقدمون القرابين لجنيوس ، والنساء ليونو .

ويشير شاعر حديث إلى بعض الآلهة الرومانية كما يلي :

« تحب بومونا بستان الفواكه ،
أما ليبر فيحب الكرمة ،
وتحب باليس مذود القش ؛
الذى تدفئه أنفاس الأبقار ؛
وتحب فينوس همسات
الشباب والعذارى عند التلاق ،
فى ضوء قمر إبريل العاجى ،
تحت الظل الكستنائى . »

ماكولى — « نبوءة كابيس »

الفصل الثانى

بروميثوس وباندورا

إن خلق العالم مشكلة تثير بطبيعتها أقوى ضروب الاهتمام عند الإنسان الذى يسكنها ، إذ لم يكن لدى الوثنيين القدماء تلك المعلومات التى جاءت بالكتاب المقدس عن هذا الموضوع ، فقد لجأوا لروايته بطريقتهم الخاصة ، وجاءت هذه الرواية كما يلى :

قبل أن تخلق الأرض والبحر والسماء ، كانت جميع الأشياء ذات هيئة واحدة نطلق عليها اسم العمه أو خاؤس (Chaos) ... كتلة مشوشة لا شكل لها ، لا تزيد على أن تكون ثقلا خامداً ، ولكن تكمن فيه بذور الأشياء ... وكانت الأرض والبحر والهواء مختلطة جميعها بعضها ببعض، هكذا لم تكن الأرض صلبة ، أو البحر سائلا ، أو الهواء شفافاً ، وأخيراً تدخل الله والطبيعة وقضيا على هذا التنافر بفصلهما الأرض عن البحر والسماء عن كليهما ، وإذ كان القسم النارى منها أخفها جميعاً فقد انبثق مرتفعاً ، مكونا السموات ، وتلاه الهواء من حيث الوزن والمكان ، وإذ كانت الأرض أثقل منه فقد غاصت متدلية ، وانحدر الماء مستقراً فى أكثر الأمكنة انخفاضاً حيث جعل حدوداً بينه وبين اليابس من الأرض .

وهنا انبرى أحد الآلهة — غير معروف من هو — للقيام بمهمته النبيلة فى تنظيم الأرض وتهيئتها ، فحدد للأنهار والخلجان أماكنها ، ورفع الجبال ، ومهد الوديان ، ووزع الغابات والينابيع والحقول الخصيبة والأراضى المنبسطة المتحجرة، وعندما صفا الهواء أخذت النجوم فى الظهور ، واحتلت الأسماك أعماق البحر ،

والطيور أجواز الفضاء ، أما الحيوانات ذوات الأربع فقــــد انتشرت فوق سطح الأرض .

ولـكن ظهرت الحاجة إلى حيوان أسمى فتم صنع الإنسان ، وغير معلوم ما إذا كان الخالق قد صنعه من مواد إلهية ، أو أن الأرض ، وهى حديثة عهد بانفصالها من السماء كان لايزال عالقاً بها بعض البذور السماوية ، فأخذ بروميثيوس بعضاً من تراب هذه الأرض ، وعجنه بالمـاء ، وصنع الإنسان على صورة الآلهة، وأعطاه قامة منتصبة ، ولذلك فبينما تحنى جميع الحيوانات الأخرى وجوهها إلى أسفل متطلعة صوب الأرض ، فهو يرفع رأسه نحو السماء ويرنو إلى النجوم .

وكان بروميثيوس أحد التيتانيين (Titans) وهم فصيلة من العمالقة سكنوا الأرض قبل خلق الإنسان ، وقد أسند إليه وإلى شقيقه ابيمثيوس (Epimetheus) مهمة صنع الإنسان ، وإمداده مع جميع الحيوانات الأخرى بالمواهب اللازمة للمحافظة عليها ، فتعهد ابيمثيوس أن يقوم بهذا ، وعهد إلى بروميثيوس أن يشرف على عمله عند الانتهاء منه ، وراح ابيمثيوس ، تبعاً لهذا ، يمنح الحيوانات المختلفة ، شتى العطايا من بسالة وقوة وسرعة وفطنة ، وأجنحة لواحد ومخالب لآخر ووقاء من الصدف لثالث وهكذا دواليك ؛ ولـكن عندما جاء دور إمداد الإنسان ، وهو المزمع أن يسود جميع الحيوانات الأخرى ، كانت موارد ابيمثيوس قد نفدت جميعها ، فلم يجد ما يمنحه إياه ، وفى غمرة من الارتباك خف يلتمس العون من شقيقه بروميثيوس الذى صعد ، بمعاونة مينرفا ، إلى السماء ، وأوقد شعلته من عجلة الشمس الحربية ، وأحضر النار للإنسان ، الذى أصبح بهذه العطية أكبر من ند لجميع الحيوانات ، فبها استطاع أن يصنع أسلحة يخضعهم بها لسلطانه ، وآلات يزرع بها الأرض ، ويدفىء بها مسكنه ، وبهذا يتحرر نسبياً من تأثير المناخ ؛ وأخيراً يستخدم الفنون ويسك النقود ، وهى وسيلة التعامل والمتاجرة .

ولم تـكن المرأة قد صنعت بعد ، وتذهب الرواية (وهى سخيفة حقاً !

إلى أن جوبتر صنعها ، وأرسلها إلى بروميثيوس وشقيقه ، لمعاقبتهما على تدبيرهما سرقة النار من السماء ، ومعاقبة الإنسان لقبوله العطية ، وكانت أول امرأة تدعى باندورا ، وصنعت فى السماء ، فاختصها كل إله بسبب من أسباب الكمال ، فنحتها فينوس الجمال ، ومنحها المشترى الإغراء ، وابوللو الموسيقى ، وهكذا دواليك ، وحين تم تأهيلها على هذه الصورة ، نقلت إلي الأرض ، وأهديت لا بيمثيوس ، الذى تقبلها فى ابتهاج،على الرغم من تحذير شقيقه له كي يحترس من جوبتر وعطاياه وكان لا بيمثيوس فى منزله جرة يحتفظ فيها بطائفة من الأشياء الضارة التى أغفل استخدامها كى يهيء الإنسان لموطنه الجديد ، واستولت على باندورا رغبة ملحاحة لاستطلاع ما تحويه هذه الجرة ، وفى أحد الأيام كشفت الغطاء خلسة وتطلعت داخلها ، فخرج مندفع ، يلتمس الفرار ، عدد كبير من الأوبئة للإنسان المنكود الطالع — مثل النقرس داء الملوك والمغص مما يصيب بدنه ، والحسد والحقد والأخذ بالثأر مما يصيب ذهنه — انتشرت هذه الأوبئة على أوسع نطاق ، فحاولت باندورا أن تعيد الغطاء إلى مكانه ! ولكن وا أسفاه ! فجميع محتويات الجرة كانت قد لاذت بالفرار،ولم يستثن من ذلك سوى شيء واحد ، ظل بالقاع ، وهو الأمل ، ولذلك نرى فى الوقت الحاضر أنه مهما أحاطت بنا الشرور ، فمحال أن يفارقنا الرجاء تماما ، ومادمنا معتصمين به ، فلن تقوى الأهوال مهما عظمت على أن تملأنا بالتعاسة والشقاء .

وهناك رواية أخرى تقول إن جوبتر أرسل باندورا ، فى إخلاص ، ليسعد بها الإنسان ، وكانت تحتفظ بصندوق يحوى هدايا زواجها ، وكان كل إله قد أودع فيه إحدى بركاته ، ففتحت الصندوق دون احتراس وفرت البركات جميعها ما عدا الأمل ، وتبدو هـذه القصة أكثر احتمالا من سابقتها ، إذ كيف تيسر الاحتفاظ بالأمل ، تلك الجوهرة الثمينة ، فى جرة مليئة بكل صنوف الشر ، كما ذكرت الرواية الأولى ؟

وإذ عمر السكان العالم على هذا النحو ، كان أول عصوره عصر براءة وسعادة لذلك سمى بالعصر الذهبي ، فاستتب الصدق والحق دون إكراه من القانون أو وجود قاض يهدد أو يعاقب ، ولم تكن الغابات قد تعرت من أشجارها قسراً لتوفير الخشب لبناء السفن ، كما أن الناس لم يكونوا قد أقاموا الحصون حول مدنهم ولم يكن للعالم عهد بالسيوف والحراب والخوذات أو ما يماثلها ، وكانت الأرض تنبت للانسان كل شيء يحتاجه دون أن يشق فى حرثها أو بذارها ، وساد الوجود ربيع دائم ، برزت فيه الأزهار دون بذار، وفاضت فيه الأنهار لبناً وسلافة، وقطرت فيه أشجار البلوط شهداً أصفر مصفى .

وفى أعقاب ذلك جاء العصر الفضي ، وهو أقل مرتبة من العصر الذهبي ، ولكنه أفضل من عصر النحاس الأصفر ، فاختزل جوبتر الربيع، وقسم السنة إلى فصول ، عندئذ اضطر البشر فى مبدأ الأمر لتحمل زمهرير البرد وقيظ الحر ، فأصبحت المساكن ضرورية لا غنى عنها ، وكانت الكهوف هى المساكن الأولى وكذلك العرش من الأغصان وأوراق الأشجار فى الغابات، والأكواخ المصنوعة من غصون الأشجار ، ولم تعد المحاصيل تنمو دون زراعة ، واضطر الفلاح أن يبذر الحبوب ، والثور الدارس أن يجر المحراث .

وجاء العصر النحاسى عقب ذلك ، وكان أشد حدة فى الطبع ، وأكثر استعداداً للنزال المسلح ، ولكنه لم يكن قد تفاقم شره ، وكان العصر الحديدى أشق العصور وأسوأها ، فطغت الجريمة كالطوفان ، واختفى التواضع والصدق والشرف وأحل مكانها الخداع والمكر والضعف والرغبة المسفة فى الربح القبيح ، وأراد البحارة أن يمخروا عباب البحر فانتزعوا الأشجار من الجبال لاستخدامها قواعد للسفن ، يذرعون بها سطح المحيط ، وابتدأ الناس يقسمون الأرض ويتملكونها ، بعد أن كانوا يزرعونها مشاعاً بينهم ، كما أنهم لم يعودوا يقنعون بما ينتجه سطح الأرض ، فراحوا يشقون أحشاءها وينتزعون منها خامات المعادن ، فاستخرجوا

الحديد سبب البلاء ، والذهب الذى بزه فى ذلك ، فبرزت الحرب واستخدمت كلا من الاثنين سلاحاً لها ، فأصبح الضيف غير آمن وهو فى بيت صديقه ، ولم يعد فى استطاعة الأصهار من أبناء وآباء ، أو الأشقاء والشقيقات ، أو الأزواج والزوجات ، أن يثقوا أحدهما بالآخر ، وتمنى الأبناء موت الآباء ، حتى يستولوا على الميراث ، وفتر الحب العائلى بل ذهب أدراج الرياح ، واستحر القتل حتى تخضبت الأرض بالدماء ، فهجرتها الآلهة ، واحد إثر الآخر ، حتى لم تبق سوى أستريا (Astraea) [1] بمفردها . وأخيراً رحلت هى الأخرى .

وعندما رأى جوبتر ما وصلت إليه الحال اشتعل غيظاً ، ثم دعا الآلهة لعقد جلسة ، فلبوا الدعوة وأخذوا طريقهم إلى قصر السماء ، وهو الطريق الذى يستطيع أى شخص أن يراه فى الليلة الصافية ، ممتداً عبر صفحة السماء ، ويدعى طريق الحليب (The Milky Way) ، حيث تصطف قصور الآلهة البارزين على امتداده ، أما العامة من سكان السماء فيقطنون على الجانبين بعيداً عن هذه القصور . خاطب جوبتر المجتمعين باسطاً ما وصلت إليه الحال على الأرض من البشاعة ، ثم ختم مصرحاً بعزمه على تدمير جميع سكانها ، وإقامة سلالة جديدة ، تختلف عن الأولى ، تكون جديرة بالحياة ، وأصدق عبادة للآلهة ، وعندما قال هذا تناول صاعقة ،

---

(١) هى إلاهة البراءة والنقاء ، وقد احتلت ، بعد رحيلها عن الأرض ، مكاناً بين النجوم حيث أصبحت مجموعة نجوم فيرجو (Virgo) — العذراء (Virgin) — وكانت ثيميس (العدالة) هى أم استريا ، وهى تظهر فى الصورة رافعة ميزاناً ذا كفتين ، تزن فيهما مطالب الأحزاب المتعارضة . وجاء الشعراء القدماء بفكرة مستحبة عن عودة هذه الآلهة الإناث يوماً ، وإرجاعهن للعصر الذهبي ، وطرأت هذه الفكرة على ذهن بوب (Pope) فى الترنيمة المسيحية التى نظمها بعنوان المسيح (Messiah) :

ستتوقف كل الجرائم ، والخداع القديم تنكسر شوكته ،
فتعود العدالة رافعة ميزانها عاليا ،
ويحل السلام على العالم ويرتفع غصن الزيتون ،
وتنزل البراءة فى ثوبها الأبيض ، من السماء .

طالع أيضاً قصيدة « ترنيمة ميلاد المسيح » الفقرتين ١٤ و ١٥ .

وكان على وشك أن يقذف بها العالم ، ويقضى عليه حرقاً ، ولكنه عندما تذكر ماقد ينجم عنه هذا الحريق من إشعال النار فى السماء نفسها ، عدل عن هذه الخطة وعقد العزم على إغراقها ، فقيد ريح الشمال ، التى تسوق السحب وتنشرها ، بالأغلال ، ثم أطلق ريح الجنوب التى سرعان ما غطت وجه السماء بنقاب حالك السواد ، وإذ تجمعت السحب فى عنف شديد وتصادمت مدوية ، هطلت الأمطار فى سيول عارمة، فتلاشت المحاصيل حتى إن نتاج الفلاح المجد فى عام كامل كان يدمر فى ساعة واحدة ، وإذ لم يكتف جوبتر بمياهه ، طلب إلى أخيه نبتيون أن يسعفه بمياهه ، فأطلق الأنهار من عقالها ، وجعلها تدفق فوق سطح الأرض ، وفى نفس الوقت هز الأرض فزلزلت زلزالها ، وألقت أثقالها ، وغمرت المحيطات شواطئها ، فجرفت المياه قطعان الماشية والأغنام والبشر والمنازل أجمعين، وتدنست المعابد بساحاتها المقدسة ، وإذا صمد بناء انقلب رأساً على عقب ، واختفت قبابه تحت الأمواج ، والآن استحال كل شىء إلى بحر بغير ساحل ، وهنا وهناك كان لا يزال أحد الأفراد متعلقاً بقمة تل بارزة ، كما أن قليلين كانوا يجدفون بقواربهم ، فوق الأرض التى طالما حرثوها ، وراحت الأسماك تسبح بين قمم الأشجار ، ومرساة السفينة تستقر فى بستان ، وحيث كانت الحملان الوديعة تلعب أخذت تجول البحر الغليظة تسرح وتمرح ، وكان الذئب يسبح مع الخراف، والأسود والسباع الصفراء تصارع الماء ، والخنزير البرى لم تجده قوته فتيلا ، والغزال لم يفد من سرعته ، وأخذت الطيور تتساقط فى الماء مجهدة مهيضة الجناح إذ لم تجد أرضاً تأوى إليها ، أما الأحياء الذين نجوا من الماء فقد سقطوا فريسة للجوع والمسغبة .

ولم تعل الأمواج من بين الجبال جميعها سوى جبل برناسوس (Parnasus) وحده ، وهناك وجد ديوكاليون (Deucalion) وزوجته بيرا (Pyrrha) من سلالة بروميثيوس، ملاذاً — كان الرجل أميناً والمرأة صادقة فى عبادتها للآلهة — وعندما وجد جوبتر أنه لم يبق على قيد الحياة سوى هذين الزوجين ، وعندما استعاد

لذا كرته حياتهما المرأة من الأذى وسيرتهما التقية ، أمر الرياح الشمالية فأزاحت السحب، وأزالت الحجب فيما بين السماء والأرض ، وطلب نبتيون إلي تريتون (Triton) أن يوقع على صدفته أنغاما يحث فيها الحياة على الارتداد ، فأطاعت المياه وارتد البحر إلى شواطئه ، والأنهار إلى مجاريها ، عندئذ خاطب ديوكاليون زوجته بيرا قائلا . « أى زوجتى ! المرأة الوحيدة الباقية على قيد الحياة ، التى ارتبطت بى أولا بصلات القرابة والزواج ، ويربطنى بها الآن خطر مشترك ، ليتنا نملك ما كان لسلفنا بروميثيوس من سلطان ، فنستطيع أن نحيى السلالة كما فعل فى مبدأ الأمر ، ولكننا إذا كنا عاجزين ، فهلم بنـــا نقصد ذلك المعبد القريب ، ونسأل الآلهة عما بقى علينا أن نؤديه ». فدخلا المعبد على الرغم من تهدمه وتشويهه ثم دانيا إلى المذبح ، حيث لم تكن ثمة نيران مشتعلة، وهنا خرا ساقطين على الأرض وابتهلا إلى الالاهة كي تنبئهما كيف يستطيعان أن يصلحا شئونهما التعسة، فأجابتهما النبية بقولها .. « غادرا المعبد برأس محجبة ، وإزار غير مثبت ، وألقيا خلفكما عظام أمكما » ... فأنصتا للكلمات وقد أخذتهما الدهشة ، وكانت بيرا أول من قطعت حبل الصمت . « لا نستطيع أن نطيع ، فنحن لا نجرؤ أن ندنس رفات والدينا » ... ثم استكنا إلى أعماق أدغال الغابة ، حيث راحا يتدبران معنى النبوءة على مهل؟ وأخيراً قال ديوكاليون « أما أن الفطنة تعوزنى ، أو أن هذا الأمر الصادر إلينا لن يلجئنا تنفيذه إلى الزندقة ، فالأرض هى أم الجميع العظيمة ، والأحجار عظامها ، وهذه يصح أن نلقى بها خلفنا ، وأكبر ظنى أن هذا هو معنى النبوءة ، وعلى الأقل ليس ثمة ضير فى أن نحاول » . فحجبا وجهيهما ، وحلا إزاريهما ، والتقطا أحجاراً قذفا بها خلفهما ، فأخذت الأحجار (وهذه رواية عجيبة) تلين وتتشكل ، وشيئاً فشيئاً استوت فى صور خشنة تماثل هيئة البشر كما لو كانت تمثالا بين يدى نحات لم يتم صنعه ، وتحولت الرطوبة والمادة الغروية التى كانت عالقة بهذه الأحجار إلى لحم ، والجزء الحجرى إلى عظام ، وظلت العروق عروقا ، واحتفظت باسمها (Veins) ولم تغير سوى وظيفتها ، والأحجار التى قذفت بهـا

يد الرجل أصبحت رجالا ، وتلك التى قذفت بها يد المرأة أصبحت نساء ، فكانت سلالة شديدة المراس ، مهيأة للعمل الشاق ، كما نجد أنفسنا حالياً ، مدللين بطبائعنا على حقيقة أصلنا .

والشبه بين حواء وباندورا واضح إلى حد لم يفت ملتن الذى يضمنه السفر الرابع من « الفردوس المفقود » .

أجمل من باندورا التى اختصتها الآلهة
بكل عطاياها ، فأوقعت الجنس البشرى ،
بحسن منظرها ، فى حادث الشجن ،
يتعلق بأقل ابنى يافث وهرميس حجا ،
كى تثأر ممن سرق النار من المشترى .

* * *

وكان بروميثيوس وابيميثيوس ابنى يابيتوس (JaPetus) ، الذى غير ملتن اسمه إلى يافث .

وأصبح بروميثيوس موضوعاً محبباً إلى نفس الشعراء ، فيصورونه كصديق للبشر توسط للدفاع عنهم عندما حل عليهم سخط الإله المشترى ، ثم علمهم الحضارة والفنون ، ولكنه إذ جاوز بعمله هذا إرادة جوبتر باء بغضب حاكم الآلهة والبشر فقيده جوبتر مصفداً إلى صخرة على الجبل القوقاز (Caucasus) ، حيث سلط عليه نسر يتغذى على كبده ، فإذا ما تم التهامه تجدد له كبد أخرى ، وكان فى استطاعة بروميثيوس أن يضع حداً لهذا العذاب فى أى وقت يشاء ، لو أنه رضى أن يخضع لظالمه ، فهو يحتفظ بسر يساعد على استقرار عرش المشترى ، إذا أذاعه فأكبر الظن أنه ينال الحظوة فوراً ، ولكنه استنكف أن يفعل ذلك ، وبهذا أصبح رمزاً لاحتمال عظماء النفوس للعذاب الجائر ، ومثلا عاليا لقوة الإرادة التى تصمد لظلم الطغاة الظالمين .

وعالج كل من بيرون وشلي هذا الموضوع ، وفيما يلي أبيات من شعر بيرون:

«أي تيتان! يامن لعينيه الخالدتين
تجلى عذاب البشرية الواهنة ،
على حقيقته الصارخة بأهوالها ،
فالعذاب لا تستصغره الآلهة .
ولكن ماذا كان جزاء حنانك ؟
عناء صامت شديد ؛
الصخرة والنسر وأصفاد الحديد ،
وهي كل ما يحمل الجبابرة يتعذبون ؛
ولكنهم عن آلامهم لا يفصحون ،
بل لإحساس الكروب يكبتون .

* * *

حنانك هو جريمتك الربانية ؛
شئت أن تخفف بشرائعك السماوية
شدة تعاسة وشقاء البشرية ،
وأن تدعم الإنسان بتقوية ذهنه
وعلى الرغم من إحباط الآلهة لمسعاك ،
ففي نشاطك الدءوب الصابر
وفي الصمود والقمع القاهر
المتسمة بهما روحك الراسخة ،
التي لم تستطع السماء والأرض
زحزحتها ، درس رائع ورثناه.»

* * *

ويستخدم بيرون نفس الاشارة أيضـــافى قصيدته « أ نشودة لنابوليون بونابرت » .

« أو هل كسارق النارمن السماء
ستصمد للهزة الفـــاجعة ؟
وتشاركه — غير المغفور له —
نسره وصخرته ؟ »

الفصل الثالث

أبوللو ودافنا — بيراموس وثسبا — كيفالوس وبروكريس

كانت المادة الغروية التي جاءت بها مياه الطوفان فغطت سطح الأرض سبباً في خصوبتها المفرطة ، التي أبرزت للوجود شتى ضروب النتاج ، رديئة وجيدة ، وانسل ضمن هذا النتاج ، بيثون (Python) ، وهو ثعبان هائل ، ملأ قلوب الناس رعباً ، واندس في كهوف جبل برناسوس ، فقضى عليه أبوللو بسهامه — وهي أسلحة لم يسبق له استخدامها سوى في صيد الحيوانات الضعيفة والأرانب والماعز البرى ومثلها من حيوان الصيد — وتذكاراً لهذا النصر الرائع أنشأ الألعاب البيثنية ، حيث كان الفائز في مباريات القوى ، وسرعة العدو ، وسباق المركبات الحربية يتوج بإكليل من أوراق أشجار الزان ، إذ لم يكن أبوللو قد اختار بعد شجرة الغار واختصها لنفسه .

ويمثل تمثال أبوللو الشهير المسمى بلفيدير (Belvedere) الإله بعد أن أحرز هذا النصر على الثعبان بيثون ، وإلى هذا يشير بايرون في قصيدة « الشاب النبيل هارولد » ٤ — ١٦١ .

باري القوس الذي لا يريش ،
رب الحياة والشعر والنور ،
الشمس التي تجلت في أعضاء بشرية ،
وجبهة سطعت بنصرة القتال .
انطلق السهم ، السهم المتلألىء بالنقمة الأبدية ،

وشع فى عينيه كما نفث من أنفـــه ،
ترفـــع جميل ، وقـــوة ، ومهـــابة ،
وهى تومض بروقها فى أتم روعتهـــا ،
بإبرازها الربوبية فى هذه النظرة الواحدة.

أبوللو ودافنـــا

كانت دافنا أول حب لابوللو، ولم يقع هذا الحب مصادفة، ولكن كيوبيد أراد أن يشفي به غليله ، فقد شاهد أبوللو الصبي وهو يلعب بقوسه وسهامه، وإذ كـــان آنئذ يتيه عجباً بانتصاره الحديث على بيثون ، قال له : « ما شأنك بأسلحة الحروب ، أيها الغلام الوقح ؟ اتركها للأيدى الجديرة بها ، تأمل النصر الذى أحرزته بوساطتها على الثعبان الهائل الذى بسط جسمه السام على أفدنة كـــاملة من السهل ! اقنع أيها الصغير بشعلتك ، وأوقد لهبك ، كما تسميها ، حيث تشاء ، ولـــكن إياك أن تفـــكر فى التطفل على أسلحتى .» فأجاب ابن فينوس عند سماعه هذه الـــكلمات قائلا : « قد تصيب سهامك يا ابوللو جميع الأشياء ، ولـــكن سهامى ستصيبك . » وعندما قال هذ اعتلى صخرة فوق جبل برناسوس ، والتقط من جعبته سهمين مختلفى الصنعة أحدهما لإثارة الحب، والآخر لصده ، وكـــان الأول من الذهب محدد السنان، أما الثانى فـــكان ذا سنان مثلوم من الرصاص ، وبالسهم الرصاص قذف حورية البحر دافنا ، ابنه إله النهر بنيوس (Peneus)، وبالذهبي أصاب ابوللو فى قلبه ، فـــكان أن استولى حب الحورية على لب الاله ، فى حين أنها أصبحت تنفر من فـــكرة الحب نفوراً شديداً ، وكـــانت متعتها قاصرة على ما تهيؤه لها الغابة من ضروب الرياضة البدنية ، وما تحصل عليه من الصيد والقنص، وكم من صب مدنف حاول التودد إليها واكـــتساب رضاها فـــكانت ترده فى ازدراء ،

ثم تروح تذرع الغابات ، دون أن توجه أدنى التفات إلى كيوبيد أو هيمن (Hymen) إله الزواج وكثيراً ما كان والدها يقول لها : « يا بنتى ، أنت مدينة لى بزوج ، أنت مدينة لي بأحفاد » إذ كانت تكره فكرة الزواج كما لو كانت إحدى الكبائر ، كانت تلقى بذراعيها حول عنق والدها ، وقد خضبت حمرة الخجل وجهها بأكمله ، ثم تقول : « أطلب إليك ياوالدى العزيز أن تسدى إلى جميلا فتسمح لى بأن أبقى دائماً دون زواج ، مثل ديانا » ... فاستجاب لطلبها ولكنه فى الوقت نفسه راح يقول :« إن وجهك ذاته لن يسمح بهذا . »

فأحبها أبوللو واشتهى أن يحظى بها ، وهذا الذى كان يهبط بالوحى ويكشف الغيب للعالم بأسره ، لم يكن حكيماً فيستشف ما خبأه له القدر ، لقد رأى شعرها مهدلا فوق كتفيها فقال : « إن كان بمثل هذه الفتنة وهو مهدل ، فماذا يكون حاله وهو معقوص منسق ؟ »... ورأى عينيها تلمعان كالنجوم ، ورأى شفتيها ولم يقنع بمجرد رؤيتها ، وأعجب بكفيها وذراعيها ، العاريين حتى المنكبين ، أما ما خفى عن الرؤية فقد صوره له الخيال فى أجمل تكوين ، فتبعها ، ففرت منه وهى تسابق الريح ، ولم تبطىء لحظة واحدة تنصت فيها إليه وهو يبثها لواعج قلبه قائلا : « قفى يابنة بنيوس ، لست عدواً ، لا تفرى من أمامى كما لو كنت حملا يفر من الذئب ، أو حمامة تطير من وجه الصقر ، إنى أتبعك حباً فيك ، إنك تشقيننى إذ أخشى أن تقعى فتصيبك الأحجار بالأذى ، وأكون سبباً فى إيذائك ، استحلفك أن تبطئى فى عدوك ، وسأبطىء فى متابعتك ، أنا لست إمعة أوجلفاً لجوبتر أبى ، وأنا سيد دلفوس (Delphos) وتنيدوس (Tenedos) وأعلم كل الأشياء ، حاضرها ومستقبلها ، أنا رب الأغانى والقيثار ، سهامى لاتخطىء المرمى، ولكن يالأسفى ! إن سهماً أبعد أثراً من سهمى نفذ إلى قلبي ! أنا رب الطب ، وأعلم مزايا كل الأعشاب الشافية ، وأسفاه ! إنى أعانى من داء ليس له دواء ! »

فواصلت الحورية فرارها . وتركته قبل أن يتم شكايته ، بل إن فتنتها له ظلت وهى تلوذ بالفرار ، والريح تداعب ثيابها ، وشعرها المسترسل يتطاير هفهافاً من خلفها ، فنفد صبر الإله إذ وجد مغازلاته تقابل بالصد ، وإذ استحثه كيوبيد فاز عليها فى هذا التسابق ، الذى بدأ كما لو كان ضرباً من المطاردة بين أرنب وكلب من كلاب الصيد ، وقد فغر فكيه استعداداً للقنص ، بينما مرقت الفريسة إلى الأمام وقد نجت من الفكين بأعجوبة ، وهكذا قام الطراد الطائر بين الإله والعذراء — هو على أجنحة الحب وهى على أجنحة الرعب ، ولكن المطارد كان أشد سرعة فأوشك على اللحاق بها ، وكانت أنفاسه اللاهثة تكاد تلفح شعرها ، وابتدأت قواها تخور ، وحالما استعدت للغوص ، راحت تنادى والدها ، إله النهر : « أغثنى يا بنيوس ! افتح الأرض لتحيطنى بسياجها ، أو غير هيئتى التى أوقعتنى فى هذا البلاء ! » وما كادت تتكلم حتى تصلبت كل أعضاء جسمها ، وأخذ صدرها تغلفه قشور شجر غضة ، وتحول شعرها إلى أوراق شجر خضراء ، وذراعاها إلى أغصان ، ثم ضربت بقدميها فى أعماق الأرض فأصبحت جذراً ، وأصبح وجهها قمة الشجرة ، ولم يحتفظ بشىء من معالمه القديمة سوى الجمال ؛ فوقف أبوللو مبهوراً ، فلمس الجزع ، وأحس اللحم يختلج تحت القشر الغض ، وعانق الأغصان ، وراح يمطر الخشب بالقبلات ، فنفرت الأغصان من شفتيه ، فراح يقول : « ما دام من المتعذر أن تصبحى زوجة لى فستصبحين شجرتى بغير مراء ، سأضعك تاجاً على رأسى ، وسأزين بك قيثارى وجعبة سهامى ، وعندما يتقدم الفاتحون الرومانيون العظمــاء على رأس مواكب النصر الفخمة إلى الكابيتول ، ستنسقين فى أكاليل تزين هاماتهم ، ولما كان الشباب الخالد من صفاتى ، فستظلين مورقة دائمة الاخضرار ، ولا تذبل أوراقك أو تتساقط : » وآنئذ أحنت حورية البحر التى استحالت إلى شجرة غار ، رأسها فى فهم مطيع شاكر .

وليس بعجيب أن يكون أبوللو إلها للموسيقى والشعر ، ولكن العجيب

أن يدخل الطب ضمن منطقة نفوذه ؛ ويسوق أرمسترونج الشاعر ، وكان نفسه طبيباً ، شعره على هذا النحو :

ترفع الموسيقى شأو الابتهاج ، وتثلم حدة الأحزان ،
وتطرد الأمراض ، وتخفف شدة الآلام ،
ولهذا كان حكماء الأجيال القديمة يكرمون ،
سلطاناً واحداً للبدن والنغم وهزج المغنين .

* * *

كثيراً ما يلمح الشعراء إلى قصة أبوللو ودافنا ، فوللر يستخدمها فى حالة شخص ذاعت شهرته كشاعر بسبب قصائده فى الغزل ، على الرغم من أن هذه القصائد لم تنف الصدود عن قلب معشوقته :

ولكن ماغناه فى أنشودته الخالدة ،
على الرغم من إخفاقها ، لم يغنه عبثاً ،
فالكل ، ماعدا الحورية الملزمة برد الحيف عنه ،
ينصتون لشكايته ، ويستطيبون أنشودته ،
مثل فويبس إذ نال مديحاً غير منشود ،
فهو صريع الحب الذى ملأ ذراعيه بالغار ،

* * *

والأبيات التالية ، من « أدونيس » للشاعر شلى ، تشير إلى أول شجار لبيرون مع الناقدين :

لا تجرؤ الذئاب على المطاردة إلا متجمعة فى قطعان ،
والغربان السود القذرة لاتنعق صاخبة إلا فوق الموتى ،
وأسراب الرخمة تطير إلى حيث ترتفع أعلام الغزاة ،

وهناك تلتهم طعامها من فتات مائدة الخراب ،
هذه الأسراب حاملة العدوى في أجنحتها لاذت بالفرار ،
عندما رشقها مثيل أبوللو من قوسه الذهبي ،
بسهم نافذ كما لو كانت بيثون هذا العصر ،
فلم يحاول المفسدون أن يصمدوا لضربة أخرى ،
بل تذللوا تحت أقدام الجبار فركلهم وهم راحلون .

بيراموس وثسبا

كان بيراموس أحسن الشبان منظراً ، وثسبا أجمل الفتيات ، في كل أنحاء بابيلونيا (Babylonia) حيث كانت سميراميس (Semiramis) تحكم البلاد، وكان والداهما يقيمان في منازل متجاورة،وجمعت الجيرة بين الفتى والفتاة،وتوطدت المعرفة وتأصلت جذورها حتى استحالت غراماً . وكانا يتمنيان أن يسعدا بالزواج لولا معارضة والديهما ، ولكن شيئاً واحداً لم يستطع الوالدان تحريمه — هو توقد جذوة الغرام بدرجة واحدة في قلب كل منهما ، وكانا يتخاطبان بالإشارات والنظرات ، وازدادت النار اشتعالا بسبب تكتمها ، وكان بالحائط الذي يفصل المنزلين شق سببه خلل بالبناء ، ولم يكن أحد قد لاحظه من قبل ،ولكن العاشقين اكتشفاه ، وهل من شيء يعجز الحب عن اكتشافه ! وكان هذا الشق يسمح بمرور الصوت ، فاستخدمه العاشقان لتبادل الرسائل العاطفية ، وحينما كانا يقفان ، بيراموس في جانب ، وثسبا في الآخر ، كانا يقولان وقد امتزجت أنفاسهما . « أيها الحائط الصلد القاسي ، لماذا تفصل حبيبين عن بعضهما؟ ولكننا لن ننكر جميلك ، فنحن مدينان لك بفضلك في نقل كلمات الهيام إلى آذاننا المتلهفة الصاغية»،وكانا ينطقان بهذه الكلمات على جانبي الحائط المتقابلين ، وعندما كان يرخي الليل ذيوله ، ويتحتم عليهما الافتراق ، كانا يضغطان بشفاهما على الحائط ، هي في جانب ، وهو في الآخر ، لعدم استطاعتهما الاقتراب من بعضهما .

وفى الصباح عندما أطفأت أورورا (Aurora) ، ملكة الفجر ، النجوم ، وأذابت الشمس الجليد من فوق الحشائش ، فتقابلا فى مكان اللقاء المعتاد ، وبعد التشاكى والرثاء لما يعانيان ، اتفقا على أن يتسللا فى غفلة من العيون اليواقظ ، عندما يرخى الليل سدوله ، ويهجع الجميع ويستتب السكون ، فيغادران منزليهما ، ويخرجان إلى الحقول ، وضماناً لتلاقيهما ، اتفقا على أن يتم هذا اللقاء عند بناء مشهور قائم خارج حدود المدينة ، يطلق عليه اسم مقبرة نينوس (Ninus) ، وأن ينتظر من يبكر منهما فى الحضور زميله عند شجرة معينة ، وهى شجرة توت بيضاء ، بالقرب من نبع ماء زلال ، وتم الاتفاق كاملا ، فراحا يرقبان انحدار الشمس تحت المياه وبروز الليل منها ، ومن ثم تسللت ثسبا فى حذر دون أن يلمحها أحد من أفراد أسرتها ، وأخذت طريقها ، وقد لفت رأسها فى خمار ، إلى هذا البناء الأثرى ، وجلست عند الشجرة ، وإذ هى جالسة بمفردها فى ضوء المساء الخافت لمحت لبؤة ، وقد تخضبت مخالبها بدماء فريسة حديثة ، مقتربة من عين الماء لتطفىء ظمأها ، فلاذت ثسبا بأذيال الفرار عند رؤيتها ، ثم لجأت إلى كهف فى صخرة تلتمس النجاة ، وفى أثناء فرارها أسقطت خمارها ، وبعد أن روت اللبؤة ظمأها من النبع استدارت لتعود إلى الغابات ، وإذ لمحت الخمار على الأرض ، التقطته فى عنف ، وراحت تمزقه بفمها المخضب بالدم .

وآنئذ وصل بيراموس إلى مكان اللقاء ، بعد أن تأخر قليلا ، فرأى على الرمال آثار أقدام الوحش ، فشحب وجهه عند هذه الرؤية ، ثم سرعان ما وجد الخمار ممزقاً ومخضباً بالدم ، فقال وهو يتأوه . « ياللصبية المنكودة الحظ ، لقد كنت السبب فى موتها ! أنت يامن كنت أكثر استحقاقاً للحياة منى ، ذهبت أول ضحية . سأتبعك فقد أذنبت إذ أغريتك على الخروج إلى مكان غير مأمون كهذا ولم أسبقك إليه كي أقوم على حراستك ، والآن هلم إلى ياسباع الغاب من بين الصخور ، وفرقوا بأنيابكم هذا البدن المذنب غير البرىء » .. ثم التقط الخمار وحمله معه إلى شجرة الموعد ، وراح يعطره بالقبلات ويبلله بالدموع . وقال .

« سيخضب دمى لسيجك أيضاً ، ثم استل سيفه وأغمده فى قلبه،فانبجس الدم من الجرح ، وصبغت شجرة التوت البيضاء باللون الأحمر ، وتشربت الأرض بالدم المسفوك حتى وصل إلى الجذور ، ومنها تسرب اللون الأحمر من الجذع حتى وصل إلى الثمار .

وعلى الرغم من أن الخوف كان لا يزال يعصف بثسبا فى هذا الحين، ولكنها إذ كانت لا تريد أن تخيب أمل حبيبها ، خرجت على حذر ، وراحت تبحث عنه فى جزع متلهفة أن تطلعه على الخطر الذى تعرضت له ، وحينما أشرفت على مكان تواعدهما ، ورأت شجرة بعد أن تغير لونها ، شكت أن يكون مكاناً آخر ، وإذ هى مترددة رأت جسم إنسان يعالج سكرات الموت ، فجفلت مفزوعة ، وسرت رعشة فى كيانها كما لو كانت تموجات على سطح ماء ساكن عندما يهب عليه فجأة وعلى غير انتظار ، ولكنها ما كادت تتعرف على حبيبها ، حتى ولولت ، ودقت على صدرها ، وهى تحتضن البدن الساجى ، وتسكب دموعها فى جراحاته ، وتطبع قبلاتها على شفتيه الباردتين ، وصاحت قائلة : «أى بيراموس ، من فعل هذا ؟ أجبنى يا بيراموس ، إن ثسبا حبيبتك هى التى تتكلم ، انصت لى يا أعز الناس إلى ، وارفع هذا الرأس المنكس ! » .:. وعند اسم ثسبا ، فتح بيراموس عينيه ، وأغلقهما ثانية ، ورأت الخنجر مخضباً بالدم ، والغمد خالياً من سيفه ، فقالت : « من أجلى قتلت نفسك بيدك ، وأستطيع أنا الأخرى أن أستبسل مرة فى حياتى ، وحبى قوى كحبك ، وما دمت قد تسببت لك فى الموت فسأتبعك إليه ، والموت الذى استطاع وحده أن يفصلنا ، لن يمنع لحاقى بك ، وأنتما يا أبوينا المنكودى الحظ ، لا تحرماننا من بغيتنا المشتركة ، وكما أن الحب والموت جمعا بيننا ، فلتضمنا مقبرة واحدة ، وأنت أيتها الشجرة ، احتفظى بسمات القتلى ، واجعلى من ثمراتك تذكاراً دائماً لدمائنا المهراقة » ، وحين فرغت من كلامها ، طعنت صدرها بالسيف ، وقد حقق لها والداها رغبتها ، وكذلك حققتها الآلهة ، فوارى الجثمانين ضريح واحد ، ومنذ هذا الحين تنبت شجرة التوت ثمراً أرجوانى اللون .

والشاعر « مور » وهـــو يتكلم فى قصيدته « كرة أرواح الهواء » (Sylph's Ball) عن مصباح الأمان لمخترعه العالم الإنجليزى ديفى Davy يخطر على باله الحائط الذى كان يفصل ثسبا عن حبيبها :

« يالشبكة هذا المصباح المعدنية ،
تلك الستارة من السلك الواقى ،
التى يرخيهـــا ديفى فى رفق
حول النـــار الخطرة المحرمة

. . .

الحـائط الذى أقامه بين اللهيب والنار ،
(كالسور الذى حجب سعادة ثسبا الصغيرة)
وهذين العنصرين الخطرين ، بين ثقوبه الصغيرة ،
قد يرى أحدهما الآخر ولكنهما لا يتلامسان »

. . .

وفى ترجمة ميكل للوسياد Lusiad وردت الإشارة التالية إلى قصة بيراموس وثسبا وما طرأ على ثمار التوت من تغير اللون ، ويصف الشاعر جزيرة الحب :

« هنا تغدق كل عطية من يد بومونا ،
فى الحديقة المنسقة ، فيضاً فطرياً غير مصنوع ،
مذاقه أكثر حلاوة ، ولونه أعظم بهاء ،
من أى قطوف اختصه الإنسان بعنايته ،
فهنا يتوهج الكرز فى لونه القـــرمزى ،
ومخضبة بدماء العاشقين ، وفى صفوف متراصة ،
بدت ثمار التوت على أغصانها المثقلة المتدلية » .

أما إذا استطاع أى فرد من قرائنا الشباب أن يقسو إلى حد السخرية

بيراموس وثسبا التعسين ، فامل الفرصة تواتيهم إذا تلمسوها فى مسرحية شكسبير « حلم ليلة فى منتصف الصيف » ففيها يركبهما الشاعر بالدعاية والمزاح .

.·.

كفالوس وبروكريس

كان كفالوس شابا بهى المنظر شغوفاً بألعاب الرياضة المتعلقة بالرجال ، وكان ينهض قبل الفجر للطراد ، فرأته إلاهة الفجر اورورا Aurora أول ما رأت ، وهامت به ، واستدرجته حيث حملته بعيداً ، ولكن كفالوس كان قد تزوج منذ عهد قريب صبية فاتنة استولت على لبه ، وكانت تدعى بروكريس ، آثرتها ديانا ، إلاهة الصيد ، بحبها ، فأعطتها كلباً يسبق فى العدو أى منافس ، كما أعطتها رمحاً لا يخطىء مرماه قط ، فأعطت بروكريس هاتين الهديتين لزوجها ، وكان كفالوس سعيداً بزوجته فلم يكترث لتوسلات أورورا بل قاومها ، وأخيراً أبعدته عنها وهى حانقة ثم قالت : « إليك عنى أيها البشرى الكنود ناكر الجميل ، أمسك عليك زوجك ، التى سيأتى يوم ، إذا لم أكن مخطئة ، تندم فيه جداً لرؤيتك ثانية لها .

فعاد كفالوس ، وسعد كما كان ، بزوجته ورياضته فى الغابات ، وحدث آنذاك أن أرسل أحد الأرباب الغاضبين ثعلباً مفترساً ينغص به عيش الآمنين من الناس فخرج الصيادون لقنصه فى تحمس شديد ، فذهبت جهودهم أدراج الرياح ، فقد عجزت جميع الكلاب عن اللحاق به ، وأخيراً لجأ الصيادون إلى كفالوس للاستعانة بكلبه المشهور المسمى ليلابس Lelaps ، وما كاد يطلق سراح الكلب ، حتى انطلق كالسهم النافذ ، أو كلمح البصر ، ولو لم يقتفوا آثار أقدامه فى الرمال لتوهموا أنه قد لاذ بالفرار ، فوقف كفالوس مع آخرين وشاهدوا المطاردة ، واستخدم الثعلب كافة الحيل ، فراح يعدو فى دائرة ، ويعود من حيث بدأ ، والكلب فى أعقابه ، فاغراً فكيه ، محاولا أن يقضم دبره ، فلا يقضم سوى

الهواء ، وإذ كان كفالوس على وشك أن يستخدم رمحه رأى الكلب وقنيصته يقفان على حين بغتة ، دون حراك ، فقوات السماء التى أوجدتهما لم تشأ النصر لأيهما ، فأحالتهما إلى حجر يكاد فى هيئته أن ينبض بالحركة والحياة ، وكان الناظر إليهما يتوهم ، من فرط ما يبدو عليهما من مظاهر الحياة الطبيعية ، أن أحدهما سينبح والآخر سيثب إلى الأمام.

وعلى الرغم من أن كفالوس فقد كلبه ، فقد ظل الطراد مبعث ابتهاج له ، وكان يخرج فى الصباح الباكر ، ويروح يذرع الغابات والتلال غير مصحوب بأحد ، ودون حاجة إلى أى عون ، إذ كان رمحه سلاحاً باتراً أكيداً ، فى جميع الحالات وإذ كان يجهده الطراد ، عندما كانت الشمس تعلو سمتها ، كان يلتمس ركناً ظليلا حيث يتفجر نبع ماء بارد ، وهناك يتمدد على الحشائش ، وثيابه ملقاة إلى جانبه ويروح يستمتع بالنسيم العليل ، وكان فى بعض الأحيان يرفع صوته قائلا: «إلى أيها النسيم الحلو العليل ، هب على صدرى رفيقاً ، وخفف الحرارة التى تحرقنى». وفى ذات مرة سمعه أحد المارة وهو يخاطب الهواء على هذه الصورة ، وإذ توهم لغبائه أنه كان يتحدث إلى إحدى الفتيات ، توجه إلى بروكريس ، زوجة كفالوس ، وأطلعها على السر ، والحب ساذج سريع التصديق ، ولذلك خرت مغشياً عليها لهذه الصدمة المفاجئة ، وما كادت تثوب إلى رشدها حتى قالت : «محال أن يصدق هذا ... لن أصدق شيئاً حتى أكون شاهدة عيان» . وهكذا انتظرت وهى على أحر من الجمر ، حتى الصباح التالى ، عندما خرج كفالوس على عادته للصيد ، ثم تسللت خلفه ، وأخفت نفسها فى المكان الذى أرشدها الواشى إليه ، وحضر كفالوس كعادته حين أنهك الطراد قواه ، وتمدد فوق الشاطىء المغطى بالحشائش وهو يقول : «إلى أيتها النسمة الحلوة العليلة ، هبي على رفيقة ، أنت كيف تعلمين أحبك! أنت التى تملئين الأدغال بهجة ، وتضفين على جولاتى المنفردة المرح والسرور ». وإذ هو يتكلم على هذا المنوال ، إذا به يسمع أوخيل إليه أنه يسمع ، من بين الأدغال ، صوتاً كأنه النشيج ، ولظنه أنه حيوان

برى سدد رمحه وقذف به صوب البقعة ، فأطلقت حبيبته بروكريس صرخة أنبأته أنها قد أصابت مرماها فى الصميم ، فاندفع نحو مكانها ، ووجدها تقطر دماً صبيباً وقد راحت تجاهد ، وقواها آخذة فى التلاشى ، كي تنزع الرمح ، هديتها ، من جرحها ، فرفعها كفالوس من فوق الأرض ، وحاول أن يوقف النزف ، وهو يهتف بها أن تسترد قوتها ، وألا تتركه بئيساً يؤنب نفسه ، إذ تسبب فى موتها ، ففتحت عينيها الذابلتين ، وأجهدت نفسها حتى تمتمت بهذه الكلمات القليلة : « أى زوجى ، أتوسل إليك ، إذا كنت أحببتنى يوماً ما ، وإذا كنت أنا أهلا لعطفك على ، أن تحقق لى هذا الرجاء الأخير ، فلا تتزوج هذه النسمة البغيضة ! » وبهذا تكشف اللغز الخفى كاملا ، ولكن وا أسفاه ! فما جدوى تكشفه الآن لقد ماتت ، ولكن وجهها كان يحمل غلالة من الهدوء ، وتطلعت إليه فى إشفاق وتسامح عندما أطلعها على الحقيقة .

وأفرد مور إحدى « قصصه الشعرية » لكفالوس وبروكريس ، بدأها كما يلى :

مال صياد إلى دغل مرة ،
ليتفادى عين الظهيرة الساهرة ،
وراح يتودد للنسمة العابرة ،
كي يبرد جبهته بنفثتها الحانية ،
وحينما صمت النحل البرى عن الطنين ،
ولم تتحرك أغصان الحور الرجراج ،
ظل يغنى : « أيها النسيم العليل تعالى »
فردد الصدى : « تعالى أيها النسيم العليل »

* * *

الفصل الخامس

يونو ومنافسوها ، أيو وكالستو — ديانا
واكتيون — لاتونا والمهرجون

فى يوم ما رأت يونو الظلام يرخى سدوله على حين غرة ، فشكت أن يكون زوجها قد أثار غمامة ليخفى بعض فعاله التى لا تحتمل النور ، فبددت الغمامة ورأت زوجها على شاطىء نهر رقراق ، وإلى جانبه بقرة صغيرة جميلة ، فشكت يونو أن يكون هيكل البقرة إحدى الحوريات الفاتنات فى قالب بشرى ـ كما كان الحال فعلا إذ كانت أيو ابنة إله النهر أناخوس ، وكان جوبتر ينازلها ، وحالما شعر باقتراب زوجته ، تغيرت إلى هذه الهيئة .

لحقت يونو زوجها ، وإذ لمحت البقرة الصغيرة أطردت جمالها ، وسألت عن صاحبها وقطيعها ، فأجابها جوبتر ، كي يوقف تيار الأسئلة ، بأنها خليقة جديدة من الأرض ، فطلبتها منه كهدية لها ، فماذا يستطيع جوبتر صنعه ؟ . . . . لقد كره أن يعطى خليلته لزوجته ، ولكن كيف يرفض أن يقدم إليها هدية تافهة مثل هذه البقرة البسيطة ؟ وما كان ليستطيع هذا دون أن يثير شكوكها ، ولذلك قبل ، ولم تكن الإلاهة قد تخلصت بعد من شكوكها ، فسلمت عجلة البقرة لأرجوس ، كي يلاحظها فى دقة .

وكان لأرجوس مائة عين فى رأسه ، ولم ينم قط بأكثر من اثنتين فى وقت واحد ، ولذلك كانت أيو تحت حراسته الدائمة ، فكان يطلقها نهاراً لترعى ، ويربطها ليلا بحبل غليظ حول عنقها ، وكانت تود أن تمد ذراعيها سائلة أرجوس أن يطلق سراحها ، ولكن لم يكن لها ذراعان تمدهما ، وكان صوتها خواراً يخيفها هى نفسها ، وكانت ترى أباها وشقيقاتها ، وتقترب منهم ، وتخفض لهم جناحها

وهم يربتون بأيديهم على ظهرها ، كما كانت تسمعهم وهم يطرون جمالها . ومد إليها أبوها حزمة من الحشائش ، فلعقت اليد الممتدة ، إذ كانت مشوقة لأن تفصح عن نفسها وتعرفه بنفسها ، ولكن وا أسفاه ! فالنطق يعوزها ، وأخيراً طرأت عليها فكرة الكتابة ، ونقشت اسمها — وهو قصير — بحافرها على الرمال ، فعرفه أناخوس ، وإذا اكتشف أن ابنته التي طال بحثه عنها سدى ، كانت مخبأة تحت هذا الإهاب ، راح ينوح عليها ، وهو متعلق بعنقها الأبيض ، قائلا : « وأسفاه يا ابنتي ! لو أني فقدتك إلى الأبد ، لقل حزني عما هو الآن ! » وإذ هو مسترسل في هذا النشيج ، لاحظهما أرجوس ، فتوجه إليها وساقها بعيداً ، وأخذ مجلسه فوق مرتفع من الشاطىء ، حيث أصبح في استطاعته أن يرى كل ما يحيط به من جميع النواحي .

فأمض جوبتر أن يرى عذاب خليلته ، وعندئذ استدعى عطارد ، وبعث به ليقضى على حياة أرجوس ، فسرعان ما انتعل حذاءه المجنح ، ووضع قلنسوته على رأسه ، وحمل عصاه السحرية التي تجلب النوم ، ثم وثب منحدراً من أبراج السماء إلى الأرض ، وهناك وضع أجنحته جانباً ، واحتفظ فقط بعصاه السحرية ، التي قدم نفسه معها باعتباره راعياً يهش بها على غنمه ، وإذ هو يسير الهوينا كان يلعب على مزماره ، المكون من مجموعة قصبات مفرغة ، تسمى سيرنكس (Syrinx) أو قصبات بان (Pandean Pipes) ، وأصغى أرجوس في متعة ، إذ لم يسبق له أن رأى مثل هذه الآلة ، فخاطبه قائلا : « أيها الشاب ، تعال واجلس بجانبي على هذه الصخرة ، فلن تجد لقطعانك مكاناً ترعى فيه خيراً من هذا المكان أو ظلالا خيراً من هذه الظلال الندية التي يشتهيها الرعاة » فجلس عطارد وأخذ يثرثر ويروى القصص حتى وقت متأخر ، كما راح يعزف على مزماره أشجى أنغامه مؤملا أن يصيب العيون اليواقظ بالخدر فتنام ، ولكن عبثاً ، إذ ظل أرجوس موفقاً في الاحتفاظ ببعض عيونه مفتوحة على الرغم من إغلاقه لبقيتها .

وروى عطارد . ضمن ما روى ، قصة اختراع الآلة التي كان يعزف عليها فقال : « يحكى أن حورية تدعى سيرنكس ، كانت تهيم بها جماعة من الساتورى وأرواح الغابات، ولكنها كانت زاهدة فيهم جميعاً ، بقدر ما كانت أمينة فى تعبدها لديانا ، فمارست الصيد مثلها ، ولو أنك رأيتها فى ثياب الصيد لظننتها ديانا نفسها لولا أن قوسها كان من القرن وقوس ديانا من الفضة ، إذ كانت يوماً عائدة من الصيد، قابلها بان Pau ، وأفضى إليها بهذه الحقيقة ، وزاد عليها الكثير مما يماثلها ؛ ففرت منه ولم تقف لتسمع إطراءه ، ولكنه تتبعها حتى وصلت إلى شاطىء النهر حيث لحقها ، فلم يتسع وقتها إلا لتهيب بصديقاتها من حوريات البحر كي يغثنها، فسمعنها وخففن لإغاثتها ، وطوق بان بذراعيه ما ظنه بدن الحورية ، فوجد أنه لم يعانق سوى حزمة من الغاب ، وإذ هو يتنهد انطلق الهواء بصوت داخل الغاب، فوقعت نغمة شاكية ،وإذ افتتن الإله بطرافة الموسيقى وحلاوتها ، راح يقول : « وإذن ، فنى القليل ستصبحين أنت ملكا لى » وأخذ بعض الغاب ، وإذ ثبتها ، واحدة بجانب الأخرى ، فى أطوال مختلفة ، صنع آلة سماها سيرنكس تكريما لهذه الحورية . » . . . وقبيل انتهاء عطارد من قصته ، كان أرجوس قد راح فى سبات عميق وأغلق كل عيونه ، وإذ مالت رأسه إلى الأمام على صدره ، جز عطارد عنقه بضربة واحدة، وقذف برأسه من حالق بين الصخور ، أى أرجوس المنكود الحظ ! لقد انطفأت أنوار عيونك المائة فى الحال ! فأخذتها يونو وزينت بها ذيل طاووسها حيث بقيت حتى اليوم .

ولكن يونو لم تكن أشبعت شهوة الانتقام فى نفسها ، فبعثت ذبابة الخيل لتعذيب أيو التى راحت تذرع كافة أنحاء العالم فراراً من مطاردتها ، فسبحت متوغلة فى البحر الأيونى الذى اشتق منها اسمه وحلقت فوق سهول الليريا Illyria وارتقت جبل هاموس Mount Hoemus وعبرت مضيق تراقيا Thyacin Strait الذى يسمى من ذلك الحين البوسفور Bosphorus بمعنى (مخاضة البقرة) ،

وطوفت مخترقة أسكيثيا (Scythia) وإقليم الكيمريين (Cimmerians) وأخيراً وصلت إلى شواطىء النيل ، وفى النهاية تشفع جوبتر من أجلها ، إذ أعطى وعداً أن يكف عن تودده إليهـــا ، قبلت يونو أن تردها إلى هيئتها الأولى ، وكان مثار العجب أن تراها تسترد هيئتها شيئاً فشيئاً ، فسقطت الشعرات الغليظة من جسمها وتقلص قرناها ، وضاقت عيناها ، وقصرت فتحة فمها ، واستعاضت عن الحوافر فى رجليها الأماميتين بالكفين وأصابعهما ، وهكذا لم يبق شىء من عجلة البقر سوى جمالها ، وتهيبت فى مبدأ الأمر أن تتكلم ، خشية أن يخرج صوتها خواراً ، ولكنها استردت ثقتها بالتدريج ، وعادت إلى أبيها وشقيقاتها .

وفى قصيدة للشاعر كيتس (Keats) ، مهداة إلى لى هنت (Leigh Hunt) نوه الشاعر بقصة پان وسيرنكس ، كما يلى :

وهكذا كان إحساس من أزاح الغصن جانباً ،
كي ننعم النظر فى الغابة المترامية الأطراف ،

. . . . . .

فأخبرنا كيف فرت سيرنكس الجميلة نافرة مرتعدة ،
من پان البرىء ، وقد غمرها رعب شديد ،
يا للحورية المسكينة ـ وپان المسكين ـ لشد ما بكى
إذ لم يجد سوى تنهيدات لريح الشجية ،
صادرة من الغاب الذى يحف النبع الجارى ،
نغمة خافتة مليئة بالوحشة الحلوة والألم المؤرج

. . . .

كالستـــو

وكالستو فتاة أخرى أثارت حسد يونو ، فسختها الإلاهة دبة ، وهى تقول : « سأنزع هذا الجمال الذى فتنت به زوجى » ... وهكذا خرت كالستو على يديها وركبتيها ، فحاولت أن تمد ذراعيها مبتهلة ، ولكن الشعر الأسود كان قد ابتدأ فعلا يغطيهما ، واستدارت كفاها ، وتسلحتا بمخالب مقوسة ، وأصبحتا تؤديان عمل القدمين ، أما فمها الذى اعتاد جوبتر أن يطرى جماله ، فقد تحول إلى فكين يثيران النفور والاشمئزاز ، وكذلك صوتها الذى كان حرياً أن يملأ القلوب عطفاً عليها ، انقلب إلى همهمة غليظة ، تلقى الرعب فى القلوب ، ولكنها ظلت محتفظة بفطرتها ، فراحت ترثى مصيرها ، وهى تنتحب ، دون أن تكف عن التذمر والشكوى ، وكانت تقف منتصبة قدر استطاعتها ، وترفع براثنها كى تستدر العطف والرحمة ، وكانت تحس أن جوبتر لم يكن رحيما ولكنها لم تستطع الإفضاء إليه بذلك ، واشد ما كانت تفزع لبقائها فريدة فى الغابات طوال الليل ، فكانت لاتفتأ تطوف حول مغانيها القديمة ، واشد ما كانت تجزع من الكلاب وتفر مرتعبة من الصيادين وهى التى كانت من قبل صيادة ماهرة ! ... وكم من مرة فرت من وجه الحيوانات المتوحشة وقد غاب عن خاطرها أنها أصبحت نفسها الآن حيواناً متوحشاً ، وعلى الرغم من أنها أصبحت دبة كانت تخشى الدببة .

وفى يوم ما لمحها شاب وهو يصطاد ، فرأته وعرفت فيه ابنها الذى أصبح الآن يافعاً واشتد عوده ، فتوقفت عن المسير وأحست ميلا لمعانقته ، وإذ كانت على وشك الاقتراب منه ، رفع رمحه وهو منزعج ، وكان على وشك أن يرشقها به فيرديها قتيلة ، فخف جوبتر ، لدى مشاهدته لهما ، حيث منع وقوع الجريمة ، ثم اختطف الاثنين وأجلسهما فى السماء باعتبارهما الدب الأكبر والدب الأصغر .

فعصف الغضب بقلب يونو حين رأت ما حظيت به منافستها من تكريم ،

وخفت مسرعة إلى تثيس(Tethys)واوكيانوس ، سلطاني المحيط القديمين ، ولما استفسرا منها عن سبب ذهابها إليهما أجابتهما كما يلي : « أتسألان لماذا ، وأنا ماسكة الآلهة ، تركت السهول السماوية ، وهبطت إليكما فى أعماق المحيط ؟ إذن فاعلما أن منزلى فى السماء نزعزعت ، فمركزى فيها احتله غيرى ، وقد يتعذر عليكما تصديق ، ولكن تطلعا عندما يلف الظلام العالم ، تجدان الاثنين اللذين أشكو منهما لأقوى الأسباب ، يتلألأن بكل بهاء ، فى ذلك الجزء ، الذى تصغر عنده الدائرة إلى أقصى حد ، بجوار القطب ، فما الذى يروع أى كائن ، فيما بعد ، فى التفكير فى الإساءة إلى يونو ، ما دامت هذه العطايا هى جزاء من ينغص عيشى ويبوء بسخطى؟ ... أتريدان أن تعلما ما الذى استطعت عمله ؟... مسختها وحرمتها من أن تكون بشراً سوياً ، فأجلست بين النجوم ! فهل لعقوبتى أى جدوى ، ما دام هذا هو مدى سلطانى !...أفضل لو أنها استعادت هيئتها الأولى، كماأذنت للفتاة أيو أن تفعل ، لعله يعنى أن يتزوجها ويبعدنى عنه ! ولكن لو أنكما يامن ربيتمانى ورثيتما لحالى ، وأمضكما حقاً ما لاقيته من هذه المعاملة غير الكريمة ، فأتوسل إليكما أن تظهرا نها بحرمان هذين الاثنين من الغوص فى أمواهكما ، فلبى سلطانا المحيط هـــذا المطلب ، وهكذا تدور مجموعتا نجوم الدب الأكبر والدب الأصغر فى السماء وتدور ، ولكنها لاتغوص فى أعماق المحيط قط ،كما تفعل النجوم الأخرى .

ويشير ملتون إلى هذه الحقيقة ، وهى أن مجموعة نجوم الدب لاتغرب قط ، حين يقول :

دع مصباحى ، ساعة انتصاف الليل ،
مرئياً ، فى برج مرتفع منفرد ،
حيث أرقب الدب كل حين .

* * *

وفى قصيدة جـ . ر . لوول (J.R.Lowell) يتكلم برومثيوس فيقول :

ظهرت النجوم واختفت ، واحدة إثر الأخرى ،
متلألئة فوق الندى المتجمد على أصفادى ،
فالدب الذى طوف طوال الليل قرب منعطف
النجم الشمالي ، انكمش أخيراً داخل وكره ،
فزعاً من وقـــع أقـــدام الفجر الطروب

***

وآخر نجم فى ذيل الدب الأصغر هو النجم القطبى ، المسمى كينوسورا (Cynosure)وفى هذا يقول ملتون :

على امتداد البصر استرقت عينى مسرات جديدة ،
بينما سخت الطبيعة الفاتنة فى عرض مناظرها ،

. . . .

فهى ترى بروجاً وقلاعا ،
تعانق أعاليها أكاليل الأشجار ،
حيث ينعكس بعض الجمال
فى الكينو سورا للعيون القريبة.

* * *

أما هنا فثمة إشـــارة إلى كل من النجم القطبي باعتباره مرشد الملاحين ، وجاذبية (الشمال) المغناطيسية ، والشاعر يسميه أيضاً « نجم اركادى » ذلك لأن ابن كالستو كان يدعى اركاس (Arcas)ولأن الأم وحبيبها كانا يعيشان فى أركاديا (Arcadia)وفى قصيدته « حفل بهيج » راح الأخ الذى هبط عليه الليل وهو فى الغابة ، يقول :

. . . . أيها الشيء المستدق اللطيف !
ولو كنت شمعة السمار ! من ثقب سقط
بإحدى الدور التي من الآجر ، اطلعي علينا
بضوئك المنساب ، في اتجاهك الموازي السطور
فتصبحين نجمنا المنسوب إلى أركاس
أو كينو سورا الصوري (Tyrian)

* * *

ديانا واكتيون

هكذا رأينا ، في مثالين ، قسوة يونو على منافسيها ، والآن دعنا نعرف كيف أن إلاهة عذراء عاقبت دخيلا اقتحم خلوتها .

كان النهار في منتصفه ، ووقفت الشمس على بعدين متساوين من هدفيها ، حينما راح اكتيون الصغير ، بن الملك كادموس ، يخاطب الشبان الذين كانوا يصطادون معه الغزال في الجبال ، فقال :

« أيها الصحاب ، لقد خضبت شبا كنا وأسلحتنا دماء ضحايانا ، وما اصطدناه حتى الآن يكفي ليوم كامل ، كما أن في استطاعتنا أن نستأنف في الغد نشاطنا ، والآن فما دام فويبس يلفح الأرض بقيظه ، فلنضع أسلحتنا جانباً للاستجام والراحة »

وكان هناك واد تحيطه أشجار السرو والصنوبر ، وتقدسه إلاهة الصيد ، ديانا ، وكان في أقصى الوادي كهف ، لم يزينه أحد من رجال الفن ، ولكن الطبيعة قلدت الفن في تكوينه ، إذ أبدعت في تركيب قبة سقفه حتى بدت كما لو كانت منسقة بيد بشرية ، وتفجرت من إحدى الجوانب نافورة ماء ، نمت الحشائش غزيرة على حافة حوضها ، حيث اعتادت إلاهة الغابات أن تحضر كلما أحست

تعب الطراد ، كي تغتسل وترطب أطراف جسمها الغض فى المياه المنعشة .

وفى يوم ما توجهت مع حورياتها إلى هناك ،وسلمت إحداهن رمحها وجعبة سلاحها وقوسها ، وأخرى سلمتها رداءها ، بينما خلعت ثالثة نعلها من قدميها ، بعد ذلك راحت كروكالا (Crocale) ، وهى أمهرهن ، تصفف لها شعرها ، وأخذت نيفيلا ، وهيالا ، وبقيتهن يغرفن الماء فى أوعية كبيرة ، وبينما كانت الإلاهة مستغرقة فى العناية بزينتها ،كان اكتيون قد انفصل عن رفاقه ، وراح يذرع الغابة على غير هدف ، حتى ساقه مصيره المحتوم إلى هذا المكان ، وإذ هو يهل بطلعته على مدخل الكهف ، لمحته الحوريات ، فصرخن واندفعن نحو الإلاهة لإخفائها بأجسامهن عن الأنظار ، ولكنها كانت أطول منهن فعلتهن قدر هامة ، وإذ أخذت ديانا بغتة صبغ وجهها لون كالذى يصبغ السحب مع الشفق أو عند الفجر ، وعلى الرغم من إحاطة الحوريات بها فإنها همت وراحت تفتش بدافع مفاجيء عن سهامها ، ولما لم تكن فى متناول يدها فقد رشت وجه المتطفل بالماء ، وخاطبته بهذه الكلمات : « والآن اذهب وقل ، إن استطعت ، أنك رأيت ديانا وهى عارية » ... وفى الحال برز من رأسه زوج من قرون الغزال المتفرعة ، واستطال عنقه ، واستدقت أذناه ، وتحولت يداه إلى قدمين ، وذراعاه إلى ساقين طويلتين ، وغطى بدنه جلد غليظ أرقش غزير الشعر ، وحل الرعب ، فى قلب البطل ، محل جرأته الأولى ففر لا يلوى على شيء ، ولعله كان مستطيعاً أن يعجب بخفة حركته وسرعته، لولا أنه لمح قرونه منعكسة صورتها فى الماء ، فأراد أن يرثى لحال نفسه قائلا : « ياللشقائى ! » ولكنه عجز عن الافصاح ، فتأوه متوجعاً ، وانسابت الدموع فوق الوجه الذى حل مكان وجهه ، ولكن وعيه ظل على حاله دون تغيير ، فاذا هو صانع ؟ — أيروح ينشد القصر ، أم يختفى بين الأدغال ؟ ... كان خائفاً من الأدغال واستحى أن يذهب للقصر ، وإذ هو متردد لمحته الكلاب ، وكان ملامبوس ، وهو كلب اسبرطى ، أول من دل عليه بنباحه ، وتبعه بمفاجوس ، ودوركيوس، وليلابس ، وثيرون،

ونابا ، وتيجريس ، وجميع الـكلاب الباقية التى اندفعت خلفه وهى تسابق الريح ، ففر منها ، وهى فى أعقابه ، فوق الصخور المرتفعة والشواطىء الصخرية ، والممرات الجبلية الوعرة ، وراحت كلابه الآن تطارده ، وصيـادوه يستحثونها ، فى البقعة التى طالمـا طارد فيها الغزال واستحث كلابه على اقتفاء أثره ، وكان يود أن يهتف بالجميع صارخاً : « أنا اكتيون ،حيوا سيدكم ! » ولـكن الألفاظ لم تخرج وفق مشيئته ، وردد الهواء صدى نباح الـكلاب ، وسرعان ما تعلق واحد منهـا بمؤخرته ، وتشبث آخر بمنـكبه ، وبينما كان الـكلبان يمسكان بسيدهما ، وصلت بقية جماعتها ، وغرزت أسنانها فى لحمه ، فأن متوجعاً — لا فى صوت بشرى ، ولـكن دون شك ، فى صوت غزال أيضاً — وإذ سقط على ركبتيه ، رفع عينيه وكان يود أن يرفع يديه مبتهلا، لوكان له يدان، وأخذ أصدقاؤه ورفاقه الصيادون يحثون الـكلاب ويبحثون فى كل مـكان عن اكتيون وينادونه كى يشترك فى الصيد ، وعندما سمـع اسمه أدار رأسه ، فسمعهم يتحسرون لغيـابه ، فتمنى ذلك جاداً مخلصاً ، كان سيسره كـثيراً أن يشاهد مغامرات كلابه ، أما أن يحسها فى بدنه فهذا أشد ممـا يطيق ، كانت جميعها تحيط به ، تتناوشه وتمزقه ، ولم تهدأ سورة غضب ديانـا حتى كانت هذه الـكلاب قد انتزعت روح سيدها من بدنـه .

وفى قصيدة أدونيس لشلى ، ترد الإشارة التالية لقصة اكتيون :

بين آخرين أقل أهميـة قدم شخص هزيـل ،
شبح بين البشر ، لا رفيـــق له
كأنه آخر غمـامة فى عاصفة مدبـرة ،
وكأن قصف الرعد ناقوس موتها ، فهو ، كما أظن ،
تفرس فى جمـال الطبيعة وهى عـارية ،
مثل اكتيون ، ويهيم الآن على وجهه شارداً

بخطوات متثاقلة فى تيه العالم الموحش ،
وأفكاره ، على امتداد هذا الطريق غير المعبد ،
تطارده ، كـكلاب الصيد الهائجة ، وهو خالقها وفريستها .
المجموعة ٢١

ولعل الإشارة لشلى نفسه .

* * *

لاتونا وأجلاف الريف

وظن البعض أن الإلاهـة لم تـكن فى هذا الحـادث منصفة بقدر ما كانت قاسية ، بينما أطرى آخرون سلوكها على أساس مطابقته التامة لـكرامتها كعذراء وكما هى العادة ، أعادت هذه الواقعة الحديثة إلى الأذهان ، وقائع أكثر قدماً منها ، وقد روى أحد المشاهدين هذه القصة : « تعدي بعض الأهلين فى ليكيا (Lycia) ، يوماً ما ، على الإلاهة لاتونا بالسباب ، ولـكنهم لم يفلتوا من العقاب فعندما كنت يافعـاً ، بعث بى أبى ، وكان قد طعن فى السن وعجز عن العمل ، إلى ليكيا لاستحضار مجموعة مختارة من الثيران ، وهناك شاهدت البركة والمستنقع حيث وقعت الأعجوبة ، فعلى كثب كان هناك مذبح ، سوده دخان المحرقات، وكاد نبات البوص أن يواريه عن الأبصار ، فسألت عن رب هذا المذبح ، وعما إذا كان إله الرعاة فاونس (Faunus) أو حوريات الأنهار نايادز (Naiads) أو أى رب من الجبل المجاور ، فأجابنى أحد الريفيين قائلا ، ليس هذا المذبح مكرسا لرب جبل أو نهر ، ولـكن لتلك التي لحقها حسد يونو الملـكية ، فطاردتها من بلد لأخرى ، وقد أنكرت عليها أية بقعة من الأرض تربي فيها توائمها ، ووصلت لاتونا إلى هذه البلاد حاملة التوائم الإلهية على ذراعيها ، وقد أنهكها ثقل حملها ، وجف حلقها من الظمأ ، فتصادف ، أن لمحت أسفل الوادى ، هذه البركة من

الماء العذب ، حيث كان الفلاحون منهمكين فى جمع أغصان الصفصاف وأعواد الزنزلخت ، فاقتربت الإلاهة ، وجثت على الشاطىء وكانت على وشك أن تطفىء ظمـأها في النبع البارد ، لولا أن حرم عليها الأجلاف ذلك ، فخاطبتهم قائلة : « لماذا تصدونني عن الماء ؟ الماء ملك مشاع للجميع ، فالطبيعة لاتسمح لأحد أن يدعى ملكية ضوء الشمس أو الهـواء أو الماء ، لقد حضرت أنشد نصيبي فى النعمة العامة ، وعلى الرغم من هذا ألتمسه منكم كمنة ، ولست أنوي أن أغتسل فيه كي أنعش بدنى على الرغم من إنهاكه ، بل أن أطفىء ظمئى فحسب ، لقد جف حلقي حتى بت لا أستطيع الكلام إلا بصعوبة ، وإن شربة ماء لتعدل الآن عندى شراب الآلهة ، فهى ستحييني وستجعلني مدينة لكم بالحياة نفسها ، أشفقوا على هؤلاء الأطفال الصغار الذين يمدون أذرعتهم الصغيرة كأنما هم يتشفعون لأجلى » وكان الأطفال يمدون أذرعتهم فعلا .

« فمن ذا الذى كانت لا تحرك عواطفه هذه العبارات الرقيقة التى قالتها الإلاهة ؟ ... ولكن هؤلاء الأجلاف أصروا على موقفهم الجاف غير المهذب ، بل لقد تمادوا فى غيهم إلى حد أن راحوا يتهكمون ويهددون الإلاهة بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هى لم ترحل عنهم ، ولم يكتفوا بذلك إذ خاضوا بمجرى الماء ، وراحوا يثيرون الطمي بأقدامهم ، كى يعكروا المـاء ويجعلوه غير صالح للشرب ، فحنقت لاتونا حتى كفت عن التفكير فى ظمئها ، كما كفت عن استعطاف الأجلاف ، إنما رفعت يديها نحو السماء وهتفت قائلة : « تباً لهم ! فليقضوا حياتهم فى هذه البركة فلا يبرحونهـا أو يريمون ! » . . . وتم الأمر وفقاً لهذا ، وهم الآن يعيشون فى الماء فيغوصون أحيانا بأكملهم ، أو يرفعون رءوسهم فوق السطح ، أويسبحون أعلى الماء ، وقد يخرجون أحيانا إلى الشاطىء ولكن سرعان مايقفزون عائدين إلى المـاء ، ولازالوا يستخدمون أصواتهم الكريهة فى المضايقة والتنغيص ، وعلى الرغم من استئثارهم بالماء كله لأنفسهم فهم لايستحيون من النقيق فى أعمـاقه ، بأصواتهم الغليظة الصـادرة من حنـاجرهم

التي تورمت وانتفخت ، وأفواههم التي استطالت وتضخمت لكثرة استخدامها في المضايقة والنقيق ، أما أعناقهم فقد أخذت في التقلص حتى اختفت ، وأصبحت رءوسهم متصلة بأبدانهم دون فاصل بينها ، وظهور هذه الكائنات الآن ذات لون أخضر ، وبطونها المنبعجة بيضاء اللون ، وباختصار أصبحت ضفادع تعيش في البرك الآسنة » .

وتوضح هذه القصة ما ألمع إليه ملتون في إحدى أغانيه « عن التنديد ببعض المقالات التي حررها » .

كنت أستحث العصر كي يتخطى العقبات
مستخدماً القوانين المعروفة عن الحرية القديمة ،
وإذ بجلبة همجية تحدق بي بغتـــة
من بوم ووقاويق وحمير وقردة وكلاب ،
كشأن الأجلاف الذين مسخوا إلى ضفادع
عندما ازدروا بأطفال لاتونا التوائم ،
فأمسكت عنهم الشمس والقمر جزاء وفاقاً .

* * *

وقد أشير في القصة إلى مالاقته لاتونا من اضطهاد على يد يونو ، والمتواتر أن أم أبوللو وديانا المستقبلة ، خلال فرارها من غضب يونو ، راحت تلتمس من جميع الجزائر ببحر إيجة ، أن تهيء لها مكاناً للراحة ، ولكنها جميعاً خشيت بطش ملكة السماء الشديدة البأس ، فأحجمت عن مساعدة غريمتها ، ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى ديلوس وحدها إذ قبلت أن تصبح محل ميلاد الآلهة المرتقبة ، وكانت ديلوس آنذاك جزيرة عائمة ، ولكن عندما وصلتها لاتونا ، ثبتها جوبتر إلى قاع المحيط بسلاسل صلبة متينة ، كي تكون لحبيبته موطناً تتوافر فيه

الراحة والأمن ، ويشير بيرون إلى ديلوس فى قصيدته عن « دون جوان » فيقول :

واها لجزائر اليونان ! واها لجزائر اليونان !
حيث عشقت سافو المضطرمة العاطفة وغنت ،
وحيث نمت فنون الحرب والسلام معاً ،
وحيث برزت ديلوس ووثب فويوس ! »

* * *

الفصل الرابع

فايتون

كان فايتون ابناً لأبوللو وحورية الماء كليمينا ، وفى يوم ماسخر أحد زملائه فى الدراسة بفكرة بنوته للإله ، فذهب فايتون ، وهو يتميز من الغيظ والخجل ، إلى أمه يشكو لها ما حدث ، وراح يقول : « إذا كنت حقاً من أبناء السماء ، فقدمي لى يا أمى ما يثبت ذلك ، ودعمى حقى فى هذا الشرف الرفيع ، فبسطت كليمينا يديها نحو السماء وقالت : أشهد الشمس التى ترنو إلينا من عليائها ، أننى صدقتك القول ، فاذا كان فى كلامي مين أو كذب ، فلتكن هذه آخر مرة أرى فيها ضوء الشمس ، ولكن الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء كى تذهب وتتحرى الأمر بنفسك ، فالأرض التى يشرق منها إله الشمس تقع بجوارنا ، فاذهب إليه واسأله عما إذا كان سيعترف بأنك ابنه » ، فابتهج فايتون لما سمع ، وسافر إلى الهند ، وهى تقع مباشرة فى منطقة شروق الشمس ، وهكذا وصل ، وهو مفعم بالأمل والفخار ، إلى المكان الذى يقصده ، حيث يستهل أبوه مجراه كل يوم .

وكان قصر إله الشمس مرفوعاً على عمد تتوهج بالذهب والأحجار الكريمة ، أما الأسقف فكانت من العاج المصقول والأبواب من الفضة ، وكانت دقة الصناعة ومهارتها تفوق المادة ، إذ صور فولكان على الأسوار الأرض والبحر والسماء وما فى جميعها من سكان وكانت الحوريات تسكن البحر ، فبعضهن يداعبن الأمواج والبعض يمتطين ظهور الأسماك ، والباقيات يجلسن على الصخور يجففن شعورهن التى تماثل البحر فى خضرته ، ولم تكن وجوههن جميعاً متماثلة ، ولكنها أيضاً لم تكن غير متماثلة ، ولكنها كانت تبدو كما ينبغي أن تبدو عليه وجوه الشقيقات ، وكان للأرض مدنها وغاباتها وأنهارها وأربابها الأرضيون ، وفوق هذا كله نقشت

صورة السماء ببهائها ، وعلى الأبواب الفضية بروج الملك الاثنى عشر ، ستة على كل جانب .

فارتقى ابن كليمينا المرتفع الوعر ، ودلف إلى قاعات والده المتنازع عليه ، فاتجه صوب الحضرة الأبوية ، ولكنه توقف عن المسير على كثب ، إذ كان الضوء أشد مما يحتمل ، وكان فويبوس ، فى وشاحه الأرجوانى ، متربعاً فوق عرش يسطع كالماس ، وكان يقف ، وعن يمينه وعن يساره ، اليوم والشهر والعام ، وكانت الساعات تمثل بين يديه فى فترات منتظمة ، ووقفت ملكة الربيع وعلى رأسها إكليل من الزهور ، أما الصيف فوقف ، خالعاً إزاره ، ومكللا بأعواد القمح الناضج الذهبية ، والخريف بأقدامه مخضبة بعصير العنب ، والشتاء الثلجى ، بشعره الذى جمدته الثلوج الناصعة ، وإذ هو محاط بحاشيته ، لمح إله الشمس ، بعينه التى ترى كل شيء ، الشاب وقد بهره بهاء المنظروطرافته ، فسأله عن الغرض من مقدمه ، وحينئذ أجابه الشاب قائلا : « يانورالعالم غير المحدود ، أى فويبوس أبى — بعد استئذانك فى استخدام هذا الاسم — أتوسل إليك أن تهبنى برهاناً يثبت انتسابى إليك » وكف عن الكلام ، وعندئذ وضع والده جانباً تلك الأشعة التى تسطع حول رأسه ، وأمره أن يقترب منه ، ثم قال وهو يعانقه : « ليس من النصفة إنكار انتسابك إلى ، وإنى أدعم ما أفضت إليك به أمك ، فسل ما تريد ، كي تبدد شكوكك ، فسأهبك ماتطلب ، وإني أشهد على ما أقول ، تلك البحيرة الرهيبة ، التى لم أرها قط ، ولكننا نحن الآلهة ، « نقسم بها عندما نرتبط بأخطر المواثيق » وسرعان ما طلب فايتون السماح له بقيادة عجلة الشمس الحربية ، فندم الأب على وعده ، وقد هز رأسه الساطعة ثلاث أو أربع مرات محذراً حين قال : « لقد تكلمت فى تهور ، فهذا هو المطلب الوحيد الذى أنكره ، أرجوك أن تسحبه ، فليست هذه العطية مأمونة العواقب ، كما أنها أى فايتون العزيز ، لاتلائم شبابك وقوتك ، فأنت بشرى بينما طلبتك فوق طاقة البشر ، وإنك لتهفو ، بدافع من جهلك لأن تصنع ما لاتقدم حتى الآلهة أنفسهم على

صنعه ، فما من أحد غيرى يقود عربة النهار الملتهبة ، غير جوبتر الذى تقذف يمينه الرهيبة بالصواعق ، فالشطر الأول من الطريق يتسم بالوعورة ، حتى إن الجياد ، وهي ما تزال متمتعة بنضارتها فى الصباح ونشاطها ، لا ترتقيه إلا بشق الأنفس ، أما وسط الطريق فهو ضارب إلى الارتفاع نحو السماء ، حتى إننى شخصياً لا أكاد أستطيع ، دون حرج وتعرض للأخطار ، أن أتطلع إلى أسفل ، وأرى الأرض والبحر ممتدين من تحتى . أما الشطر الأخير من الطريق فينحدر سريعاً ويحتاج إلى قيادة شديدة الحرص والتيقظ ، ولهذا فان تيثيس ، سلطان المحيط كثيراً ما يرتعش فزعاً ، وهو يترقب استقبالى ، خشية أن أسقط على أم رأسى ، أضف إلى ذلك أن السماء تدور دائما وهي تحمل النجوم معها ، ولا بد لى أن أكون دائما على حذر ، لئلا تجرفنى هذه الحركة التى تجرف كل شيء معها ، فهب أنى أعرتك المركبة ، فماذا ستصنع ؟ أفى استطاعتك أن تحتفظ باتجاهك بينما يدور الوجود من تحتك ؟... لعلك متوهم أنك ستجد فى الطريق غابات ومدناً ، ومساكن للآلهة ، وقصوراً ومعابد ، ولكن الأمر على النقيض من ذلك ، فالطريق يجتاز المسوخ والتنانين الرهيبة ، فستمر بقرون الثور ، وأمام رامى السهام ، وبالقرب من فكي الأسد ، وحيث تمد العقرب ذراعيها فى اتجاه معين والسرطان فى اتجاه آخر ، ولن تجد من السهل أن تسوق تلك الجياد ، بصدورها المليئة بالنار والتى تنفثها من أفواهها وخياشيمها ، وإنى لأجد صعوبة فى كسر شكيمتها عندما تجمح وتصعب قيادتها ، خذ حذرك يا ولدى فقد تقضى عليك عطيتى ، واسترد طلبتك ما دام فى قوس الرجاء منزع ، أتسألنى عن دليل يثبت أنك انحدرت من دمى؟ .. هاك الدليل فى الخوف الذى يساورنى من أجلك ، تطلع إلى وجهى — وكم كنت أرجو لو أنك استطعت أن تتغلغل إلى أعماق قلبى ، لرأيت فيه كيف يكون جزع الوالد وفزعه » ، واستأنف قائلا : « أخيراً تطلع حول العالم واخترلك ما يحلو مما تحويه الأرض والبحر من طيبات — واطلب أعزها ولا تخش أن أرفض لك طلبا ، أما هذا وحده فأرجوك ألا تلح فى طلبه ، فان ما تنشده ليس فخاراً بل دمارا ،

ثم تتعلق بعنقى وتواصل الابتهال ؟ ستنال طلبتك إذا أصررت ـ فالقسم قد صدر ولا بد من احترامه — ولكننى أطلب إليك أن تكون أكثر حكمة فى الاختيار » .

واختتم كلامه ، ولكن الشاب انصرف عن كل تحذير ، وتشبث بطلبته ، وهكذا بعد أن اعترض فويبوس وتلكأ أطول وقت مستطاع ، تقدم الركب إلى حيث وقفت المركبة الملكية الرفيعة .

وكانت من الذهب ، هدية من فولكان ، وكان الدنجل من الذهب ، والعريش والعجلات من الذهب ، والبراسق من الفضة ، على المقعد الملكى صفوف من الزبرجد والماس تعكس من حولها لمعان الشمس ؛ وبينما كان الشاب الجسور يتطلع فى إعجاب ، فتح الفجر الباكر أبواب الشرق الأرجوانية على مصاريعها ، فبدأ الطريق وقد تناثرت عليه الورود ، وانسحبت النجوم تسوقها نجمة الصبح ، التى انسحبت أيضاً آخر الكل ، حالما رأى الأب الأرض آخذة فى التوهج ، والقمر يستعد للرحيل أمر الساعات أن تسرج الجياد ، فأطاعت وأخرجت الجياد المطهمة الأصيلة من الحظائر الرفيعة ، وقد طعمت كفايتها من مأكل الآلهة (Amlrosia) ثم ألجمتها ، بعد ذلك غمس الوالد وجه ابنه فى مرهم شديد الأثر ، وهكذا أمده بالقدرة على تحمل وهج اللهيب ، ورصع رأسه بالأشعة ، وبتنهيدة متوجسة قال : « أى ولدى ، إن أخذت بنصحى فى هذا على الأقل ، فتخل عن الصوت واقبض على أزمة الجياد بيد من حديد فهى سريعة العدو لا تحتاج إلى من يستحثها ، والعناء كل العناء فى كبح جماحها ، وعليك ألا تأخذ الطريق الممتد فى إستقامة بين الدوائر الخمس مباشرة ، بل عرج إلى اليسار ، ولا تتخط حدود المنطقة الوسطى ، متجنباً الشمالية والجنوبية على السواء ، وسترى آثار العجلات فتسترشد بها ، وكى تنال كل من السماء والأرض نصيبها المستحق من الحرارة ، لا تعل كثيراً حتى لا تحرق مساكن الآلهة ، ولا تنخفض كثيراً لئلا تشعل النيران فى الأرض ،

فالطريق الوسط أحسن الطرق وأكثرها أمناً ، والآن ها أنذا أتركك لحظك الذى أرجو أن يدبر لك الأمر خيراً مما دبرته لنفسك ، ليس في استطاعتنا أن نتأخر أكثر من ذلك ، فالليل يجتاز الأبواب الغربية إلى الخارج ، هاك أعنة الجياد ، أما إذا كنت أخيراً قد أحسست الخور ، وأردت الافادة من نصحي ، فامكث فى أمان حيث أنت ، ودعنى أقوم أنا بانارة الأرض وتدفئتها » . . . فوثب الشاب الرشيق إلى المركبة ، ووقف منتصب القامة ، وأمسك بأعنة الجياد فى ابتهاج ، وهو يزجى الشكر فى سخاء إلى والده المتبرم .

وفى غضون ذلك كانت الجياد تملأ الجو بصهيلها وأنفاسها الملتهبة ، وتدق الأرض متعجلة نافذة الصبر وكانت الحواجز قد أزيلت ، وسهل الوجود غير المحدود منبسط مكشوف أمامها ، ثم مرقت الجياد وراحت تشق السحب المعترضة ، وتسابق نسيم الصباح الذى بدأ جولته من المرمى الشرقى نفسه ، وسرعان ما أحست الجياد أن الحمل الذى تجره كان أخف من المعتاد ، وكما أن السفينة إذا خلت من صابورتها أو ثقلها المركزى ، تروح تتخبط هنا وهناك فوق سطح البحر ، هكذا كان الحال مع المركبة ، بدون ثقلها المعتاد ، فقد انطلقت مترنحة سائبة كما لو كانت خالية ، وجمحت متخطية طريق السفر المعتاد ، فجزع الفتى ولم يعد يعرف كيف يقودها ، بل لو أنه عرف لأعوزته شدة المراس اللازمة ، ولأول مرة لسعت الحرارة الدب الأكبر والدب الأصغر ، حتى لو أنهما استطاعا ، لما ترددا عن أن يغوصا فى الماء ، أما الحية التى كانت تربض ملتفة حول القطب الشمالى ، متكاسلة غير مؤذية ، فقد سرى الدفء فى عروقها ، ومع الدفء عادت إليها سورة غضبها ، أما راعي الشتاء (Bootes) فيقولون إنه فر هارباً ، على الرغم من محراثه الذى كان يعوقه ، وعدم اعتياده على الحركة السريعة .

وعندما خفض فايتون المنكود الحظ بصره متطلعاً نحو الأرض ، وقد انبسطت آنذاك من تحته فى أبعاد شاسعة ، شحب وجهه واصطكت ركبتاه من فرط الفزع ،

وعلى الرغم من الوهج المحيط به من كافة الجهات ، فقد أعشى بصره ، وكان يود لو أنه لم يمس جياد والده قط ، ولم يقف على أبوته له ، ولم تتحقق طلبته ، فأصبح محولا على غير هدى ، كسفينة تتقاذفها عاصفة هوجاء ، عندما يعجز ربانها عن عمل أى شىء فيستغرق في صلواته ، وإذن فما الذى يصنعه ؟ لقد خلف وراءه شطراً كبيراً من الطريق السماوى ، ولكن لا يزال أمامه شطر كبير ، وهو ينقل بصره بين الاتجاهين ، تارة نحو المرمي الذى بدأ رحلته عنده ، وأخرى إلى مناطق غروب الشمس التى قدر ألا يراها ، فأفلت منه زمام نفسه ولم يعد يدرى ماذا يعمل — أيشد أعنة الجياد نحوه بقوة أو يترك لها الحبل على الغارب وطارت عن ذاكرته أسماء الجياد ، وكان يرى ، وهو مرتعد ، المسوخ المتناثرة فى صفحة السماء ، فهنا مد العقرب ذراعيه العظيمتين ، وبسط ذيله ومخالبه المعقوفة فوق علامتين من برجه الفلكي . وحالما رآه الفتى ينفث السم ويهدد بأنيابه ، أعوزته الشجاعة ، فسقطت الأعنة من يديه ، وإذ أحستها الجياد حرة فوق ظهرها ، اندفعت لا تلوى على شيء ، وجمحت متوغلة فى مناطق السماء المجهولة ، وبين النجوم ، وراحت تمرق بالمركبة فوق أماكن غير مطروقة ، أحياناً فى أعالى السماء وأخرى على وشك أن تمس الأرض ، ورأت ربة القمر ، فى دهشة ، مركبة شقيقها تجرى تحت مركبتها ، وابتدأت السحب تدخن ، وقمم الجبال تشتعل بالنار ولفحت الحرارة الحقول فتهاوى النبت واحترقت الأشجار بأغصانها المورقة وأصبح الحصاد كله شعلة نار ملتهبة ! بيد أن هذه أمور تافهة ، فقد دمرت مدن عظيمة بأسوارها وقلاعها ، وفنيت شعوب بأكملها واستحالت رماداً ، واحترقت الجبال المكسوة بالغابات — اثوس ، طوروس ، تمولوس ، ادتا — وجبل إيدا (Ida) الذى اشتهر يوماً بنافوراته وأصبح الآن جافاً ، وهليكون جبل إلاهات الشعر والموسيقى ، وهاموس ، واتنا بالنيران داخله وخارجه ، وبرناسس بقمتيه ، ورودوبا الذى اضطر أخيراً أن يتخلى عن تاجه الثلجي ، ولم يحم جبال سكيثيا

مناخها البارد ، واحترق جبل القوقاز ، كما احترق أوسا وبندوس وأوليمبوس الذى يفوق الاثنين فى العظمة ، وجبال الأبينين التى تتوجها السحب .

ثم شاهد فايتون العالم يشتعل ناراً ، وأحس الحرارة لا تطاق ، وكان الهواء الذي يستنشقه يلفح كما لو كان من قاع السعير ، وكان الدخان أسود كدجى الليل ، فاندفع إلي الأمام دون أن يعرف له هدفاً ، كذلك أصبح من المعتقد أن بشرة سكان أثيوبيا قد اسودت نتيجة لاندفاع الدم فجأة وبقوة إلي السطح ، وأن ما أصاب صحراء ليبيا من جفاف أسفرت عنه أسباب لا زالت قائمة حتى اليوم وراحت عرائس الينابيع ، بشعرها المرسل دون انتظام ، تنتحب لخلو الينابيع من الماء ، كذلك أصبحت الأنهار مهددة بين شواطئها ، فأصاب الجفاف تانيس ، وكايكوس واكسانثوس وميندر ونهر الفرات البابيلونى والجنج وتاجس برماله الذهبية ، وكايستر موطن البجع ، ولاذ النيل بأذيال الفرار وخبأ رأسه فى الصحراء ، حيث لا يزال مختبئاً ، وحيث اعتاد أن يقذف بمياهه عن طريق سبعة مصبات فلم يبق سوي سبعة مجار جافة ، وتصدعت الأرض ومن خلال هذه الصدوع نزغ الضوء فى عالم الجحيم (Tartarus) وأفزع ملك الأشباح وملكتها وتقلص البحر ، ومن حيث انحسرت مياهه أصبح سهلا جافاً ، أما الجبال التى كانت تربض بين الأمواج فقد رفعت رءوسها وأصبحت جزائر ، ولجأت الأسماك إلي أبعد الأعماق ، وكفت حيوانات الدولتين المائية عن المغامرة باللعب فوق سطح الماء ، بل إن إله البحر نيريوس (Nereus) وزوجته دوريس (Doris) وبناتهما نيريدز (Nereids) لاذوا جميعاً بأعماق الكهوف ينشدون ملجأ ، وثلاث مرات حاول نبتيون أن يرفع رأسه فوق سطح الماء ، فكانت الحرارة تصده فى كل مرة ، وعلى الرغم من أن الأرض كانت محاطة بالماء ، ولكن الرأس والكتفين كانت عارية ، ولذلك حجبت وجهها بيدها ، وتطلعت نحو السماء ، وبصوت أجيش راحت تنادي جوبتر قائلة :

« أى ملك الأرباب ، إذا كنت أستحق هذه المعاملة ، وقد شئت أن

يهلكنى بالنار ، فلماذا تحبس عنى صواعقك ؟ .. دعنى على الأقل أسقط بيدك ، أهذا جزاء خصوبتى وطاعتى ؟ . . أهذا المصير كنت أمد الماشية بالعشب ، والبشر بالفواكه ، والمذابح بالبخور ؟ . . . ولكن إذا كنت أنا غير أهل للاعتبار ، فما الذى صنعه أخى المحيط كي يستحق هذا المصير ؟ . . . فإذا عجز كلانا عن إثارة شفقتك فأتوسل إليك أن تفكر فى سمائك ، وانظر كيف يتصاعد الدخان من القطبين اللذين يحملان قصرك ، الذى لابد سيسقط إن هما أصابهما الدمار ، لقد كل أطلس وهو يحتفظ بحمله بشق الأنفس ، فإذا هلك البحر والأرض والسماء سقطنا فى خاوس القديمة ، خلص ما بقى لنا من اللهب المندلع ، ودبر أمر خلاصنا فى هذه اللحظة الرهيبة ! » .

وهكذا تكلمت الأرض ، وإذ أنهكتها الحرارة والظمأ لم تستطع أن تزيد ، وعندئذ راح جوبتر القادر على كل شىء ، يشهد الأرباب ، ومنهم ذلك الذي أعار مركبته على أنه ما لم يستخدم علاج حاسم سريع ضاع كل شىء ، ومن ثمة اعتلى برجه الرفيع ، الذى ينشر منه سحبه على الأرض ، ويقذف ببروقه المتشعبة ، ولكن السحب انعدمت فى ذلك الحين فلم توجد واحدة تستر وجه الأرض ، كما أنه لم يكن ثمة غيث لم يستنفد ، فأرعد ولوح بصاعقة فى يده اليمنى ، وصوبها نحو قائد المركبة ، وضربه فى نفس اللحظة فأطاح به عن مقعده ومن الوجود ! فسقط فايتون ، وهو مشتعل الشعر ، على أم رأسه ، كما لو كان شهاباً يخط السماء بلمعانه خلال سقوطه ، فتلقاه اريدانوس(Eridanus) النهر العظيم ، وبرد بدنه المحترق ، فأقامت له حوريات البحر الإيطاليات مقبرة ، ونقشت على نصبها الحجرى هذه الكلمات :

قائد مركبة فويبوس ، فايتون ،
سريع رعد جوبتر ، يرقد تحت هذا الحجر ،
لم يستطع أن يقود عربة والده النارية ،
ولكن أمنيته كانت نبيلة حقاً .

وإذ راحت شقيقـاته ينتحبن لمصيره ، استحلن إلى أشجـار حور ، على شواطىء النهر ، أما دموعهن التى لم تنفع ، فقـد تحولت إلى كهرمان بمجرد سقوطها فى مجرى النهر .

ويشير سلمان فى قصيدته سامور « Samor » إلى قصة فايتون بالأبيـات التـالية :

مثل الكون المفلوج ، وقد انقطعت أنفاسه ،
فسكت .... صامتاً لا يتحرك أو يريم ،
حين قاد ، على حد أغانى الشعراء ، الشاب ابن الشمس ،
وهو يتخبط بين أبراج السماء المذعورة ،
مركبة والده التى كانت وبالا عليه ،
فقذف به الرعاد من حالق إلى خليج
اريدانوس ، الموشك على الجفاف ، حيث تبكى
للآن ، الاشجار الشقيقة ، بدموعها الكهرمان ،
فايتون ، الذى مات فى شرخ الشباب .

* * *

وفى أبيات ولتر سافاج لاندر « W. Savage Landor » الجميلة ، التى يصف فيها محارة البحر ، وردت إشارة إلى قصر إله الشمس ومركبته ، على لسان حورية الماء التى تقول :

عندى محارات مموجة لباطنها لون اللؤلؤ ،
واكتسب باطنها هذا البريق الخاطف ،
من رواق قصر الشمس ، فهناك بعد انطلاقه

المركبة الإلهية ، وقفت عجلاتها على كثب من الموج .
وإذن فهز محارة تستيقظ ، ثم دع
ثغرها المصقول يلامس أذناك المصغية ،
وتستعيد المحارة ذكرى موطنها الملكى ،
وتهدر كما كان المحيط يهدر هناك .

* * *

الفصل السادس

ميداس - بوكيس وفليمون

فى حفل خاص ، وجد باخوس أن معلمه ومربيه القديم سيلينوس(Silenus) متخلفان عن الحضور ، وكان الشيخ قد أفرط فى الشراب ، وضل الطريق ، فعثر عليه بعض الفلاحين ، وحملوه إلى ملكهم ، ميداس ، فعرفه ميداس وأكرم وفادته واستمرت ضيافته في مرح متواصل عشرة أيام وعشر ليال ، وفى اليوم الحادى عشر أعاد سيلينوس إلى تلميذه سليما معافى ، فعرض باخوس مكافأة ميداس بأن يحقق له أى طلبة يتخيرها ، فتمنى لو أن كل شيء مسه تحول ذهباً ، فحقق له باخوس أمنيته ، على الرغم من أسفه لعدم إجادته الاختيار ، وسار ميداس فى طريقه ، مبتهجاً بما أحرزه من سلطان جديد ، سرعان ماعمد إلى إختباره ، وبالجهد استطاع أن يصدق بصره عندما التقط غصن بلوط ، فتحول فى يده إلى ذهب ، وأخذ حجراً فاستحال ذهباً ، وتناول قبضة من الثرى فاستحالت ذهباً ، واقتطف تفاحة من الشجرة ، بدت كما لو كانت مسروقة من حديقة هسبريديس (Hesperides) حارسات التفاح الذهبي ، فاستبد به السرور ، وما كاد يعود إلى منزله ، حتى أمر الخدم أن يهيئوا له طعاماً شهياً ، ولكنه وجد ، وهو مرتعد متخاذل ، أنه إذا لمس الخبز تصلب فى يده ، فإذا لمست شفته قطعة منه ، تحدت أسنانه ، فتجرع كأساً من الخمر ، ولكنه انصب فى جوفه كذهب مصهور .

وفى غمرة من الدهشة الفازعة لما أحاق به من شر لم يسبق له مثيل ، حاول أن ينزع عن نفسه هذا السلطان ، إذ كره العطية التى اشتهاها أخيراً ، ولكن دون جدوى ، حتى بدا من الموت جوعاً قاب قوسين أو أدنى ، فرفع ذراعيه ، وهما تسطعان بالذهب ، مبتهلا إلي باخوس أن ينقذه من الدمار التلألىء ، وإذ كان

باخوس إلها رحيماً فقد استجاب لطلبته ، ومن ثمة قال له : « اذهب إلى نهـر بـكتولس، وتتبع مجراه حتى منبعه ، وهناك اغطس برأسك وجسمك ، واغتسل من خطئك وعقابه . » فنفذ الأمر وما كاد يمس المياه حتي انتقل إليها سلطان خلق الذهب ، واستحالت رمال النهر إلي ذهب ، كما ظلت عليه حتى الآن .

ومنذ ذلك الحين إذ عاف ميداس الثروة والمجد، أقام بالريف ، وتعبد لبان إله الحقول ، وفى مناسبة بلـغ الحمق بيسـان حداً دفعه إلى أن يقارن موسيقـاه بموسيقى أبوللو ، وأن يتحدى إله القيثارة ويدعوه إلى اختبار فى المهارة ، فقبل التحدى ، وتم اختيار تمولس إله الجبل للتحكيم بينهما ، فاتخذ الحـكم مجلسه ، وأزال الأشجار عن أذنيه كى ينصت ، وعندما أعطى الإشارة لبان عزف على مزماره نغمة ريفية جافة ملأته نشوة عارمة مع تابعه الأمين ميداس الذى تصادف أن كان حاضراً ، عندئذ أدار تمولس رأسه صوب إله الشمس، واستدارت كل أشجاره معه ، فنهض أبوللو ، وعلى جبينه إكليل من غار جبل برناسوس ، بينـما يتدلى على الأرض رداؤه المصنوع من أرجـوان مدينة صور ، وكان يمسك قيثارته بيسـاره ، ويوقع على أوتارها بيمينه ، فأخذت تمولس روعة الإيقـاع وملـكت عليه لبه ، وفى الحال أعلن فوز إله القيثار ، ووافق الجميـع ، ماعدا ميداس ، على هذا الرأى ، فقد اعترض هذا الأخير متشككا فى عدالة التحكيم ، فـلم يطق أبوللو أن يظل مثل هذا الزوج من الآذان الفاسدة صورة بشرية ، فأمر بها فازداد طولها ، وغزر شعرها ، من داخلها وخارجها ، وأصبحت متحركة تدور حول منابتها ، وبالاختصار أصبحت صورة صادقة من آذان الحمير.

فـكدرت هذه البلية صفو الملك ميداس ، ولـكنه سرى عن نفسه إذ رأى أن فى الامـكان إخفاء نازلته ، وحاول ذلك باستخدام عمامة ضخمة أو غطاء كبير للرأس ، ولـكن حلاقة وقف على سره دون شك ، فتعهد ألا يذكره ، وهـدد بأقسى العقوبات إن هو لم يصدع بالأمر ولـكنه رأى أنه من خطـل الرأى أن

يحتفظ بمثل هذا السر ، ولهذا خرج إلى المراعى ، وصنع حفرة فى الأرض ، ثم مال عليها وهمس إليها بقصته ، وهال عليها التراب ، وقبل انصرام وقت طويل إشرأبت مجموعة كثيفة من أعواد البوص وسط المراعى ، وحالما استكملت نموها راحت تهامس بالقصة ، واستمرت تفعل هكذا منذ ذلك اليوم حتى الآن ، كلما هب نسيم فوقها .

وروى آخرون قصة ميداس مع بعض التغيير ، فدرايدون (Drydon) فى قصيدته « زوجة بقصة اجتماعية » (Wife of Bath's Tale) يجعل ملكة ميداس هي التى تفشى سره .

عرف ميداس ، ولم يفض لأحد
بقصة أذنى جلالته سوى لزوجته .

* * *

وكان ميداس ملكا على فريجية ، وهو ابن جورديوس ، الذى كان قروياً فقيراً نصبه الشعب ملكا عليه ، إطاعة لأمر الوحي الذى نص من قبل على أن ملكهم فى المستقبل سيأتى إليهم فى عربة نقل ، وبينما كان القوم يتشاورون قدم جورديوس ، وبصحبته زوجته وابنه ، وهو يسوق عربته إلى الميدان العام .

وعندما نصب جورديوس ملكا نذر عربته لرب الوحى ، وثبتها فى مكانها بعقدة محكمة ، اشتهرت فيما بعد باسم « عقدة جورديوس » واشتهر معها الزعم القائل بأن من يحلها يسود آسيا بأكملها ، وحاول كثيرون حلها ، ولكن لم يوفق منهم أحد ، حتى قدم الإسكندر الأكبر ، حين قيامه بغزواته ، إلى فريجية ، فجرب مهارته ولكنه أخفق كالآخرين ، حتى إذ نفذ صبره امتشق حسامه وبتر به العقدة بتراً ، فلما استتب له الأمر بعد ذلك وأخضع آسيا برمتها لسلطانه ، بدأ الناس يزعمون أنه استجاب لبعض الوحى وفق معناه الصحيح .

بوكيس وفليمون

فوق ربوة معينة بفريجية تشرئب شجرة زيزفون وشجرة بلوط ، يحيطهما سور منخفض ، وعلى كثب من هذه البقعة يقع مستنقع كان من قبل أرضاً زراعية مأهولة ولكنها الآن وقد غمرتها البرك،أصبحت موطناً لطيور المستنقعات وطيور الفاق المائية ، وذات مرة زار جوبتر هذا الإقليم ، وهو فى إهاب بشرى،وكان يصحبه ابنه عطارد أو ميركوري (حامل العصا السحرية) بدون جناحيه ، فطرقا أبواباً كثيرة ، كسافرين ، منهكين من وعثاء السفر ، ينشدان الراحة والمأوى ، ولكنهما وجدا جميع الأبواب مغلقة إذ كان الوقت متأخراً ، ولم يشأ الأهلون القساة غير الكرماء أن يخفوا لاستقبالهما ، وأخيراً رحب بهماسكان منزل متواضع ، بل كوخ من القش والطين ، حيث كانت بوكيس ، وهي سيدة تقية متقدمة فى السن ، وزوجها فليمون ، قد تزوجا صغيرين ، وعاشا حتى طعنا فى السن ، وإذ لم يجدا فى الفقر مايعيبهما فقد جعلاه هيناً محتملا برغباتهما المعتدلة وطبائعهما الدمثة ، فلم يكن ثمة حاجة عندهما إلى سيد ومسود ، فالمنزل لم يكن يحوى سواهما وهما الخادم والمخدوم على السواء ، وعندما عبر الضيفان الإلهيان عتبة البيت المتواضع وأحنيا رأسيهما كى يمرا من الباب المنخفض ، وضع الشيخ مقعداً ، بسطت عليه بوكيس ، فى نشاط واهتمام ، مفرشاً ، وطلبت إليهما أن يتفضلا بالجلوس ، ثم التقطت بقايا الفحم من الرماد ، وأضرمت ناراً ، غذتها بأوراق الأشجار وقشورها الجافة ، ونفخت فيها بأنفاسها اللاهثة حتى ارتفع لهيبها واستحضرت من ركن بالكوخ بقايا أعواد من الحطب والأغصان الجافة ، وكسرتها ووضعتها تحت إناء الشاى ، وجمع زوجها بضع أعشاب من الحديقة ، ونزع منها سوقها ، وأعدها للاناء ، ثم أنزل بعصاة متشعبة ضلعاً من لحم الخنزير المجفف ، كان يتدلى من المدخنة ، واقتطع منه شريحة وضعها فى الإناء لغليها مع الأعشاب،واحتفظ بالباقى لمرة أخرى ، وملأ بالماء الدافىء إناء من خشب الزان ، كي يغتسل منه الضيفان وخلال ذلك ، راحوا يزجون الوقت بالحديث .

وعلى الأريكة المخصصة للضيفين ، وضعت حشية من أعشاب البحر ، وملاءة لا تستخدم إلا فى المناسبات الهامة ، على الرغم من قدم النسيج وخشونته ، فارتدت العجوز رديئة المطبخ ، وهيأت المائدة بيد مرتعشة ، وكان أحد قوائم هذه المائدة أقصر من بقيتها ، فلم تسترد المائدة توازنها إلا بوضع قطعة من حجر الاردواز وعندما تثبتت دلكتها ببعض الأعشاب ذات الرائحة العطرة ، ووضعت عليها بعض زيتون ميرفا الشهى ، وبعض توت كورتل البرى المحفوظ فى الخل ، وأضافت الجرجير والجبن ، مع بيض مطهى فى رماد نار خابية ، وقدم كل هذا فى أطباق من الفخار وبجانبها وضع دورق من الفخار أيضاً وأقداح من الخشب ، وعندما أصبح كل شىء معداً ، وضع على المائدة إناء به لحم ومرق ويتصاعد منه البخار ، كما وضع وشل من الخمر غير المعتق ، أما الحلوى فكانت تفاحاً وعسلا برياً ، وفوق كل هذا وجوه صديقة وترحيب ساذج ولكن من أعماق القلوب .

وفى أثناء تناول الطعام ، لاحظ الشيخ وزوجته مع بالغ الدهشة ، أن دورق الخمر كلما فرغ ، امتلأ من نفسه ثانية ، فعقد الفزع لسان بوكيس وفليمون إذ عرفا زائريهما الإلهيين ، ومن ثمة سقطا على ركبهما ، وعقدا أيديهما ، وراحا يسألان المغفرة عن وليمتهما المتواضعة ، وكانا يحتفظان بوزة عتيقة ، كحارس لكوخها المتواضع ، فعرضها أن يضحيا بها تكريماً لضيفيهما ولكن الوزة ، مستعينة بجناحيها وساقيها ، كانت من خفة الحركة بحيث أفلتت من مطاردتهما ، وأخيراً وقفت بين الإلهين محتمية بهما ، فحرما ذبحها ، ونطقا بهذه الكلمات : « نحن إلهان ، وستنال هذه القرية غير المضيافة عقابها لعدم تقواها ، ولن ينجو سواكما من هذا القصاص ، غادرا منزلكما وتعاليا معنا إلى قمة الربوة التى هناك » . . . فأطاعا لتوهما ، وراحا يرتقيان المرتفع الوعر ، وكل منهما يتوكأ على عصاه ، وما كادا يصلان إلى رمية سهم من القمة حتى التفتا إلى أسفل فشاهدا القرية وقد غاصت بأكملها فى بحيرة ، ولم يظل قائماً سوى منزلها ، وبينما كانا يتفرسان فى هذا المنظر وهما مبهوران ، وينتحبان لمصير جيرانهما تحول منزلها العتيق إلى معبد ، وأصبحت

قوائم الأركان والزوايا عمدانا ، وأخذ لون السقف فى الأصفرار حتى أصبح نموها بالذهب ، وأصبحت الأرضية من الرخام ، وزينت الأبواب بنقوش وزخارف من الذهب ، ثم تكلم جوبتر فى رفق فقال : « أيها الشيخ الأمجد ، أيتها المرأة الجديرة بمثل هذا الزوج ، تكلما ، أفصحا عن رغباتكما ، أية طلبة ترجوان منا تحقيقها ؟ » ... فتشاور فليمون وبوكيس ثم أفصحا للإلهين عن رغبتهما الموحدة ، فقالا : « نود أن نصبح كاهنين وحارسين لمعبد كما هذا ، وإذ كنا قد عشنا هنا فى محبة وائتلاف ، فإننا نرجو أن ننتقل من هذه الحياة معاً فى ساعة واحدة ، فلا أعيش حتى أشيعها إلى مقرها الأخير ، ولا أن تشيعنى هى وتعيش من بعدى » . فاستجيب سؤلها ، وأشرفا على حراسة المعبد طوال حياتهما ، وعندما طعنا فى السن حتى شاخا ، وقفا يوما ما أمام درج المبنى المقدس ، وراحا يرويان قصة ما حدث ، وإذا ببوكيس ترى فليمون يورق كالشجرة ، كما أن فليمون الشيخ رأى بوكيس تتحول بنفس الصورة ، وهكذا نبت على هامة كل منهما تاج من أوراق الأشجار ، وبينما كانا يتبادلان كلمات الفراق قدر استطاعتهما ، قالا معاً : « وداعاً يا أعز الأزواج » وفى اللحظة ذاتها ختم لحاء الشجر على فم كل منهما ، ومازال الرعاة يشيرون إلى الشجرتين ، المنتصبتين جنباً إلى جنب ، اللتين كانتا من قبل هذا الشيخ الطيب المسن وزوجته .

وحاكى سويفت الشاعر (Swift) ، فى أسلوب هزلى ، قصة بوكيس وفليمون ، فجعل الممثلين ، فى التغيير الذى أحدثه ، اثنين من القديسين السائحين ، وحول المنزل إلى كنيسة ، أصبح فليمون كاهنا لها ، ولعل ما يلى يصلح نموذجا لما كتب :

وأخذ السقف ، وهما يتكلمان ،
يعلو فى ليونة واتزان ؛
وارتفعت كل عارضة وعاتق ،

وبعطه راح يتبعها الحائط ،
واتسعت المدخنة وامتدت بمهارة ،
فاستحالت برج بيعة ومنارة ،
وطار الإبريق إلى القمة ،
حيث استقر ثابت الأزمة ؛
ولكنه أخذ وضعاً مقلوبا ،
كوضعه حين يصب مشروباً ؛
وقضى أن يظل دائماً معلقاً ،
فهو الآن ناقوس لا إبريق ،
ورافعة خشبية لسفود الشواء ،
أهملت فلم تعد تشوى إلا بعناء ،
حل بها تغيير كأنه القضاء ؛
فتروس جديدة زادت بباطنها ،
والعجيب أن الزيادة قللت سرعتها ،
وعلى الرغم من ثقل وزن الرافعة ،
مرنت تدور بسرعة رائعة ،
ولكن قوة خفية أبطأتها ،
فالبوصة فى ساعة قطعتها ،
وتحالفت المدخنة مع الرافعة ،
فهما معاً فى الضيق والسعة ،
فاستحالت المدخنة إلى منارة ،
ولزمت الرافعة صحبتها كجارة ،
وتشبثت بالمنارة فى علياتها ،
واستحالت ساعة حائط بدبهاءها ،
ولتعلقها بأصحابها لازالت معنية،

فتعلن . الظهر بدقات قوية ،
محذرة الطاهية لئلا تحرق ،
اللحم المشوى لعجزها عن تقليبه ،
وابتدأ الكرسى المتأود يزحف ،
على الحائط كقوقعة ضخمة ،
وهناك التصق وظهر للعيان ،
وبتغيير طفيف استحال منبراً للايمان ،
وسرير من الطراز العتيق ،
وزنه ثقيل وخشبه متماسك وثيق ،
كأنه تراث الأسلاف العريق ،
استحال إلى أرائك ببيعة المؤمنين ،
ولكنها فى طبيعتها كأسرة للنائمين ،
فهناك يريم النوم على المصلين .

* * *

الفصل السابع

بروسيربينا ـ جلوكوس وسكيلا

وعندما هزم جوبتر وإخوته جماعة التيتانز ونفوهم إلى منطقة الجحيم (Tartarus) انبرى للآلهة أعداء جديرون ، هم العمالقة : تيفون (Typhon) وبرياريوس (Briareus) وانكلادوس (Enceladus) وآخرون ، وكان لبعضهم مائة ذراع ، والبعض الآخر كانوا ينفثون ناراً ، فقهرهم الآلهة فى النهاية ودفنوهم أحياء تحت جبل اتنا ، حيث لا زالوا يجاهدون أحيانا بغية الفكاك ، فيهزون الجزيرة كلها ويبتلونها بالزلازل ، وتندفع أنفاسهم متلاحقة من أغوار الجبل ، وهو ما يدعوه الناس بثوران البركان .

واهتزت الأرض لسقوط هذه المردة ، حتى انزعج بلوتو ، وخشى أن تنكشف مملكته وتتعرض لضوء النهار ، وفي غمرة من هذا الذعر ، اعتلى مركبته التى تجرها جياد سوداء ، وقام بجولة تفتيشية ، ليقف بنفسه على مدى الأضرار ، وإذ هو منهمك على هذه الحال ، شاهدته فينوس ، وكانت جالسة على جبل أريكس تداعب صغيرها كيوبيد ، فقالت لابنها : « خذ سهامك التى تهزم بها الجميع ، وأرشق سهما منها فى قلب الملك المظلم الذى يحكم مناطق الجحيم ، فلماذا يفلت هو من دون الآلهة جميعا ؟ ... انتهز هذه الفرصة لتوسيع مملكة كل منا ، ألا ترى أن البعض ، حتى فى السماء يستهين بسلطاتنا ؟ فمينرفا الحكيمة ، وديانا الصيادة تتحديانا ، كما تهدد ابنة كيريس بالاقتداء بهما : والآن إن اهتممت حقا بمصلحتك ومصلحتى فاجمع بين هذين الاثنين فى واحد » . . . فحل الصبى عقدة جعبته ، واختار أحد سهامه وأصدقها ، ثم شد القوس على ركبته ، وثبت الوتر ، وعندما أكمل تأهبه ، أطلق السهم ذا الكلاب رأسا فى قلب بلوتو .

توجد، فى وادى إنا (Enna)، بحيرة ظليلة بالأحراش التى تحجب عنها أشعة الشمس المتوقدة، بينما الأزهار تغطى الأرض الندية، والربيع باسم الثغر على الدوام، وهنا كانت بروسيربينا تلعب مع رفيقاتها، فراحت تجمع الزنابق وزهرات البنفسج، وتملأ بها سلتها وردينتها، وعندئذ رآها بلوتو فأحبها واختطفها، فصرخت تستغيث بأمها ورفيقاتها، وإذ هى مذعورة وقد تدلت أطراف ردينتها، وأسقطت زهورها، وأحست، كما يحس الأطفال، أن هذه الخسارة قد ضاعفت حزنها، فاستحث المغتصب جياده على العدو، وهو ينادى كل واحد منها باسمه، وقد أطلق لها أعنتها، ذات اللون الحديدى، وعندما وصل إلى نهر كيانا، الذى اعترض طريقه، ضرب شاطئه برمحه المثلث الشعب، فانشقت الأرض، وهيأت ممراً إلى ترتروس.

فراحت كيريس تبحث عن ابنتها فى كافة أنحاء العالم، وفى الصباح عندما برزت أورورا، ذات الشعر اللامع، وفي المساء عندما ساق هسيروس النجوم أمامه، وجداها لا زالت منهمكة فى البحث، ولكن دون جدوى، وأخيراً، وقد أنهكها التعب والأسى، جلست فوق حجر، واستمرت جالسة، تسعة أيام وتسع ليال، في العراء، تحت أشعة الشمس، وضوء القمر، والمطر المنهمر، وكان ذلك حيث تقوم الآن مدينة اليوسيس (Eleusis)، وحيث كان يقع منزل شيخ يدعى سليوس (Celeus)، كان آنئذ فى الحقل يجمع ثمار البلوط والتوت البرى الأسود وحطباً للوقود، وكانت ابنته عائدة إلي المنزل، وهى تسوق أمامها عنزتين، عندما مرت بالإلاهة، وهى متخفية فى زى عجوز فقالت لها: «أماه — وكان الاسم حلواً فى أذنى كيريس — لماذا تجلسين هنا على الصخور، وأنت وحيدة؟...» كذلك وقف الشيخ، على الرغم من ثقل حمله، وطلب إليها أن تصحبه إلى كوخه، وهى على حالها، فرفضت ولكنه ألح عليها، فأجابت «اذهب بسلام واسعد بابنتك، لقد فقدت وحيدتى». وإذ هى تتكلم انهمرت الدموع — أو ما يشبه الدموع، فالآلهة لا تبكى قط — على خديها إلي

صدرها ، فشاركها الشيخ الشفوق وابنته بكاءها ، ثم قال : «تعالى معنا ولا تحتقرى منزلنا المتواضع ، حتى ترد إليك ابنتك فى أمان » . . . فأجابته قائلة : « سر أمامي ، فلست مستطيعة أن أرد مثل هذا الرجاء ! » . . . وهكذا نهضت من فوق الصخر وذهبت معهما ، وبينما كانوا يسيرون ، أخبرها أن ابنه الوحيد ، وهو صبي صغير ، يرقد فى الفراش مريضاً ، محموماً ، مؤرقاً ، فانحنت والتقطت بعض ثمار الخشخاش ، وعندما دخلوا الكوخ وجدوا الحزن مخيماً عليه ، إذ بدا أنه لم يكن هناك أى أمل فى شفاء الصبي ، فاستقبلتها ماتانيرا أمه ، فى رقة ، وانحنت الإلاهة على الطفل المريض وقبلت شفتيه ، وفي الحال زايل الشحوب وجهه ، واسترد جسده الحيوية والعافية ، فعم السرور جميع أفراد الأسرة ، أعنى الأب والأم والابنة الصغيرة ، وهم الجميع ، إذ لم يكن للأسرة خدم ما ، فأعدوا المائدة ، ووضعوا جبناً وقشدة وتفاحا وشهداً ، وعندما كانوا يتناولون الطعام مزجت كيريس عصير الخشخاش فى لبن الصبي ، وعندما أقبل الليل ، وخيم السكون على كل شيء ، نهضت وحملت الطفل النائم ، وراحت تشد على أعضاء جسمه بيديها ، وهي تتمتم بتعويذة رهيبة ، كررتها ثلاث مرات ، ثم اتجهت صوب رماد النار ووضعته فيه ، ولكن الأم التى كانت تراقب ما تصنعه ضيفتها ، قفزت إلى الأمام صارخة ، وانتشلت طفلها من النار ، حينئذ أخذت كيريس شكلها الحقيق ، وسطع من حولها بهاء إلهي ، وإذ هم فى غمرة من الدهشة قالت : «أيتها الأم ، لقد كنت قاسية فى شغفك بابنك ، إذ كنت سأجعله خالداً فأحبطت محاولتى ، وعلى الرغم من ذلك فسيكون عظيما ونافعاً ، وسيعلم الناس استخدام المحراث ، وما يجنيه العمل والجهد من خيرات الأرض المنزرعة » ، وحين قالت ذلك ، سربلت نفسها بغمامة ، وركبت عربتها ، واختفت عن الأنظار .

وواصلت كيريس البحث عن ابنتها منتقلة من بلد لأخرى ، عبر البحار والأنهار ، حتى عادت أخيراً إلى صقلية ، من حيث بدأت رحلتها ، ووقفت عند شواطىء نهر كيانا ، حيث شق بلوتو لنفسه ممراً ، ومعه غنيمته ، إلى أملاكه ،

وكانت حورية النهر تود أن تفضي إلى الإلاهة بكل ماشاهدته ، ولكنها لم تجرؤ ، لخوفها من بلوتو ، فاقتصرت على أن ألقت ، عند أقدام الأم ، نطاق بروسيربينا التى سقطت منها خلال فرارها ، وإذ وقفت كيريس على هذا ، زال عنها الشك فيما يتعلق بالكارثة التى حاقت بها ، ولكنها لم تكن قد عرفت العلة بعد ، وألقت الملامة على عاتق الأرض البريئة ، وراحت تقول : « أيتها الأرض الجامدة الناكرة الجميل ، التى منحتها الخصب ، وكسوتها بالعشب والقمح المغذى ، لن أغدق عليك نعمى بعد الآن » ثم ماتت المواشى ، وانكسر المحراث فى أخدود الأرض ، وعجزت الحبوب عن الإنبات ، فلم تنبت الأرض سوي الحسك والأشواك ، وإذ رأت النافورة أريثوسا (Arethusa) هذا ، تشفعت لأجل الأرض قائلة : « أيتها الإلاهة ، تعودى باللائمة على الأرض ، فقد انشقت عن ممر لابنتك وهى راغمة وفى استطاعتى أن أخبرك عن مصيرها ، لأنى رأيتها ، هذه البلاد ليست وطنى ، فقد جئت إليها من اليس ، وكنت حورية فى الأحراش ، ولشد ما كان الضيد يبهجنى ، وكثيرون أطروا جمالي ، فما كنت أبالى بهذا قط ، وما كنت لأفخر إلا بمغامراتى في الصيد والقنص ، وفى يوم ما كنت عائدة من الغابة ، وقد أجهدنى الطراد ، فأقبلت على ينبوع ماء يتدفق دون هدير ، وكان من الصفاء بحيث تستطيع أن تعد الحصوات التى فى قاعه ، وكانت أشجار الصفصاف تظلله ، والشاطىء المعشوشب ينحدر إلى حافة الماء ، فتقدمت ومسست الماء بقدمي ، ثم توغلت فيه حتى وصل إلى ركبتي ، وإذ لم أقنع بهذا ، خلعت ثيابى ، وعلقتها على أشجار الصفصاف ، واندفعت إلى الأعماق ، وإذ كنت أمرح فى الماء ، سمعت تمتمة خافتة كأنما كانت صادرة من أعماق المجرى ، فأسرعت بغية الفرار إلى أقرب شاطيء ، فلاحقنى الصوت وهو يقول : « لماذا تفرين يا أريثوسا ؟ أنا ألفيوس إله هذا النهر » . فجريت وهو يطاردنى ، ولم يكن أسرع منى ، ولكنه كان أقوى ، فلحق بى إذ خانتنى قواى ، أو كاد ، وأخيراً عندما أنهكنى العدو وأجهدنى ، صرخت استغيث بديانا ، أغيثينى أى ربتى ! أغيثي تابعتك ! فسمعت الإلاهة وسربلتنى بغتة بغمامة

كثيفة ، وراح إله النهر يبحث عنى فى مختلف المسالك ، ومرتين أصبح منى قاب قوسين أو أدنى ، ولـكنه لم يستطع أن يهتدل على مكانى ، فراح يصرخ مناديا أريثوسا ! أريثوسا ! فارتعشت أوصالي كحمل يسمع عواء الذئب خارج القطيع ومن ثمـة غمرنى عرق بارد ، وانهمر من شعر رأسى كالقرب ، حتى تكونت بركة ماء عند قدمى ، وفى فترة أقصر مما تحتاجه رواية ما حدث ، تحولت إلى نافورة ، ولـكن الفيوس عرفنى فى هذا الشكل ، وحاول أن يخلطنى بمجراه ، فشقت ديانا الأرض ، وقفزت فى فوهة الشق بغية الفرار منه ، وتسربت داخل أحشاء الأرض ، حتى برزت متدفقة هنا فى صقلية ، وفى أثناء مرورى داخل المناطق السفلى من الأرض ، رأيت ابنتك بروسيربينا ، كانت حزينة ، ولـكن لم تـكن تبدو على وجهها علامات الانزعاج ، بل عليها سمات ملـكة — ملـكة أريبوس — العروس القوية لملك مناطق الموتى »

فعندماسمعت كيريس هذا ، وقفت فترة كمن تبلد حسه ، فحولت مركبتها صوب السماء ، وأسرعت للمثول عند عرش جوبتر ، حيث روت قصة ثكلها ، وابتهلت إليه أن يتوسط لإنقاذ ابنتها المغتصبة وردها إليها ، فقبل جوبتر على شرط ألا تـكون بروسيربينا قد تناولت أى طعام خلال وجودها بالعالم السفلى ، وإلا فالأقدار تحرم إطلاق سراحها ، وبناء على ذلك توجه مركيوري ، بصحبة إله الربيع ، لإسترداد بروسيربينا من بلوتو ، فقبل الملك الماكر ، ولـكن وا أسفاه ! فالفتاة كانت قد أخذت رمانة من بلوتو ، وامتصت اللباب الحلو من بضع حبات ، فـكان هذا كافيا للحيلولة دون إطلاق سراحها إطلاقاً تاماً ، ولـكن تم التراضى على أن تقضى نصف الوقت مع أمها والنصف الثانى مع زوجها بلوتو .

فهدأت ثائرة نفس كيريس بهذا الاتفـاق ، ومن ثمة أغدقت على الأرض آلاءها من جديد ، وعندئذ تذكرت سليوس وأسرته ، ووعدها لابنه الطفل تربتولمس فلما شب الصبى واشتد عوده ، علمته كيف يستخدم المحراث وكيف يبذر الحبوب ،

فأخذته فى مركبتها ، التى تجرها التنانين المجنحة ، وتوغلت به فى كافة أنحاء العالم ، حيث وزعت على جميع البشر الحبوب الثمينة ، وأصول علم الزراعة ، وبنى تربتولمس ، بعد عودته ، معبداً فخما لـكيريس ، فى اليوسيس ، وأنشأ عبادة الآلهة ، تحت اسم الأسرار الأليوسية ، وقد فاقت هذه العبادة كافة احتفالات اليونان التى تقدمتها ، من حيث روعتها وجلال مراعاتها .

وما من شك أن قصة كيريس و بروسيربينا هذه من قبيل القصص الرمزى ، فبروسيربينا ترمز إلي حبة القمح التي تظل مختفية تحت الأرض عند بذرها بها — فهذه هي واقعة حمل إله العالم السفلي لها — ثم تعود إلى الظهور — وهذه واقعة عودة بروسيربينا لأمها ، وإعادة الربيع لها إلى ضوء النهار .

ويشير ملتون إلى قصه بروسيربينا فى « الفردوس المفقود » السفر الرابع :

« . . . لم يكن حقل إنا الجميل
حيث راحت بروسيربينا تجمع الأزهار ،
فاقتطفها ديس الكئيب ، إله الظلام ،
وحيث راحت كيريس ، فى عناء بالغ ،
تجوب العالم بحثاً عن ابنتها ، —
أجل ، لم يكن لينافس فردوس عدن . »

*
* *

واستخدم هود فى قصيدته « أغنية للكآبة » نفس الإشارة بأسلوبه فى اللطف :

مســـامحنى إذا أمسيت إلى حين
فى غمرة الكرب القادم سعادتى الحاضرة ؛
كما أسقطت بروسيربينا المذعورة
أزهارها حـــين رأت ديس

*
* *

والواقع أن نهر ألفيوس يختفى تحت الأرض فى جزء من مجراه ، ويتخذ طريقه فى قنوات جوفية حتى يظهر ثانية على السطح ، وقيل إن نافورة اريثوسا التى بصقلية هي نفس الينبوع الذى يبرز ثانية فى صقليه ، بعد مروره تحت البحر ، ولهذا روي الرواة أن أحدهم ألقي بقدح فى مجرى ألفيوس ، فظهر ثانية فى اريثوسا ، وهذه الأسطورة عن مجرى نهر ألفيوس الجوفى هي التى أشار إليهـا الشاعر كوليردج (Coleridge) فى قصيدته « كوبلا خان » (Kubla khau) :

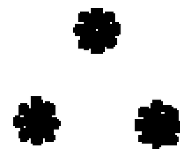
فى اكسنادو ، قضى كوبلا خان
بإنشاء قبة فخمة تشرح الصدور ،
حيث يخترق نهر آلف المقدس
كهوفا ، لايسبر غورهـا إنسـان
منحدراً إلى بحر لا يرى الشمس .

*
* *

وفى إحدى قصائد مور الشبابية يشير هـكذا إلى القصة ذاتها ، وإلى عملية إلقاء أكاليل الزهر أو غيرهامن الأشياء الخفيفة ، فى مجراه ، للهبوط بها إلى جوف الأرض ، وإعادتها ثانية عند انبعاثه :

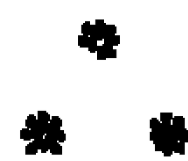
أى حبيبتى ! ما أحلى البهجة الإلهية الطاهرة ،

التى تتوافر عندما تتلاقى الأرواح المتـآلفة !
مثل إلـه النهـر الذى تتدفـق مياهـه ،
خلال كهوف جوفية لا ينيرهـا سوي الحب ،
تهادي فى انتصـار حامـلة جدائل الأزهـار ،
وخواتم الأعياد ، التى رصع بها عذارى أوليموس مجراه ،
كقربان مقبول ، يضمنه عندأقدام أرينوسا المتلألئة .
ثم تسوري ، عندما يقابل أخيراً عروسه النافورة ،
أى حب نموذجى لا بد سيحس التيار المختلط نشوته !
فـكل منهما يتلاشى فى الآخر ، حتى يمتزجا ويتوحدا ،
ويماثل نصيب كليهما من الظل أو من ضوء الشمس
فحسبها نسيج وحده ، فى صـدقه وعمقـه .



وفيما يلى مقتطف من قصيدة بلور بعنوان « قواف فى الطريق » يصف صورة شهيرة للمصور البانو ، فى ميلان ، تسمى « رقصة العشاق » :

احتفـالا بسرقة زهـرة إنـا مـن الأرض
تـؤدى هـذه الحسان رقصهن البهيجـة ،
حول الشجرة الخضراء ، كالحوريات فى المروج ،
اللاتى تشابـكت المتقاربات منهن فى انتظـام ،
فتلاصقت خدودهن كبراعم إكليل من الأزهار ،
أما البعيـدات منهـن نخفضن الرءوس فى خفـر ،
وتلألأت عيونهن من تحت أجنحـة الأخريات .
عندئذ طار أخوهن الاكبر ، بـين الغمام ،
ليخـبر أمـه المأخـوذة ، وهـو باش مبتهـج ،
بحيـلة بلوتو ، فاستدارت تستقبل النبـأ بقبـلة .



جلاوكوس وسكيلا

كان جلاوكوس صياداً للسمك ، وفى يوم ما سحب شباكه إلى البر ، وقد أمسكت بعدد كبير من الأسماك المختلفة الأنواع ، فأفرغ شبكته ، وشرع فى تصنيف السمك على العشب ، وكان المكان الذى وقف عليه جزيرة جميلة فى نهر ، وهي بقعة منعزلة غير مأهولة ، وغير مستعملة فى رعى المواشى ، ولم يزرها قط أحد سواه ، وبغتة بدأت الأسماك التى كانت قد وضعت على العشب ، تدب فيها الحياة ، وتحرك زعانفها كما لو كانت فى الماء ، وإذ هو يتطلع إليها فى دهشة ، تحركت جميعها صوب الماء ، وقفزت فيه ، وسبحت مبتعدة عن الشاطىء ، ولم يدر بما يؤول هذا ، وما إذا كان أحد الأرباب قد صنع ذلك ، أو أنه تم بقوة خفية فى العشب ، ثم هتف قائلا : « أى عشب له مثل هذه القوة ؟ وإذا جمع بعضاً منه ، ذاقه ، فما كاد عصير النبات يصل إلى حلقه ، حتى استبدت به لهفه عارمه تدفعه نحو الماء دفعاً ، فلم يستطع المقاومة . وإذ ذاك ودع الأرض وقذف بنفسه فى اليم ، فاستقبلته آلهة الماء أحسن استقبال ، وأكرموه إذ أفسحوا له مكاناً فى جماعتهم ، وحصلوا على موافقة أوكيانوس وتيثيس ، ملكي البحر ، لإزالة كل مافيه من صفات البشرية الفانية ، فتدفقت من فوقه مياه مائة نهر ، ففقد كل إحساس بطبيعته الأولى كما غاب تماماً عن الوعى . فلما استرده وجد نفسه متغيراً فى الهيئة والفكر ، فشعره أصبح أخضر كالبحر ، متهدلا خلفه فوق الماء ، واتسع ما بين منكبيه ، أما فخذاه وساقاه فقد تحولت وأخذت شكل ذيل السمكة ، فأطرته آلهه البحر على التغير الذى طرأ على منظره ، أما هو فخيل إليه أن شكله يبهر الناظرين .

وفى أحد الأيام شاهد جلاوكوس الصبية الفاتنة سكيلا ، صفية عرائس الماء ، تتهادى فوق الشاطىء ، وعندما وجدت ركناً مستوراً من النهر ، راحت تغمر أعضاء جسمها اللدن فى مائه الصافى ، وقع فى هواها ، ومن ثمه برز إلى السطح ، وراح يخاطبها بعبارات ظن أنها لابد ستغريها بالبقاء ، إذ استدارت لتفر منه فور

رؤيتها له ، وأخذت تعدو حتى اعتلت صخرة تطل على البحر ، وهنا توقفت والتفتت لترى ما إذا كان ربا أو حيواناً بحرياً ، ولاحظت ، وهى متعجبة ، شكله ولونه . فأخرج جلاوكوس من الماء جزءاً من جسمه . وأسند نفسه إلى صخرة وقال : « أى فتاتى ، لست مسخاً أو حيواناً بحرياً ، بل رباً ، وليس بروتيوس أو تريتون بأعلى منى مرتبة ، لقد كنت بشراً يوماً ما ، وكنت ألتمس رزقى من البحر ، أما الآن فأنا له بكليتى ، ثم روى قصة تحوله ، وكيف ارتقى إلى رتبته الحالية . ولكن أى نفع أجتنيه من هذا كله ، إذ لم أصل به إلى قلبك ؟ » ... واستمر يضرب على هذا الوتر . ولكن سكيلا استدارت وأسرعت مبتعدة عنه .

فأسقط فى يد جلاوكوس ، ولكن خطر على باله أن يستشير الساحرة كيركا (Circe) . ومن ثمة عاد إلى جزيرتها — وهى نفس الجزيرة التى رسا عليها يولسيس بعد ذلك ، كما سنرى فى إحدى قصصنا القادمة — وبعد تبادل التحيات الودية قال : « أيتها الإلاهة ، أبتهل إليك أن تشفقى على ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تخففى عنى الألم الذى أعانيه ، فإنى أعـرف ، كما يعرف غيرى ، أثر الأعشاب ، ذلك لأنى مدين لها بتغيير هيئتى ، إنى أعشق سكيلا ، ولشد ما يخجلنى أن أخبرك كيف توددت إليها ، وما قدمته لها من عهود ، وكيف قابلتنى بالزراية والصدود ، أتضرع إليك أن تستخدمى تعاويذك أو أعشابك القوية الفعالة ، إذ كانت أشد أثراً ، لا لشفائى من الحب — فهذا ما لا أبغيه — ولكن لدفعها إلى مشاركتى فيه ، والاستجابة لى بتثل عاطفتى » ... وإذ تأثرت كيركا بجاذبية رب البحر الأخضر فقد أجابته قائلة : « يجمل بك أن تنشد هدفاً طيعاً ، وإنك لجدير بأن يجد الناس فى أثرك ، لا أن تجد أنت فى أثرهم دون جدوى ، لا تقلل من شأن نفسك ، بل اعرف قدرك ، فإنى أؤكد لك أنى على الرغم من ربوبيتى ، وعلمى بخواص النباتات وتأثير التعاويذ ، لا أدرى كيف ترفضك ، فما دامت قد ازدرتك فازدرها ، وقابل واحدة تكون مستعدة لمقابلتك فى منتصف الطريق ،

وهكـذا هيء رجما مناسباً للاثنين في وقت واحد . » .. فأجاب جلاوكوس على هذه الـكلمات بقوله : « إن نمو الأشجار في قاع المحيط ، وأعشاب البحر فوق قم الجبال ، لأيسر من أن أكف عن حبي لسكيلا ، وسكيلا وحدها . »

فاغتاظت الإلاهة ولـكنها لم تستطع معاقبته ، بل إنها لم تـكن لتبغى ذلك ، إذ أحبته حقاً ، ولهذا صبت جام غضبها على منافستها المسكينة سكيلا ، فاستحضرت نباتات ذات خواص سامة ، وخلطتها ببعضها مع تعاويذ ورقيات ، وشقت طريقها بين جموع من الوحوش المتوثبة ، ضحايا سحرها ، وأشرفت على ساحل صقلية حيث تقيم سكيلا ، وكان على الشاطىء هناك خليج صغير اعتادت سكيلا أن تتردد عليه كلما اشتدت حرارة النهار ، كي تستنشق هواء البحر ، وتستحم في مياهه ، وهنا سكبت الإلاهة مزيجها السام ، وتمتمت عليه تعاويذ ذات أثر قوى ، فأقبلت سكيلا كالمعتاد ، وألقت بنفسها في الماء حتى خصرها ، واشد ما كان رعبها عندما رأت ذرية كاملة من الأفاعي والمسوخ النابحة تحيط بها ! ولم تستطع في مبدأ الأمر أن تتصور أن هذه المسوخ والأفاعي كانت جزءاً منها ، وحاولت أن تفر منها وأن تبعدها عنها ، ولـكنها حيثما جرت حملتها معها ، وعندما حاولت أن تلمس أعضاء جسمها ، وجدت أن يديها لا تمس سوى أفواه المسوخ الفاغرة ، فاستقرت سكيلا في مكانها لا تتحول عنه أو تريم ، وساء طبعها كما ساء منظرها ، فراحت تتسلى بالتهام البحارة المنـكودى الحظ الذين وقعوا في قبضتها ، وهكذا قضت على ستة من رفاق يوليسيس ، وحاولت أن تحطم سفن إينياس ، حتى استحالت في النهاية إلى صخرة ، ولا زالت ، وهي على هذه الحال ، تبعث الرعب في نفوس الملاحين .

وأعطى الشاعر كيتس في قصيدته « انديميون » (Endymion) صيغة جديدة لنهاية « جلاوكوس وسكيلا » فجعل جلاوكوس يستجيب لملاطفات كيركا ، التي تصادف أن كان شاهد عيان لمعـاملاتها مع وحوشها ، فنفر نفوراً شديداً من

خيانتها وقسوتها ، وحاول أن يفر منها ، ولكن تم القبض عليه وإعادته إلى كيركا التى نفته بعد أن أشبعته لوماً وتقريعاً ، إذ قضت عليه بأن يعيش ألف عام يعاني من انحلال الشيخوخة وأوصابها ، فعاد إلى البحر حيث وجد جثة سكيلا التى لم تمسخها الالاهة بل أغرقتها ، وعلم جلاوكوس أنه قد قدر له أن يقضي ألف عام يقوم خلالها بجمع أجساد غرقى العشاق ، وفى نهاية هذه المدة يظهر شاب أثير عند الآلهة ، ويخف لنجدته ، وقد حقق انديمون هذه النبوءة ، وساعد على استرداد جلاوكوس لشبابه ، وإعادة سكيلا وجميع غرقى العشاق إلى الحياة

وفيما يلى وصف لمشاعر جلاوكوس بعد « تغييره البحرى » :

وثبت للحياة أو الموت ، وقد بدا مؤلماً
أن يمزج المرء خواصه بمادة يصعب تنفسها ،
ولذلك لم يكفنى إعجابى بالمادة البللورية الناعمة ،
ولا بخفتها حول أطرافى ، وفى البداية عشت
أياماً إثر أيام ، وأنا فى غمرة من العجب ،
وفى غفلة تامة عن مطالب نفسى ،
فلم تعد تثيرنى سوى حركات المد والجذر القوية ،
وكعصفور نبت ريشة ليواجه برد الصباح ،
رحت أجرب ، وأنا متهيب ، أجنحة غريزتى ،
وإذا بى حر طليق ! فقمت فوراً بزيارة
عجائب قاع المحيط ، التى لا يبلى قشيبها ..

الفصل الثامن

بيجاليون — دريوبا — فينوس وادونيس
ابوللو وهيا كنتوس

عاين بيجاليون الكثير مما يعيب النساء ، حتى أدى به الأمر فى النهاية إلي أن مقت جنسهن ، وعقد العزم علي أن يعيش عزباً ، وكان نحاتاً فصنع بمهارة عجيبة تمثالا من العاج ، غاية في الجمال ، حتى كانت النساء تتوارى منه مبهورات ، وكان هذا التمثال نموذجا كاملا لفتاة تبدو عليها علامات الحياة ، ولم يمنعها من الحركة سوى حياؤها، وكان فنه متقناً كاملا حتى لقد أخفى نفسه وبدا انتاجه كما لو كان من صنع الطبيعة ، وأعجب بيجاليون بما صنع ، وأخيراً وقع فى غرام مخلوقته المقلدة ، وفى كثير من الأحيان كان يمسها بيده ، غير مصدق أنها من العاج فحسب وكان يلاطفها ويغدق عليها الهدايا التي تؤثرها الصبايا — الأصداف اللامعة والأحجار المصقولة والعصافير الصغيرة والأزهار المختلفة الألوان والمسابح والكهرمان، وكان يكسوها بالثياب ، ويزين أصابعها بالمجوهرات ، ويضع قلادة فى عنقها ، وحليا فى أذنيها ، وخيوطاً من حبات اللؤلؤ فوق صدرها ، وكان اللباس يوائمها ، حتى إن فتنتها وهي مكسوة لم تكن لتقل عن فتنتها وهي عارية، وأضجعها في فراش عليه ملاءة من صناعة مدينة صور وصباغتها ، ودعاها زوجته ، وأسند رأسها إلى وسادة من الريش الناعم الخفيف ، كما لو كان فى استطاعتها أن تستمتع بنعومته وخفته.

وحل موعد مهرجان فينوس ـ وهو مهرجان يحتفل به فى قبرص بأبهة عظيمة ـ فقدمت الضحايا ، وتصاعد الدخان من المذابح ، وملأت رائحة البخور الهواء ، وعندما قام بيجاليون بدوره فى الحفلات الدينية ، وقف أمام المذبح وقال

بخشوع « أيتها الالهة ، يامن تستطيعين أن تصنعي كل شيء ، أبتهل إليك أن تمنحيني زوجة لي » — ولم يجرؤ أن يقول «فتاتي العاجية» ولكنه قال بدلا من ذلك «واحدة مثل فتاتي العاجية» ـ فسمعته فينوس التي كانت حاضرة بالمهرجان وعرفت ما كان يجول بخاطره ويود النطق به ، وكعلامة على استجابتها وإلا انها ، جعلت اللهيب ، على المذبح ، يندلع ثلاث مرات ، وهو يتوهج في الهواء ولدى عودته للمنزل ، ذهب ليرى تمثاله وانحنى على الفراش وطبع قبلة على فمه ، فبدا دافئاً ، فضغط ثانية على الشفتين ، ووضع يده على الأعضاء ، فاستلان العاج للمسته وبدا تحت أصابعه طرياً كشمع هيمتوس ، وإذ هو واقف ، في غمرة من الدهشة والسرور ، على الرغم من شكه وخشيته أن يكون مخطئاً ، راح يتحسس ، في توله العاشقين ، محط آماله ، المرة تلو المرة . إنه حي دون شك ! فقد لانت الشرايين تحت الأصبع عند ضغطها ثم عادت إلى استدارتها كما كانت ، وأخيراً أسعفت عابد فينوس الألفاظ فراح يشكر بها الإلاهة ، كما راح يضغط بشفتيه على شفتين طبيعيتين مثلهما ، فأحست العذراء حرارة القبلات واحمرت خجلا ، وإذ فتحت عينيها في خفر ، تستقبل الضوء ، شرعتهما ، في نفس اللحظة ، نحو حبيبها ، وباركت فينوس العروسين والعرس الذي هيأته لهما ، وثمرة لهذا الزواج ولد بافوس ، وهو الاسم الذي أطلق على مدينة فينوس المقدسة .

واستخدم شلر ، في قصيدته «المثل العليا» قصة بيجماليون منوها بحب الطبيعة في قلب فتى ، وفيما يلي ترجمتها (عن الألمانية) أمدني بها صديق :

بابتهالات تمازجها عواطف دافقة ،
عانق بيجماليون تمثاله الحجري ،
حتى توهج الرخام البارد ،
وانبثقت منه أضواء العاطفة ،
فضممت أنا الآخر ، في حمية الشباب ،

الطبيعة الساطعة ، إلى قلب شاعر ،
فإذا النفس والدفء والحيوية ،
تباو وقد مرقت داخل التمثال .

* * *

وأحرز التمثال الصامت ملكة التعبير ،
إذ شاركني غيرتي بأكملها ،
فاستجاب لقبلة شبابي الجسور ،
وأدرك دقات قلبي السريعة ،
ثم عاشت الطبيعة البهية لأجلي ،
فالجدول الفضي تدفقت أغانيه ،
والأشجار والورود شاركتني النشوة ،
فهي صدى لحياتي غير المحدودة .

* * *

دريوبا

كانت دريوبا وأيولا شقيقتين ، وكانت الأولى منهما زوجة لاندرامون ، فأحبها زوجها ، وسعدت بميلاد ابنها البكر ، وفي ذات يوم راحت الشقيقتان تسيران الهوينا صوب جدول ماء ، ينحدر شاطئه ، في رفق ، إلى حافة الماء ، بينما كانت نباتات الآس تغطي الهضبة ، وكانتا تنويان جمع الأزهار لعمل أكاليل يزينان بها هيا كل حوريات البحر ، وكانت دريوبا تحمل طفلها إلى صدرها ، وتعتز بحملها له ، وترضعه وهي سائرة ، وبجانب الماء نمت نبتة لوتس ، ذات أزهار أرجوانية ، فاقتطفت دريوبا بعضها ، وقدمتها ، للطفل ، وكانت أيولا على وشك أن تفعل نفس الشيء ، عندما شاهدت الدم يقطر من ساق اللوتس حيث انتزعت الأزهار ،

ولم تكن النبتة سوى حورية البحر، لوتس، التي تحولت إلى هذا الشكل، عندما راحت تعدو فراراً من مطارد خسيس، وهذا ما عرفناه من القرويين ولكن بعد فوات الوقت.

وكان بود دريوبا وقد شاهدت، وهي فزعة، ما فعلته يداها، أن تبتعد عن هذه البقعة، ولكنها وجدت قدميها مزروعتين في الأرض، فحاولت انتزاعهما ولكنها لم تحرك سوى أعضاء بدنها العليا، وابتدأ التخشب يزحف أعلاها حتى كسا كل بدنها، فحاولت، وهي ملتاعة، أن تمزق شعر رأسها، ولكنها وجدت يديها ممتلئتين بأوراق الشجر، وأحس الطفل أن الصدر ابتدأ يتصلب، وأن اللبن كف عن النزول. وشاهدت أيولا مصير شقيقتها المحزن، ولم تستطع أن تخف لنجدتها، فعانقت جذع الشجرة النامي، كما لو كانت تريد صد الخشب عن الزحف، وكانت تود بجدع الأنف لو أن قشر الشجرة نفسها لفها هي الأخرى، وفي هذه اللحظة أقبل اندرامون، زوج دريوبا، مع والدها، ولما سألا عن دريوبا أشارت لهما أيولا إلى نبتة اللوتس الجديدة فعانقا جذع الشجرة التي كانت لا تزال دفيئة، وأمطرا أوراقها بقبلاتهما.

ولم يكن قد بقي آنذاك من دريوبا سوى وجهها. وكانت دموعها لا تزال تنهمر فوق أوراقها، وإذ كان في استطاعتها أن تتكلم راحت تقول: « لست مذنبة، ولا أستحق هذا المصير، فلم أوذ أحداً، لو أني قلت مينا فليهلك الجفاف أوراقي الخضراء، وليقطع جذعي ويحترق بالنار، خذوا هذا الطفل وسلموه لمرضعة، ليحمل إلى دائما ويعنى به، وهو تحت أغصاني، يلعب في ظلي، وعندما يشب عن الطوق ويفصح بالكلام علموه أن يدعوني أمه، وأن يقول وهو حزين: « إن أمي تربض مخبأة تحت قشر هذه الشجرة، ولكن مروه أن يحذر شواطىء الأنهار وأن يحترس عندما يقطف الأزهار، متذكراً أن كل شجيرة يراها قد تكون إلاهة متنكرة، وداعا يا زوجي العزيز، وشقيقتي ووالدي إذا كنتم تحتفظون لي بالحب،

فلا تدعوا الفأس يجرحنى . ولا الماشية تقضم أغصانى وتمزقها ، وما دمت لا أستطيع أن أنحنى لكم ، فاصعدوا إلى وقبلونى ، وما دامت شفتاى لا زالتا تحسان ، فارفعوا إلى طفلى كى أقبله ، لا أستطيع الكلام بعد ، فاللحاء زحف حتى عنقى ، وسرعان ما يكتنفنى ، لن تضطروا لإغلاق عينى فسيغلقهما اللحاء دون معونتكما . » . . ثم كفت الشفتان عن الحركة ، وجمدت الحياة ولكن الأوراق احتفظت بحرارة الحياة مدة أطول .

ويشير كيتس إلى دريوبا فى قصيدته « انديميون » كما يلى :

فحملت قيثارتها وابتعثت من نبضاتها ،
بشرقا ينبض بالحياة ، فعبد الطريق ،
الذى سيرتاده صوتها ، فكان أنشودة ،
أبرع إيقاعاً ، وأقرب إلى فطرة الغابة ،
من تهويدة دريوبا الفريدة لابنها .

* * *

فينوس وادونيس

بينما كانت فينوس تلعب يوماً ما مع ابنها كيوبيد ، جرح صدرها بأحد سهامه ، فدفعته بعيداً عنها ، ولكن الجرح كان أعمق مما توقعت ، وقبل أن يتم برؤها ، شاهدت أدونيس وافتتنت به ، فكفت عن الاهتمام بمنتجعاتها الأثيرة ، بافوس وكنيدوس وأماتوس ، الغنية بالمعادن — بل لقد راحت تتغيب عن السماء ، إذ كان أدونيس أعز إليها منها ، فتبعته وصارت لا تطيق فراقه ، وهى التى كانت متعودة أن تؤثر الهجوع فى الظل ، ولا هم لها إلا تهذيب مفاتنها ، أصبحت آنذاك ترتاد الغابات ، وتعتلى الهضاب ، متشبهة بالصيادة ديانا فى زيها ، وتستدعى كلابها ، وتروح تطارد الأرانب والظباء ، أو أى حيوان مأمون عند

صيده ، ولكنها كانت تبتعد عن الذئاب والدببة ، المتعطشة للدماء ، كما طلبت إلى أدونيس أن يحذر مثل هذه الحيوانات الخطيرة فقالت له : « استبسل مع الخصم المتخاذل الجبان ، فمقاومة البسالة بالبسالة أمر غير مأمون العواقب ، خذ حذرك حتى لا تعرض نفسك للخطر ، فتزج بسعادتى إلى تصاريف القدر ، لا تهاجم الوحوش التى زودتها الطبيعة بأسلحة ، إن المجد الذى تناله لا يساوى عندى قلامة ظفر ازاء ما قد تتعرض له حياتك من أخطار ، إن شبابك وجمالك اللذين فتنت بهما فينوس ، لن يمسا قلوب الأسود والخنازير البرية الخشنة ، فكر فى براثنهما المخيفة وقوتهما الهائلة ، فلشد ما أمقت فصيلتهما برمتها ! أتسألنى لماذا ؟ ... وحينئذ روت له قصة اتلانتا وهيبوميليس ، اللذين حولتهما إلى أسدين لنكرانهما جميلها عليهما .

وإذ حذرته على هذه الصورة ، امتطت مركبتها التى يجرها طير البجع ، وانسابت بها فى الهواء ، ولكن أدونيس كان باسلا فلم يكترث لمثل هذه النصائح ، وكانت الكلاب قد أثارت خنزيراً بريا ، واستدرجته من وجاره ، فقذفه الشاب برمح أصابه بجرح جانبى ، فانتزع الوحش السلاح بفكيه ، واندفع وراء أدونيس الذى استدار ليعدو ، ولكن الخنزير لحقه ، وأنشب أنيابه فى جنبه ، وألقاه فى العراء ممداً وهو يحتضر .

ولم تكن فينوس قد وصلت بعد إلى قبرص ، فى مركبتها التى يجرها البجع ، حتى سمعت تأوهات حبيبها ، صاعدة عبر الأثير ، فأدارت مطهمانها ، ذات الأجنحة البيضاء ، صوب الأرض ، وإذ أشرفت فى مركبتها ، رأت وهى على كثب بالهواء ، جثته تسبح فى الدم ، وقد فارقتها الحياة ، فترجلت وانحنت فوقها وراحت تدق صدرها وتمزق شعرها ، ثم راحت تعنف الأقدار وهى تقول : « ولكن انتصارك سيكون جزئياً ، فستصمد ذكريات حزنى ، وستجدد ، فى كل عام ، منظر موتك ، أى حبيبى أدونيس ، ومنظر لوعتى ، سيتحول دمك

إلى زهرة ، ولن يستطيع أحد أن يشكر على هذا العزاء . » ... وإذ قالت هذا رشت شراب الآلهة على الدم ، فعندما امتزجا ، تصاعدت من المزيج فقاقيع ، كما لو كانت فى بركة تساقطت على سطحها قطرات المطر ، وفى ساعة واحدة برزت زهرة ، فى لون الدم ، تشبه ثمرة الرمان ، ولكنها قصيرة العمر لا تعيش طويلا ، فيقال إن الريح تهب فتتفتح الزهرة نورتها ، وبعد ذلك تهب فتتلاشى أوراق تويجها ، ولهذا سميت انيمونا أو زهرة الريح ، فالريح تساعد على نمائها وفنائها سواء بسواء .

ويشير ملتون إلى قصة فينوس وأدونيس فى « الحفل البهيج » كما يلى :

« مراهر زنبـــق العيسلان والورود ،
حيث يهجع أدونيس الصغـــير دواماً ،
فيلطف ألم جرحه الغائر الشديد ،
فى نوم هادىء ، وعلى الأرض
تجلس ملكة أشور وهي حزينة . »

ابوللو وهياكنثوس

كان أبوللو شديد التعلق بشاب يدعى هياكنثوس ، فكان يصحبه كلما خرج للتسلية واللهو ، يحمل له الشباك عندما يذهب لصيد الأسماك ، ويسوق له الكلاب عندما يذهب لصيد الحيوانات ، كذلك كان يلازمه فى رحلاته إلى الجبال . وهكذا أهمل فى سبيله قيثارته وسهامه ، وفى أحد الأيام كانا يتسليان بلعبة قذف الأقراص ، وإذ رمي أبوللو القرص بقوة وبراعة ، فقد مرق بعيداً وهو يشق أجواز الفضاء ، وكان هياكنثوس يراقب القرص وهو طائر ، وإذ أخذته نشوة اللعبة عدا إلى الأمام كى يمسكه ، لتلهفه على أن يقوم برميه ، وإذا

بالقرص يرتد من الأرض ، ويصيبه فى جبهته ، فوقع مغشياً عليه ، عندئذ شحب وجه الإله مثله ، فرفعه واستخدم كل فنه كي يقطع النزيف ويحفظ عليه حياته الذاهبة ، ولكن دون جدوى ، فالجرح لا ينفع فيه طب ولا دواء ، وكما يكسر المرء عودا من الزنبق فى بستان ، فتتدلى هامته، ويتجه بأزهاره صوب الأرض ، كذلك كان الحال مع رأس الصبى المحتضر ، فقد مالت على كتفه، كما لو كان العنق عاجزاً عن حملها ، وعندئذ راح فوبوس يخاطبه قائلا : « إنك تموت ياهيا كنث ، وأنا الذى اهتصرت شبابك ، وإنك لتعانى ، وأنا الذى أجرمت ، فليتنى أستطيع أن أموت عنك ! ولكن مادام هذا غير مستطاع ، فستحيا معى فى الذاكرة والنغم ، فقيثارتى ستحتفل بك ، وأغنيتى ستتحدث عن مصيرك ، وأنت ستصبح زهرة منقوشا عليها ندمي . » . ؛ وبينما كان أبوللو يتكلم ، كف الدم الذى تساقط على الأرض ، وخضب العشب ، عن أن يكون دما ، وبرزت مكانه زهرة ذات لون أجمل من القرمز الصورى ، شبيهة بالزنبق ، مع فارق هو أن هذه أرجوانية اللون وتلك بيضاء كالفضة [١] ، ولم يكتف فوبوس بهذا ، بل أغدق عليه شرفاً أعظم ، فوسم أوراق التويج بطابع حزنه ، ونقش عليه « آه ! آه ! » كما نرى حتى اليوم ، وتحمل الزهرة اسم هيا كنثوس . ومع عودة كل ربيع تتجدد ذكرى مصيره .

ويقال إن زفيروس (الرياح الغربية) الذى كان هو الآخر متيماً بهيا كنثوس، ومغتاظاً لإيثاره أبوللو عليه . هب فأخرج القرص عن مجراه . كي يصيب به هيا كنثوس . ويشير كيتس إلى هذا فى قصيدته « أنديميون » حيث يصف المشاهدين لمباة رمى الأقراص :

---

[١] واضح أن زهرة هيا كنث المذكورة هنا ليست هى الزهرة المعروفة عندنا حالياً بهذا الاسم وتعريبه زنبق« العيسلان » ولعل هذه الزهرة هى نوع من السوسن Iris أو لسان العصفور Larkspur أو زهرة الثالوث Pansy .

أو لعلهم يراقبون باهتمام قاذفى الأقراص ،
وهم يلعبون بنشاط في كلا الجانبين ،
وقد راحوا يرثون لميتة هيا كنثوس الحزينة،
إذ قتلته أنفاس الإله « زفير » القاسية ،
فندم زفير، والآن يذرع السماء قبل فوبوس،
ويدلل الزهرة وسط عويل الأمطار المنهمرة.

* * *

وثمة إشارة إلى هيا كنثوس يقف المرء أيضاً عندها في قصيدة ملتون « ليسكيداس » Lycidas :

« كتلك الزهرة الدموية الموسومة بالبلاء . »

الفصل التاسع

سييكس وهلكيونا

أو الطيور الهلكيونية

كان سييكس ملكا على ثيساليا ، فحكمها في سلام ، دون عنف أو ظلم . وكان ابناً لهسبروس ، نجم النهار ، فأخذ عن أبيه وهج جماله ، وكانت هلكيونا ، ابنة أيولوس Aeolos ، زوجة له . وكانت شديدة التعلق به ، وحدث أن مات شقيق سييكس فحزن عليه حزناً شديداً ، وثمة أحداث مفزعة جاءت في أعقاب هذه الوفاة جعلته يظن أن الآلهة تناصبه العداء ، لذلك رأى من الأفضل أن يقوم برحلة إلى كارلوس في أيونيا ، كي يستشير بني أبوللو ، ولكنه ما كاد يكشف عن قصده لزوجته هلكيونا ، حتى سرت في كيانها رعدة فازعة ، وكسا وجهها شحوب الردى ، ثم راحت تقول : « أي ذنب ارتكبته ، أي زوجي العزيز ، حتى صرف حبك عني ؟ أين حبك لي الذي اعتدت أن تجعله في الذروة من تفكيرك؟ هل تعلمت أن تحس الراحة في غياب هلكيونا ؟ أتفضل أن تبعدني عنك ؟ » كذلك حاولت أن تثبط عزمه ، فراحت تصف له عنف الرياح ، التي عرفتها ودرجت عليها حين كانت تعيش بمنزل والدها — أيولوس هو إله الرياح ، ولديه الكثير من وسائل قمعها — قائلة : « إنها تتدافع جماعة في احتدام حتى لتومض النار من الصدام » ثم واصلت القول : « ولكن إذا كان لا محيص من ذهابك ، أي زوجي العزيز ، فدعني أذهب معك ، وإلا فلن يقتصر ما أعانيه على تلك الأهوال الحقيقية التي لابد ستلاقيها ، ولكن ستضاف إليها تلك التي تخلقها مخاوفي . »

وكان لهذه الكلمات على نفس الملك سييكس أثر أي أثر ، ولم يكن ليقل عنها

رغبة فى اصطحابها معه ، ولكنه لم يستطع أن يتحمل تعريضها لأخطار البحر، لذلك أجابها معبرا عنها تدر استطاعته ، وأنهى حديثه إليها بهذه الكلمات : «أقسم بأشعة أبى نجم النهار ، أنى ، إذا شاءت الأقدار ، سأعود قبل أن يكون القمر قد دار حول فلكه مرتين » وعندما قال هذا أمر بسحب السفينة من حوضها ، وبتثبيت المجاديف وبسط القلوع ، وعندما رأت هلكيونا هذه الاستعدادات ، ارتعدت كما لو كانت تتوجس شراً ، وقالت وداعاً ، بينما الدموع تنهمر من مآقيها ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وكان سييكس لايزال متلكئاً ، ولكن الشبان قبضوا على مجاديفهم ، وراحوا يشقون الطريق بين الأمواج بقوة ، وهم يضربون صفحة الماء بمجاديفهم ضربات منتظمة طويلة ، ورفعت هلكيونا عينيها اللتين تفيضان بالدموع ، ورأت زوجها واقفاً فوق ظهر السفينة ، وهو يلوح لها بيده ، فردت على إشارته حتى ابتعدت السفينة ، ولم يعد فى استطاعتها أن تميز شخصه عن الآخرين ، وعندما تعذر رؤية السفينة نفسها ، مدت بصرها لتلمح آخر ومضة للشراع ، حتى اختفى هذا أيضاً ، وعندما عادت إلى حجرتها ، ألقت بنفسها على فراشها دون أنيس .

وفى غضون ذلك انسابت السفينة خارج الميناء ، والنسيم يداعب الحبال ، وسحب البحارة المجاديف ، ونشروا الأشرعة ، وعندما قطعوا نصف مرحلتهم أو أقل ، وقد أسدل الليل ذوائبه ، وأخذ البحر يبيض بالأمواج المزبدة ، وهبت الرياح الشرقية فى عاصفة هوجاء ، فأصدر ربان السفينة أمره بجمع الشراع ، ولكن العاصفة قضت على كل أمل فى تنفيذ هذا الأمر ، إذ طغى صفير الرياح وهدير الأمواج على صوته فلم يسمع أحد أوامره ، وراح الرجال، ودون توجيه من أحد يثبتون المجاديف ، ويدعمون السفينة ، ويلفون الشراع ، وبينما أخذ كل منهم يفعل ما يظنه حسناً ، كانت العاصفة تزداد عنفاً ، وامتزج صياح الرجال ، واصطفاق الأشرعة والحبال ، وتلاطم الأمواج ، بقصف الرعد ، وبدا البحر

المزبد العجاج كما لو كان قد ارتفع إلى عنان السماء ، ثم غاص إلى القاع ، فأصبح في لون صخوره ، أسود كنهر الجحيم المسمى ستكس Styx .

واشتركت السفينة فى كل هذه التغييرات ، حتى لقد بدت كحيوان برى راح يترنح وقد تناوشته حراب الصيادين ، ثم انهمر المطر كأفواه القرب حتى لكأن السماء قد هبطت لتندمج فى البحر ، وعندما كان البرق ، يختفى لحظة ، كان الليل يتراءى كما لو أضاف ظلامه إلى ظلام العاصفة ، ثم يومض البرق ، فيمزق الظلام ويضيء كل شيء فى تألق ، وعجزت المهارة ، وتعطلت البسالة ، وبدأ الموت فاغراً فاه مع كل موجة ، وتبدلت حواس الرجال من فرط الفزع ، ووردت على خواطرهم صور الوالدين والأقرباء والعهود التى قطعوها على أنفسهم بوطنهم ، ولم يفكر سيكس إلا فى هلكيونا ، ولم تردد شفتاه سوى اسمها ، وعلى الرغم من حنينه إليها كان مبتهجاً لغيابها . وأخيراً حطمت صاعقة الصارى ، وكسرت سكان السفينة ودار الموج الطاغى المنتصر حول نفسه ، وهو يتطلع فى تعال نحو بقايا السفينة . ثم حط عليها من عل ، فحطمها إربا ، وأفقدت الصدمة بعض البحارة وعيهم ، فغاصوا تحت الماء ولم يظهروا ثانية ، وتعلق البعض الآخر بشظايا الحطام ، أما سيكس فاليد التى اعتادت أن يقبض بها على الصولجان ، تشبثت بلوح من الخشب وهو يستغيث — دون جدوى مع الأسف ـ بأبيه وصهره ، ولكن دون أن يفتر عن ترديد اسم هلكيونا ، فهى لم تبرح ذاكرته ، مبتهلا أن تحمل الأمواج جثته إلى حيث تراها ، وألا يقوم بدفنها سواها ، وأخيراً طغت عليه المياه وأغرقته ، فأعتم نجم النهار ذلك المساء ، وإذ لم يستطع أن يغادر السماء ، حجب وجهه بالغيوم .

وفى غضون ذلك كانت هلكيونا ، وهي تجهل كل هذه الأهوال تعد الأيام لعودة زوجها كما وعد ، فقامت بإعداد الثياب التى سيرتديها وكذلك تلك التي سترتديها عند وصوله ، وأكثرت من تقديم البخور لجميع الآلهة وخاصة للالهة يونو ، وكانت تصلى بلا انقطاع لزوجها الذى لم يعدله وجود ، وكانت تصلى دائما كى يعود إليها سالماً ، وألا يرى خلال غيابه أية واحدة قد يحبها أكثر منها ، ولكن

كان مقدراً ألا تستجاب من هذه الطلبات سوى الأخيرة فحسب ، وأخيراً لم تستطع الإلاهة أن تصبر على أن تقدم إليها هذه الابتهالات عن شخص مات فعلا ، وألا ترفع على مذابحها أكف كان ينبغي أن تقوم بطقوس الجنائز ، ولذلك دعت ايريس (Iris) وقالت لها : « أى ايريس . رسولتى الأمينة ، اذهبى إلى موطن سومنوس (Somnos) الوسنان ، واطلبى إليه أن يبعث برؤيا ، إلى هلكيونا ، فى صورة سييكس ، كى يكشف لها عن الحادث » .

فتسربلت ايريس بردائها ذى الألوان المتعددة ، وصبغت السماء بألوان قوسها (قوس قزح) وراحت تنشد قصر ملك النوم ، وقرب مملكة الكيمريين أو « مملكة الظلام » كهف جبلى يقطنه الإله سومنوس البليد ، حيث لم يكن فويبوس ليجرؤ على القدوم عند الشروق ، أو الظهيرة أو الأصيل ، وهناك كانت الأرض تبعث بغيومها وظلالها ، فيخفت الضوء ويخبو ، ولم يكن طائر بزوغ الفجر ، برأسه ذات العرف ، ليصيح قط منادياً أوورورا ، كذلك لم يكن هناك كلب للحراسة ، أو إوزة أريبة تشق السكون بصياحها ، أو حيوان برى ، أو غصن يحركه الريح ، ولم يسمع أحد لبشر هناك حساً أو ركزاً ، وهناك يخيم الصمت ويسود ، ولكن من أعماق الصخر يتفجر نهر ليثا (Letha) ، وخريره يغرى بالنوم ، وعند مدخل الكهف تنمو شجيرات الخشخاش وغيرها من الأعشاب التى يجمع الليل من عصيرها ضروب النوم والوسن ، فيوزعها على الأرض الغارقة فى الظلام ، ولم يكن للمنزل باب يفتح على مصراعيه ، أو شخص يقوم على حراسته ، ولكن في وسطه فراش من خشب الأبنوس الأسود ، يزينه ريش أسود وستائر سوداء ، وهناك يهجع الإله وتسترخى أعضاؤه بالنوم ، وتتناثر من حوله الأحلام متخذة كافة الصور والأشكال ، حتى لكأنها ، في وفرتها ، ثمار الحصاد ، أو أوراق شجر الغابة أو رمل ساحل البحر .

وحالما دخلت الإلاهة ، ونفضت عن نفسها الأحلام التى كانت تحوم حولها ،

أضاء تألقها الكهف برمته ، وإذا بالإله الذى لا يفتح عينيه إلا نادراً ، ولا يرفع لحيته عن صدره إلا لماماً ، ينزع نفسه أخيراً ويخلصها من نفسه ، ثم يتكىء على ذراعه ، ويستفسر منها عن مهمتها ، فأجابته قائلة : سومنوس ، بأرق الآلهة ، ومريح العقول ، ومهدىء القلوب التي أمضها القلق والهم ، إن يونو تصدر إليك الأمر ، كي تبعث بحلم إلى هلكيونا ، في مدينة تراخينا (Trachine) ، يتراءى فيه زوجها الفقيد ، وكل أحداث السفينة الغارقة .

وبعدما سلمت إيريس رسالتها ، خرجت مسرعة ، إذ لم تستطع تحمل الهواء الراكد ، وإذ أحست الكرى يزحف عليها وئيداً ، لاذت بأذيال الفرار ، وعادت بقوسها من حيث أتت ، فاستدعى سومنوس أحد أبنائه العديدين — مورفيوس (Morph eus)— أبرع خبير فى تزييف الأشكال ، وتقليد المشية وتقاطيع الوجه وطريقة الكلام ، بل والثياب وما يتميز به كل فرد من هيئة وسلوك ، ولكنه يقتصر على تقليد البشر ، تاركا غيره لتشخيص الطيور والوحوش والأفاعى ، وهو المدعو إيكيلوس (Icelos) ، أما فانتاسوس (Phantasos) فهو ثالثهم ، وكان يحول نفسه إلى صخور وأمواه وغابات وغيرها من الأشياء الخالية من الحياة ، وهؤلاء الثلاثة موكلون بخدمة الملوك وعلية القوم خلال نومهم ، بينما يسعى آخرون بين العامة ، ووقع اختيار سومنوس ، من بين الإخوة جميعاً ، على مورفيوس ، لتنفيذ أمر إيريس ، ثم وضع رأسه على وسادته ، وراح يغط فى نوم عميق .

فطار مورفيوس ، دون أن يصدر حفيف لجناحيه ، وسرعان ما أشرف على مدينة هيمونى (Haemonian City) حيث اتخذ شكل سيكس بعد أن وضع جناحيه جانباً ، ووقف بهذه الصورة ، أمام فراش زوجته المنكوبة ، وهو شاحب الوجه كالموتى ، ومجرداً من الثياب ، وبدت لحيته مبتلة ، والماء يقطر منها ومن خصلات رأسه الغارقة ، ثم قال ، وهو ينحنى على الفراش والدموع تقطر من عينيه : « أي زوجتى التعسة ، أتتعرفين على زوجك سيكس ، أو أن الموت قد بالغ فى

تغيير معالم وجهه ؟ تطلعي إلي ، تحققي مني ، طيف زوجك بدلا من شخصه ، لم تنفعني ابتهالاتك بشيء يا هلكيونا ، لقد لاقيت حتفي فلا تخدعي نفسك بآمال باطلة عن عودتي ، فالرياح أغرقت سفينتي في بحر إيجة ، وملأت المياه فمي وهو يهتف عالياً باسمك ، وهذا النبأ لم يأت به إليك رسول لا يوثق به ، أو وصل إلى أذنيك كإشاعة مبهمة ، بل حضرت بنفسي ، أنا الرجل الغريق ، لأطلعك على مصيري . انهضي ! اسكبي على الدموع ، ولا تضني على بالنحيب ، فلا أذهب إلى العالم السفلي غير مبكي علي » ... ونطق مورفيوس هذه الكلمات بصوت بدا كصوت زوجها ، كذلك رأى كمن يسكب دموعاً حقيقية ، وكانت يداه لا تختلفان عن يدي سييكس في حركاتهما .

فراحت هلكيونا ، وهي تبكي ، تتأوه وتنتحب وتمد ذراعيها في نومها محاولة أن تحتضن جسده ، ولكنها لم تقبض إلا على الهواء ، وصاحت وهي باكية تقول : « تمهل ! إلى أين أنت مسرع ؟ فلنذهب معاً » . فأيقظها صوتها ، وقامت من نومها منتفضة ، وراحت تتفرس حواليها متلهفة ، لترى ما إذا كان لا يزال حاضراً ، ذلك لأن الخدم إذ أفزعتهم صرخاتها ، خفوا إليها يحملون المشاعل ، وإذ لم تجده راحت تدق صدرها ، وتشق ثيابها ، ولم تهتم بحل شعرها ، بل أخذت تمزقه وهي زائغة البصر . فسألتها حاضنتها عن سبب أساها ، فأجابتها قائلة : « أنعي هلكيونا ، فقد هلكت مع رجلها سييكس ، لا تنطق بكلمات العزاء ، فقد غرقت به السفينة ومات ، لقد رأيته ، وتحققت منه ، مددت يدي لأمسك به وأحتجزه ، فاختفى طيفه ، ولكنه كان طيف زوجي حقاً ، لم تكن له تقاطيع وجهه المعتادة ، ولا الجمال الذي تميز به ، ولكنه بدا شاحباً ، عارياً من الثياب ، قد ابتل شعره بماء البحر ، هنا ، في هذه البقعة بالذات وقف الطيف الحزين » ، — وتطلعت فوجدت آثار أقدامه — « إن هذا ما توجسته وما حدثني به قلبي من شر متوقع ، عندما توسلت إليه ألا يرحل عني ويطمئن لأمواج البحر ، آه ! لشدما كنت أبغي لو أنك أخذتني معك عندما رحلت ! هذا كان أفضل جداً ، فما كنت لأجد في حياتي بقية أصرفها

بدونك ، أو ميتة منفصلة عنك ، فإذا استطعت أن أتحمل الحيـاة ، وأن أجاهد متجلدة ، فسأكون أشـد قسوة على نفسي من قسوة البحر على ، ولـكني لن أجاهد ، ولن أفترق عنك ، أي زوجي المنكود ، ففي القليل سأحرص هذه المرة على صحبتك ، وفي الموت إن لم تضمنا مقبرة واحدة ، فسيجمعنا نقش تذكارى واحد ، فإذا لم ترقد رفاتي بجانب رفاتك ، فاسمي على الأقل لن يفترق عن اسمك » . . . وفي أساها السابت عبـارات أخرى كثيرة كان يتخللها النشيج والدموع .

وأقبل الصباح ، فذهبت إلى شاطىء البحر ، وبحثت عن البقعة التي رأته فيها لآخر مرة عند رحيله ، « وإذ كان متردداً قبل إقلاع سفينته ، طبع على ثغرى قبلة » . . . وإذ هي تستعرض كل شيء ، وتحاول أن تعيد إلى ذاكرتها كل حادثة ، متطلعة إلى البحر ، لمحت شيئاً غير جلي يطفو على الماء ، وفي مبدأ الأمر لم تستبن معالمه ، ولـكن الأمواج قربته شيئاً فشيئاً ، وحتى صح أنه جثة إنسان ، وعلى الرغم من عدم معرفة صاحبها ، فهي إذ كانت لغريق تأثرت أيما تأثر ، وسكبت عليها الدموع ، وهي تقول : «وا أسفاه ! أيها التعس ، ما أشقي زوجتك ، إن كانت لك زوجة ! » . . . وزاد اقتراب الأمواج التي تحملها ، وكلما رأتهـا عن قرب اشتدت رعدتها ، وأخيراً ، وأخيراً وصلت الجثة إلى الشاطىء ، وبدت لها علامات تعرفها فيها ، إنها جثمان زوجهـا ! فمدت يديها المرتعشتين نحوها وهي تصيح قائلة : « يا أعز زوج ، أهـكذا تعود إلي ؟ » .

وكان يبرز من الشاطىء حاجز للأمواج ، بني لـكسر طغيان هجمات البحر ، ولتخفيف عنف ردة أمواجه ، فوثبت فوق هذا الحاجز (ومن عجب أنها استطاعت أن تفعل هذا) وطارت ، وراحت تضرب الهواء بجناحين نبتا لهـا في التو واللحظة وحلقت فوق سطح المـاء ، وقد استحالت طائراً شقياً ، وإذ هي تطير ، انبعثت من حنجرتها أصوات مليئة بالأسى ، شبيهة بولولة النائحات ، وعندما مست جثمانه

الصامت الساكن ، احتضنت ضلوعه بجناحيها الحديثي النماء ، وحاولت أن تمطره بالقبلات بمنقارها المتحجر ، وروى المشاهدون أن الجثمان بدا كما لو كان يرفع رأسه ، ولكنهم غير واثقين ما إذا كان سييكس قد شعر بالقبلات فتحرك ، أو أن الأمواج وحدها هى التى حركته ، ولكن الواقع أنه شعر بها ، وورثت الآلهة لحالهما ، وحولتهما إلى طائرين ، فتزاوجا وأنسلا صغاراً ، وفى الشتاء ترقد هلكيونا لتفرخ بيضها ، سبعة أيام هادئة بمشها ، الذى يطفو فوق سطح الماء ، وعندئذ يأمن الملاحون طريقهم ، فأيولس يخفر الرياح ويمنعها عن إثارة أمواج البحر ، الذى يكرس لأحفاده إلى حين .

وقد تبدو السطور التالية . من قصيدة بيرون «عروس إبيدوس» كما لو كانت مستعارة من ختام هذا الوصف ، لولم يذكر أن المؤلف أخذ الفكرة من مشاهدته لجثة طافية فوق الماء :

« كتقلبه فوق وسادته غير المريحة ،
تمايل رأسه فوق الموجة المضطربة ،
وهذه اليد المتحركة بغير حياة ،
ولكن تبدو كأنها تنذر بالثبور ،
يقذفها المد المتدافع إلى أعلى ،
ثم تعود فتستوي مع الموج . »

***

ويشير ملتون فى قصيدته « ترنيمة عيد الميلاد » إلى أسطورة هلكيونا كما يلى :

ولكن الليلة كانت مليئة بالسلام ،
إذ فيها ابتدأ يباشر ملك النور

حـــكم الأرض حاملا صولجان السلام ،
فلزمت الرياح الصمت وهى مبهورة ،
وانسابت الميـــاه دافقة فى نومة ،
هامسة ، بمباهـج جديدة ، للبحر الساكن ،
الذى نسى الآن تماماً أن يمور ،
بينما ترقد الطيور لتفرخ فوق موجه المسحور .

* * *

وكيتس ، هو الآخر ، يقول فى « أنديميون » : —

أيها النوم السحرى ! أيهـا الطير المريح
الذى يرقد فوق بحر الفـكر المضطرب
حتى يهدأ وينعم بالا .

* * *

الفصل العاشر

فرتومنوس وبومونا

كانت الحوريات التي تقطن الأشجار صنفاً من حوريات الغابات ، وكانت بومونا إحداهن ، ولم يبزها أحد في حبها للحدائق وزراعة الفواكه ، ولم تهتم بالغابات أو الأنهار ، ولكنها شغفت بالريف المزروع ، وبالأشجار التي تتدلى منها ثمار التفاح الشهي ، ولم تكن تحمل في يدها اليمنى رمحاً تتسلح به ، بل سكيناً لتشذيب الشجر ، وبهذا السلاح الأخير تشغل نفسها حيناً بكبت نمو الأشجار الذي لا يقف عند حد ، وتقليم الأغصان التي تشذ عن موضعها ، وحيناً آخر تشق الغصن وتطعمه بنبت مختلف ، كذلك كانت تهتم كي لا تعاني أشجارها الأثيرة من الجفاف ، فتسوق ينابيع المياه إليها حتى ترتوي الجذور العطاش ، وكانت هذه المهمة هي شغلها الشاغل وهي منحاها ، وكانت لا تتأثر بما توحي به فينوس ، ولم تنج تماماً من خشيتها للقرويين ، فأغلقت بستانها ، ولا تسمح لإنسان أن يلجه ، وكانت آلهة الأحراش وجنياتها تود بجدع الأنف لو أنها خسرت كل ما تملك وكسبتها إلى صفها ، ومثلها كان سلفانوس العجوز ، إله الغابات ، الذي يبدو صغيراً بالنسبة لسنه ، وبان إله الماشية والمراعي ، الذي يضع إكليلا من أوراق الصنوبر حول رأسه ، ولكن فرتومنوس أحبها أكثر من الجميع ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن نصيبه منها أفضل من نصيبهم ، وكم من مرة تنكر في زي حاصد ، وحمل قمحاً في سلة وبدا في صورة الحاصد فعلا ! وكان من يراه عند مجيئه ، وفي وسطه حزمة من الحشائش الجافة ، يظن أنه عائد تواً من تقليبه للكلأ والمرعى ، وأحياناً تراه وبيده منخس للثيران ، فتظن أنه قد انتهى فوراً من رفع النير عن ثيرانه المجهدة ، وتارة كان يحمل منجلا للتقليم منتحلا شخصية الكرام ، وأخرى

كان يبدو ، وعلى كتفه سلم ، كمن سيجمع التفاح ، ومرة كان يكدح سعياً كجندى متقاعد ، وأخرى كان يحمل صنارة كما لو كان ذاهباً لصيد الأسماك ، بهذه الطريقة كان يصل إليها المرة تلو المرة . ويشبع هيامه برؤيتها .

وفى يوم ما حضر متنكراً فى زى امرأة عجوز ، تغطى شعرها الأشيب بقلنسوة ، وتحمل فى يدها هراوة ، فدخلت الحديقة وأظهرت إعجابها بالفواكه وهى تقول : « إنها مفخرة لك ياعزيزتى » وقبلتها لا كما تقبل امرأة عجوز ، وجلست على شاطىء ، وتطلعت إلى الأغصان المحملة بالفواكه التى تتدلى من فوقها ، وفى مواجهتها كانت شجرة غرغاج ، وقد التفت حولها كرمة محملة بعناقيد العنب المنتفخة ، فأثنت على الشجرة والكرمة المشاركة لها ، واستطردت قائلة : «ولكن لو أن الشجرة كانت منفردة ، ولم تتعلق بها الكرمة ، لما كان فيها ما يجذب النظر ، أو ما تقدمه لنا سوى أوراقها عديمة النفع ، كذلك لو أن الكرمة لم تلتف حول شجرة الغرغاج ، لكانت ملقية ذليلة فوق الأرض ، فلماذا لم تتعلمى درساً من الشجرة والكرمة ، وتقبلى أن تربطى نفسك بآخر ؟ حبذا لو فعلت ذلك ، فهيلين نفسها لم يزد عدد خطابها على خطابك العديدين ، ولا بنيلوبا زوجة يولسيس الأريب ، وهم يتوددون إليك على الرغم من رفضك لهم بازدراء ــ أرباب ريفيين وغيرهم من كافة الأنواع الذين يترددون على هذه الجبال ــ ولكن لو أنك اعتصمت بالحجا ، وأردت زيجة موفقة ، وقبلت نصيحة عجوز ــ تحبك أكثر مما تتخيلين ــ أرفضى الجميع ما عدا فرتومنوس ، فاقبليه بناء على تزكيتى ، فأنا أعرفه كما يعرف هو نفسه ، فهو ليس رباً سائحاً ، ولكنه ممن ينتسبون إلى هذه الجبال ، كما أنه ليس مثل الكثيرين من عشاق هذه الأيام ، الذين يعشقون أية واحدة تصادفهم ، فهو يحبك ، ويحبك أنت لا سواك ، وإلى جانب هذا فهو صغير السن وبهى الطلعة ، ويتقن فن محاكاة أية هيئة يبتغيها ، ويستطيع أن يجعل نفسه وفق ما تأمرين ، علاوة على ذلك فهو يحب نفس الأشياء التى تحبينها ، فيجد متعة فى فلاحة البساتين ، ويتناول تفاحك فى إعجاب ، ولكنه الآن لا يهتم قط بالفواكه أو الأزهار أو أى شىء آخر سوى أنت فحسب ، فارثى لحاله ،

وتصوري أنه ينطق الآن بفمي ، اذكري أن الآلهة تقتص من القساة ، وأن فينوس تبغض القلب المتحجر ، وأن هذه الذنوب لابد لها من قصاص إن عاجلا أو آجلا ، وللبرهنة على هذا ، دعيني أروي لك قصة ، يتناقلها الجميع في قبرص على أنها حقيقية ، واقعة ، وأرجو أن يكون لها من الأثر مايجعلك أكثر إشفاقا ورحمة .

« كان إيفيس شاباً من أسرة متواضعة ، فرأى أنا كساريتا وأحبها ، وهي سيدة نبيلة من أسرة عريقة في تيوكر ، فقاوم عاطفته أمداً طويلا ، ولكن عندما وجد أنه لا يستطيع إذلالها ، ذهب إلى قصرها يتودد إليها ويطلب يدها ، وكانت مربيتها هي أول من كاشفها بعاطفته ، وابتهل إليها أن تزكى ملتمسه لزواج ربيبتها التي تحبها ، ثم حاول بعد ذلك أن يكسب خدمها إلى جانبه ، وأحيانا كان يثبت عهوده في ألواح مكتوبة ، وكثيراً ما كان يعلق على بابها أكاليل الأزهار التي بللها بدموعه ، وكان يلقي بنفسه على عتبة قصرها ويروح يشكو إلى المتاريس والحواجز التي لا تلين ، وكانت الفتاة أشد صمماً من أمواج البحر حين تمسك بخناقه عاصفة نوفبر الهوجاء ، وأكثر صلابة من حديد المصانع الألمانية ، أو من الصخرة التي لم تنزع من أرومتها ، فازدرته وسخرت منه ، وقرنت معاملتها الجافة بعباراتها القاسية ، ولم تدع له أي بصيص من الرجاء .

« ولم يستطع إيفيس أن يصمد لتحمل عذاب حب مفقود الرجاء ، فوقف أمام بابها وقال هذه الكلمات : « لقد انتصرت يا أنا كسارينا ، ولن تضطري فيما بعد لتحمل لحجاجتي وإلحاحي ، فاستمتعي بانتصارك ! رنمي أناشيد الابتهاج ، وضعي على جبهتك إكليلا من الغار — لقد انتصرت ! إني أموت . يامتحجرة القلب . فابتهجي ! هذا على الأقل ما أستطيع صنعه لإرضائك . وإرغامك على إطرائي ، وهكذا سأدلل على أن حبك حرمني الحياة ، ولن أوكل الشائعات بأن تنقل إليك نبأ موتي ، بل سأحضر بنفسي ، وسترينني حين أموت ، وستمتعين

عينيك بالمنظر ، ولكن أيتها الآلهة ، يا من تنظرون من عليائكم إلى ويلات البشرية ، راقبوا مصيرى ! أسأل هذا فحسب ، دعوا ذكراى تنتقل عبر الأجيال القادمة ، وضموا هذه السنين إلى شهرتى التى اقتطعتموها من حياتى . » . . . وعندما قال هذا ، أدار وجهه الشاحب ، وعينيه الدامعتين ، صوب قصرها ، وثبت حبلا بمصراع الباب ، الذى طالما علق عليه أكاليل الأزهار ، وإذ أولج رأسه فى الأنشوطة غمغم قائلا : « سيرضيك هذا الإكليل ، على الأقل ، أيتها الفتاة القاسية ! » . . . وإذ سقط ظل معلقاً وقد دق عنقه ، وفى أثناء سقوطه ارتطم بالباب ، فصدر عن هذا الارتطام صوت كالأنين ، ففتح الخدم الباب ووجدوه قد فارق الحياة ، فرفعوه وهم يتأوهون حسرة عليه ، وحملوه إلى أمه بالمنزل ، إذ لم يكن والده على قيد الحياة ، فاستقبلت جثمان ابنها الراحل ، وضمت الجسد البارد إلى صدرها ، وراحت تنتحب مرددة العبارات الحزينة التى تنطق بها أم ثكلى ، وسارت الجنازة المفجعة مخترقة المدينة وحملت الجثة الشاحبة فوق نعش إلى محرقة الجثث ، وتصادف أن كان منزل أنا كساريتا يطل على الشارع الذى مر فيه الموكب ، وصك عويل النائحات أذنى تلك التى كان إله النقمة قد قرر فعلا الاقتصاص منها .

« فقالت : « هلم نرى هذا الموكب الموشى بالأحزان » . . . وصعدت إلى برج ، وهناك تطلعت من نافذة مفتوحة ، إلى الجنازة ، وما كادت عيناها تقعان على جسد ايفيس ممدداً فى النعش ، حتى أخذتا تتجمدان ، والدم الحار فى بدنها يصبح بارداً ، وعندما حاولت أن تخطو إلى الخلف ، وجدت أنها لا تستطيع أن تحرك قدميها ، وإذ اجتهدت أن تحول وجهها ذهب جهدها أدراج الرياح ، وشيئاً فشيئاً أصبحت جميع أعضاء جسمها متحجرة كقلبها ، وقطعاً لكل شك بهذا الخصوص ، فما زال التمثال باقياً ، وهو يقف فى معبد فينوس بسلاميس ، متخذاً شكل السيدة المضبوط .

والآن تدبرى هذه الأشياء يا عزيزتى ، وابعدى عنك الأزدراء وكل إرجاء — واقبلى صباً مدتفاً ، وبذلك لا يؤذى صقيع الربيع ثمارك الباكرة ، ولا تبدد الرياح العاصفة بوا كير براعمك ! » .

وعندما تكلم فرتومنوس بهذا ، أسقط لباس تنكره كامرأة عجوز ، ووقف أمامها بشخصه الحقيق ، كشاب مليح ، فبدا لها كالشمس وقد بزغت من بين الغيام ، وكان مستعداً أن يجدد توسلاته ، ولكنه لم يجد ثمة حاجة لذلك ، إذ تغلبت حججه ، وكان لهيئته الصحيحة أثر أيما أثر ، فكفت الحورية عن صدودها ، وبادلته صبابة بصبابة .

وكانت بومونا النصيرة الخاصة لبستان التفاح ، وبهذه الصفة استرحمها فيلبس ، منشىء « قصيدة عن عصير التفاح » بالشعر المنثور ، ويشير تومسون فى قصيدته « الفصول » إلى هذا فيقول :

فيلبس ، يا شاعر بومامونا ، أنت الثانى ،
الذى تجرأ مستبسلا ، فى شعر لا تقيده قافية ،
فأنشد الأغنية البريطانية ، بحرية بريطانية

* * *

ولكن بومونا كانت تعتبر أيضاً مترئسة على فواكه أخرى ، وبهذه الصفة راح تومسون يتوسل إليها قائلا :

احمليني يا بومونا إلي أحراج ليمونك ،
حيث توجد ثمراته وعصيره النفاذ ،
مع ثمار البرتقال المستوردة ، متألقة بالأغصان ،
فهنا تمتزج صنوف البهاء ، ضعينى فأضطجع
تحت أشجار التمر هندى ، التى يداعبها النسيم ،
فيهز ثمراتها التى ترطب البدن وتشفيه .

* * *

الفصل الحادى عشر

كيوبيد و بسيخا

كان لأحد الملوك والملكات ثلاث بنات ، وكانت مفاتن الكبرى ومن تليها ، فوق المستوى العادى ، أما جمال أصغرهن فكان عجيباً حتى لتعجز لغتنا الفقيرة عن وفائه حقه من الثناء ، وطار صيت جمالها حتى إن الأجانب من الأقاليم المجاورة ، كانوا يقبلون زرافات للتمتع برؤيتها ، وكانوا يتطلعون إليها مبهورين ، ويقدمون لها شعائر الإكرام التى لا تقدم إلا لفينوس نفسها ، والواقع أن فينوس وجدت هياكلها مهجورة ، بينما توجه الرجال بعبادتهم نحو هذه العذراء الصغيرة ، فحيثما سارت ، كان الناس يترنمون بمديحها ، وينثرون الأزهار والأكاليل فى طريقها .

وهذا الانحراف بشعائر الولاء الواجب قصرها على الآلهة وتقديمها إلى واحدة من الجنس البشرى ، تسبب فى إساءة بالغة لفينوس الحقيقية ، فهزت خصلات شعرها المتموجة ، وأشاحت بوجهها وهى غاضبة ، وصاحت قائلة . « أتذوى إذن مفاخرى أمام فتاة من البشر ؟ كان من العبث إذن أن تلك الراعية الملكية ، التى أطرى جوبتر نفسه حكمتها ، أن تعطيني سعف الجمال ، وتميزني بها عن منافستى الباهرتين ، بلاس ويونو ، ولكنها لن تغتصب منى مفاخرى بسهولة ، سأجعلها تندم على مثل هذا الجمال غير الشرعى » .

وللتو نادت ابنها المجنح كيوبيد ، وهو يميل للشر بطبيعته ، فأثارته وبالغت فى استفزازه بشكاياتها ، وأشارت له إلى بسيخا وهي تقول . « أى ولدى العزيز ، عاقب هذا الجمال المتمرد ، خذ لأمك ثأراً تعس حلاوته كما أحست مرارة إساءتها .

البالغة » اتقت فى صدر هذه الفتاة المتعالية ، صبابة بكائن حقير وضيع تافه ، حتى تحصد من الذلة والهوان بالقدر الكبير الذى تحسه الآن من تعظيم وانتصار » .

فاستعد كيوبيد ليطيع أوامر أمه ، وفى حديقة فينوس نافورتان ، واحدة عذبة المياه والأخرى ماؤها مر ، فملأ كيوبيد وعاءين من الكهرمان ، واحدا من كل نافورة ، ثم علقهما على قمة جعبة سهامه ، وخف مسرعا إلى حجرة بسيخا ، حيث وجدها نائمة ، فأراق بضع قطرات من ماء النافورة المرة بين شفتيها ، وعلى الرغم من أن منظرها كاد أن يدفعه لأن يرثى لحالها ، ثم مس جنبها بحد سهمه ، وعندما مسها فتحت عينيها على كيوبيد (وهو غير مرئى) فانبهر وارتبك حتى إنه جرح نفسه بسهمه الخاص ، فلم يهتم بجرحه ، بل وجه كل اهتمامه للتعويض عن الأذى الذى فعله ، وسكب قطرات الابتهاج العطرية على خصلات شعرها الحريرى .

ومنذ أن باءت بسيخا بقطب فينوس ، لم تفد قط من كل مفاتنها : صحيح أن كل العيون كانت ترنو إليها ، وهي متلهفة مشوقة ، وأن كل فم كان يغدق عليها عبارات المديح ، ولكن لم يتقدم ملك أو أمير أو أحد من أبناء الشعب يطلب يدها للزواج ، وكانت شقيقتاها المتقدمتان عنها فى السن قد تزوجتا أميرين ملكيين منذ عهد بعيد ، أما بسيخا ذات المفاتن المتواضعة فراحت تبكى عزلتها ، بجناحها الموحش ، وقد سئمت جمالها ، الذى غمرها بالإطراء ، ولكن أبعدها عن الحب.

وإذ خشى والداها أن يكونا قد أثارا سخط الآلهة ، دون قصد ، بعثا يستشيران كاهن أبوللو ، فجاءهما هذا الرد : « إن مشيئة القدر ألا تكون الفتاة عروسا لحبيب من بنى البشر ، فزوجها المقدر لها ينتظرها فوق قمة الجبل ، وهو تنين لا قدرة للآلهة أو البشر على مقاومته » .

فملأت هذه النبوءة الرهيبة قلوب جميع الناس بالهلع ، واستسلم والداها للحزن

الشديد ، ولكن بسيخا قالت : « لماذا تنتحبان على الآن ياوالداى العزيزان ؟ كان الأحرى بكما أن تحزنا حينما أمطرنى الناس بعبارات التكريم الذى لا أستحقه ، ونادونى جميعهم باسم فينوس ، فها أنذا الآن أعرف أننى ضحية هذا الاسم ، وإنى لأطأطىء الرأس صاغرة ، فسيروا بى إلى تلك الصخرة ، التى قدرها لى مصيرى النكود » . وعلى هذا ، فعندما تم إعداد كل شىء ، أخذت الفتاة الملكية مكانها بالموكب ، الذى كان أشبه بالجنازة منه بحفل الزفاف ، وبصحبة والديها ، وسط عويل الشعب ، ارتقت الجبل ، وعلى قمته تركاها وحيدة ، وعاد الى المنزل بقلب كسير .

وبينما كانت بسيخا واقفة فوق حافة الجبال ، تلهث من الخوف ، وقد ملأ الدموع عينيها ، رفعها (زيفير) الرقيق من فوق الأرض ، وحملها فى رفق إلى واد نضير ، فرانت السكينة على قلبها شيئا فشيئا ، وألقت بنفسها على شاطىء معشوشب لتنام ، وعندها استيقظت ، وقد أنعشها النوم ، تطلعت حواليها ، ورأت على كثب ، أجمة لطيفة من الأشجار المتسامقة البهية المنظر ، فدخلتها ووجدت فى وسطها نافورة تقذف ماء صافيا كالبلور ، ويلاصقها قصر فخم ، لم تكد تشاهد واجهته الرائعة حتى دار بخلدها أنه ليس من صناعة البشر ، ولكنه الملاذ السعيد لأحد الآلهة ، وتحت تأثير من الإعجاب والتعجب ، اقتربت من المبنى وتجاسرت على الدخول ، فملأها كل شىء صادفته بالسرور والانذهال ، فالسقف المقبب تدعمه أعمدة ذهبية ، والحوائط تزينها نقوش وصور تمثل وحوش الصيد ومناظر الريف ، مما يبهج العين ويشرح الصدور ، وإذ تقدمت إلى الأمام ، رأت أنه إلى جانب الردهات الملكية ، كانت هناك أخرى مليئة بكل ألوان الكنوز ، وبكل ما هو جميل وثمين من نتاج الطبيعة والفن .

وإذ هى تملى عينيها بما تشاهده ، خاطبها صوت ، ولكنها لم تر أحدا ، ناطقا

بهذه الكلمات . « أيتها السيدة الملكة ، كل ماتشاهدينه هو لك ، ونحن الذين تسمعين أصواتهم خدامك ، وسنطيع كل أوامرك بأقصى ما عندنا من عناية واجتهاد ، اعتزلى إذن فى حجرتك ، واستريحى فوق فراشك الذى من الوبر ، وادخلي الحمام في الوقت الذى يناسبك ، والعشاء ينتظرك فى البهو المجاور ، عندما ترغبين الجلوس هناك »

فعملت بسيخاوفق تنبيهات أتباعها الصوتيين، وبعد أن استراحت وانتعشت بالحمام الذى أخذته ، أخذت لنفسها مقعداً بالبهو ، حيث مدت فى الحال مائدة ، دون مساعدة مرئية من سقاة أو خـــدم ، عليها كل ما لذ وطاب من أشهى الأطعمة وأعتق الخمور ، كذلك شنفت أذنيها موسيقى من عازفين غير مرئيين ، غنى أحدهم ، وعزف آخر على المزهر ، وردا لجميـع فى تناسق رائع لجوقة موسيقية كاملة .

ولم تـكن قد رأت زوجها المقدر بعد ، فهو يحضر فقط في ساعات الظلام و ويولى عنها قبل بزوغ الفجر ، ولـكن نبراته كانت تفيض بالهيام ، وبعث فى نفسها صبابة مماثلة ، كثيراً ما طلبت إليه أن يمكث ويدعها تراه ، ولـكنه لم يقبل ، بل لقد أخذ عليها عهداً ألا تحاول رؤيته ، فرغبته أن يظل خفياً ، وذلك لأسباب قوية هامة ، وكان يقول لها : « لمـاذا تريدين رؤيتى ؟ أيساورك أدنى شك فى حبى ؟ ألديك أية أمنية لم تتحقق ؟ لعلك إذا مارأيتني خفت مني أو افتتنت بي ، ولـكن كل ما أبغيه منك هو أن تحبينى ، إنى أفضل أن تضفى على حبك لى كند لك ، لا أن أفتنك كأحد الأرباب » .

فطمأن هذا التعليل بسيخا إلى حين ، وفى غمرة من هذه الجدة ، حوتها سعادة دافقة ألهتها عن كل شيء ، ولـكنها إذ تذكرت أخيراً أن والديها يجهلان مصيرها ، وأن شقيقتيها محرومات من مشاركتها مباهج حياتها الجديدة ، شعرت بمرارة وابتدأت تحس أن القصر ليس سوى سجن فخم ، وفى إحدى

الليالى، عندما حضر زوجها ، كشفت له عن حزنها ، وأخيراً انتزعت منه ، وهو كاره ، موافقته على استحضار شقيقتيها لرؤيتها .

وهكذا استدعت زيفير ، وأطلعته على رغبة زوجها ، فأطاع الأمر فوراً ومن ثمة أحضرهما عبر الجبل ، وهبط بهما إلى وادى شقيقتهما ، فعانقاها وبادلتهما العناق ، ثم قالت بسيخا : « تعاليا ، ادخلا معى إلى منزلى وأنعشا نفسيكما بكل ماتقدمه لكما شقيقتكما . » ثم أمسكت بأيديهما ، وسارت بهما إلى قصرها الذهبى ، فدخلنه جميعاً ، ووكلت للعناية بهما تلك الطغمة الكبيرة من الأصوات الخادمة ، لإنعاشهما فى حماماتها ، وإطعامهما على مائدتها ، وإطلاعهما على كل كنوزها ، فملأ الحسد صدرى شقيقتيها ، عند رؤيتهما هذه المباهج السماوية ، وما تمتلكه شقيقتهما الصغرى من أسباب الروعة والبهاء التى تفوق كثيراً ما يمتلكان .

فأمطراها بأسئلة لاحصر لها ، وضمناً سألاها عن حقيقة زوجها ، فأجابتهما بسيخا بأنه شاب جميل الطلعة ، يقضى نهاره عادة فى الصيد والقنص فوق الجبال ، وإذا لم ترض هذه الإجابة الشقيقتين ، فسرعان مادفعاها إلى الاعتراف بأنها لم تره قط ، ثم راحا يحشوان صدرها بشكوك قاتمة ، فقالا لها : « تذكرى أن كاهنة أبوللو أعلنت أنه من المقدر لك زواج تنين رهيب بغيض ، ويقول سكان هذا الوادى إن زوجك ثعبان هائل مخيف ، يهتم بتغذيتك ، إلى حين ، بكل ما هو شهى ولذيذ ، كى يلتهمك فيما بعد ، اعملى بنصيحتنا وهيئى نفسك بمصباح وسكين وحادة ، ضعيهما فى مكان خفى لا يكتشفه زوجك ، وعندما يستغرق فى النوم تسللى من الفراش ، واستحضرى المصباح ، واستوثقى بنفسك ما إذا كان حقاً ما يقولون أو غير حق ، فإذا كان حقاً ، فلا ترددى عن حز رأس التنين ، وبذلك تستردين حريتك . »

فقاومت بسيخا هذا الإغواء قدر استطاعتها ، ولكنه لم يعدم أن يكون له بعض

الأمر على نفسها ، وبعد رحيل شقيقتيها ، كان كلامهما ، ونزعة حب الاستطلاع عندها ، من القوة بحيث لم تستطع مقاومتهما ، لذلك أعدت مصباحاً وسكيناً حادة ، وخبأتهما بعيداً عن زوجها ، وعندما عقد الكرى بجفونه ، نهضت بخفة وهدوء ، وكشفت عن مصباحها ، فلم ترتفينا بشعاً ، بل أجمل الأرباب وأشدها فتنة ، بخصلات شعره الذهبية ، متهدلة فوق عنقه الناصعة البياض ، وخده القرمزي ، وبجناحيه الندويين على كتفيه ، وهما أنصع من الجليد ، ولها زيش كبراعم الربيع النضة ، وإذ هي تميل بالمصباح فوقه ، لتتفرس في وجهه عن كثب ، سقطت قطرة من الزيت الملتهب فوق كتف الإله ، فاستيقظ مذعوراً ، وفتح عينيه ، وركزهما عليها ، ودون أن ينبس ببنت شفة ، نشر جناحيه البيضاوين ، وطار بهما من النافذة ، وإذا راحت بسيخا تحاول عبثاً أن تتبعه ، سقطت من النافذة على الأرض ، وعندما رآها كيوبيد ممدة فوق الثرى ، توقف عن الطيران لحظة وقال : « أي بسيخا الطائشة ، أهكذا تجازيني عن حبي ؟ أبعد أن عصيت أوامر أمي ، واتخذتك زوجة لي ، يدور بخلدك أنني لنين ، وتفكرين في حز رأسي ؟ ولكن اذهبي ، عودي إلى شقيقتيك ، اللتين يبدو أنك تظنين أن نصيحتهما خير من نصيحتي ، لن أقتص منك بأكثر من هجرك إلى الأبد ، فالحب لا يستطيع أن يعيش مع الشك . » . . . وإذ قال هذا طار مبتعداً ، تاركاً بسيخا المسكينة مكبة بوجهها إلى الأرض ، وقد راحت تملأ المكان بعويلها الذي يقطع نياط القلوب .

ولما استردت بعض هدوئها ، تطلعت حواليها ، ولكن القصر بحدائقه كان قد اختفى ، ووجدت نفسها في العزاء ، غير بعيدة عن المدينة التي تعيش فيها شقيقتاها ، فحملت نفسها إلى هناك ، وروت لهما القصة بأكملها ، فتظاهرت هاتان المخلوقتان الحقودتان بالأسى ، ولكنهما كانتا تبطنان الشماتة والسرور ، إذ قالتا : « أما الآن فلعله يتخير إحدانا » . وبهذه الفكرة ، ودون أن تصارح إحداهن

الأخرى بنواياها ، بكرت كل منهما فى الصباح التالي ، وارتقت الجبل ، وعندما وصلت إلى قمته ، رفعت عقيرتها منادية « زيفير » كي يستقبلها ويحملها إلى سيده ، ثم وثبت ، وإذ لم تحظ بمعاضدة زيفير لها ، سقطت فى الهواء ، وتناثرت أشلاؤها.

وفى غضون ذلك كانت بسيخا تهيم على وجهها ، نهاراً وليلا ، دون طعام أو هجوع ، فى البحث عن زوجهـــا ، ٠ إذ هي تلقى ببصرها صوب جبل عال ، يتصدره معبد فخم ، تنهدت وغمغمت قائلة : « لعل حبيبي ، سيدى ، يقيم هناك »... وأخذت طريقها صوب المعبد .

وما كادت تدخل حتى وجدت أكواماً من القمح ، بعضها فى سنابل منفردة ، وبعضها فى حزم ، مختلطة بسنابل من الشعير ، وقد تناثر حولها مناجل ومجارف وكل آلات الحصاد ، دون انتظام ، كما لو كان الحاصدون المتعبون قد ألقوا بها دون اكتراث فى ساعات النهار الحارة المرطبة .

فأنهت بسيخا التقية هذا الاختلال الكريه ، بفصلهـا وتصنيفها كل شيء ، فى مكانه المناسب ، ووفق نوعه ، لاعتقادها أنه من واجبها ألا تهمل أحداً من الأرباب ، بل أن تجتهد بتقواهـا فتعطى كلا منهم حقه من اهتمامهـا ، وعندما وجدتها كيريس المقدسة صاحبة المعبد ، منـكبة على العمل بهذه الروح الدينية ، قالت لها : « أى بسيخا ، أيتها الجديرة بعطفنا حقاً ، على الرغم من أننى لا أستطيع حمايتك من نوبات فينوس الساخطة ، ولـكنى قادرة على تعليمك أفضل الوسائل لتخفيف غضبها ، اذهبي إذن وسلمى نفسك طواعية لسيدتك وملـكتك ، وحاولى أن تـكسبي صفحها بالتواضع والخضوع ، وربما يعيد إليك رضاها الزوج الذى فقدته : »

فأطاعت بسيخا أوامر كيريس ، وشقت طريقها إلى معبد فينوس ، محاولة أن تحصن ذهنها ، وتتدبر ما ينبغى أن تقوله ، وما تسترضي به الإلاهة الغاضبة ، وهى تشعر أن النتيجة غير مضمونة ، بل لعلها قاضية .

فاستقبلتها فينوس ، وهى عابسة غاضبة ، وقالت لها : « يا أشد الخدم خيانة وعصياناً ، أتذكرت أخيراً أن لك ربة حقا ؟ أو هل حضرت بالأحرى لزيارة زوجك المريض ، على الرغم من أنه يعانى من الجرح الذى أصابته به زوجته المحبة ؟ إنك بشعة بغيضة ، ولن تستطيعي أن تصبحي أهلا لعشيقك إلا بالجد والاجتهاد ، سأختبر قدرتك على تدبير شئون المنزل . » . . . ثم أمرت أن تساق بسيخا إلى مخازن معبدها ، حيث تراكمت كمية عظيمة من القمح والشعير والدخن والحمص الجبلي والعدس معدة لإطعام حمامها وقالت : « خذي كل هذه الحبوب وأفرزيها بحيث تضعين كل نوع منها فى كومة مستقلة ، واعملى على إنجازها قبل المساء » ، ثم رحلت فينوس وتركتها لتقوم بمهمتها .

ولكن بسيخا ، فى فزع كبير وارتباك تام إزاء تلك المهمة الضخمة ، جلست متبلدة صامتة ، فلم تحرك أصبعا تمس به هذه الكومة التى يستحيل فرزها .

وبينما هى جالسة وقد ران عليها القنوط ، حرك كيوبيد قلب النملة الصغيرة ، ساكنة الحقول ، كى تشفق عليها ، فأقبل زعيم هضبة النمال ، تتبعه جموع رعاياه من ذوات السيقان الست ، وراحوا يأخذون بمنتهى الاجتهاد ، حبة لحبة ، حتى فرزوا الكومة الكبيرة ، وصنفوا كل نوع فى كومة صغيرة . وعندما تم العمل كله ، اختفت النمال فى لحظة واحدة .

وعند السحر عادت فينوس من وليمة الآلهة ، وهى تنفث العطر ، وتتوجها الورود ، وعندما رأت أن العمل قد أنجز صاحت قائلة : « ليس هذا عملك ، أيتها الشريرة بل عمل ذلك الذى غررت به لصالحك وللاضرار به . » وإذ قالت هذا ألقت إليها بكسرة من الخبز الأسود لعشائها وانصرفت عنها .

وفى صباح اليوم التالى أمرت فينوس باستدعاء بسيخا وقالت لها : أنظرى

إلى هذه الأجمة التى تمتد حذاء حافة الماء ، فهناك ستجدين أغناماً ترعى بغير راع ، يغطى ظهورها صوف ذهبي لامع ، إذهبي إليها واستحضرى عينة من كل جزة » .

فأطاعت بسيخا وتوجهت صوب النهر ، واستعدت كي تعمل ما فى وسعها لتنفيذ الأمر ، فأوحى إله النهر إلى الغاب بغمغمة منغومة بدت كما لو كانت تنطق قائلة : « أى فتاتى ، يا من تجتازين اختباراً قاسياً ، لا تجرى فى الفيضان الخطير ، ولا تزجى بنفسك بين الكباش العنيفة على الجانب الآخر ، فما دامت تحت تأثير الشمس المشرقة ، فثمة هياج عارم يستبد بها ويدفعها للقضاء على البشر بقرونها المدببة وأسنانها الحادة ، ولكن عندما تدفع شمس الظهيرة بالماشية إلى الظل ، ويهدهدها خرير الفيضان للراحة والهدوء ، عندئذ تستطيعين العبور فى أمان ، وستجدين الصوف الذهبي عالقاً بالشجيرات وجذوع الأشجار » .

وهكذا أفضى إله النهر العطوف بتعليمات إلى بسيخا عن الوسيلة التى تؤدى بها مهمتها ، وإذ طبقت توجيهاته عادت سريعاً إلى فينوس بذراعيها مليئتين بالصوف الذهبي ، ولكنها لم تحظ برضا ربتها التى لا يسهل إرضاؤها ، والتى قالت : « أعلم تماماً أنك لم توفقى فى هذه المهمة بسعيك الخاص ، ولم أطمئن بعد أنك تتمتعين بأية كفاية تجعلك نافعة مفيدة ، ولكنى سأكلفك بمهمة أخرى ، هاك هذا الصندوق واذهبي فى طريقك إلى ظلال العالم السفلى ، وأعطى هذا الصندوق لبروسربينا وقولى لها : « سيدتى فينوس ترغب إليك أن ترسلي لها قليلا من جمالك ، ذلك لأنها فقدت بعض جمالها خلال رعايتها لابنها المريض » .. لا تقضى وقتاً طويلا فى تأدية مهمتك ، فلا بد أن أصبغ به نفسى لحضور محفل الآلهة والإلاهات هذا المساء » .

ووثقت بسيخا آنذاك بأن نهايتها أشرفت ، لاضطرارها إلى الانحدار بقدميها فوراً إلى أريبوس ، وكي لا تتأخر عن القيام بما ليس منه بد ، ارتقت قمة برج عال ، لتقذف بنفسها من حالق ، وبذلك تأخذ أقصر طريق إلى الظلال السفلية ، ولكن صوتاً من البرج هتف بها قائلا : لماذا تفكرين ، أيتها الفتاة المنكودة ،

فى وضع حد لحياتك على هذه الصورة البشعة ؟ أى خوف جعلك ترزحين تحت ثقل هذه المحنة الأخيرة ، وأنت التى طالما جاءك العون يسعى بطريقة معجزة فى كل ما تقدم من أمورك ؟ ».. ثم أرشدها الصوت إلى كهف معين تستطيع أن تصل عن طريقه إلى عوالم بلوتو ، وبين لها كيف تتفادى كل أخطار الطريق ، فتمر بكربيروس ، الكلب ذى الثلاثة رؤوس ، وتقنع خارون (Charon) النوتى ، ليعبر بها النهر الأسود ويعود بها ثانية ، ولكن الصوت أضاف قائلا : « عندما تسلمك بروسيربينا الصندوق المليء بجمالها ، فلزام عليك أن تحرصى ، أول ما تحرصين ، على ألا تفتحى الصندوق قط ، أو تنظرى داخله ، أو أن تسمحي لنزعة حب الاستطلاع بالعبث فى كنز جمال الإلاهة » .

وإذ تشجعت بسيخا بهذه النصيحة ، أطاعتها بحذافيرها ، وإذ كانت متيقظة فى كل مسالكها ، رحلت فى أمان إلى مملكة بلوتو ، ودخلت بروسيربينا ، ودون أن تقبل المقعد الأنيق ، أو الوليمة الشهية ، التى دعيت إليها ، بل قنعت بكسرة جافة من الخبز لغذائها ، سلمت رسالة فينوس ، وعلى الفور تسلمت الصندوق مغلقاً ومليئاً بالسلعة الثمينة ، ثم عادت بنفس الطريق الذى جاءت منه ، ولشد ما ابتهجت إذ برزت ثانية إلى ضوء النهار .

ولكنها بعدما وفقت فى مهمتها الخطيرة إلى هذا الحد ، استبدت بها رغبة عارمة كى تختبر محتويات الصندوق ، وراحت تقول : « عجباً ! ألا آخذ ، وأنا حاملة هذا الجمال الإلهى ، أصغر نصيب ، أضعه على خدي ، كى أبدو أشد فتنة فى عينى زوجى الحبيب ! » ... وهكذا فتحت الصندوق ولكنها لم تجد به أى شيء جميل على الإطلاق ، سوى لون من نوم العالم السفلى ، وهذا إذ أطلق سراحه استولى عليها ، ومن ثمة سقطت فى منتصف الطريق ، جثة نائمة لا حس فيها ولا حراك .

ولكن كيوبيد ، وقد تم الآن شفاؤه من جرحه ، ولم يعد قادراً على تحمل

غياب محبوبته بسيخا ، تسلل من أصغر شق بنافذة حجرته التي تركت مفتوحة عن غير قصد ، وطار إلى حيث كانت بسيخا ، فاستل النوم من بدنها ، وأودعه الصندوق ثانية ، وأيقظ بسيخا بمسة خفيفة من إحدى سهامه ، وقال لها : «للمرة الثانية ، كدت أن تهلكي بسبب فضولك نفسه ، ولكن قومي الآن بإتمام المهمة التي كلفتك بها أمي ، وسأعنى أنا بالباقي » .

وبسرعة البرق اخترق كيوبيد أجواز السماء ، وتقدم بملتمسه إلى جوبتر ، الذي أعاره أذناً صاغية ، ودافع عن قضية العاشقين عند فينوس ، وترافع عنها بحرارة أكسبته موافقها ، وعلى هذا أرسل مركيوري لاستحضار بسيخا إلى المجلس السماوي ، وعندما وصلت قدم إليها قدحاً من طعام الآلهة وهو يقول لها: « تناولي هذا يابسيخا وكوني خالدة ، ولن يتحلل كيوبيد من العقدة التي تربطه ولكن هذا الزوج سيكون خالداً » .

وهكذا أصبحت بسيخا أخيراً مرتبطة بكوبيد ، وعندما آن الأوان أنجبا طفلة سمياها المتعة Pleasure .

. . . .

وتؤخذ أسطورة كيوبيد وبسيخا على اعتبار أنها رمزية ، فبسيخا هو الاسم اليوناني للفراشة ، واللفظ ذاته يعني الروح ، وليس ثمة مثال رائع جميل ، لخلود الروح ، مثل الفراشة ، إذ تخرج بأجنحتها اللامعة ، من القبر الذي ترقد فيه ، بعد حياة خاملة كيسروع يدب ويزحف ، فترفرف في وهج النهار ، وتطعم أشهى نتاج الربيع وأحسنه عبيراً ، فبسيخا إذن هي الروح البشرية ، التي طهرتها الآلام والنوازل ، ومن ثمة أعدتها للاستمتاع بالسعادة النقية الحقيقية .

وتصور بسيخا في روائع الفن كفتاة بأجنحة فراشة ، وهي بصحبة كيوبيد في كل المواقف التي تصفها القصة الرمزية .

ويشير ملتون إلى قصة كيوبيد وبسيخا ، في ختام « الحفل البهيج » :

« كيوبيد السماوى ، ابنها العلى ، تقدم ،
وأمسك بحبيبته بسيخا ، وهى فى غيبوبة ،
بعد متاعب طوافها الطويل
حتى شاءت الآلهة ، وهى راضية ،
أن تزفها إليه عروساً خالدة ،
ومن نسبها الجميل غير المدنس
يولد توأمان قرة للأعين
يسميان الشباب والبهجة ، بهذا أقسم جوبتر » .

والرمزية فى قصة كيوبيد وبسيخا أجيد تصويرها فى أشعار ت . ك هارفى الجميلة :

نسجوا أساطير أخاذة فى الأيام القديمة ،
عندما استعار الحجا أجنحة الخيال المزركشة ،
وحين فاض نهر الصدق الصافى على رمال من الذهب ،
وكشف في أنشودة عن غوامضه الرفيعة !
فمثل قصتها الحلوة ذات الجلال
يقلبها الطواف ، حين جاءتها الرؤيا ،
فانساقت — عابدة الحب — إلى أعماق العالم
تذرع الأرض بحثا عن موطنه فى السماء ،

* * *

بالمدينة المزدحمة ، قرب النافورة المسكونة بالأشباح ،
داخل غار من العمد المزينة بالنقوش ،
وسط مما بد الصنوبر القائمة فوق الجبل ، فى أشعة القمر
حيث يجلس الصمت مصغياً للنجوم ،

يدغل تعشش فيه الحمامة المفرخة ،
فى الوادى النضير والهواء المؤرج
سمعت أصداء بعيدة لصوت الحب
ووجدت آثار أقدامه فى كل مكان .

* * *

ولكنهما لم يتلاقيا ثانية! فالشكوك والمخاوف ،
هذه الأشباح التى تَرد على العالم وتشقيه ،
قامت حائلا بينها ، وهي ابنة الخطيئة والدموع ،
وبين هذه الروح المشرقة الخالدة المولد ،
حتى تعلمت روحها الذاوية وعيناها الدامعتان ،
ألا تبحث عنه إلا فى السموات ،
وعندئذ نبتت أجنحة للقلب المنهك ،
وأصبحت عروس ملك الحب في السماء ،

* * *

. . .

وظهرت قصة كيوبيد وبسيخا لأول مرة فى مؤلفات أبوليوس ، وهو كاتب برز فى القرن الثاني من تاريخها ، وهي لذلك أحدث جداً فى التاريخ من معظم قصص عصر الأساطير ، وإلى هذا يشير كيتس فى قصيدته « أنشودة لبسيخا » :

يا أبرع رؤيا وأحدثها مولدا ،
بعد أن ذوب سلطة ألمبوس الدينية !
يا أجمل من نجم فوبيوس في منطقته الزرقاء ،
أو نجمة الصبح ، دابة السماء المتألقة الوالهة ،

أنت أجمل من هذه وذاك ، ولكن ليس لك معبد ،
أو هيكل مكدس بالأزهار ،
أو جوقة من العذارى ترنم أعذب الألحان ،
في ساعات الهزيع الثالث من الليل ،
فلا صوت أو قيثار أو مزمار أو بخور عطرى
يتصاعد من مبخرة مدلاة بالسلاسل ،
ولا محراب أو أيكة أو كاهن أو حرارة
نبي شاحب الفم ، تداعبه الأحلام .

* * *

ويصف مور فى قصيدته « وليمة الصيف » حفلة راقصة خالية ، تظهر فيها بسيخا كإحدى الشخصيات :

« ... لا فى تنكر قاتم هذا المساء ،
حجبت بطلتنا الصغيرة ضوءها ،
فهى تذرع الأرض ، والحب يسوقها ،
إنها عروسه التى زفت ، بأقدس عهد ،
أعطى فى الأليمبوس ، وأعلن عنه ،
للبشر بالعلامة التى تتلألأ الآن
فوق جبهتها الناصعة كالثلج ،
تلك الفراشة ، الحلية الخفية ،
التى تعنى الروح (ولكن قليلون يفطنون لذلك)
وإذ تتألق هكذا فوق الجبهة البيضاء ،
تنبئنا بوجود بسيخا هنا هذا المساء ،

الفصل الثانى عشر

كادموس ـــ محاربو الميرميدون

خطف جوبتر ، وهو متنكر كثور يوروبا (Eiropa) ابنة اجينور ، ملك فينيقيا ، فأمر اجينور (AgeanPr) ابنه كادموس ، أن يذهب للبحث عن شقيقته وألا يعود بدونها ، فراح كادموس يبحث عنها طويلا منقبا فى كل مكان، ولكنه لم يستطع أن يجدها ، وإذ لم يجسر أن يعود بخفى حنين استشار كاهن أبوللو ليعرف أى إقليم ينشده ، فأخبره الكاهن بأنه سيجد بقرة فى حقل ، فعليه أن يتبعها حيثما توجهت، وأن يبنى مدينة ، يدعوها طيبة، فى المكان الذى تقف فيه، وما كاد كادموس يغادر غار أبوللو بمنطقة كاستليا حتى شاهد بقرة تسير أمامه ببطء ، فتبعها عن كثب وهو يقدم فى نفس الوقت ، ابتهالاته إلى فويبوس ، واستمرت البقرة فى سيرها حتى عبرت قناة كفيسوس الضحلة ، وصلت إلي سهل بانوبا ، وهناك وقفت لا تتحرك أو تريم ، ورفعت جبهتها العريضة نحو السماء ، وراحت تملأ الجو بخوارها ، فقدم كادموس الشكر ، وجثا مقبلا تربة الأرض الأجنبية ، ثم رفع عينيه وحيا الجبال المحيطة ، وإذا أراد أن يقدم قربانا إلي جوبتر ، أرسل خدمه للبحث عن ماء نقى للسكيبة المقدسة ، وعن كثب كان هنا حرج عتيق من الأشجار لم تدنسه فأس ، فى وسطه كهف ، يغطيه العديد من الشجيرات الكثيفة ، وكان سقفه يكون قبواً منخفضا ، تقذف من تحته نافورة بأنقى المياه ، وكان يربض فى الكهف ثعبان بشع له رأس ذات عرف، وفلوس تلمع كالذهب ، وكانت عيناه تتوهجان كالنيران، وبدنه ينضح بالسم الزعاف ، وكان يغفر فاه عن لسان يتلو بشعبه الثلاث ، وعن ثلاثة صفوف من الأنياب ، وكلما راح سكان مدينة صور يدفعون بجرارهم فى النافورة ، فيصدر صوت الماء المنحبس ، كان الثعبان المتألق يرفع رأسه من الكهف ويطلق

فحيحاً مخيفاً ، فتسقط الأوانى من أيديهم ، ويهرب الدم من خدودهم ، ويرتعش كل عضو في أبدانهم ، فكان الثعبان الذى يلوى بدنه حول نفسه فى لفة ضخمة ، يرفع رأسه حتى تعلو أطول الأشجار ، وإذ يستبد الفزع بأهل صور فيعجزون عن القتال أو الفرار ، كان يقتل البعض بأنيابه ، ويسحق البعض بطيات بدنه ويقضى على كثيرين بلهاثه السام .

وانتظر كادموس عودة رجاله حتى منتصف النهار ، ثم ذهب يبحث عنهم ، وكان يغطى بدنه بجلد أسد ، وبجانب رمحه يحمل فى يده حربة ، ويطوى صدره على قلب شجاع غير هياب ، وهذا الأخير أوثق ضماناً من الآخرين ، وعندما دخل الغابة ، وشاهد أجسام رجاله وقد فارقتهم الحياة ، والتنين بفكيه المخضبتين بالدماء ، صاح قائلا : «أى أصدقائى الأمناء ، سأثأر لكم . أو أموت معكم» ... وإذا قال هذا رفع حجراً ضخماً ورمى به الثعبان بكل قوته ، ومثل هذا الصخر الكبير كان حريا أن يهز أسوار قلعة من أساساتها ، ولكنه لم يؤثر على التنين ، بعد ذلك ألقى كادموس برمحه ، فلاقى بعض النجاح ، إذ اخترق ، فلوس الثعبان ، وتوغل حتى وصل إلى أحشائه ، وإذا أطار الألم صواب التنين ، أدار رأسه إلى الخلف ليشاهد جرحه ، وحاول أن ينتزع السلاح بفمه ، ولكنه انكسر فى أثناء محاولته ، مخلفاً النصل الحديدى مغروزاً فى لحمه ، فانتفخ عنقه هياجاً ، وغطى الزبد الدامي شدقيه ، وسممت أنفاس منخريه الهواء المحيط به ، وعندئذ التف حول نفسه فى حلقة ، ثم بسط نفسه ممدداً على الأرض كجذع شجرة ساقطة ، وإذ تحرك قدما ، تقهقر كادموس من أمامه ، وهو يمسك حربته ، ومتجهة بها نحو فكى التنين الفاغرين ، فالتقم التنين السلاح محاولا أن يقضم ذبابته الحديدية ، وأخيراً انتهز كادموس الفرصة وقذف بالحربة فى لحظة ألقى فيها التنين برأسه إلى الخلف فلامست جذع شجرة ، وهكذا نجح فى تثبيته بهذا الجذع ، فأناخ بكلكله على الشجرة وهو يصارع الموت فى النزع الأخير .

وبينما كان كادموس منتصباً فوق عدوه المنهزم ، وهو يتأمل فى حجمه الهائل سمع صوتاً (لم يعرف من أين ولكنه سمعه بوضوح) يأمره بانتزاع أنياب التنين

وبذرها فى الأرض ، فأطاع ، وشق خطاً فى الأرض ، وزرع فيه الأنياب ، المقدر أن يكون نتاجها من بنى البشر ، ولم يكد يفعل هذا ، حتى أخذت كتل المتربة تتحرك ، وأطراف الحراب تظهر فوق السطح ، ثم برزت الخوذات ومايعلوها من ريشات ، وتلي ذلك أكتاف الرجال وصدورهم ، وأطرافهم وهى تحمل السلاح ، وأخيراً برز محصول من المحاربين المسلحين ، فانزعج كادموس واستعد لمواجهة عدو جديد ، ولكن أحدهم خاطبه قائلا : « لا تتدخل فى حربنا الأهلية » . . . وعند ذلك امتشق المتكلم سيفه وشطر أحد اخوانه ممن انبتتهم الأرض ، وسقط هو نفسه وقد أصابه آخر بسهم أصماه ، وسقط الأخير ضحية لرابع ، وعلى هذه الصورة راحت الجماعة كلها ، يهاجم أحدها الآخر ، حتى سقط الجميع ، وقد أصابتهم جراح متبادلة ، ما عدا خمسة منهم ظلوا على قيد الحياة ، فألقى واحد منهم سلاحه وهو يقول : « أيها الاخوان ، دعونا نعيش فى أمان ! » وانضم هؤلاء الخمسة الى كادموس فى بناء مدينته ، التى أطلقوا عليها اسم طيبة .

وزفت هارمونيا (Harmonia) ابنة فينوس إلى كادموس ، فغادرت الآلهة أوليمبوس كى يغدقوا على المناسبة شرف حضورهم ، وأهدى فولكان إلى العروس عقداً ، يبهر الأنظار بلألائه ، من صنعه الخاص ، ولكن القضاء وقف بالمرصاد لأسرة كادموس ، نتيجة لقتله التنين الذي يقدسه مارس (Mars) إله الحرب ، فابنتاه ، سيميلا (Semele) واينو (Ino) ، وحفيداه ، أكتيون (Actaeon) وبنثيوس (Pentheus) جميعهم ماتوا غير سعداء ، فرحل كادموس وهارمونيا عن طيبة ، وقد أصبحت بغيضة عندهما ، وهاجر إلى اقليم الانخيليين ، الذين استقبلوهما بالتوقير ، ونصبوا كادموس ملكا عليهم ، ولكن كوارث صغارهم كانت دائماً تثقل أفئدتهما ، وفى أحد الأيام صاح كادموس قائلا : « مادامت حياة ثعبان عزيزة عند الآلهة الى هذا الحد ، فانشد ما أتمنى أن أكون ثعباناً » وما كاد ينطق بالكلمات حتى ابتدأ يتغير شكله ، وعندما شاهدته هارمونيا تضرعت إلى الآلهة

كى تشاركه مصيره ، وأصبح الاثنان ثعبانين ، يعيشان فى الغابات دون أن يغفلا عن أصلهما ، فهما لا يتجنبان الانسان ولا يؤذيان أحداً .

والمأثور أن كادموس أدخل ، فى بلاد اليونان ، الحروف الهجائية التى اخترعها الفينيقيون ، وقد أشار بيرون إلى هذا ، حين قال مخاطباً اليونانيين المحدثين :

لديكم الحروف التى أتى بها كادموس ،
أتظنون أنه قصد أن يستخدمها عبد ؟

وإذ يصف ملتن الحية التى أغوت حواء ، يذكر حيات القصص اليونانية القديمة فيقول :

. . . « كان شكلها يسر الناظرين ،
وجميلة ، بل لم يوجد أجمل منها مذ كانت الحيات ،
ولا هارمونيا وكادموس ، اللذان تغيرا فى اليريا ،
ولا الإله فى ابيدوروس . »

* * *

ولشرح الاشارة الأخيرة ، أنظر ابيدوروس

محاربو الميرميدون

كان محاربو الميرميدون هم جنود أخيليس في حرب طروادة ، ومنهم يطلق ذلك الاسم ، إلى يومنا هذا ، علي كل أتباع زعيم سياسي يتصفون بالتعصب وانعدام الضمير ، ولكن أصل الميرميدون لا يعطى المرء فكرة عن ذرية قاسية متعطشة للدماء ، بل بالأحرى عن جماعة مجدة محبة للسلام .

وصل كيفالوس ، ملك أثينا الى جزيرة آجينا (Aegina) ليستمد المعونة من صديقه القديم وحليفه (Aeacus) اياكوس ، الملك ، فى حربه مع مينوس ،

ملك كريت ، فاستقبل كيفالوس بأعظم ترحاب ، وقدمت إليه الوعود طواعية بالمعونة المنشودة ، وقال ايا كوس : « لدى من الشعب مايكفى لحمايتى ، ويفضل عن أية قوة تريدها . » فأجاب كيفالوس : « يسرنى أن أراها ، وأعترف أنى ازددت عجباً ، إذ وجدت مثل هذا العدد الوفير من الشباب ، الذى أراه حولى وجميعهم ، كما يبدو ، من سن واحدة تقريباً ، ولكن ثمة أفراداً كثيرين ، ممن سبق أن عرفتهم ، أبحث الآن عنهم دون جدوى ، فماذا حدث لهم ؟ . » ... فتأوه ايا كوس وأجاب بصوت يقطر حزناً : «عقدت العزم على إخبارك ، وهأنذا أفعل الآن ذلك ، دون تماد فى التأخير، حتى ترى كيف أن أشد النتائج فجيعة قد تأتى بخير الثمار ، فأولئك الذين عرفتهم من قبل أصبحوا الآن رماداً سحيقاً ! فثمة نازلة أرسلتها يونو الغاضبة فدهمت البلادواجتاحتها ، إذ أبغضتها لأنها كانت تحمل اسم إحدى خليلات زوجها ؛ وبينما كان المرض يبدو ناتجاً عن أسباب طبيعية ، قاومناه بأفضل ماتستطيعه ضروب العلاج الطبيعى ، ولكن سرعان ماوضح أن الوباء كان أشد من كل جهودنا ، فرضخنا ، وبدأ فى مبدأ الأمر كما لوكانت السماء ستنطبق على الأرض ، وأن السحب الكثيفة قد حبست الهواء الساخن وظل ريح جنوبى مميت يتحكم فى البلاد طوال أربعة شهور متصلة ، فتأثرت الآبار والينابيع بهذا الخلل ، وتسللت آلاف الأفاعى إلى البلاد ونفثت سمومها فى النافورات وعيون الماء ، وأول من عانى من شدة المرض الحيوانات الدنيا — الكلاب والماشية والأغنام والطيور ، وكان الحارس منكود الحظ يقف مذهولا إذ يرى ثيرانه تتساقط متهالكة ، حين قيامها بحرث الأرض فى نشاطها المعتاد ، وتساقط صوف الخراف الصخابة ، وذوت أبدانها ، وكف الجواد المجلي فى السبق ، عن محاولة إحراز النصر ، ومات ذليلا وهو يئن داخل الحظيرة ، ونسى الخنزير البرى هياجه ، والغزال سرعته ، ولم تعد الدببة تهاجم القطعان ، وذوى كل شىء ، وتراكمت الجثث بالطرقات والحقول والغابات ، وتحللت فسممت الهواء ويتعذر عليك أن تصدق أن الكلاب والطيور كانت تعاف هذه الجثث ، كما عافتها الذئاب الجائعة ، ومن

تحللها انتشرت العدوى ، وهاجم المرض سكان الريف ومن بعدهم سكان المدن ، وكانت الخدود تصطبغ بالحمرة أولا ثم يتعذر التنفس، ويخشوشن اللسان ويتورم وينفغر الفم الجاف بشرايينه المتضخمة تلتمس الهواء التماساً ، ولم يستطع الناس تحمل حرارة ملابسهم وفراشهم ، ولكنهم آثروا أن يرقدوا فى العراء متوسدين الثرى ، ولكن الثرى لم يرطب أبدانهم ، وإنما هم، على النقيض ، رفعوا حرارة أية بقعة توسدوها ، كذلك لم يستطع الأطباء إسعافهم ، إذ أن المرض هاجمهم أيضاً وملامستهم للمرضى نقلت إليهم العدوى ، فكان أكثرهم أمانة هم أول الضحايا ، وأخيراً ضاع كل أمل فى النجاة ، وتعلم الناس أن يعتبروا الموت منقذهم الوحيد من المرض ، وهكذا أطلقوا العنان لميولهم ، ولم يعودوا يعنون بالسؤال عما يحسن عمله ، اذ اختفى كل شيء حسن، فأسقطوا كل قيد، وتزاحموا حول الآبار وعيون الماء الذى راحوا يعبونه عبًّا دون أن يطفئوا ظمأهم ، وأعوز الكثيرين منهم القوة للانصراف عن الماء ، فماتوا وسط المجرى ، وعلى الرغم من هذا ظل آخرون يشربون منه، وسئموا فراش مرضهم حتى كان بعضهم يتسللون منها زحفاً ، فإذا لم يقووا على الوقوف ماتوا على الأرض ، وتراءوا كما لو كانوا يبغضون أصدقاءهم، وينأون عن منازلهم ، كما لو كانوا وقد جهلوا سبب مرضهم ، يلقون التهمة على محل إقامتهم ، وكنا نرى البعض واقفين في الطريق يترنحون متخاذلين ، بينما خر آخرون على الأرض جاثين ، واستداروا بعيونهم الزائغة ، للتزود بنظرة أخيرة ، ثم أغلقوها إلى الأبد .

« أى تجلد تبقى لى ، خلال هذا كله ، أو ماذا كان ينبغى أن أحصل عليه ، سوى أن أكره الحياة وأتمنى أن أصحب رعاياى الراحلين ، وكان أفراد شعبي ممددين فى كل مكان ، كالتفاحات المتناثرة تحت شجرتها من فرط نضوجها ، أو كثمرات شجرة البلوط التي عصفت بها الزوابع ، ذلك المعبد الذى تراه فوق المرتفع هناك ، مكرس للإله جوبتر ، ولطالما تقدم الكثيرون هناك بالابتهالات ، أزواج عن زوجاتهم ، وآباء عن أبنائهم ، وماتوا وهم يبتهلون ! وكم من مرة ،

عندما كان الكاهن يستعد لتقديم القرابين ، سقطت الضحية ، صريعة المرض ، دون انتظار للطعنة ! وأخيراً فقدت المقدسات كل توقير ، وبانت الجثث تلقي في العراء دون أن تدفن ، فلم يجدوا الخشب اللازم لأنصاب المآتم ، كان الناس يتقاتلون لحيازتها ، وأخيراً لم يتبق أحد لتأدية شعائر الحداد ، فقد هلك الأبناء والأزواج ، والشيوخ والشباب ، ووريت أجسادهم التراب دون عويل أو نحيب .

« وإذ أنا واقف أمام المذبح ، رفعت عيني إلي السماء ، وقلت : إذا كنت حقاً أبي ياجوبتر ، ولا تستحي من ابنك ، فأعد إلي شعبي أو خذني بعيدا أنا الآخر ! ... وما كدت أنطق بهذه الألفاظ حتي سمعت قصف الرعد ، فصحت قائلا : إني راض بالفأل ، وأرجو أن يكون بشيراً لي ! . . . : وفجأة برزت قرب المكان الذي كنت واقفاً فيه شجرت بلوط ، متفرعة الأغصان ، مكرسة لجوبتر ، ورأيت حشداً من النمل ، منهمكا في العمل ، تحمل في أفواهها حبوب صغيرة ، وتسير واحدة إثر الأخرى ، في صف فوق جذع الشجرة ، واحتواني إعجاب بحشود النمل التي شاهدها فقلت : « هبني ياأبي مواطنين بعدد هذه النمال ، وأعد عمران مدينتي الخاوية على عروشها » . فاهتزت الشجرة ، وصدر عن أغصانها صوت حفيف ، على الرغم من سكون الريح وعدم تحريكها لها ، فارتعش كل عضو في بدني ، ولكني قبلت الأرض والشجرة ، ولن أعترف لنفسي بالتمني ، ولكني فعلا تمنيت ، وأرخى الليل ذوائبه ، واستولي النوم علي بدني الذي استبدت به الهموم ، وفي أحلامي انتصبت الشجرة أمامي ، بأغصانها العديدة ، وقد تغطت جميعها بكائنات حية متحركة ، وبدت كما لو كانت تهز أطرافها ، وتلقي على الأرض حشوداً من الحيوانات جامعة الحبوب الكادحة ، التي تراءت وقد عظم حجمها ، وكبرت ، ثم كبرت ، وبالتدريج وقفت منتصبة ، ووضعت سيقانها الزائدة عن الحاجة ولونها الأسود جانبا ، وأخيرا أخذت الشكل البشري . بعد ذلك استيقظت ، وكانت أول نزعة استولت على ، هي أن أقرع الآلهة الذين

حرمونى من رؤيا جميلة ولم يسدّوا فراغها بأيه حقيقة ، وإذ كان السكون مخيما على المعبد ، استرعى انتباهى صخب أصوات كثيرة آتية من الخارج . و هي أصوات لم تعد أخيرا مألوفة لى ، وإذا كنت على وشك الظن أنى لازلت أحلم ، صاح تلامون (Telamon) ابنى ، وهو يفتح أبواب المعبد على مصاريعها : تقدم يا أبى لتشاهد أشياء تفوق كل ما كنت تتمنى! فأقبلت ورأيت حشداً من الرجال كأولئك الذين رأيتهم فى حلمى ، وهم يمرون فى موكب مماثل ، فتطلعت إليهم فى دهشة وابتهاج ، وهم يقتربون ، ثم ركعوا وهم يهتفون باسمى ملكا لهم ، فأوفيت بنذورى لجوبتر ، فتقدمت لأقسم المدينة الخالية على الذرية الحديثة المولد ، ولأوزع الحقول بينهم ، ودعوتهم الميرميدون نسبة إلى النملة ميرمكس (Myrmaz) التى برزوا منها ، وإنك لترى هؤلاء الأشخاص ، فطبائعهم تماثل ما كانوا عليه فى هيئتهم الأولى ، فهم جماعة مجدة كادحة ، تنزع للكسب ، وتتشبث بمكاسبها ، ومنهم يمكنك أن تحصل على مدد لقواتك ، فهم سيتبعونك إلى الحرب ، أحداث السن شجعان القلوب .

الفصل الثالث عشر

نيسوس وسكيلا — ايخو ونركيسوس

كليستيا — هيرو وليندر

نيسوس وسكيلا

شن مينوس، ملك كريت، الحرب على ميجارا، وكان نيسوس ملكا على ميجارا، وسكيلا ابنة له، وكان الحصار آنذاك قد استمر ستة شهور، والمدينة لم تستسلم، إذ كان مقدرا وأمرا مقضيا، ألا يستولى عليها أحد مادامت خصلة معينة من الشعر الأحمر تظل قائمة متألقة برأس الملك نيسوس، وكان ثمة برج يعلو أسوار المدينة، يطل على السهل الذى عسكر فيه مينوس وجيشه، واعتادت سكيلا أن تلجأ إلى هذا البرج حيث تشاهد خيام جيش العدو، وطال الحصار حتى بات ميسورا لها أن تميز أشخاص القادة، فأثار مينوس، بصفة خاصة، إعجابها، وكانت تنتشى برشاقة حركاته، وهو فى خوذته النحاسية، حاملا درعه، فإذا صوب حربته ورماها، بدت البراعة مقرونة بقوة الرمية، وإذا شد قوسه لم يستطع أبوللو نفسه أن يتفوق عليه، أما إذا أزاح خوذته، وامتطى، وهو فى ردائه الأرجوانى، جواده الأبيض بسرجه البهيج الموشى، وشد لجامه والزبد فى شدقيه، فقدت ابنة نيسوس سلطانها على نفسها، واستبدت بها نشوة إعجاب عارمة، وراحت تحسد السلاح الذى يحمله، واللجم التى يمسك بها، وكانت تحس كما لو كان فى استطاعتها، إن أمكن، أن تشق صفوف الأعداء إليه، أو أن تلقى بنفسها من البرج وسط معسكره، أو أن تفتح له الأبواب، أو

أن تصنع أى شىء آخر يرضى مينوس ويشرح صدره ، وعندما كانت تجلس فى البرج كانت تخاطب نفسها قائلة : « لست أدرى أأبتهج أم أحزن لهذه الحرب المؤلمة ، إنى حزينة لأن مينوس عدو لنا ، ولكنى أبتهج لأى عامل يسوقه فأراه ، لعله سيرضى أن يمنحنا السلام وأن يتسلمنى كرهينة ، إذا لطرت ، إذا استطعت وهبطت فى معسكره ، وأخبرته أننا نضع أنفسنا تحت رحمته ، ولكن هذه خيانة لوالدى ! حاشا ! من الأفضل ألا أرى مينوس ثانية ، ومع ذلك فأحيانا يكون من صالح المدينة أن تفتح أبوابها إذا كان الفاتح عطوفا كريما ، ويقينا أن الحق فى جانب مينوس ، والرأى عندى أن الهزيمة ستحيق بنا ، وإذا كان هذا حتما مقضيا ، فلماذا لا يتدخل الحب فيرفع أرتاج الأبواب بدلا من أن يتم هذا عن طريق الحرب ؟ حبذا تلافى التأخير والتقتيل إذا استطعنا ، وويح قلبى إذا جرح أحد مينوس أو قتله ! حقا أنه ما من مخلوق يطاوعه قلبه أن يفعل هذا ، ولكن من الجائز أن يقع هذا عن غفلة أو عن جهل ، سأسلم نفسى له وسأقدم بلادى بائنة زواجى به ، وبهذا أضع حدا للحرب ، ولكن كيف ؟ فالأبواب مخفورة ، وأبى يحتفظ بالمفاتيح ، فهو وحده الذى يقف عائقاً فى طريقى ، ليت شعرى ، أيسر الآلهة أن تزيحه من الطريق ! ولكن لماذا أطالب الآلهة أن تفعل هذا ؟.. لو أن امرأة أخرى ، أحبته كما أحبه ، لأزالت بيديها أى عائق يقف فى طريق حبها ، وهل تستطيع أية امرأة أخرى أن تغامر أكثر منى ؟ لن أتردد عن أن أواجه النار والسيف كى أفوز بمطلبى ، ولكن ليس ثمة حاجة هنا للنار والسيف ، فليس ثمة ما يعوزنى سوى خصلة أبى الحمراء ، فهى أثمن لدى من الذهب ، وهى التى ستهيىء لى كل ما أريد » .

وإذ كانت تحاجج نفسها على هذه الصورة ، أرخى الليل سدوله ، وسرعان ماراح جميع سكان القصر يغطون فى نوم عميق ، فدخلت حجرة نوم أبيها ، وقصت خصلة الشعر المشئومة ، ثم خرجت من المدينة ، ودخلت معسكر العدو ،

حيث طلبت المثول بين يدى الملك وخاطبته قائلة : « أنا سكيلا ابنة نيسوس ، أسلم لك بلادى وبيت أبى ، ولا أطلب جزاء إلا شخصك ، فلم أفعل هذا إلا لحبى لك ، انظر ، هاك خصلة الشعر الحمراء ! بهذه أسلم لك أبى ومملكته . » . . . ومدت يدها بخصلة الشعر المشئومة ، فجفل مينوس ورفض أن يمسها ، ثم صاح قائلا : « فلتعجل الآلهة هلاكك أيتها المرأة الممقوتة ، ياسبة زماننا وعاره ! فلتضن عليك الأرض والبحر بموضع راحة لك ! . . . يقينا إننى لن أرضى بأن تتدنس بلادى كريت ، وهى مهد الحب نفسه ، بمثل هذه الجرمة البشعة ! » قال هذا ثم أصدر أوامره بمنح شروط عادلة للمدينة المفتوحة ، وبإقلاع الأسطول فوراً من الجزيرة ، فاستشاطت سكيلا غيظاً ، حتى أصبحت كمن به جنة ، وصاحت قائلة : « أيها الرجل الناكر للجميل ، أهكذا تهجرنى ؟ — أنا من أتيت لك بالنصر — أنا من ضحيت فى سبيلك بأبى وبلادى ! أعترف بأنى مذنبة ، وأستحق الموت ، ولكن ليس بيدك . » وإذ أقلعت السفن من الشاطىء وثبت فى الماء وتعلقت بدفة السفينة التى تحمل مينوس ، فحماتها معها والكل كاره رفقتها ، فخلق نسر بحرى فوقها — وهو والدها الذى تحول إلى هذا الشكل — ثم انقض عليها وراح ينهشها بمنقاره ومخالبه ، ففزعت وانفلتت يدها من السفينة ، وكادت أن تسقط فى الماء لولا أن ربا رثى لحالها وحولها إلى طائر ، ومازال نسر البحر يرعى هذا الغليل القديم ، وكلما لمحها وهو فى أجواز الفضاء ، يحط عليها من حالق ، بمنقاره ومخالبه ، ليثأر عن الجريمة القديمة .

إيخو(*) ونركيسوس

كانت إيخو حورية جميلة ، شغوفة بالغابات والهضاب ، حيث كرست نفسها لألعاب الأدغال ورياضتها ، وكانت أثيرة عند ديانا ، فلازمتها فى الصيد والطراد ، ولكن كان لإيخو عيب واحد هو تعلقها بالثرثرة والكلام ، وسواء اشتركت

(*) كلمة إيخو (Echo) معناها الصدى .

فى حديث أو جدال ، كان لها الكلمة الأخيرة ، وفى أحد الأيام راحت يونو تفتش عن زوجها ، وقد تجمعت لديها من الأسباب مايجعلها تخشى أن يكون بين الحوريات يلهو ويلعب ، فتحايلت إيخو بحديثها لتعطيل الإلهة حتى مكنت الحوريات من الفرار ، وعندما اكتشفت يونو حيلتها ، أصدرت الحكم على إيخو بهذه الكلمات : « ستفقدين القدرة على استخدام ذلك اللسان الذى خدعتنى به ، ما عدا ذلك الغرض الوحيد الذى تتعلقين به وهو ـ الرد ، ستظل الكلمة الأخيرة لك ، ولكن دون مقدرة على الكلام » .

ورأت إيخو نركيسوس ، الشاب الجميل ، بينما كان يطارد قنيصة فوق الجبال ، فعشقته واقتفت أثره ، ولشد ما كانت متلهفة لأن تخاطبه بأرق العبارات ، وأن تحظى بالتحدث إليه ! ولكنها كانت عاجزة ، فانتظرت منه ، وهى نافدة الصبر ، أن يبدأ الكلام ، والرد عندها حاضر ، وفى أحد الأيام وقد افترق الشاب عن صحبه ، صاح بصوت مرتفع قائلا : « من هنا ؟ » فأجابت إيخو : « هنا » . . . فتطلع نركيسوس حوله ، ولكنه إذ لم ير أحداً ، نادى قائلا : « تعالى » فأجابت إيخو : « تعالى » وإذ لم يحضر أحد ، رفع نركيسوس عقيرته ثانية قائلا : « لماذا تتجنبينى ؟ » فرددت إيخو السؤال نفسه ، فقال الشاب : « دعينا ينضم أحدنا للآخر » : . . فأعادت الفتاة بكل جوارحها نفس الألفاظ ، وخفت سراعاً إلى المكان ، متأهبة لأن تطوق عنقه بذراعيها ، فجفل منها وهو يصيح قائلا : « اغربى عنى ! إنى أفضل الموت عن أن أكون لك ! » .. فرددت إيخو : « أكون لك » . . . ولكن كل هذا كان دون جدوى ، وتركها فذهبت تخفى خجلها وعارها فى تجاويف الأدغال ، ومنذ هذا التاريخ وهى تعيش فى الكهوف وبين منحدرات الجبال ، فنحل بدنها من الشجن ، وأخيراً انكمش لحمها وتقلص برمته ، واستحالت عظامها صخوراً ، ولم يبق منها سوى صوتها ، وبذلك ما تزال مستعدة أن تجيب أى شخص يدعوها ، محتفظة بعادتها القديمة بأن تكون لها الكلمة الأخيرة .

وليست قسوة نركيسوس فى هذه الحادثة هي المثال الوحيد ، فقد أعرض عن بقية الحوريات جميعاً كما فعل بإيخو المسكينة ،وفى أحد الأيام صلت فتاة ، كانت قد حاولت عبثاً أن تجذبه إليها ، مبتهلة أن يكتوى يوماً ما بجذوة الصبابة وعدم الاستجابة لدعوتها ، فسمعت الإلهة المنتقمة واستجابت للصلاة .

وكانت هنالك نافورة صافية ، ماؤها كالفضة المذابة، لم يردها الرعاة بقطعانهم قط ، ولم تتردد عليها الوعول الجبلية ، أو أى من وحوش الغاب ، ولم يشوه صفحتها أوراق الشجر أو أغصانها ، ولكن الحشائش النضرة نمت حولها ، والصخور ظللتها من الشمس ، وإلى هنا أقبل الشاب يوماً ، وهو مجهد من الصيد ، ويعانى من الحرارة والظمأ ، فانحنى ليشرب ، وشاهد خياله بالماء ، فظنه إحدى حوريات الماء الجميلة تسكن النافورة ، فوقف يتفرس فى إعجاب إلى تلك العيون المتألقة ، وإلى خصلات الشعر المقوصة الشبيهة بخصلات باخوس أو أبوللو، والخدود المكتنزة ، والعنق العاجى ، والشفاه الباسمة ، وفوق كل هذا إشراقة الصحة والرياضة ، فعشق نفسه ، واقترب بشفتيه ليأخذ قبلة ، ومد ذراعيه ليعانق طيف الحبيب ، ففرت الحبيبة عند لمسها ولكنها عادت ثانية بعد لحظة لتجدد سحرها ، فلم يستطع أن ينتزع نفسه بعيداً ، وكف عن كل تفكير فى الطعام أو الراحة ، بينما راح يحوم حول حافة النافورة يتفرس فى خياله ، وخاطب الحورية المزعومة قائلا : لماذا تعرضين عنى أيتها الكائنة الجميلة ؟ . . يقينا إن وجهى لا ينفرك منى ، إن جميع الحوريات تحبنى ، وأنت نفسك لا يبدو أنك غير مكترثة بى ، عندما أمد ذراعى تفعلين مثلى ، وتبتسمين لى وتردين على إيماءاتى بمثلها . » وانهمرت دموعه فى الماء فاهتزت الصورة ، وعندما رآها راحلة صاح قائلا . « ابقى ، إنى أتوسل إليك ! دعينى أملى النظر منك ، مادمت لا أستطيع إدراكك » . . . بهذا وبأكثر منه مما يماثله ، راح يذكى النار التى اضطرمت فى أحشائه وقضت عليه ، حتى إنه بالتدريج فقد نضارته ، وقوته ، وجماله الذى افتتنت به الحورية إيخو من قبل ولكنها ظلت على كثب منه ، وكلما

تأوه قائلا . « واحسرتاه ! » جاوبته بنفس كلماته ، ونحل بدنه حتى مات ، وعندما عبر طيفه نهر العالم السفلي ، انحنى فوق القارب ليرى نفسه لآخر مرة فى الماء ، فارتدت الحوريات ، وخاصة حوريات الماء ، لباس الحداد عليه ، وعندما كن يقرعن صدورهن حزناً عليه ، كانت إيخو أيضاً تقرع صدرها ، فأعددن محرقة المأتم ، وكن على وشك حرق الجثة ، ولكنهن لم يعثرن عليها ، ووجدن فى مكانها زهرة[1] أرجوانية من الداخل ، وتحيط بها أوراق بيضاء ، تحمل اسم نركيسوس وتحفظ ذكراه .

ويشير ملتون إلى قصة إيخو ونركيسوس ، فى أنشودة السيدة بقصيدة : « الحفل البهيج » ، فهى تبحث عن إخوتها فى الغابة ، وتشدو كى تسترعى انتباههم إليها :

إيخو الوديعة ، ياأرق الحوريات ، يامن تعيشين غير مرئية
داخل محارتك الروحية ،
بجانب الحافة الخضراء لنهر ميندر البطىء ،
وفى الوادى الموشى بأزهار البنفسج ،
حيث العندليب المهجور
يشدو لك مساء بأغنيته الحزينة ،
ألا تستطيعين إخباري عن ثنائي لطيف
يحبان صاحبك نركيسوس ؟
ليت شعرى هل أخفيتهما بكهف مزهر ،
أخبريني أين هذا الكهف ،
أى ملكة الحديث الرقيقة ، يا ابنة أرضنا

---

(١) زهرة Narcissus نركيسوس هى المعروفة فى العربية بزهرة النرجس

ليتك تنتقلين بتعبيرك إلى الأجواء ،
وتضفين رخامة الترديد على أنغام السماء .

« * »

وحاكي ملتون قصة نركيسوس فى الرواية التى جعل حواء تسوقها عن أول صورة لها انعكست فى النافورة :

« ذلك اليوم ـ إني أذكره دائماً ـ عندما استيقظت
من النوم » لأول مرة ، ووجـــدت نفسى مستلقية
فى الظل ، فوق الأزهار ، فاستبدت بى رغبة
لأعرف أين أنا ومن أكون، ومتى وكيف جئت .
وعلى كثب منى سمعت خرير مياه
يتدفق من كهف ثم يتناثر منبسطا
إلى سائل صاف يقف دون حراك
له نقاء صفحة السماء ، وهناك توجهت
بفكر معدوم الخبرة ، ومن ثمة استلقيت
على الشاطىء المخضر ، ورحت أتطلع بإمعان
إلى البحيرة الهادئة الصافية التى تراءت كسماء أخرى .
وعندما انحنيت لأنظر ، ظهر فى مواجهتى
شخص على صفحة المـاء ، كان واضحاً
ومنحنياً يتطلع إلى . فجفلت إلى الوراء ،
وجفل الشخص للوراء ولـكنى عدت سريعاً مغتبطة ،

وعاد سريعاً مغتبطا ، وله مثل قسماتى
العطوفة المحبة . ولو أنى ثبت هناك
أنظارى حتى الآن ، لنحلت بالرغبة العارمة ،
لو لم يهب بى صوت يحذرنى قائلا : « ماتَرينه ،
ماتَرينه هناك ، أيتها المخلوقة الجميلة ، هو ذاتك »

الفردوس المفقود ، السفر الرابع .

ولم يشر الشعراء إلى أية من أساطير الأقدمين أكثر من إشارتهم إلى أسطورة نركيسوس ، وهاك أفكوهتان منظومتان تعالجانها بطريقتين مختلفتين الأولى للشاعر جولد سميث :

إلى شاب جميل ، أصابه البرق بالعمى .

« حقا لقد رتب القدر
بدافع العطف لا البغضاء
أن يصاب بالعمى ككيوبيد ،
لإنقاذه من مصير نركيسوس . »

***

والأخرى للشاعر كوبر .

إلى شخص دميم

« احترس ياصديق من الجدول الصافى

أو النافورة الرائقة الماء ، فهذا الخطاف ،
أعنى أنفك ، قد تراه صدفة ،
فتنتهى إلى مثل مصير نركيسوس ،
وعندئذ ستذوى من كرهك لذاتك ،
كما ذوى هو من عشقه لذاته . »

* * *

كليتيا

كانت كليتيا إحدى حوريات الماء ، وكانت تعشق أبوللو ، فلم يستجب لغرامها فنحل جسمها ، إذ كانت تجلس طوال النهار فوق الأرض الباردة ، وقد حلت خصلات شعرها فتهدلت على كتفيها ، وظلت جالسة تسعة أيام دون طعام أو شراب ، وكانت دموعها وقطرات الندى الباردة هي غذاؤها الوحيد ، وكانت تتفرس فى الشمس حين شروقها ، وخلال دورتها اليومية حتى مغيبها ، ولم تكن ترى شيئا آخر سواها ، إذ كانت تستقبلها دائماً بوجهها ، وأخيراً يقولون إن أطرافها انغرست فى الأرض ، وإن وجهها أصبح زهرة (١) تدور على ساقها كى تواجه الشمس دائماً ، خلال دورتها اليومية ، لأنها تحتفظ إلى ذلك الحد بإحساس الحورية التى انبثقت منها .

ويشير هود فى قصيدته « الأزهار » إلى كليتيا كما يلى :

« لن أقرب كليتيا الملتاثة ،
التى ذهبت الشمس بعقلها ؛
والزنبقة فتاة طائشة متبرجة ؛
ولهذا السبب سأعرض عنها

(١) زهرة عباد الشمس .

أما زهرة الربيع فصبية ريفية ،
وزهرة البنفسج راهبة متبتلة ،
وإذن فسأخطب الوردة الأنيقة ،
ملكة الجميع دون منازع . »

. ٠ .

وزهرة عباد الشمس رمز أثير للثبات ، وإلى هذا يشير الشاعر مور بقوله :

« إن القلب الذى أحب حقاً لا ينسى أبداً ،
ولكنه يستمر فى حبه هذا حتى النهاية ،
كما يوجه عباد الشمس لربته ، حين غروبها ،
نفس النظرة التى وجهها إليها حين شروقها . »

. ٠ .

هيرو وليندر

كان ليندر شاباً من أبيدوس (Abydos) وهي مدينة على الجانب الأسيوى من المضيق الذى يفصل آسيا عن أوربا ، وعلى الشاطىء المواجه ، فى مدينة سيستوس (Sesitos) ، كانت تقيم فتاة تدعى هيرو ، وهي كاهنة لفينوس ، فأحبها ليندر ، واعتاد أن يقطع المضيق سباحة كل ليلة ليستمتع بصحبة فتاته ، مسترشداً بشعلة كانت ترفعها فوق البرج لهذا الغرض ، ولكن فى إحدى الليالى هبت عاصفة هوجاء واضطرب البحر اضطراباً شديداً ، فخانته قواه ، وابتلعه اليم ، ومن ثمة حملت الأمواج جثته إلى الشاطىء الأوربى ، حيث علمت هيرو بوفاته ، وفى يأسها قذفت بنفسها فى اليم من أعلى البرج فهلكت .

والقصيدة الغزلية التالية للشاعر كيتس :

عن صورة لليندر

« أقبلن بوقار يا جميع الفتيات اللطيفات ،
واغضضن الطرف ، أجل ، واخفتن الضوء
بإخفاء لألائه في حوافي أجفانكن ،
واضممن أيديكن الرقيقة في وداعة ولطف ،
كما لو كنتن مشفقات أن ترين ،
دون مس ، ضحية جمالكن المتألق ،
غائصا إلى حيث يحتوي الليل روحه الشابة ،
غائصاً مبهوراً وسط البحر الكئيب .
إنه ليندر الشاب منساقاً إلى حتفه .
وإذ أوشك على الإغماء زم شفتيه المجهدتين
مستقبلا خد هيرو ، ومبتسماً لابتسامها .
يا للحلم الفظيع ، انظرن كيف يغوص جسمه
مثقلا بالموت ، وقد ظهرت ذراعاه ومنكباه لحظة ،
ثم اختنق ، ومن فوقه خرجت أنفاس غرامه حبيباً . »

* * *

وكان الناس لا يصدقون قصة عبور ليندر لمضيق هلسبونت سباحة ويعتبرونها حديث خرافة ، وإن مثل هذا العمل يستحيل إنجازه ، حتى أثبت لورد بيرون عدم استحالته إذ أنجزه بنفسه ، ويشير إلى هـذا في قصيدته « عروس أبيدوس » بقوله :

« هذه الأطراف التى حملها الموج الخفيف . »

والمسافة فى أضيق جزء أقل من ميل ، وهناك تيار دائم يخرج من بحر مرمرة متجهاً صوب جزر الأرخبيل ، ومنذ عهد بيرون قام كثيرون بهذا العمل الفذ ، ولكنه ما يزال اختباراً للقوة والمهارة فى فن السباحة ، يكفى لأن يضفى شهرة واسعة على أى فرد من قرائنا قد يغامر بمحاولة هذا الأمر والتوفيق فى إنجازه .

وفى مستهل القسم الثانى من نفس القصيدة يشير بيرون إلى هذه القصة كما يلى :

الرياح تعصف بأمواج مضيق هيلا ،
كما حدث ليلة العاصفة الهوجاء ،
عندما أغفل داعية الحب أن ينقذ
ذلك الشاب الجميل الباسل ،
وهو أمل ابنة سيستوس الوحيد .
ليت شعرى هى ذى شعلة البرج ،
تسطع عالية وحيدة فى السماء ،
وعلى الرغم من العاصفة والزبد المتكسر ،
وصياح طيور البحر منذرة بالخطر ،
والغيوم من فوق والأمواج من تحت ،
تنهى عن الذهاب بالإشارات والأصوات
فهو لم يرد أن يرى أو يسمع ،

منظراً أو صوتاً ينذر بالمخـــاوف .
إن عينه لم تر ســـوى الحب ،
نجمه الوحيـــد الذى يحييه فى علاه ،
فلم تطرق أذنه سوى أنشودة هيرو :
أيتها الأمواج لا تفرق شمل العاشقين طويلا ،
تلك قصة قديمة ، ولـكن الحب من جديد
قد يدفع القلوب الشابة لإثبات صحتها .

***

الفصل الرابع عشر

منيرفا - نيوبا

منيرفا

كانت منيرفا ، إلهة الحكمة ، ابنة لجوبتر ، وقيل إنها انبثقت من ذهنه تامة النضوج كاملة السلاح ، وإنها تولت رياسة الفنون النافعة والجميلة ، سواء أكانت متعلقة بالرجال - كالزراعة والملاحة — أم بالنساء — كالنسيج والغزل وأشغال الإبرة — وكانت إلهة حرب أيضاً ، ولكنها لم تناصر سوى الحرب الدفاعية ، فلم تشارك مارس فى شغفه الوحشى بالعنف وإراقة الدماء ، وكانت أثينا هي قصبة حكمها المختار ، ومدينتها الخاصة ، التى منحت لها كمباراة بينها وبين نبتيون ، الذى طمع فيها ، وجرت القصة على أنه فى عهد كيكروبس (Cecrops) أول ملك لأثينا ، تنازعت الإلهة والإله على امتلاك المدينة ، فقررت الأرباب أن تمنحها لمن ينتج منها العملية التى تكون أكثر نفعاً للبشر ، فقدم نبتيون الحصان ، بينما قدمت منيرفا شجرة الزيتون ، فأصدرت الأرباب حكمها بأن شجرة الزيتون أكثرها نفعاً ، ومنحت المدينة للإلهة ، فدعيت باسمها ، أثينا وهو الاسم الذى يطلق عليها فى اليونانية .

وقام نزاع آخر ، تجاسرت فيه إحدى بنات البشر ، على أن تنافس منيرفا ، وكانت تدعى أراخنا (Arachne) وهى فتاة برعت فى فنى النسج والتطريز ، حتى إن الحوريات كن يغادرن الأدغال وعيون الماء ، ويحضرن لمشاهدة عملها ، الذى لم يقصر جماله عليه بعد إنجازه ، ولكن خلال القيام به أيضاً ، فقد كان

المرء يظن أن منيرفا نفسها علمتها حين يراها وهي تتناول الصوف في حالته البدائية وتحوله إلى لفائف ، أو تفصله بأصابعها وتمشطه حتى يبدو هفهافاً ناعماً كالسحاب ، أو تدير المغزل بلمستها البارعة ، أو تنسج المطرف ، أو توشيه بإبرتها ولكنها نفت هذا بل لم تستطع قبول فكرة تتلمذها على الإلهة وراحت تقول : « فلتبارينى منيرفا فى البراعة ، فإن هزمتنى تحملت القصاص » ، واتصل هذا بمنيرفا فاستاءت ، وتنكرت فى زى امرأة عجوز وذهبت إلى أراخنا وأسدت إليها نصيحة خالصة ، قائلة : « إننى من الخبرة على قسط كبير ، فآمل ألا تحتقرى نصيحتى. تحدى أندادك من البشر ، ولكن إياك أن تنافسى إلهة ، بل إنى على النقيض من ذلك ، أنصحك أن تسأليها الغفران والصفح عما قلت ، وقد تعفو عنك فهى رحيمة » . . . فكفت أراخنا عن الغزل وتطلعت إلى العجوز والغضب باد على أساريرها ثم قالت : « احتفظى بنصيحتك لبناتك وخادماتك ، أما من جانبى فأنا أعنى ما أقول ، وأصر عليه ، إنى لا أرهب الإلهة ، فلتجرب براعتها إن تجاسرت على المغامرة » عندئذ قالت منيرفا : « إنها حاضرة » ثم كشفت عن تنكرها ووقفت سافرة ، فأظهرت الحوريات توقيرهن لها فى انحناءة كبيرة ، كما أظهر جميع الحاضرين إجلالهم ، أما أراخنا فهى وحدها التى لم ترهب الموقف وإن كانت حمرة الحياء خضبت وجنتيها ثم كساهما الشحوب ، ولكنها لم تنثن عن عزمها ، بل ألقت بنفسها إلى حتفها بغرورها الأخرق عن مهارتها ، فلم تطق منيرفا أن تتحمل أكثر من ذلك ، كما أنها لم تسد أية نصيحة أخرى ، فتقدمتا للمباراة ، وأخذت كل منهما موقفها وثبتت النسيج بالعاتق ، وأخذ « المكوك » النحيل يمر داخل الخيوط وخارجها ، والقصبة بأسنانها الدقيقة تدفع باللحمة فى مكانها وتوثق النسيج ، وكان كل منهما يعمل مسرعاً فأيديهما تتحرك بخفة ، ونشوة المباراة تجعل العمل خفيفاً مستساغاً ، وكان الصوف المصبوغ فى صور يقابل غيره من مختلف الألوان ، فيتداخل أحدهما فى الآخر بإحكام ، حتى لتضل العين مكان الوصل ، وكما يتكون قوس قزح الذى تصبغ انحناءته السماء ، من أشعة الشمس التى يعكسها رذاذ الماء* الذى فيه تبدو الألوان واحدة حيثما تتلاقى ، ولكنها تختلف تماماً وهى على مسافة قليلة من نقطة التماس .

* هذا الوصف الصحيح لقوس قزح منقول عن أوفيد .

وطرزت منيرفا على نسيجها منظر مباراتها مع نبتيون ، فرسمت اثنى عشر من القوات السماوية ، يجلس جوبتر فى وسطها بوقار عظيم ، ويبدو نبتيون ، حاكم البحر ، وهو يمسك برمحه الثلاثى الشعب ، كما لو كان قد وكز الأرض ، فانبثق حصان من أعماقها وصورت منيرفا نفسها وعلى رأسها خوذة ، وتغطى صدرها بدرعها ايجيس (Aegis) الذى أعطاه لها جوبتر ، وكانت هذه هى محتويات الدائرة الوسطى ، وفى الأركان الأربعة كانت تتمثل أحداث تصور عدم رضا الآلهة على أولئك البشر الذين يحسرون الحد ويتجاسرون على مخاصمتهم ، وكانت ترمى بذلك إلى تحذير منافستها كي تقلع عن إصرارها على المباراة قبل أن يسبق السيف العزل .

وملأت أراخنا نسيجها بموضوعات تعمدت اختيارها للتشهير بسقطات وأخطاء الآلهة ، منها منظر يمثل ليدا (Leda) محتضنة طائر البجع الذى تنكر جوبتر فى إهابه ، وآخر يمثل دانياى (Danae) داخل البرج النحاسى الذى سجنها فيه والدها ولكن الإله توصل للدخول إليها فى صورة دلال الذهب ، ومنظر ثالث يمثل يوربا وقد غرر بها جوبتر وهو متنكر فى هيئة ثور ، واذ شجع يوروبا ألفة هذا الحيوان ، جازفت بامتطاء ظهره ، وعندئذ اندفع بها جوبتر فى جوف البحر وسبح بها الى كريت ، ولو أنك رأيته لظننته ثوراً طبيعياً ، اذ نسجته بطريقة طبيعية ، وكذلك كان الماء الذى يسبح فيه طبيعياً ، وبدت كما لو كانت تتطلع فى لهفة تبغى العودة إلى الشاطيء الذى أخذت تبتعد عنه ، وتنادى رفاقها كي يخفوا لنجدتها ، وبدت كما لو كانت ترتعش فزعاً لدى رؤيتها الأمواج المتلاطمة ، وتجذب قدميها من الماء .

وملأت أراخنا نسيجها بمثل هذه المواضيع ، التى أبدعت صنعها ولكنها كشفت فى جلاء عن غرورها وعدم تقواها ، ولم يسع منيرفا أن تخفى إعجابها ولكنها استشاطت غيظاً لهذا التحقير ، فقذفت النسيج بمغزلها ومزقته إرباً ، ثم

مست جبهة أراخنا وجعلتها تحس ذنبها وعارها ، فلم تستطع أن تحتمل ومن ثمة ذهبت وشنقت نفسها ، فأشفقت منيرفا عليها حين رأتها مدلاة بحبل ، فقالت لها : « فلتحيى أيتها المذنبة ! وكي تحتفظى بذكرى هذا الدرس ، أمسكي مدلاة ، أنت وذراريك ، إلى يوم يبعثون . » . . . ورشتها بعصير نبات خانق الذئب ، فتساقط شعرها فى الحال ، وجدع أنفها واختفت أذناها ، وتقلص هيكلها وصغر رأسها ، وتشعبت أصابعها من جنبها ، وقامت بعمل السيقان ، وكل ما تبقى منها أصبح بدناً ، تغزل منه خيطها ، الذي تتدلى منه دائماً ، فى نفس الوضع الذى كانت عليه ، عندما مستها منيرفا ، وحولتها إلى « عنكبوت » .

ويروى سبنسر قصة أراخنا فى قصيدته مويوبتموس (muioPotmos) ملتزماً ومدعماً أستاذه أوفيد ، ولكن مع إدخاله بعض التحسينات على خاتمة القصة ، وتروى المجموعتان التاليتان ماذا حدث بعد أن وصفت الإلاهة خلقها لشجرة الزيتون :

« وبين أوراق الأشجار صنعت فراشة ،
ذات تركيب رائع ورقة عجيبة ،
ترفرف بين ثمار الزيتون فى لهو ،
حتى بدت للناظرين بالحياة نابضة ،
بالوبر المخملي الذى فوق أجنحتها ،
والزغب الحريرى الذى زركش ظهرها ،
وقرونها العريضة المتشعبة وعجيزتها المشعرة ،
وألوانها الرائعة وعيونها اللامعة .[1] »

* * *

« التى عندما رأتها أرخنا هكذا موشاة ،

(١) يقول سير جيمس مكنتوس عن هذا : « أتظن أنه يتيسر حتى لصينى يصور الألوان الزاهية فراشة بمثل هذه الدقة المحكمة التى تصورها الأشعار التالية : الوبر المخملى ... الخ ؟ — الحياة ، المجلد الثانى .

ومصنوعة بمثل هذه الدقة النادرة ،
وقفت طويلا وهي مبهورة لاتبين ،
وتطلعت إلى عملها بنظرة مستخزية ،
وبصمتها كعلامة على إحساسها المرير
بأن النصر من نصيب خصمها ،
فكادت تتميز من الغيظ وهي كظيم ،
واستحال دمها من الغل سماً زعافاً . »

* * *

وهكذا تم التحول بسبب إحساس المهانة والغيظ الذى استبد بنفس أراخنا لا بأى إجراء مباشر اتخذته الإلاهة .

والمثال التالى من غزل الطراز القديم كتبه جريك (Garrick) .

« على مطرف لسيدة ،
تحدث أراخنا ، ذات مرة ،
إلاهة لمباراتها ، كما روى الشعراء
فسرعان ما خرت بنت البشر المغامرة ،
ضحية تعسة لكبريائها .

* * *

توق إذن مصير أراخنا ،
وكن حصيفاً ياخل واذعن ،
فلا بد أنك ملاق بعضها ،
تلك التى تنافس فنها وبراعتها .

وتنيسون ، فى قيصدته « صرح الفن » ، إذ راح يصف روائع الفن التى تزين الصرح ، أشار إلى يوروبا كما يلى :

وانحل إزار يوروبا الوديعة وسقط ،
من فوق منكبيها وانزاح للوراء ،
ومن يد انثنى غصن زعفران وبأخرى
أمسكت النور الهادىء بقرنه الذهبى .

***

ويشير فى قصيدته « الأميرة » إلى داناى كما يلى :

والآن تتوجه الأرض كلها ، ياداناى ، للنجوم ،
أما قلبك فمفتوح على مصراعيه لأجلى .

نيوبا

وكثر اللغط حول مصير أراخنا وانتشر فى طول البلاد وعرضها ، وكان بمثابة إنذار لكل من يصعرون الخد من بنى البشر ، فلا يجعلون من أنفسهم أنداداً للآلهة ، بيد أن واحدة ، بل سيدة جليلة القدر ، أخفقت عن أن تتعلم درساً فى التواضع ، وهى نيوبا ، ملكة طيبة ، والواقع أنه كان لديها الكثير لتتفاخر به ، ولكن هذا لم يكن متعلقاً بشهرة زوجها ، أو بجمالها ، أو بعظمة أرومتهما ، أو بجلال ملكهما ، فمثار فخرها هم أطفالها ، وحقاً أن نيوبا كانت أهلا لأن تصبح أهنأ الأمهات لو أنها فقط لم تطالب بهذا الحق ، وفى مناسبة تتعلق بالاحتفال السنوى لتكريم لاتونا وابنها أبوللو وابنتها ديانا — عندما احتشد أهالى طيبة ، وعلى رءوسهم أكاليل الغار ، ويحملون البخور إلى الهيا كل

حيث يوفون نذورهم — ظهرت نيوبا بين الحشد ، وكانت ثيابها فخمة موشاة بالذهب والأحجار الكريمة ، ومنظرها جميل بالقدر الذى يسمح به وجه امرأة غاضبة ، فوقفت وراحت تتطلع إلى الناس فى تعال وكبرياء ثم قالت : « أى سخف هذا ! تؤثرون كائنات لم تروها ، على أخرى تملئون منها أبصاركم ! ما الذى يدعو إلى تكريم لاتونا وعبادتها ، بينما لا أحظى أنا بشىء من هذا ؟ أنا ابنة تانتالوس الذى استقبلته الآلهة كضيف فى وليمتها ؟ وأمى إلاهة ، وقد بنى زوجى هذه المدينة التى يحكمها ، وهى طيبة ، وورثت مدينة فريجيه عن أبى ، وحيثما نقلت بصرى شاهدت معالم سلطانى ، كما أن هيئتى وحضرتى ليستا بأقل مما يليق بإحدى الإلاهات ، وإلى جانب هذا فأنا أم لسبعة أبناء وسبع بنات ، أفتش لهم ولهن عن زوجات وأزواج أهل لمصاهرتى ، ألا يحق لى إذن أن أتعالى وأزهو ؟ أتؤثرون على لاتونا هذه ، ابنة تيتان ، ذات الطفلين ؟ إن لدى سبعة أمثال ما لديها ، إن الحظ حليفى حقاً وسيظل حليفى ما بقيت ! أينكر أحد هذا ؟ هذه الكثرة تكفل لى الأمن والاطمئنان ، فأنا من القوة بحيث أشعر أن إلاهة الحظ عاجزة عن أن تقهرنى ، قد تأخذ منى الكثير ، ولكن سيبقى لدى الكثير دون شك ، فمهما عددت من أطفالى فلن يقل عددهم إلى اثنين فقط مثل لاتونا ، أربئوا بأنفسكم عن هذه الاحتفالات الدينية ، اخلعوا هذه الأكاليل عن جباهكم كفوا عن هذه العبادة ! » : . . فأطاع القوم ، وعادوا أدراجهم دون أن يتموا المراسيم الدينية .

فاستشاطت الإلاهة غضباً ، وعلى قمة جبل كنثيا الذى تعيش فيه راحت تخاطب ابنها وابنتها قائلة : « أنا التى أفخر بكما دائماً ، يا أبنائى ، واعتدت أن أعتبر نفسى الأولى بين الإلاهات باستثناء يونو وحدها ، أخذت الآن أشك فيما إذا كنت إلاهة حقاً ، فسأحرم تماماً من تقديم العبادة لى ما لم تخف لحمايتى » وراحت تواصل الحديث بهذه النغمة ولكن أبوللو قاطعها قائلا : « لا تزيدى مما

قلت ، فالكلام سيؤخر القصاص فحسب » . . . وهذا ما قالته ديانا أيضاً ، فرقا في الهواء ، وقد تحجبا بالغمام ، ثم هبطا فوق أبراج المدينة ، وكان يمتد أمام أبواب المدينة سهل فسيح ، يمارس فيه شباب المدينة ضروب رياضتهم الحربية ، وكان أبناء نيوبا هناك مع الآخرين ـ بعضهم كانوا يمتطون جياداً مطهمة رشيقة والبعض الآخر يقودون عجلات حربية زاهية ـ وإذ كان أسمينوس Ismenos الابن الأكبر ، يسوق جياده المزبدة ، أصابه سهم من أعلى ، فصاح : «ويحى !» وأفلت منه الزمام ثم سقط وقد فارقته الحياة ، وآخر إذ سمع شد القوس — كالنوتى الذى يرى العاصفة مقبلة فيبسط الشراع ميمماً شطر الميناء — أطلق لجياده العنان محاولا الفرار ، فأصابه السهم الذى لا يطيش أثناء فراره ، وابنان آخران ، أصغر سناً ، قدما لتوهما من العمل ، وتوجها للملعب حيث هما بازجاء وقتهما بالمصارعة ، وإذ هما واقفان صدراً لصدر اخترقهما سهم واحد ، فاطلقا معاً صرخة مدوية ، وألقيا معاً نظرة وداع حولهما ، وزفرا معاً آخر أنفاسهما ، وإذ رآهما الفينور Alphenor ، وهو شقيق أكبر ، يسقطان ، خف إلى مكانهما لإسعافهما ، فأصماه سهم وهو يقوم بواجبه الأخوى ، ولم يتبق سوى واحد هو اليونيوس Ilioneus ، فرفع ذراعيه نحو السماء محاولا التوسل حيث لم يعد يجدى التوسل وصاح قائلا : «اشفقى على واستبقينى أيتها الآلهة !» وكان يخاطب الآلهة جميعاً ، وهو يجهل أنها لا تريد منه تشفعاً ، وكان أبوللو سيفصح عنه ، ولكن السهم كان قد انطلق من الوتر فعلا ، ولات ساعة مندم .

وسرعان ما وقفت نيوبا على ما وقع عندما شاهدت الرعب الذى استولى على الناس والحزن الذى خيم على الأتباع ، وتعذر عليها أن تصدق احتمال وقوعه ، وغضبت إذ تجاسرت الآلهة على هذا العمل ، واندهشت لاستطاعتها القيام به ، وإذ حطمت الصدمة أعصاب زوجها أمفيون ، قضى على نفسه ، واحسرتاه ! فشد ما تختلف نيوبا الآن ، عن تلك التى حرمت أخيراً على الشعب أن يؤدى

الشعائر الدينية ، والتي كانت تخترق المدينة بموكبها الملكى فيثير حسد أصدقائها ، بينما هى الآن موضع رثاء أعدائها أنفسهم ! فجثت بجانب الجثث التي فارقت الحياة ، وراحت تقبل أبناءها الراحلين واحدا بعد الآخر ، ورفعت ذراعيها الشاحبين نحو السماء وقالت « اطعمى ، يا لاتونا القاسية ، غضبك من هلعى وألمى حتى تشبعين ، واملأى منه قلبك الجلمود حتي تكتظين ، بينما أتبع أنا أبنائى السبعة إلي القبر ، ولكن أين نصرتك ؟ فعلى الرغم من ثكلى لازلت أغنى منك ياباهرتى » وما كادت تنتهى من الكلام حتى رن صوت القوس وألقى الرعب فى جميع القلوب ما عدا قلب نيوبا وحدها ، التى أصبحت باسلة من فرط أساها ، وكانت الشقيقات واقفات ، فى لباس الحداد ، عند نعوش أشقائهن الراحلين ، فخرت إحداهن ، مصابة بسهم ، وماتت فوق الجثة التى كانت تنتخب عليها ، وأخرى ، وقد راحت تخفف عن أمها ، كفت فجأة عن الكلام ، وسقطت على الأرض وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وحاولت ثالثة أن تلوذ بالفرار ، ورابعة أن تلجأ للاختفاء ، ووقفت أخرى حائرة لا تدرى ماذا تفعل ، وأخيراً ماتت ست بنات وبقيت واحدة فقط ، فاحتضنتها الأم بين ذراعيها وغطتها بيدنها كله ، وصاحت قائلة « ابقى لى واحدة ، وهى الصغرى ! ابقى على واحدة من هذا العدد الوفير ! » وإذ هى تتكلم وقعت هذه الأخيرة وقد فارقتها الحياة ، فجلست وحيدة محطمة فى حشد موتاها من بنين وبنات وزوج ، وقد احتواها الذهول والخذر من فرط حزنها ، ولم يحرك النسيم شعرها ، واختفى اللون من وجنتيها ، وحملقت عينيها فى نظرة جامدة ، واختفى كل أثر للحياة فيها ، فالتصق لسانها بحلقها ، وتوقفت شرايينها فلم تعد تحمل تيار الحياة ، وكفت رقبتها عن التثنى ، وذراعاها عن التحرك ، وقدماها عن السير ، لقد تحولت إلى حجر من الداخل والخارج ، ولكن الدموع لا زالت تنهمر ، وتحملها الزوابع إلى موطنها بالجبال ، فهي لا تزال كتلة من الصخر ، يتفجر منها نبع ماء ، هو أناوة حزنها الدائم الذى لا ينقطع .

واستمد بيرون من قصة نيوبا مثالا رائعاً لما وصلت إليه روما الحديثة من حالة الانهيار .

« نيوبا الشعوب ! إنها تقف هناك ،
ثكلى ، ذليلة ، فى نكبتها الصامتة ،
وفى يديها المهزيلتين إناء فارغ ،
ذروا رماده المقدس منذ عهد طويل ؛
والآن خلت مقبرة سكيبيو من الرفات،
بل إن النوابيت نفسها باتت خاوية
من سكانها الأبطال ، فهل تجرى ،
أى نهر التيبر القديم فى برية متحجرة،
هيا واحجب بأمواجك الصفراء أساها،

هرولد الباسل

وكمثال على هذه القصة يوجد تمثال شهير فى المعرض الإمبراطورى بفلورنسا ، وهو التمثال الرئيسى فى مجموعة كان من المفروض أن تكون أصلا مرتبة بواجهة معبد ، وتمثال الأم وقد لف طفلها المذعور ذراعه حولها ، من أبدع التماثيل القديمة ، وهو فى مرتبة تمثالى لاوكون (Laocoon) وأبوللو وهما من روائع الفن ، وفيما يلى ترجمة لأفكوهة شعرية يونانية يزعمون أنها تتعلق بهذا التمثال :

حولتها الآلهة إلى حجر ولكن عبثاً ،
ففن النحات أعاد إليها الحياة ثانية .

***

وعلى الرغم من الأسى الذى يقطر من قصة نيوبا ، فلا يسعنا إلا الابتسام للطريقة التى استخدمها بها فى قصيدته « أشعار فى الطريق » :

اعتاد سير ريشارد بلاكور
نظم الشعر فى عربته المطهمة
فإن لم يصب ذهنه الفتور ،
قضى وقته بين الموت والملحمة .

***

يكتب ويقتل طوال اليوم ،
كفوبيوس وهو بعربته بعد النوم
يشدو حيناً أغاريد الأطيار ،
وحيناً يقتل نيوبا غضة كالأزهار .

***

وكان سير ريشارد بلاكور طبيباً ، وفى الوقت ذاته شاعراً مكثراً معدوم الذوق ، وقد طوى النسيان مؤلفاته الآن ، ما لم يعدها إلى الذاكرة ، من قبيل الدعابة ، شاعر موهوب مثل مور .

الفصل الخامس عشر

الشقيقات جرايا وسعالى الجورجون

برسيوس وميدسا ،

أطلس وأندروميدا .

الشقيقات جرايا وسعالى الجورجون

كانت الجرايا ثلاث شقيقات ، ذات شعر أشيب منذ ولادتهن ، ومن هذا أخذن أسماءهن ، وكانت سعالى الجورجون مسوخ إناث ، ذوات أسنان كبيرة كأسنان الخنازير ، ومخالب نحاسية ، وشعر من الأفاعى ، ومن بين هذه الكائنات ، لم يشتهر فى علم الأساطير سوى ميدوسا ، السعلاة ، التى سنشير إلى قصتها فيما بعد ، ونحن نذكرها أصلا كى نقدم نظرية بارعة ، لبعض الكتاب المحدثين ، هي أن سعالى الجورجون والجرايا لم تكن سوى تجسيم لأهوال البحر ، فالأولى للدلالة على الأمواج الكبيرة القوية التى بعرض البحر ، والثانية على الأمواج المزبدة التى تتكسر فوق صخور الساحل ، وأسماؤها فى اليونانية تعنى هذه الأوصاف المتقدمة .

برسيوس وميدوسا

كان برسيوس بن جوبتر وداناى ، وإذ كان جده أكريسيوس (Acrisius) قد أفزعته نبوءة تقول إن حفيده سيكون أداة للقضاء عليه ، أمر فوضعت الأم والطفل فى صندوق وألقى بهم فى اليم ، فطفى الصندوق واتجه صوب سريفوس (Seriphus)

حيث وجده صياد ، فنقل الأم والطفل إلى بوليدكتيس Polydectes ، ملك البلاد ، فعاملهما برفق ، وعندما شب برسيوس واشتد عوده أرسله بوليدكتيس ، كي يحاول القضاء على ميدوسا ، وهي سعلاة مخيفة ، كانت تعيث بالبلاد فساداً ، وكانت من قبل فتاة جميلة ذات شعر هو تاج فخارها ، ولكنها إذا تجاسرت على منافسة منيرفا فى جمالها ، حرمتها الإلاهة من مفاتيها ، وحولت خصلات شعرها الجميل إلى أفاعي لا تكف عن الفحيح ، فأصبحت مسخاً بشعاً ، ذات منظر مخيف ، فلا يستطيع أى كائن حى أن يراها ، دون أن يتحول إلى حجر ، وكل مايحيط بالكهف الذى تعيش فيه ، يستطيع المرء أن يرى التماثيل الحجرية للبشر والحيوانات ، التي لحتها بالصدفة ، فاستحالت إلى حجر لحظة رؤيتها ، وإذا كان برسيوس أثيراً عند منيرفا ومركيورى ، أعارته الأولى درعها ، والثانى حذاءه المجنح ، فاقترب من ميدوسا ، وهى نائمة ، محاذراً أن ينظر إليها مباشرة ، ولكن مسترشداً بصورتها وقد انعكست على درعها اللامع الذى يحمله ، ففصل رأسها وأعطاه لمنيرفا ، التى ثبتته فى وسط درعها ايجيس كما يلى :

ويشير ملتون فى قصيدته « الحفل البهيج » إلى ايجيس كما يلى :

« ماهذا الدرع الجورجونى بالرأس ذات الأفاعى ،
الذى حملته منيرفا الفتاة التى لا تقهر ،
والذى حولت به أعداءها إلى صخر متحجر ،
إنه ليس سوى نظرات ثابتة من صرامة عفيفة ،
وسماحة نبيلة قضت على العنف الوحشى
باعجاب مبهور مفاجىء ، ومهابة مرسلة على سجيتها . »

وأرمسترونج ، شاعر « فن المحافظة على الصحة » يصف أثر الصقيع على المياه فيقول :

والآن تهب ريح الشمال العاتية وتنشر البرودة ،
بالأقطار المتجمدة ، بينما بتعاويذ أقوى
من تعاويذ كيركا وميديا الساحرتين ،
كف كل جدول ، اعتاد الثرثرة مع شاطئيه ،
عن الحركة فلا نأمة ـ وانحشر بين شطئانه ،
كذلك لم يتحرك نبات البوص الذاوى ،
وأمسكت رياح الشمال القارصة بتلابيب الأمواج ،
فراحت الأمواج تدفع رءوسها الغاضبة بحقد مهتاج ،
وحتى وهى مؤيدة بجنونها الصارم لم تشرب
إلا الجليد العتيق .

وهذا التنفيذ ، يمثل هذه الصرامة والمفاجأة ،
جسم المنظر المفزع لميدوسا المخيفة ،
حين كانت تتجول بالغابات وتحول لأحجار
سكانها الوحوش ! وعندما كان الأسد المسعور
يثب غاضباً بفريسته ! كانت بقوتها الخاطفة
تبزه فى سرعته »

ويظل فى هذا الوضع الضارى واقفاً دون حراك
كتمثال للغضب مصنوع من الرخام !
نسخ مقلدة من شكسبير .

برسيوس واطلس

وبعد مقتل ميدوسا ، طار برسيوس ، وهو يحمل رأس السعلاة ، فى كل جهة فوق اليابسة والماء ، وعندما أرخى الليل سدوله ، وصل إلى حد الأرض الغربى ، حيث تغرب الشمس ، وكان يود وهو جذل أن يستريح هنا حتى الصباح ، فهذه مملكة العاهل أطلس ، الذى كان يفوق فى جرمه جميع الناس ، وكان غنياً بقطعانه من الأغنام والمواشى ، ولم يكن له جار أو منافس ينازعه ملكه ، ولكن بساتينه كانت فخره الأكبر ، فثمارها كانت من الذهب ، مدلاة من أغصان ذهبية ، تكاد تخفيها أوراق من الذهب فخاطبه برسوس قائلا . « أتيتك كضيف ، فإذا وقرت كرم المحتد ، أثبت لك أن جوبتر هو أبى ، وإذا أعليت شأن جلائل الأعمال ، أتيتك بالحجة أنى قاهر السعلاة ، إنى ألتمس الراحة والغذاء . » ولكن أطلس تذكر أن ثمة نبوءة قديمة حذرته أن ابناً لجوبتر سيسرق منه تفاحاته الذهبية ، فأجابه قائلا : « إليك عنى ! وإلا فلن تحميك إدعاءاتك المزيفة عن المجد أو كرم المحتد » ... ثم حاول أن يقذف به إلى الخارج ، وإذ وجد برسيوس أن العملاق يفوقه كثيراً فى قوته قال . « مادمت تستصغر شأن صداقتى إلى هذا الحد ، فتفضل بقبول هذه الهدية . » . . . ثم أدار وجهه بعيداً ورفع رأس السعلاة ، فتحول أطلس ، بكل جرمه إلى حجر وإستحالت لحيته وشعره إلى غابات ، أما زراعاه وكتفاه فأستحالت إلى شواطىء صخرية ، ورأسه إلى قمة جبلية ، عظامه إلى صخور ، وتضخم كل جزء فى الحجم حتى أصبح جبلا ، وكان مبعث سرور الآلهة أن تستقر السماء بكل نجومها فوق منكبيه .

تنين البحـــر

وإذ استأنف برسيوس طيرانه ، وصل إلى بلاد الأثيوبيين ، التى كان كيفوس ملكا عليها ، وكانت كاسيوبيا ملكتهم ، تزهو بجمالها ، فتجرأت على أن تقارن نفسها بحوريات البحر ، فأثارت سخطهن إلى حد أنهن أرسلن تنين بحر هائل كى يعيث بساحل البحر فساداً ، ولاسترضاء الآلهة أشار الكاهن على كيفوس أن يعرض ابنته إندروميدا كى يلتهمها التنين ، فألقى برسيوس نظرة من مرتفعه بأجواز الفضاء ، فرأى العذراء مصفدة بالأغلال إلى صخرة ، فى انتظار قدوم التنين ، وكانت شاحبة لاتبدى حراكا ، ولولا دموعها المنهمرة وشعرها الذى يداعبه النسيم ، لظنها تمثالا من الرخام ، فجفل لهذا المنظر ، وكاد أن يغفل عن أن يرفرف بجناحيه وإذ هو يحلق فوقها قال : « أيتها العذراء ، يامن لاتستحقين هذه الأغلال ، بل أخرى رقيقة تربط قلوب العاشقين معاً ، أتوسل إليك أن تفضى إلى باسمك واسم بلادك وسبب هذه الأصفاد التى تقيدك . » ... فلم ترد فى مبدأ الأمر بل ظلت صامتة بدافع من الحياء والتواضع ، ولو تيسر لها لأخفت وجهها بيديها ، ولكن عندما أعاد عليها أسئلته ، خشيت أن يظنها قد ارتكبت أى ذنب لا تجرؤ على الإفضاء به ، فجاهرت باسمها واسم بلادها ، وباحت بتباهى أمها بجمالها ، وقبل أن تنتهى من الكلام « جاء صوت فوق الماء من بعيد ، وظهر تنين البحر ، برأسه مرفوعاً فوق السطح ، وهو يشق الأمواج بصدره العريض ، فولولت العذراء ، أما الأب والأم اللذان كانا قد وصلا لتوهما ، فكانا يحسان التعاسة ، ولكن الأم كانت بحق أكثر تعاسة ، فوقفت جانباً ، عاجزة عن حمايتها ، وراحت تملأ الفضاء بعويلها وهى تعانق الضحية عندئذ تكلم برسيوس فقال : « إن وقت الدموع ممتد أمامنا ، أما هذه اللحظة فيجب أن نكرسها للنجدة والنجاة ، إن منزلتى كابن لجوبتر ، وشهرتى كقاتل السعلاة ، قد تجعلانى مقبولا كخطيب لابنتكما ، ولكن سأحاول كسبها بخدمات أقدمها لو أن الآلهة حبتنى بعطفها ، إن أنقذتها

بشجاعتى ، فأطلب أن تكون هى مكافأتى » ، فقبل الوالدان (وهل فى استطاعتهما التردد ؟) ووعدا بمنحها بالتة ملكية .

وأصبح التنين الآن على رمية حجر من رام ماهر بالمقلاع ، وبوثبة مباغتة حلق الشاب فى الهواء ، وكالنسر ، حين يلمح ثعبانا يصطلى فى الشمس ، وهو يحلق على علو شاهق ، فينقض عليه ويمسك بعنقه كى يمنعه من أن يدير رأسه ويستخدم أنيابه ، كذلك انقض الشاب فوق ظهر التنين ، ورشق حسامه فى كتفه ، وإذ أوجعه الجرح ، رفع التنين نفسه فى الهواء ، وغاص إلى الأعماق ، وكخنزير برى أحاطت به شرذمة من الكلاب النابحة ، راح ينتقل سريعاً من مكان لآخر ، بينما أخذ الشاب يتفادى هجماته بوساطة جناحيه ، ويطعنه حيثما وجد مكاناً لسيفه بين حراشفه ، مخترقاً جنبه حيناً وطرفه المنحدر إلى ذيله حينا آخر ، وكان الوحش يقذف من منخريه ماء ممزوجاً بالدماء ، فبللت جناحى البطل حتى لم يعد يطمئن إليهما ، وعندئذ هبط على صخرة تعلو فوق الأمواج ، وتشبث بجزء بارز ، وحالما طفى التنين بالقرب منه ، رشقه بالطعنة القاتلة ، فهتفت جموع الناس الذين احتشدوا على الشاطىء ، حتى رددت التلال أصداء هتافهم ، وفى غمرة الفرح عانق الوالدان صهرهما المرتقب وهما ينعتانه بمنقذهما ، ومخلص بيتهما ، أما العذراء ، سبب النزاع وجائزته فهبطت من فوق الصخرة .

وكانت كاسيوبيا من بنات أثيوبيا ، ولهذا كانت سوداء على الرغم من جمالها المتشامخ . أو أن هذا ، هو مايبدو أن ملتون توهمه ، فهو يشير إلى هذه القصة فى قصيدته « المكتئب » (Penseroso) حيث يخاطب الكآبة (Melancholy) كما يلى :—

« . . . إلاهة ، حكيمة ، طاهرة ،
وجهها المقدس شـــديد التألق ،

حتى ليخطف البصر البشرى ،
ولهذا فلأجل رؤيتنا الضعيفة ،
التحفت بالسواد ، لون الحكمة الرصينة ،
فهي سوداء ولكنها جليلة القدر ،
كما يليق بشقيقة الأمير ممنون ،

***

أو كملكة أثيوبيا « ذات النجوم » التى صممت
أن تتباهي بجمالها
على حوريات البحر ، فمست كرامتهن .

***

وتدعى كاسيوبيا « ملكة أثيوبيا ذات النجوم » لأنها أجلست ، بعد وفاتها بين النجوم ، مكونة مجموعة النجوم التى تحمل هذا الإسم ، وعلى الرغم من حظوتها بهذا الشرف ، فقد تغلبت حوريات البحر ، عدواتها القديمات ، حتى إنهن تسببن فى وضعها بذلك المكان من السماء القريب من القطب ، حيث يمسكن بها كل مساء ورأسها إلى أسفل ، لإعطائها درساً فى التواضع .

وكان ممنون أميراً من أثيوبيا ، سنتحدث عنه فى فصل قادم .

حفل الزفاف

وعاد الوالدان السعيدان ، مع برسيوس وإندروميدا ، إلى القصر ، حيث أقيمت لهم وليمة ، بين مظاهر الفرح والابتهاج ، ولكن على حين بغتة ، تصاعدت جلبة من ضجيج حربى . واندفع فنيوس Phineus ، خطيب العروس ، فى جماعة من أنصاره

وراح يطالب بالفتاة كحق له ، وعبثاً احتج كيفوس قائلا : « كان عليك أن تطالب حينما صفدت بالأغلال إلى الصخرة ، ضحية للتنين ، فحكم الآلهة عليها بهذا المصير ، حل جميع الارتباطات كما كان الموت نفسه سيفعل ذلك . » فلم يجب فنيوس ، ولكنه وشق برسيوس برمحه ، فأخطأ الهدف ، وسقط الرمح دون أن يصيبه بضرر ، وكان لا بد لبرسيوس أن يقذف هو الآخر برمحه ، ولكن المغير الجبان فر واحتمى خلف المحراب ، ولكن هجمته كانت إشارة لغارة قامت بها عصابته على ضيوف كفيوس ، فدافعوا عن أنفسهم ، ومن ثمة قامت معركة عامة ، انسحب منها الملك الشيخ ، بعد تحذيرات لا طائل منها ، وهو يشهد الآلهة على براءته من انتهاك حرمة الضيافة وما يجب لها من توقير .

فصمد برسيوس وأصدقاؤه إلى حين في هذا الصراع غير المتكافىء ، ولكن المغيرين كانوا يفوقونهم كثيرا في عددهم ، وبدا أنه لا مفر من القضاء عليهم ، وعندئذ طرأت على بال برسيوس فكرة مفاجئة ـ « ساجعل أعدائي يدافعون عني » ثم صاح بصوت مدو قائلا : إن كان لي صديق هنا ، فليحول بصره بعيداً ! » ورفع رأس السعلاة إلى أعلى ، فقال تسكلوس : « لا تحاول أن تفزعنا بشعوذتك » ورفع رمحه ، وهو يهم بقذفه ، فتحول إلى حجر في الوضع ذاته ، وكان امبكس على وشك أن يرشق حسامه ، ببدن عدو ذليل ولكن ذراعه تصلبت ، ولم يستطع أن يقذف به إلى الأمام أو يسحبه ، وآخر ، في وسط ملاحاة كلامية ، توقف وهو فاغر فاه ، ولكن دون أن ينطق ببنت شفة ، ووقع بصر اكونتيوس وهو أحد أصدقاء برسيوس ، على رأس السعلاة ، فتصلب كالآخرين ، فطعنه انقياجيس بسيفه ، ولكنه لم يصبه بأي جرح بل ارتد السيف بصوت يرن .

ورأى فنيوس هذه النتيجة المفزعة ، فاستولى عليه الذهول ، وراح يصيح منادياً أصدقاءه ، ولكن أحداً لم يجبه ، فلمسهم ووجد أنهم صاروا أحجارا ، وعندئذ جثا على ركبتيه ، ومد يديه نحو برسيوس ، ولكن محولا رأسه عنه ، وراح يسترحمه قائلا . « خذ كل شيء وامنحني حياتي فقط » ... فرد برسيوس قائلا .

« أيها الجبان الحقير ، سأمنحك هذا الكثير فلن يمسك سلاح ، وإلى جانب ذلك ، ستظل محفوظا بمنزلى ، كتذكار لهذه الأحداث . » وإذا قال هذا حول رأس السملاة إلى حيث كان يتطلع فنيوس ، وفى ذات الهيئة وهوجاث بيديه الممدودتين ، ووجهه المنحرف ، أصبح كتلة من الحجر ثابتة لا حراك فيها .

والإشارة التالية إلى برسيوس مقتطفة من قصيدة « سامور » (Samor) للشاعر ملمان .

كما وقف ، وسط عرس الأساطير الليبى ،
برسيوس ، فى هدوء صارم من السخط ،
نصف مرتكز ، ونصف سابح بريش كاحله ،
فعظم شأنه ، بينما الوجه اللامع على درعه ،
يحول المعركة المهتاجة أحجاراً ، كذلك ارتفع
ولكن دون أذرع سحرية ، بل محتفظاً فقط
بما لنظرته الثابتة من رهبة واتزان ،
سامور البريطانى ، حين تجلت هيبته ،
نخرج ، وران الصمت على القاعة الخليعة .

الفصل السادس عشر

المسوخ

العمالقة ـ أبو الهول ـ بيجاسوس ـ خيارا ـ سنتورس

جريفين ـ أقزام البيجمى .

المسوخ ، فى لغة علم الأساطير ، كائنات ذات تقاسيم أو أعضاء غير طبيعية ، وهى فى العادة مثار للفزع ، لما لها من قوة خارقة وشراسة بالغة ، كانت تستخدمها فى إيذاء الناس وإزعاجهم ، وكان يظن أن بعضها يجمع بين أعضاء الحيوانات المختلفة ، مثل أبى الهول والخيارا ، وكانت تنسب إليها جميع الصفات الفظيعة التى للوحوش بالإضافة إلى حصافة البشر وملكاتهم ، وأخرى كالعمالقة ، كانت تختلف أصلا عن البشر فى حجمها ، وعلينا ، بهذا الخصوص ، أن نفطن إلى الفارق الكبير بينها ، فالعمالقة البشريون ، إذا صحت هذه التسمية ، كيكلوبس (Gyclops) وانتاؤس (Antoeus) ، وأريون (Orion) ، وآخرين ، يجب ألا يظن أنهم يتفاوتون تماماً عن الكائنات البشرية ، فقد امتزجوا بهم فى الحب والكفاح ، ولكن العمالقة فوق البشريين ، الذين حاربوا مع الآلهة ، كانوا ذوى أجرام شاسعة الأبعاد ، فيقال إن تيتوس (Tityus) عندما تمدد فوق السهل ، غطى تسعة أفدنة . وإن انكيلادوس (Knceladus) استلزم لإخضاعه وضع جبل اتنا برمته فوقه .

لقد أشرنا قبل ذلك عن الحرب التى شنتها العمالقة على الآلهة ، ونتيجتها ، وخلال قيام هذه الحرب ، يزهن العمالقة على أنهم أعداء ذوو بأس شديد ،

فبعضهم ، مثل برياريوس (Briareus) كان له مائة ذراع ! وآخرون مثل تيفون (Typhon) كانوا يزفرون النيران : وفى يوم ماملئوا قلوب الآلهة بالرعب حتى فروا إلى مصر وأخفوا أنفسهم فى أشكال مختلفة ، فاتخذ جوبتر لنفسه هيئة كبش ، ومن ثمة عبدوه بعد ذلك فى مصر على أنه الإله آمون (Ammon) ذو القرون المعوجة ، وأصبح أبوللو غراباً ، وباخوس عنزاً ، وديانا قطة ، ويونو بقرة فينوس سمكة ، ومركيورى طائراً ، وحاول العمالقة مرة أخرى أن يصعدوا إلى السماء ، ولهذا الغرض انتزعوا جبل اوسا (Ossa) ورفعوه فوق بليون (Pelion)، ولكن منيرفا قهرتهم أخيراً بالصواعق التى اخترعتها ، وعلمت فولكان ، واتباعة الكيكلوبس ، صنعها لجوبتر .

ابو الهول

حذر كاهن ، ملك طيبة المدعو لايوس (Laius) ، بأن ثمة خطراً يهدد عرشه وحياته إذا ما ترك ابنه يشب عن الطوق ، ولذلك أناط بأحد الرعاة أمر العناية به ، وأصدر اليه أمره بالقضاء عليه . ولكن الراعى أخذته الشفقة على الطفل . بيد انه إذا لم يجسر على ان يعصى الأمر على اطلاقه . قيد أقدام الطفل . وعلقه إلى غصن شجرة . ثم تركه وانصرف ! واذ كان الطفل على هذه الحال . وجده فلاح فحمله الى سيده وسيدته ! اللذين تبنياه . واطلقا عليه اسم اوديب (Oedipus) او القدم المتورمة .

بعد ذلك بسنين عديدة ! اذ كان لايوس فى طريقه الى دلفى . يرافقه تابع واحد فقط : قابل فى طريق ضيق شابا يقود ايضاً عربة . وعندما رفض ان يخلى الطريق . تنفيذاً لأمرهما : قتل التابع أحد جياده : فاستشاط الغريب غيظاً ومن ثمة قتل لايوس وتابعه : وكان الشاب هو أوديب ، وقد أصبح بذلك قاتلا لوالده ! دون علم منه .

بعد هذا الحادث بوقت قصير ، ابتليت مدينة طيبة بتنين يعترض الطريق العام يدعى أبو الهول ، وله بدن أسد ، والجزء الأعلى لامرأة ، وكان يربض فوق صخرة ، فيقبض على جميع المسافرين ، الذين يمرون من هذا الطريق ، ويعرض عليهم أحجية ، على شريطة أن من يستطيعون حلها ، يمرون بسلام ، أما أولئك الذين يخفقون فيقتلون ، ولم يكن أحد حتى ذلك الحين قد وفق إلى حلها ، وقد قتل الجميع ، فلم يجزع أوديب لهذه القصص المفزعة ، ولكنه تقدم في جرأة لهذه المحاولة ، فسأله أبو الهول : « أى حيوان يسير فى الصباح على أربع ، وعند الظهر على اثنين ، وفى المساء على ثلاث ؟ » فأجاب أوديب : « إنه الإنسان ، فهو فى الطفولة يحبو على يديه وركبتيه ، وفى الرجولة يمشى منتصباً ، ويستعين في الشيخوخة بعصا . » . . .

فأحس أبو الهول ذلة وهواناً لحل أحجيته ، حتى أنه ألقى بنفسه من فوق الصخرة وهلك .

وكان عرفان الشعب لجميل أوديب عظيماً ، إذ تم خلاصهم ، فنصبوه ملكا عليهم ، وزفوا إليه ملكتهم جوكستا (Jscasta) . فأصبح أوديب ، وهو جاهل بنسبه : قاتلا لأبيه ، كما أصبح ، بعد بنائه بالملكة ، زوجاً لأمه ، وظلت هذه الكبائر خفية ، حتى رزئت طيبة بالجوع والوباء ، وعندما توجه القوم إلى الكاهن يلتمسون النصح والإرشاد ، انكشفت جريمة أوديب المزدوجة فأنهت جوكستا حياتها ، أما أوديب فاذ التاث عقله سمل عينيه ، وراح يطوف على غير هدى خارج طيبة ، وقد عافه الجميع ، وانفضوا من حوله ، ماعدا بناته اللاتي لم يتخلين عنه ، بل أحطنه برعايتهن ، حتى أنهى حياته التعسة ، بعد طواف طويل منكود .

بيجاسوس وخيمارا

عندما قطع برسيوس رأس ميدوسا ، نبت الجواد المجنح بيجاسوس ، من الدم الذى روى الأرض ، فأمسكت به منيرفا وذللته، وأهدته إلى الإلاهات الموسيق وقد انبجست النافورة هيبو كرينا (Hippocrene) فوق جبل الإلاهات الموسيقى ، المسمى هليكون (Helicon) بركلة من حافره .

وكان الخيمارا مسخاً مرعباً ، يقذف النار من فيه ، وكان الجزء الأمامي من بدنه ، مركباً من أسد وعنز ، والجزء الخلفي من تنين ، وعاث فساداً شديداً فى ليكيا (Lycia) حتى إن الملك ايوباتيس (Iobates) بحث عن بطل يقضى عليه ، وفى ذلك الحين وصل إلى البلاط الملكى محارب باسل صغير السن يدعى بلليروفون (BelleroPhon) واستحضر معه كتب تزكية من بروتس (Proetus) صهر ايوباتيس ، تطرى بلليروفون ، بأصدق اسلوب ، كبطل لا يقهر ، ولكنه أضاف ، فى الختام ، رجاء إلى والد زوجته كي يقضى على حياته ، وعلة ذلك أن بروتس كان يغير منه ، لشكه ان زوجته انتيا (Antea) كانت تنظر إلى المحارب الشاب باعجاب بالغ ، ومن هذا الحدث عن بلليرفون ، وحمله ، وهو غافل ، صك موته ، اصبح الاصطلاح « رسائل بلليروفونية » وصفاً لأى ضرب من المكاتبات تؤذى حاملها :

وحينما طالع ايوباتيس الرسائل تحير ماذا يصنع ، فهو لم يكن راغباً فى انتهاك حرمة الضيافة ، وعلى الرغم من ذلك كان يبتغى ان يرضى صهره، فخطرت على باله فكرة ميمونة ، وهى أن يرسل بلليروفون لمقاتلة الخيمارا ، فقبل بلليروفون الطلب ولكنه ، قبل أن يتقدم للقتال ، استشار العراف بوليبدوس (Polyihus) الذى نصحه بأن يحصل ، اذا استطاع ، على الجواد بيجاسوس استعداداً للمعركة

وأشار عليه ، لهذا الغرض ، أن يقضى الليلة فى معبد منيرفا ، ففعل كذلك ، وإذ كان نائماً ، جاءته منيرفا ، وأعطته لجاما من الذهب ، وعندما استيقظ وجد اللجام بيده ، وكذلك فإن منيرفا أرته بيجاسوس، وهو يشرب من بئر بيرينا (Perene)، وعندما وقع نظر الجواد المجنح على اللجام ، تقدم طائعاً وسلم زمام نفسه ، فامتطاه بلليروفون وارتفع معه فى الهواء ، وسرعان ما وجد الخيمارا ، وكان انتصاره على المسخ سهلا ميسوراً .

وبعد هزيمة الخيمارا ، تعرض بلليروفون لمحن ومتاعب أخرى ، من مضيفه غير الصديق ، ولكنه بمساعدة بيجاسوس خرج ظافراً منها جميعاً ، وأخيراً حين وجد أيوباتيس أن البطل كان أثيراً عند الآلهة ، زف إليه ابنته ، وجعله خليفته على العرش ، وفى النهاية أثار بلليروفون سخط الآلهة عليه بكبريائه وغروره ، بل إنه ليقال إنه حاول أن يصعد إلى السماء طائراً على جواده المجنح ولكن جوبتر أرسل إحدى ذبابات الخيل ، فلسعت بيجاسوس ، وجعلته يقذف براكبه من حالق ، فأصبح أعرج أعمى ، وبعد هذا راح بلليروفون يذرع فضاء آليا (Aleian Field) وحيداً ، متجنباً الطرق التى يسلكها الناس ، ومات تعيساً .

ويشير ملتون إلى بلليروفون فى مستهل السفر السابع من « الفردوس المفقود » :

اهبطى من السماء يا إلاهة الفلك المسماة يورانيا ،
إن كنت جديرة بهذا الاسم ، انى أتبع صوتك الإلهى ،
وأروح أحلق فوق جبل أوليمبوس ،
تحليقاً أعلى من طيران بيجاسوس

***

أنت قائدى فى أجـــواز القضـــاء
إلى السموات العلى ، كما توقعت ،
إنا زائر أرضي ، منجذب مع الأفلاك ،
(كنتوجيهك) وبنفس الأمان قوديني لأسفل ،
وأعديني إلى موطنى الأول
وخشية أتى من فوق هذا الجواد الطائر غير الملجم
(كما حدث يوما لبلليرفون ، ولـكن من ارتفاع أقل)
إذ سقط فى فضاء آليا ، فأسقط أنا الآخر
مذنباً وأروح أزرع الفضاء وحيداً .

* * *

وبونج ، فى قصيدته « أفـكار الليل » تـكلم عن اللا أدريين فقال :

من ينكر أحداث المستقبل بفكره الأعمى ،
فهو كبلليروفون يحمل ، دون وعي ، مثلك .
تهمة جريمته ويدين نفسه
ومن يطالع مكنون صدره يطالع الحياة الخالدة ،
أو يطالع الطبيعة هناك مفروضة على بنيها ،
فسطرت الخرافات ، وجعلت الإنسان أكذوبة ،

المجلد الثانى ـ الصفحة الثانيه عشرة

وإذ كان بيجاسوس هو جواد إلاهات الموسيقى والشعر ، فهو دائما فى خدمة الشعراء ، ويسوق شيللر قصة طريفة عن بيع شاعر معوز له ، واستخدامه فى جر العربة والمحراث . فلم يصلح لهذه المهمة ، ولم يستطع صاحبه الريفي أن يفيد منه . ولـكن شاباً تقدم واستأذن فى اختباره ، فلم يكد يمتطي

ظهره ، حتى كان الجواد ، الذى بدا فى مبدأ الأمر حروناً شموساً ثم منكسراً ذليلا ، قد نشر جناحيه فى كامل بهائهما وحلق صوب السماء ، كذلك يصجل لونجفيللو Longfellow » مغامرة لهذا الجواد الشهير فى قصيدته « بيجاسوس فى حظيرة » .

ويشير شكسبير إلى بيجاسوس فى مسرحيته « هنرى الرابع » حيث يصف فرنون الأمير هنرى :

رأيت هاري الشاب بقبعته من جلد القندس ،
بفخذيه المغطاتين بالدروع ، وبأسلحته الخفاف ،
يرتفع عن الأرض مثل مركيورى المجنح ،
ويقفز بخفة إلي مقعده من الصهوة ،
كملاك هبط من الغمام
ليذلل بيجاسوس الشموس مسابقاً الريح ،
ويفتن العالم بفروسيته النبيلة

* * *

الـكنتورس

تمثل هذه المسوخ كبشر من الرأس إلي الحقوين : أما الجزء الباقى من الجسم فبدن حصان ، وكان القدماء موفورى الشغف بالحصان فلا يعتبرون أن اتحاد طبيعته بطبيعة الإنسان من شأنه أن يكون خليطاً دنىء الرتبة جداً . ولذلك كان الـكنتور هو الوحيد بين مسوخ القدماء الخيالية ، الذى يتسم بالصفات الحسنة ، وكان مصرحاً للكنتورس أن ترافق البشر ، وحضر لفيف منها بين المدعوين إلي زفاف بيرثيوس Pirithous على هيبوداميا Hippodamia ، وفى

الحفل لعبت الخمر برأس يوريتيون (Eurytion) وهو واحد من الكنتورس فحاول أن ينتهك حرمة العروس ، وحذت بقية جماعة الكنتورس حذوه ، فوقعت معركة فظيعة قتل فيها عدد منها ، وهذه هي موقعة لابثيا (Lapithoe) والكنتورس الشهيرة ، التي كانت موضوعاً أثيراً عند النحاتين والشعراء الأقدمين .

ولكن لم تكن جميع الكنتورس أجلافا مثل ضيوف بيريثيوس ، فخيرون (Ghiron) بثقف على يد أبوللو وديانا ، واشتهر ببراعته في الصيد والطب والموسيقى وفن العرافة ، وكان أبرز أبطال القصة الإغريقية من تلامذة ، وقد أناط به أبوللو أمر العناية بطفله أسكولا بيوس (Aesculabius) مع آخرين ، وعندما عاد الحكيم إلى منزله يحمل الطفل ، خفت ابنته أو كيرهو (Ocyrhoe) لمقابلته ! وحين رأت الطفل نطقت فوراً بخطاب نبوى (لأنها كانت نبية) متكهنة بالمجد الذى سيحققه ! فلما شب اسكولا بيوس أصبح طبيباً ذائع الصيت حتى إنه نجح مرة فى إعادة الحياة إلي ميت ؟ فحقد عليه بيلوتو (Pluto) إله العالم السفلي ! لهذا ؟ فبناء على طلبه ، قضى جوبتر على الطبيب الباسل باحدى صواعقه لكنه ضمه بعد موته إلي زمرة الآلهة .

وكان خيرون أعقل جميع الكنتورس وأكثرهم إنصافا ، فأجلسه جوبتر بعد موته ، بين النجوم باعتباره مجموعة رامى القوس . (Sagittarius)

جماعة البيجمى

كانت جماعة البيجمى أمة من الأقزام ؛ وقد جاءت تسميتهم من لفظ يونانى معناه الذراع وهو مقياس يبلغ نحو ثلاث عشرة بوصة ، ومما يقال إنه طول الفرد من هذه الجماعة ، التى كانت تعيش قرب منابع النيل ، أو فى الهند وفقاً لرواية أخرى ، وذكر هوميروس أن طيور الكراكى اعتادت أن تنزح كل شتاء إلى

بلاد البيجمى ، وكان ظهرها هو النذير لقتال دموى يشهده الأهالى الصغار ، الذين كانوا يضطرون لحمل السلاح ، دفاعاً عن حقولهم المزروعة قمحاً ، ضد الطيور الأجنبية الشرهة ، ويكون أقزام البيجمي وأعداؤهم الكراكى موضوعاً لبضع تحف من روائع الفن .

وذكر الكتاب بعد ذلك ، أن جيشاً من أقزام البيجمى ، وجد هرقل نائماً ، فقام باستعدادات لمهاجمته ، كما لو كانوا مقبلين على مهاجمة مدينة ، ولكن البطل ، وقد استيقظ ، سخر من المحاربين الصغار ، فلف بعضاً منهم فى فروة الأسد التى يستخدمها ، وحملهم إلى يوريستيوس (Eurystheus) .

واستخدم ملتون أقزام البيجمى فى تشبيه بيانى بمؤلفه « الفردوس المفقود » السفر الأول كما يلى : —

. . . . مثل جماعة البيجمى
خلف الجبل الهندي ، أو مثل العفاريت ،
الذين يلهون نصف الليل على مشارف غابة ،
أوقرب نافورة ، فيراهم فلاح معوق مبطىء ،
(أو يحلم برؤيتهم) بينما الإلاهة القمر فوق رأسه ،
تجلس حكماً ، وعلى مقربة من الأرض ،
تدور فى مجراها الشاحب ، وهم فى قصفهم ورقصهم
لاهون ، فيشنفون أذنه بالموسيقى المرحة ،
وسرعان مايثب قلبه بهجة وفزعاً .

* * *

الجريفين او الجريفيون

الجريفين مسخ له بدن أسد ، ورأس وجناحا عقاب ، وظهر يغطيه الريش ،

وهو يبني عشه كالطير ، ويبضه من العقيق ، له مخالب وأظفار كبيرة الحجم حتى إن أهالي تلك البلاد يصنعون منها أقداحاً للشرب ، وزعموا أن الهند كانت موطن مسوخ الجريفين ، وكانت تجد الذهب في الجبال وتبني أعشاشها منه ، ولهذا السبب كانت هذه الأعشاش شديدة الإغواء للصيادين ، ولذلك كانت مضطرة لحراستها في يقظة شديدة ، وكانت تنساق بغريزتها لمعرفة الكنوز الدفينة ، وكانت لا تدخر وسعاً في إبعاد الناهبين عنها ، وازدهرت مسوخ الجريفين بين الاريعسبيان (ArimasPims) ، وهم قوم خلقوا بعين واحدة ، واستوطنوا سكثيا (Scythia).

واستعار ملتون تشبيهاً من مسوخ الجريفين واستخدامه في «الفردوس المفقود» السفر الثاني :

« مثل جريفين حين اخترق التيه ،
محلقاً فوق التل والوادي ذي الأحراش ،
مقتفياً أثر الاريعسبيان الذي تسلل
وسلب ، على الرغم من الحراسة اليقظة ،
الذهب المخفور . . . » إلخ

الفصل السابع عشر

الجزة الذهبية

ميديا

الجزة الذهبية

فى عهد ضارب فى القدم ، كان يعيش فى تساليا ملك وملكة ، يدعوان أثامس (Athames) ونيفيلا (Nephele) وكان لهما طفلان ، صبي وصبية ، وبعد فترة من الزمن قل اهتمام أثامس بزوجته ، فأهملها وتزوج أخرى ، فتوجست نيفيلا أن يتعرض طفلاها للخطر من جراء نفوذ زوجة أبيهما ، فاتخذت الإجراءات لإبعادهما عن متناول يدها ، فعاونها مركيوري ، وأعطاها كبشاً بجزة ذهبية ، فأركبت طفليها واطمأنت إلى ان الكبش سيحملهما إلى مكان امين، فحلق الكبش فى الهواء والطفلان فوق ظهره ، متوجها صوب الشرق ، حتى إذا راح يعبر الطريق الذى يفصل اوربا عن آسيا ، سقطت الصبية من فوق ظهره فى اليم ، وكانت تدعى هيلا ، وقد اخذ المضيق اسمه منها فدعى هيلسبونت — وهو المسمى الآن بالدردنيل — فلم يتوقف الكبش بل واصل طيرانه حتى وصل مملكة كولخيس (Colchis) ، على الساحل الشرقى للبحر الأسود ، حيث هبط بالصبى فرسكسوس (Phryxus) فى أمان ، حيث أكرم ضيافته آيتيس (Aeetes) ملك البلاد ، وقدم فريكسوس الكبش ذبيحة لجوبتر ، واعطى الجزة الذهبية لآيتيس ، الذى وضعها فى دغل مقدس ، ووكل العناية بها إلى تنين لا ينام .

وكان فى تساليا مملكة أخرى ، قرب مملكة أثامس ، يحكمها احد اقربائه،

وإذ كان الملك آسون (Aeson) قد ارهقته أعباء الحكم ، تنازل عن تاجه لأخيه بلياس (Pelias) على شريطة ان يقتصر حكمه على الفترة التي يكون فيها ياسون (Jason) بن آسون قاصراً ، فلما شب ياسون واشتد عوده ، وجاء يطلب التاج من عمه ، تظاهر بلياس برغبته في تسليمه ، ولكنه اقترح على الشاب ، في نفس الوقت ، ان يقوم بمغامرة رائعة تتعلق بذهابه للبحث عن الجزة الذهبية ، التي لم يكن أحد يجهل أنها بمملكة كولخيس ، كما كانت ، على حد ادعاء بلياس ، ملكا شرعياً لأسرتهم ، فرحب ياسون بالفكرة مبتهجاً ، ومن ثمة قام بالاستعدادات اللازمة للرحلة ، وفي ذلك الوقت كانت طرق الملاحة الوحيدة المعروفة لليونانيين قاصرة على القوارب الصغيرة أو الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار بعد تجويفها ، ولذلك فعندما عمد ياسون إلى استخدام ارجوس كي يبني له سفينة تسع خمسين رجلا ، اعتبر الناس هذه المهمة من الأعمال الضخمة العملاقة ، ولكن السفينة تم بناؤها ، واطلق عليها اسم ارجو (Argo) نسبه إلى صانعها ، ثم بعث ياسون يدعو إليه جميع شباب اليونان المغامرين ، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جماعة من الشبان البواسل ، الذين اشتهر الكثيرون منهم بعد ذلك ضمن أبطال بلاد اليونان وأنصاف آلهتها ، ومن هؤلاء ظهر هرقل وتسيوس وافيوس ونسطور ، وأطلق عليهم اسم الأرجونوتس (Argonauts) نسبة إلى اسم سفينتهم .

واقامت « الأرجو » بحارتها الأبطال من سواحل تساليا ، وإذ أشرقت على جزيرة ليمنوس ، عبرت من هناك إلى ميسيا ، ومنها إلى تراسا (Thrase) ، هنا ووجدوا الحكيم فنيوس ، ومنه حصلوا على معلومات تتعلق ، بخط سيرهم المرتقب ، ويبدو أن مدخل بحر يوكسينا (Euxine Sea) كانت تعترضه جزيرتان صخريتان ، طافيتان فوق السطح ، وفي تدافعهما وتحركهما كانت تتلاقيان احياناً ، فيحطمان كل شيء يقع بينهما ، ويطحنانه طحناً ، وكانتا

تعرفان باسم سمبلاجا ديس (Symplegades) أو الجزيرتين المتصادمتين ، فأطلع فنيوس الأرجونوتس على طريقة عبور هذا المضيق المحفوف بالأخطار ، وعند وصولهم إلى الجزيرتين أطلقوا حمامة ، طارت بين الصخور ، وعبرت بسلام ، دون أن تفقد إلا بعض الريش من ذيلها ، وانتهز ياسون ورجاله لحظة مواتية حينما انفرجت الصخرتان ، وراحوا يجدفون بقوة وبأس شديد ، حتى مروا بسلام ، على الرغم من انطباق الجزيرتين خلفهم ، ومسهما فعلا لدفة السفينة ، ثم راحوا يجدفون حذاء الشاطىء حتى وصلوا إلى الطرف الشرقى للبحر ، ورسوا فى مملكة كولخيس .

وأفضى ياسون بمهمته إلى آيتيس ملك كولخيس ، الذى وافق على أن يعطى ياسون الجزة الذهبية ، لو أنه ربط إلى المحراث ثورين ينفثان النار ، حوافرهما من النحاس ، ويبذران أنياب التنين الذى قتله كادموس ، والتى سينبت منها ، كما كان معروفا ، محصولا من الرجال المسلحين ، الذين يشهرون السلاح ضد صانعهم ، فقبل ياسون هذه الشروط ، وحدد موعد لتنفيذ المهمة ، ولكنه وجد ، قبل ذلك ، وسيلة يدعم بها موقفه عند ميديا ، ابنة الملك ، فوعدها بالزواج ، وإذ كان واقفا أمام مذبح هيكاتا (Hecate) راح يشهد الآلهة على قسمه ، فرضيت ميديا ، وساعدته ، لأنها كانت ساحرة قديرة ، حصل على تعويذة استطاع بها أن يواجه ، وهو آمن ، أنفاس الثيران ، نافثة النيران ، وما يحمله الرجال المسلحون من عدة وعتاد .

وفى الموعد المحدد احتشد الناس عند دغل مارس ، فاستوى الملك على عرشه ، بينما غطت الجماهير جوانب التل ، وأقبلت الثيران ، ذات الحوافر النحاسية ، مندفعة ، وهي تنفث النيران من فتحات أنوفها ، فكانت تحرق العشب حين مرورها ، وكان الصوت كصيحة التنور ، والدخان كأنه صادر من ماء يسيل فوق جير حى فتقدم ياسون فى جرأة للقائها ، بينما راح أصدقاؤه ، نخبة أبطال اليونان ،

يرتعشون فزعاً لدى رؤيتهم لها ، وعلى الرغم من أنفاسها الخارقة فقد هدأ بصوته جياج ثورين منها ، وربت بيد جسورة على عنقيهما ، ثم زحلق النير بمهارة من فوقهما ، وأرغمهما على جر المحراث ، فانبهر الكولخيون ، وهتف اليونانيون ابتهاجا ، بعد ذلك تقدم ياسون ليبذر أنياب التنين وتحديدها بالأرض ، وسرعان ما نبت حشد من الرجال المسلحين ، ومن عجب أنهم ما كادوا يصلون إلى السطح حتى أخذوا يلوحون بأسلحتهم ، ويهاجمون ياسون ، فانخلعت قلوب اليونانيين خوفاً على بطلهم بل إن ميديا نفسها ، وهي التي أمدته بوسيلة توفر له الأمن ، وعلمته كيف يستخدمها ، شحب لونها من فرط الفزع ، وتيسر لياسون أن يناجز مهاجميه بسيفه ودرعه وأن يصمد لهم إلى حين ، حتى إذ وجد حشودهم تتضخم ، استعان بالتعويذة التى علمتها له ميديا ، ومن ثمة التقط حجراً ، وألقى به وسط أعدائه ، فصوبوا ، فى الحال ، أسلحتهم بعضهم ضد بعض ، وسرعان ما فنيت ذرية التنين ، فلم يبق منها أحد على قيد الحياة ، فعانق اليونانيون بطلهم ، ولولا الحياء لعانقته ميديا هى الأخرى .

بعد ذلك بقيت مهمة تهدئة التنين الذى يحرس الجزة حتى ينام ، وتم هذا برش بضع قطرات من مستحضر سبق أن أعطته له ميديا ، فعند استنشاقه زال عنه هياجه ، ووقف لحظة لا يبدى حراكا ، ثم أغلق تلك العيون المستديرة الكبيرة التى لم يعرف عنها أنها أغلقت من قبل ، واستدار على جنبه ، وهو يغط فى نوم عميق ، فتلقف ياسون الجزة ، وسارع مع أصدقائه ، وميديا بصحبتهم ، إلى سفينتهم ، قبل أن يمنع آيتيس الملك سفرهم ، ورحلوا على الطائر الميمون إلى تساليا ، حيث وصلوا بسلام ، فسلم ياسون الجزة لبلياس ، ونذر الأرجو للاله نبتيون ، أما ما حدث للجزة بعد ذلك فلسنا ندرى ، ولكن لعله ظهر بعد ذلك أنها ، كالكثير غيرها من الجوائز الذهبية ، لم تكن لتستحق الجهد الذى تكلفه الحصول عليها .

وهذه إحدى القصص الأسطورية ، على حد ما يراه كاتب محدث ، التي تتوافر فيها الأسباب للاعتقاد بوجود أساس فيها للحقيقة ، على الرغم من توشيتها بطبقة من الخيال ، فمن المحتمل أنها كانت أولى الرحلات البحرية ، ومن المحتمل أيضا أنها كانت في طبيعتها تميل إلى القرصنة ، مثل المحاولات الأولى من هذا النوع عند كافة الشعوب ، كما يعلمنا التاريخ ، فإذا كانت الغنائم والأنفال هي الثمرة ، ففيها ما كان كافيا لإعلاء فكرة الجزة الذهبية .

وثمة فكرة أخرى يسوقها عالم كبير في الأساطير ، يدعى بريانت (Bryant)، مضمونها أن هذه الأسطورة ليست سوى حديث متواتر محرف عن قصة نوح والفلك ، ويبدو أن الاسم (أرجو ـ Argo) يدعم هذا لمشابهته باللفظ (Ark) أي الفلك ، كما أن حادثة الحمامة إثبات آخر .

ويحتفل بوب (Pope) في قصيدته « أنشودة في يوم القديسة « سسليا » بإقلاع السفينة « أرجو » وبقوة موسيقي أورفيوس ، الذي يدعوه « التراسي » فيقول :

« ولذلك فحين تجاسرت أول سفينة على جوب البحار ،
أطلق التراسي من فوق الدفة أنغامه العالية ،
بينما شاهدت سفينة « الأرجو » قريباتها الأشجار
تهبط من جبل بليون إلى المحيط ،
وحولها وقف أنصاف آلهة بعد اجتيازهم البحار ،
ورجال عبوا فأصبحوا أبطالا ، حين دعوا . »

***

وفي قصيدة داير (Dyer) « الجزة » وصف لسفينة « أرجو » وبحارتها ، وهو يعطي صورة عن هذه المغامرة البحرية البدائية :

« من كل إقليم على شاطىء بحر إيجه ،
تقاطر الشجعان ، فهذان التوأمان الشهيران ،
كاستور وبولوكس ، والمنشد الصداح أورفيوس ،
وزيتيس وكاليس ، وهما كالريح في سرعتهما ،
وهرقل القوي ، ورؤساء كثيرون مشهورون ،
جميعهم احتشدوا على شاطىء بحر أيوكلوس الرملي ،
بدروعهم اللامعة ، وهم يتلهفون للمغامرات ،
وسرعان ما راح الحبل المثقل بالنار والحجر الضخم
يرتفعان إلى ظهر السفينة ، ومن ثمة أقلعت
بهيكلها العجيب الطول ، وصناعتها البارعة
التي صممها أرجوس للقيام بالمغامرة العظيمة ،
وفي السفين المترامي الأطراف صار شامخ ،
يناطح السماء ، وأشرعة منشورة يملؤها الهواء ،
مما لم يتعوده الرؤساء ، ولأول مرة تعلموا آنذاك ،
كي يشقون عباب المحيط بأمواجه المتلاطمة ،
مسترشدين بالنجوم الذهبية ، وفق فن خيرون ،
الذي خطط كرة الفلك السماوية » إلخ

***

وتخلف هرقل عن الحملة في ميسيا ، ذلك لأن هيلاس (Hylas) ، وهو شاب كان موضع حبه ، ذهب ليستقي ماء ، فأمسكت به حوريات النبع ولم يسمحن له بالانصراف ، إذ كن قد فتن بجماله ، فذهب هرقل للبحث عن الغلام ، وفي أثناء غيابه أقلعت « الأرجو » وتركته ، ويسوق ، مور ، في إحدى أغانيه ، إشارة بديعة لهذه الحادثة :

عندما ذهب هيلاس بإنائه إلى النافورة ،
وبقلبه المليء بالهوى مخترقا الحقول المليئة بالضوء ،
راح الصبي يطفر مرحا فوق المراعي والهضاب ،
وأهمل مهمته للأزهار في الطريق .

***

وهكذا مثلي كثيرون كان يلزمهم أن يرتشفوا
من النبع الذي يجري قرب محراب الحكمة ،
ولكنهم ضيعوا وقتهم مع الأزهار عند الحافة ،
وتركوا أوانيهم الخفيفة فارغة كإنائي .

* * *

ميديا وآيسون

ووسط الأفراح باسترداد الجزة الذهبية أحس ياسون أن شيئا واحدا يعوزه ، وهو وجود أبيه آيسون ، الذي منعه سنه وأمراضه من المشاركة فيها ، فقال لميديا : « يا قرينتي ، بودي لو استطاعت فنونك ، التي رأيت أثرها القوي فيما أسدته إلي من عون ، أن تقدمي لي خدمة أخرى واحدة ، حبذا لو أخذت بضع سنين من حياتي ، وأضفتها إلى حياة أبي . » فأجابته ميديا قائلة : « سيتم ما تبغي ولكن ليس بهذا الثمن ، وإذا أسعفني فني ، فستطول حياته ، دون أن تقصر حياتك . » وعندما أصبح القمر بدرا كاملا ، خرجت وحيدة ، بينما كانت جميع الكائنات نائمة ، وما من نسمة تحرك أوراق الشجر ، أو نأمة تقطع حبل الصمت والسكون ، وراحت تتلو تعاويذها مخاطبة النجوم والقمر وهيكاتا (Hecate)(١) ،

---

(١) كانت هيكاتا إلاهة غامضة ، فأحيانا كانت تطابق ديانا ، وأحيانا أخرى بروسيربينا ، فكما أن ديانا تمثل بهاء الليل في ضوء القمر ، كذلك تمثل هيكاتا ظلاله وأهواله ، فهي إلاهة السحر والعرافة ، وكان المعتقد أنها تطوف في الليل حول الأرض ، فلا يراها سوى الكلاب التي تنبىء بنباحها عن مقدمها .

إلاهة العالم السفلى ، وتيللوس (Tellus) إلاهة الأرض ، التى أنبتت بقدرتها الأعشاب الصالحة للسحر ، كما راحت تستغيث بآلهة الغابات والكهوف ، والجبال والوديان ، والبحيرات والأنهار ، والأبخرة والرياح ، وحينما كانت تتكلم ازدادت النجوم تلألؤا ، وسرعان ما هبطت مركبة ، تخترق الهواء ، وتجرها حيات طائرة ، فاعتلتها وارتفعت بها ، حيث أخذت طريقها إلى أماكن بعيدة ، حيث نمت أعشاب شديدة الأثر ، عرفت كيف تختارها لخدمة غرضها ، فقضت تسع ليال فى بحثها ، وخلال هذا الوقت لم تقرب أبواب قصرها ، أو تستظل بأى سقف ، أو تتصل بأى مخلوق .

وأعقبت ذلك بأن بنت مذبحين ، واحدا لهيكاتا ، والآخر لهيبا (Hebe) ، إلاهة الشباب ، وضحت بخروف أسود ، وأراقت سكائب من اللبن والخمر ، وابتهلت إلى بلوتو وزوجته المسروقة ، ألا يعجلا بقبض روح الشيخ ، ثم أشارت باستحضار آيسون ، وإذ ألقت به فى نوم عميق بوساطة رقية تلتها ، أرقدوه على فراش من العشب كأحد الموتى ، واستبعدت عن المكان ياسون والآخرين جميعا ، حتى لا تقع عين دنيوية على أسرارها ، بعد ذلك دارت ثلاث مرات ، بشعر أشعث متهدل ، حول المذبحين ، وغمست فى الدم أغصانا ملتهبة ، وضعتها على المذبحين لتحترق ، وفى غضون ذلك كان القدر بمحتوياته قد تم إعداده ، فوضعت فيه أعشابا سحرية ، مع حبوب وأزهار ذات عصير لاذع ، وأحجار من الشرق النائى ، ورمال من شاطىء البحر المحيط ، وجليد تجمع فى ضوء القمر ، ورأس بومة معولة وجناحيها ، وأحشاء ذئب ، وأضافت شظايا من أصداف السلاحف ، وقطعا من أكباد الغزلان — وهى حيوانات شديدة التعلق بالحياة — ورأس ومنقار غراب ، وهو يعمر أكثر من تسعة أجيال من البشر ، فقلت هذه مع أشياء أخرى كثيرة « لا اسم لها » تخدم غرضها ، وراحت تحركها فى القدر بغصن زيتون

جاف ، ومن عجب أنه بمجرد إخراج الغصن اخضر ، وبعد لحظات أورق ، وبرز منه عدد كبير من حبات الزيتون ، وعندما كان السائل يغلى وتطفو على سطحه الفقاقيع ، وينسكب بعضه أحيانا ، كانت الحشائش التى يسقط فوقها رذاذ السائل ، تكسوها خضرة كخضرة الربيع .

وإذ وجدت ميديا أن كل شىء تم إعداده ، قطعت عنق الشيخ ، واستنزفت جميع دمائه ، ثم سكبت فى فمه وجرحه ما فى القدر من سوائل ، فما كاد يمتصها بأكلها ، حتى استحال بياض شعره ولحيته إلى سواد الشباب ، وزال عنه الشحوب والهزال ، وامتلأت شرايينه بالدم ، وأعضاء جسمه بالقوة والعنفوان ، فطفت على آيسون غمرة من الانبهار ، ودار بخلده أنه فى حالته هذه ، إنما يعيش فى عهد شبابه ، منذ أربعين عاما .

لقد استخدمت ميديا فنونها هنا لغرض كريم ، ولكنها فى حادثة أخرى لم تستخدمها على هذه الصورة ، حيث استغلت هذه الفنون كأداة للانتقام ، فقراؤنا يذكرون أن بلياس كان عم ياسون الذى اغتصب عرشه ، وأبعده عن مملكته ، ولكن يرجح أنه كان يتسم ببعض الصفات الحسنة ، إذ أحبته بناته ، وعندما رأين ما صنعته ميديا لآيسون ، طلبن إليها أن تصنع نفس الشىء لوالدهن ، فتظاهرت ميديا بالقبول ، وأعدت قدرها كما أعدته من قبل ، فاستحضرن خروفا متقدما فى السن ، كطلبها ، وألقين به فى القدر ، فسرعان ما سمعن ثغاء فى القدر ، وحين رفع الغطاء وثب حمل صغير وراح يجرى ويطفر فى المرعى ، فشاهدت بنات بلياس التجربة وهن مبتهجات ، وحددن موعدا لإجراء نفس العملية لوالدهن ، ولكن ميديا أعدت قدرها للرجل بطريقة شديدة الاختلاف ، وفى الليل دخلت مع الشقيقات حجرة نوم الملك الشيخ ، بينما كان هو وحراسه مستغرقين فى نوم عميق ، تحت تأثير تعويذة تلتها ميديا عليهم ، ووقفت البنات بجانب الفراش واسلحتهن مشرعة ، ولكنهن ترددن عن الطعن ، إلى أن وبختهن ميديا على هذا

التردد ، وعندئذ أدرن وجوههن بعيدا ، ورحن يوجهن الطعنات جزافا وعلى غير هدى ، فقام من نومه مذعورا ، وصاح قائلا : « بناتى ، ماذا تصنعن ؟ تقتلن والدكن ؟ » . . . فتخاذلن إذ ضعفت قلوبهن ، وسقطت أسلحتهن من أيديهن ، ولـكن ميديا صوبت إليه طعنة قاتلة ، قضت عليه ، فلم ينطق ببنت شفة .

بعد ذلك وضعنه فى القدر ، وعجلت ميديا بالرحيل فى مركبتها التى تجرها الحيات قبل أن يكتشفن خيانتها ، وإلا لـكان انتقامهن منها مروعا ، وعلى أية حال فقد نجحت ولـكنها لم تستمتع بثمار جريمتها إلا بقدر ضئيل ، فياسون ، الذى صنعت من أجله كل هذا ، انصرف عن ميديا ، لرغبته فى الزواج من كريوسا (Creusa) أميرة كورنثا ، وإذ أسخطها جحوده ونـكرانه لجميلها ، أهابت بالآلهة أن تنتقم منه ، وأرسلت رداء مسموما كهدية للعروس ، ثم ذبحت أطفالها ، وأشعلت النار فى القصر ، وأخيراً امتطت مركبتها التى تجرها الحيات ، وفرت إلى أثينا ، حيث زوجت الملك آيجوس (Aegeus) والد ثسيوس (Theseus) وسنلاقيها مرة أخرى ، عندما نصل إلى مغامرة ذلك البطل .

وستذكر تعاويذ ميديا القارىء بتعاويذ الساحرات فى مسرحية « مكبث » ، وفيما يلى تلك الأبيات التى يبدو أنها النموذج القديم إلى الذاكرة فى وضوح تام :

وتدور فى القدر بأكمله ،
الأحشاء المسمومة الملقاة داخله ،

. . .

شريحة من أفعى المستنقع ،
فى القدر تغلى وتطبخ ،
وعين ضب ، وأصبع ضفدع ،

وصوف خفاش ، ولسان كلب ،
وشوكة أفعى ، وحمة وزغة ،
وساق سحلية ، وجناح بومة ،
. . .
وبلعوم قرش بحر مفترس ،
وجذر شوكران معزوق فى الظلام .

مكبث ـ الفصل الرابع ـ المنظر الأول .

وأيضاً :ـ

مكبث : ماهذا الذى تصنعن ؟
الساحرات : عملا لا اسم له .

وثمة قصة أخرى عن ميديا ، تكاد النفس أن تعاف مجرد تسجيلها ، حتى عن إحدى الساحرات ، وهي طائفة من الناس اعتاد الشعراء الأقدمون والمحدثون ، أن يلصقوا بها أشد ضروب القسوة ، فعند فرارها من كولخيس ، أخذت معها شقيقها الصغير ابسرتوس (Absyrtus) ، وعندما وجدت أن سفن آيتيس المطاردة تكاد تلحق رجال « الأرجو » تسببت فى قتل الغلام وبعثرت أعضاء جسمه فوق الماء ، وعندما وصل آيتيس إلى هذا المكان وجد أشلاء ابنه القتيل التى ملأت قلبه بالأسى ، وإذ تمهل ليجمع الأشلاء المبعثرة ، ويشرف على دفنها بالوقار اللائق لها ، كان رجال الأرجو قد لاذوا بالفرار .

وستجد فى قصائد كمبل (Campbell) ترجمة لإحدى الأناشيد الجوقية

من مأساة ميديا ، حيث انتهز الشاعر يوريبيديس الفرصة ، ليحيط موطنه أثينا بهالة من المديح ، فجاء استهلالها كما يلى :

أيتها الملكة البشعة ! أصوب أثينا تقودين
مركبتك المتوهجة المخضبة بدماء الأقربين ،
أولإخفاء جريمتك الدموية اللعينة تنشدين ،
حيث السلام والعدالة مستتبان أبد الآبدين ؟

* * *

الفصل الثامن عشر

ملياجر واتلانتا

كان ملياجر من بين أبطال حملة الأرجو ، وهو ابن أوينيوس (OEneus) ، وألثيا (Althea) ، ملك وملكة كاليدون (Calydon) ، وعندما وضعت ألثيا ابنها ، استطلعت الثلاث الموكلات بمصائر البشر ، وإذ يغزلن خيط القدر تنبأن بأن حياة الطفل ان تطول أكثر من جمرة نار كانت آنئذ تحترق بالموقد ، فالتقطت ألثيا الجمرة وأطفأتها ، وحفظتها بعناية سنين ، شب ملياجر خلالها عن الطوق ، ثم أصبح شابا فرجلا ، وحدث حينذاك أن أوينيوس ، إذ كان يقدم قرابينه للآلهة ، غفل عن أن يقوم بشعائر الولاء والتوقير لديانا ، فأحنقها هذا التقصير ، ومن ثمة أرسلت خنزيراً برياً ، ذا حجم هائل ، ليعيث فسادا فى حقول كاليدون ، وكانت عيناه تقدحان شرراً ودماً ، وشعره منتصب كالرماح المشرعة وأنيابه ضخمة كأنياب الفيلة الهندية ، فراح العدو المخرب يطأ القمح النامي ، ويحطم الكروم ، ويقتلع أشجار الزيتون ، فبدا أنه من العبث الاقتصار على المقاومة العادية مهما كانت ، ومن ثمة أهاب ملياجر بأبطال اليونان كى يقوموا جماعة بطراد جشود لقنص الوحش المفترس ، ثسيوس وصديقه بيريثوس ، ياسون بليوس ، والد أخيليس (Achilles) فيما بعد تلامون والد آجاكس (Ajax) ، نسطور ، الذى كان غلاما حينذاك ، ولكنه عندما اشتد عوده حمل السلاح مع أخيليس وأجاكس في حرب طروادة ، هؤلاء وكثيرون غيرهم انضموا إلى الحملة ، وقدمت معهم أتلنتا ، ابنة اياسيوس (Iasius) ملك أركاديا (Arcadia) ، وكانت تثبت رداءها بمشبك من الذهب الخالص المصقول ، ومن كتفها الأيسر تتدلى جعبة سهام من العاج وتحمل القوس بيدها اليسرى ، وكان وجهها يمزج بين

الجمـــال الأنثوي وأبدع سمات الشباب المحارب ، فأحبها ملياجر من النظرة الأولى .

ولـكنهم كانوا الآن قـد أصبحوا فعـلا على كثب من مربض الوحش ، فنشروا شباكا قوية بين الأشجار ، وأطلقوا كلابهم ، وحاولوا العثور على آثار أقدام طريدتهم بين الحشائش ، وثمة منحدر كان يصل الغابة بأراضي المستنقعات ، فهنا ، إذكان الخنزير البري رابضا بين البوص ، سمع صياح طارديه فهب مندفعاً لمهاجمتهم ، وراح يقتلهم واحدا إثرالآخر ، فألقى ياسون بحربته مبتهلا إلى ديانا أن توفقه ، وسمحت الإلاهة المحبة أن يمسه السلاح دون أن يجرحه ، إذ أزالت الذبابة الحديدة من الرمح حين انطلاقه ، وإذ هوجم نستور التمس ووجد ملاذا في أغصان شجرة ، وهجم تلامون ولـكنه تعثر في جذر بارز ، وانبطح على الأرض ، ولـكن سهما أطلقته أتلنتا أخيرا ، ذاق دم الوحش لأول مرة ، وكان جرحا خفيفا ، ولـكن ملياجر رآه وأعلن عنه مبتهجاً ، وإذ استشاط انكيوس (Anceus) غيظا وحسدا ، لما نالته أنثى من إطراء ، صاح مفاخرا ببسالته ، ومتحديا الخنزير والإلاهة التي أرسلته سواء بسواء ، وإذ هومندفع ، ألقاه الوحش الهائج أرضا ، بعد أن أصابه بجرح مميت ، وقذف ثسيوس بمزراقه ، فأطاشه غصن بارز ، ولم يصب سهم ياسون مرماه ، وقتل أحد كلابهم بدلا من الوحش ، أما ملياجر فبعد طعنــة واحدة طائشة ، اخترق جنب الوحش برمحه ، ثم اندفع وأمطره بطلقات متلاحقة .

فضج المكان بهتاف المحيطين بالمنتصر ، وراحوا يهنئونه ويتزاحمون لمس يده ، أما هو فوضع قدمه على رأس الخنزير القتيل ، ثم التفت إلى أتلنتا ، وخلع عليها الرأس والجلد الخشن ، باعتبارهما غنائم نصرته ، ولـكن عند هذا ، أهاج الحسد الباقين إلى حد التناحر ، بل لقد انفرد بلكسيبوس (PleiPPus) وتوكسيوس (Toeus) شقيقا والدة ملياجر ، دون الآخرين بمقاومة منح

هذه المدينة ، واختطفا من الفتاة الغنيمة التي تسلمتها ، فاستشاط ملياجر حنقا لما أصابه من امتهان ، بل وبالأكثر للاهانة التي وجهت إلى من اختصها بحبه ، فنسى صلة الرحم ، وغمد حسامه في قلب كل من الجانيين .

وعندما أقبلت ألثيا ، حاملة قرابين الشكر إلى المعابد ، لنصرة ابنها ، وقع بصرها على جثتي شقيقيها القتيلين ، فولولت ، ودقت صدورها ، وأسرعت فاستبدلت بملابس الأفراح مسوح الحداد ، ولكنها حين عرفت الفاعل ، أفسح الحزن مكانه لرغبة صارمة في الانتقام من ابنها ، فاستحضرت جمرة القدر القاتلة التي استخلصتها مرة من اللهب ، الجمرة التي ربطتها الموكلات على مصائر البشر ، بحياة ملياجر ، وأمرت باعداد نار ، وأربع مرات حاولت أن تضع الجمرة في النار ، فكانت في كل مرة تجفل مرتعشة لمجرد تفكيرها فيما ستسببه لابنها من هلاك ، وراحت مشاعر الأم والشقيقة تتصارع في أعماقها ، فحينا كان الشحوب يكسو وجهها عندما تساورها فكرة الفعلة التي تنتويها ، وحينا آخر تخضب وجهها حمرة الغضب لفعلة ابنها ، وكالسفينة التي تسوقها الريح وجهة ما ، ويردها التيار على أعقابها أو يحملها إلى وجهة مضادة ، ظل تفكير ألثيا مذبذبا لا يستقر على حال ، ولكن الشقيقة انتصرت أخيراً على الأم ، فراحت تقول وهي ممسكة بالجمرة القاتلة « استدرن أي فيوريز (Furies) ، يا إلاهات الانتقام ! استدرن لتروا التضحية التي سأقدمها ! فلزام أن تكفر الجريمة عن الجريمة ، أيبتهج أو ينيوس بابنه الظافر ، بينما تخيم الوحشة والاكتئاب على بيت تستيوس ؟ ولكن واحسرتاه ! لأية فعلة أنا مسوقة إليها ؟ اغفرا لأم ضعفها ياشقيقاى ! إن يدى تخوننى ! إنه يستحق الموت ، ولكن لا لأقضى عليه بيدى ، ولكن أيعيش ، ويحتفل بالنصر ، ويحكم كاليدون ، بينما أنتما ياشقيقي تهيمان بين الأشباح دون أن يثأر أحد لكما ؟ كلا ، لقد منحتك الحياة وعشت بفضلي ، والآن فلتمت بجريمتك ، أعد الحياة التي وهبتها لك مرتين ، الأولى عند مولدك ، والثانية حين احتفظت هذه

الجرة من بين اللهب . ليتك مت حينذاك ! واحسرتاه ! نصرة منحوسة، ولكن ياشقيقاى، لقد انتصرنا . » ثم أدارت وجهها وألقت بالجرة القاتلة فى الكومة المحترقة .

فصدرت عن الجرة حشرجة مميتة، أو صور الوهم هذا، فأحس ملياجر وهو غائب غير مدرك للسبب، غصة مفاجئة، فكان يحترق، وبالأنفة الشماء فحسب، يغالب الألم الذى يفرى عظامه، ولم يبتئس إلا لهلاكه بميتة لا أثر فيها للقتال أو الوقار، ومع أنفاسه الأخيرة راح ينادى أباه الطاعن فى السن : وأخاه، وشقيقاته المحبات، وحبيبته أتلنتا، وأمه، العلة المجهولة فى مصيره، وازداد اللهب وازدادت معه آلام البطل، ثم هدأت كل منهما، وخمدت كل منهما، واستحالت الجرة رمادا، ولفظ ملياجر نفسه الأخير .

وعندما قضى الأمر، راحت ألثيا تلطم نفسها فى عنف شديد وانتحبت شقيقات ملياجر، وأطلقن لحزنهن العنان، حتى رثت ديانا لأشجان المنزل الذى أثار غضبها من قبل، فحولت كل سكانه طيورا

أتلنتـــا

وكانت العلة البريئة فى كل هذا الشجن، فتاة ذات وجه، يصح لك أن تقول بحق عنه، إنه لصبى إذا قورن بوجوه الصبايا، أو إنه لصبية إذا قورن بوجوه الصبيان، وتمت نبوءة عن مستقبلها، وصلت إليها بهذا النص : « لا تتزوجى يا أتلنتا، فسيكون فى الزواج دمارك . » . . وإذ أفزعتها هذه النبوءة، فرت من صحبة الرجال، وكرست نفسها للرياضة والطراد، وخطبها أجمعين (وما أكثرهم) وضعت شرطا، أراحهم بوجه عام من ملاحقاتهم ومطارداتهم لها، — « سأكون الجائزة التى ينالها من يغلبنى فى السباق، ولكن لابد أن يكون الموت عقاب من يحاولون فيفشلون » على الرغم من قسوة هذا الشرط، فقد راح

البعض يحاول ، فقال هيبومنيس (Hippomenes) الذى تقرر أن يكون حكما للسباق : « أمن الممكن أن يصل التهور بأى شخص حتى يجازف إلى هذا الحد فى سبيل زوجة ما ؟ » . . . ولكنه حين رآها ، وقد خلعت رداءها للسباق ، غير رأيه وقال : « سامحونى أيها الشبان ، فما كان لى عهد بالجائزة التى عليها تتسابقون » وإذ راح يشرف عليهم ويتابعهم ببصره تمنى لهم جميعا الهزيمة ، وامتلأ حسداً من أى شخص بدا احتمال نجاحه ، وعندما كانت هذه الأفكار تجول بخاطره ، مرقت الفتاة إلى الأمام . وكانت ، وهى تعدو ، أكثر فتنة وأشد جمالا ، وبدت النسمات كما لو كانت قد زودت قدميها بأجنحة ، فتهدل شعرها فوق كتفيها ، ورفرف هداب ثوبها الزاهى من خلفها ، وضرجت الحمرة بياض جلدها ، كأنها ستارة قرمزية أسدلت على حائط من المرمر ، وسبقت جميع المتبارين فقتلوا دون رحمة ، ولم ترهب هذه النتيجة هيبومنيس ، فحدق فى الفتاة بعينيه وراح يقول : « علام تفاخرين بهزيمة هؤلاء المترهلين ؟ إنى أقدم نفسى للمباراة . » فتطلعت إليه أتلنتا فى إشفاق ، وتعذر عليها أن تعرف ما إذا كانت تتمنى هزيمته أم لا ، — « أى إله يستطيع أن يغوى شخصا بهذا الشباب والحسن أن يلقى بنفسه إلى التهلكة ؟ إنى أرثى له لا لجماله (على الرغم من أنه جميل) ولكن لشبابه ، ولشد ما أود لو أنه تخلى عن السباق ، أو إذا لم يزايله خبله ، فأرجو أن يسبقنى فى العدو . » ، وإذ كانت مترددة ، تقلب هذه الأفكار فى رأسها ، نفد صبر النظارة ، وألزمها أبوها أن تستعد ، وعندئذ توجه هيبومنيس بضراعة إلى فينوس : « خفى لمعونتى يافينوس ، فأنا لا أسير إلا على هدى منك . » فسمعت فينوس واستجابت .

وفى حديقة معبدها ، بجزيرتها الخاصة قبرص ، شجرة بأوراق صفراء ، وغصون صفراء ، وثمار ذهبية ، ومن ثمة اقتطفت ثلاث تفاحات ذهبية ، وأعطتها لهيبومنيس ، دون أن يراها أحد ، وأخبرته أن يستخدمها ، ثم أعطيت الإشارة ، فقام كل منهما من المكان المعين ، وانساب فوق الرمال ، فى خطا خفاف ، حتى ليكاد

الرائى أن يظن أن فى استطاعة أيهما أن يعدو فوق سطح نهر أو أعواد قمح متماوجة ، دون أن يغوص ، وراح المشاهدون يشجعون هيبومنيس بالهتافات المدوية ، — « الآن ، الآن ، لا تدخر وسعا ! أسرع ، أسرع ! إنك تسبقها ! لا تتراخى ! محاولة أخرى واحدة ! » وليس من يدرى ما إذا كان الشاب أو الفتاة أكثر ابتهاجا بهذه الهتافات ، ولكن أنفاسه بدأت تتلاحق وتخونه ، وجف حلقه ، والهدف ما زال قصيا ، وفى هذه اللحظة ألقى على الأرض بإحدى التفاحات الذهبية ، فغمرت الدهشة الفتاة ، ومن ثمة توقفت لالتقاطها ، فرق هيبومنيس إلى الأمام ، وتعالت الهتافات من كل جانب ، فضاعفت جهدها وسرعان ما لحقته ، فأسقط تفاحة أخرى ، فتوقفت ثانية ، ولكنها لحقته ثانية ، وقرب الهدف ، ولم تتبق سوى فرصة واحدة ، فقال مبتهلا : « والآن أيتها الإلاهة ، ليكن اليمن حليف عطيتك ! » وقذف بالتفاحة الأخيرة جانبا بعيدا عن الطريق ، فنظرت إليها وترددت ، فحفزتها فينوس إلى أن تعرج عليها لتأخذها ، ففعلت ذلك وانهزمت ، وانصرف الشاب حاملا جائزته .

ولكن العاشقين نسيا ، فى غمرة من سعادتهما أن يقوما بشعائر التكريم لفينوس ، فاستشاطت الإلاهة غيظا لجحودهما ونكرانهما للجميل ، فأغرتهما إلى الإساءة إلى كيبيلا (Cybele) ، وهذه الإلاهة القوية ما كانت لتحتمل الإهانة دون قصاص ، فحرمتهما من هيئتهما البشرية ، وحولتهما إلى وحشين بصفات تشبه صفاتهما ، فصنعت من الصيادة البطلة ، التى تحتفل بالولوغ فى دماء عاشقيها ، لبؤة ، ومن زوجها وسيدها أسدا ، وعلقتهما إلى عربتها ، حيث ما زالا يظهران فى كل صور الإلاهة كيبيلا وتماثيلها .



وكيبيلا هى الاسم اللاتينى للإلاهة التى يسميها اليونانيون ريا (Rhae)

وأوبس (OPs) ، وكانت زوجة لكرونوس (Cronos) وإما لزيوس (Zeus) ، وهى تبدو فى الإنتاج الفنى على هيئة امرأة وقور وهى الصورة التى تتميز بها يونو وكيريس ، وبعض الأحيان تظهر متحجبة ، وهى تجلس على عرش ، ومعها أسود إلى جانبها ، وأحيانا أخرى تظهر معتلية عربة تجرها أسود ، أو تظهر مرتدية تاج النصر الذهبى ، وهو تاج منحوتة حافته على هيئة أبراج وحصون ، وكان كهنتها يسمون كوريبانتيس (Corybantes) .

وبيرون ، فى وصفه لمدينة البندقية ، المنشأة على جزيرة منخفضة فى البحر الادرياتيكى ، استعار صورة من كيبيلا :

« إنها تبدو ككيبيلا البحر التى أنعشها المحيط ،
تنهض وعليها تاجها من الحصون الشامخة ،
ممتدة فى العراء ، ومتحركة كإحدى الملكات ،
تلك الحاكمة على المياه وكل قواتها . »

الشاب الباسل هرولد — ٤



وفى قصيدة مور « أشعار فى الطريق » ، حين يتكلم الشاعر عن مناظر الألب الطبيعية ، يشير إلى قصة أتلنتا وهيبومنيس كما يلى : —

« حتى هنا ، فى أرض العجائب هذه ، أجد
إله الخيال السريع يسبق إلاهة الواقع ،
أو فى القليل ، مثل هيبومنيس ، يضللها
بالأوهام الذهبية التى يلقيها فى طريقها . »



الفصل التاسع عشر

هرقل — هيبا وجانيميد

هرقل

كان هرقل ابنا لجوبتر وألكمينا (Alcmena) ، وإذ كانت يونو تعادى دائما أبناء زوجها من أمهات بشرية ، فقد أعلنت الحرب ضد هرقل منذ ولادته ، فأرسلت حيتين للقضاء عليه وهو في مهده ، ولكن الطفل المتقدمة سنه خنقهما بيده ، ولكنه أصبح، بوساطة حيل يونو، خاضعا ليوريستيوس ، (Eurystheus)، ومرغما على تنفيذ كل أوامره ، ففرض عليه يوريستيوس سلسلة من المغامرات المحفوفة بأشد الأخطار ، المسماة « أشغال هرقل الاثنا عشر » ، وأولى هـذه المغامرات هى قتاله مع الأسد النيمي (Nemean Lion) ، فوادى نيميا كان مرزوءا بأسد مخيف ، فأصدر يوريستيوس أمره إلى هرقل كي يحضر له جلد هذا الوحش ، وبعد أن استخدم هرقل هراوته وسهامه مع الأسد دون جدوى ، خنقه بيده ، وعاد حاملا الأسد القتيل على كتفيه ، بيد أن يوريستيوس فزع حين رآه ورأى الدليل العملي على قوته الخارقة ، حتى إنه أمره أن يسلم في المستقبل غنائم مغامراته خارج المدينة .

وثانى مغامراته مقتل الهيدرا (Hydra) ، وهو مسخ عاث فى إقليم أرجوس فسادا ، وكان يسكن مستنقعا بالقرب من بئر أميمونا (Amymone) ، وكانت هذه البئر قد اكتشفتها أميمونا عندما كانت البلاد تعانى من الجفاف ، وملخص القصة هو أن نبتونا الذى أحبها ، سمح لها أن تمس الصخر برمحه مثلث

الشعب ، فانبجس نبع من ثلاث عيون ، وهنا أخذ الهيدرا مقامه ، وجاء هرقل للقضاء عليه ، وكان للهيدرا تسعة رءوس ، أوسطها منها خالد ، وراح هرقل يطيح رءوسها بهراوته ، فكان ينمو رأسان محل كل رأس يقضى عليه ، وأخيرا تمكن بمساعدة خادمة الأمين ايولوس (Iolaus) من حرق رءوس الهيدرا ، ودفن الرأس التاسع الخالد تحت صخرة ضخمة .

وثمة مغامرة أخرى هى تنظيف حظائر أوجياس ملك اليس ، الذى كان يمتلك قطيعا من ثلاثة آلاف ثور ، ولم يكن أحد قد قام بتنظيفها منذ ثلاثين عاما ، فقام هرقل بتحويل مياه نهرى ألفيوس وبنيوس إلى هذه الحظائر ، وانتهى من تنظيفها تماما فى يوم واحد .

والمغامرة التى تلي هذه كانت من صنف أكثر تعقيداً ، فأدماتا (Admata) ابنة يوريستيوس ، كانت متلهفة للحصول على نطاق ملكة الأمازون ، فأصدر يوريستيوس أمره إلي هرقل كى يذهب ويستحضره ، وكانت جماعة الأمازون أمة من النساء ، وكن يملن إلى الحرب ويشغلن بضع مدن مزدهرة ، وكانت العادة عندهن أن يقمن بتنشئة الأطفال الإناث فقط ، أما الصبيان فكان مصيرهم إما إرسالهم إلى الشعوب المجاورة ، وإما القضاء عليهم ، فرافق هرقل عدد من المتطوعين ، وبعد أحداث مختلفة وصل أخيراً إلى بلاد الأمازون ، فرحبت به الملكة هيبوليتا (HiPPolyta) ، وقبلت أن تعطيه نطاقها ، ولكن يونو أخذت هيئة امرأة أمازونية ، وذهبت وأغوت الباقيات بأن الأغراب خطفوا ملكتهن ، فتسلحن في الحال وجئن إلى السفينة فى حشود كبيرة ، وإذ توهم هرقل أن هيبوليتا غدرت به ، قتلها واستولى على نطاقها ، ثم أبحر عائدا إلى الوطن .

وأنيطت به مهمة أخرى هي أن يستحضر ليوريستيوس ثيران جيريون (Geryon) ، وهو مسخ له ثلاثة أبدان ، كان يعيش فى جزيرة اريثيا (الحمراء) ، وسميت كذلك لوجودها فى الغرب ، تحت أشعة الشمس الغاربة ، ويظن أن هذا

الوصف ينطبق على أسبانيا ، التي كان جيريون ملكا عليها ، فبعد أن اجتاز هرقل بلادا مختلفة ، وصل أخيراً إلى حدود ليبيا وأوربا ، حيث رفع جبلى كالبا (Colpe) وآبيلا (Abyla) كأثرين تذكاريين لنجاحه ، أو ، وفقا لرواية أخرى ، شق جبلا وأخدودين إلى اثنين ، وترك نصفا على كل جانب،مكونا مضيق جبل طارق ، وعرف الجبلان باسم عمودى هرقل ، وكان يحرس الثيران المارد يورتيون(Eurytion) وكلبه ذو الرأسين ، ولكن هرقل قتل المارد وكلبه، وساق الثيران إلى يوريسثيوس في سلام .

أما أصعب جميع المغامرات التي قام بها ، فهى حصوله على تفاحات الهسبيريديس الذهبية ، إذ لم يكن هرقل يعرف أين يجدها ، وهى التفاحات التي تسلمتها يونو ، من إلاهة الأرض ، عند زفافها ، والتي وكلت بحفظها بنات هسبيروس ، يعاونهن تنين يقظ ، وبعد مشاق كثيرة وصل إلى جبل أطلس بأفريقيا ، وكان أطلس واحداً من جماعة تيتان الذين شنوا الحرب على الآلهة ، وبعد إخضاعهم ، حكم على أطلس بأن يحمل أثقال السماوات على منكبيه، وهو والد الهسبيريدس ، وعلم هرقل أنه دون سواه من يستطيع أن يجد التفاحات ويستحضرها له ، ولكن كيف يبعد أطلس عن مكانه ، أو يحمل السماوات بعد ذهابه . . . فأخذ هرقل الحمل على كتفيه وأرسل أطلس للبحث عن التفاحات،فعاد بها ، وعلى الرغم من بعض التلكؤ والنفور فقد أخذ الحمل على كتفيه ثانية ، وسمح لهرقل أن يعود بالتفاحات إلى يوريسثيوس .

وملتون ، فى قصيدته « الحفل البهيج » جعل الهسبيريدس بناتا لهسبيروس وأطلس عمًّا لهن .

« . . . وسط الحدائق الغناء
التي لهسبيروس وبناته الثلاث
اللائى يغنين حول الشجرة الذهبية . »

. . .

وإذ انساق للشعراء مع القياس التمثيلى المتعلق بمنظر السماء الجميل عند غروب الشمس فى الغرب، رأوا فى هذا الغرب منطقة لألاء وبهاء ، ولذلك وضعوا فيها جزر المباركين،وجزيرة اريثيا الحمراء ، حيث كانت ثيران جريون المتألقة ترعى،وجزيرة الهسبيريديس ، ويظن البعض أن التفاحات هى برتقال أسبانيا ، الذى سمع عنه اليونانيون بعض روايات غامضة .

ومن بين مغامرات هرقل المشهورة ، انتصاره على انتايوس (Antaeus) وكان انتايوس ، وهو ابن تيرا (Terra) الأرض ، مارداً ومصارعا قويا ، لا يقهره أحد مادام متصلا بأمه الأرض ، وقد أرغم جميع الأجانب، الذين وفدوا إلى بلاده ، على مصارعته ، بشرط القضاء عليهم إذا هزموا (كما حدث لهم جميعا) فتلاقي هرقل معه ، وإذ اتضح له أنه لاجدوى من إلقائه ، إذ كان ينهض دائما من كل سقطة بقوة متجددة ، رفعه من فوق الأرض ، وقضي عليه فى الهواء خنقا .

وكان كاكس (Cocus) مارداً ضخما ، يسكن كهفاً فوق جبل افنيتينا (Aventine) ، حيث راح ينهب البلاد المحيطة ، وبينما كان هرقل عائداً بثيران جيريون ، سرق كاكس بعضها عندما كان البطل يغط فى النوم ، وكى لاتكشف آثار حوافرها عن المكان الذى سيقت إليه ، جرها إلى الخلف ، وهو يمسك بذيولها ، حتى وصل بها إلي كهفه ، لذلك بدت آثارها جميعا كما لو كانت قدسارت فى الاتجاه المضاد ، فانخدع هرقل بهذه الحيلة ، وكان حريا أن يعجز عن العثور

على ثيرانه لولا أنه مر، وهو يسوق بقية القطيع ، بالكهف الذى أخفيت فيه الماشية المسروقة ، فكشف ثغاؤها عن مكانها ، فقبض هرقل على كاكس وقتله .

وآخر مغامرة سنسجلها ، هى استحضار كربيروس (Cerberus) من العالم السفلى ، فانحدر هرقل إلى هاوية الهاديس (Hades) تصحبه مركيورى ومنيرفا فحصل على تصريح من بلوتو بحمل كربيروس إلى ما فوق الأرض ، بشرط أن يستطيع هذا دون استخدام أسلحة ، وعلى الرغم من مقاومة المارد ، أمسك به ، وقبض عليه بشدة ، وحمله إلى يوريسثيوس ، وبعد ذلك أعاده ثانية ، وعندما كان فى الهاديس حصل لثسيوس على حريته ، إذ كان من مريديه ومقلديه ، وكان قد اعتقل وبقى سجينا هناك لمحاولته الفاشلة فى حمل بروسيربينا والفرار بها .

وفى نوبة خبل قتل هرقل صديقه افيتوس (Iphitus) فقضى عليه ، لهذا الذنب ، أن يصبح عبدا للملكة أومفالا (Omphale) ثلاث سنين ، وبينما هو فى هذا المعتقل بدا تحول فى طبيعة البطل ، فراح يتأنث فى حياته ، مرتديا أحيانا ثياب النساء ، ويغزل الصوف مع خادمات أومفالا ، بينما ارتدت الملكة جلد الأسد الذى يملكه ، ولما أتم مدة عقوبته تزوج ديجانيرا (Dejanira) وعاش معها ثلاث سنين فى سلام ، وفى مناسبة ما بينما كان مسافرا مع زوجته ، أقبلا على نهر ، حيث كان السكنتور نيسوس ، يحمل المسافرين لعبور هذا النهر ، مقابل أجر معلوم ، فخاض هرقل النهر بنفسه ، ولكنه كلف نيسوس بحمل ديجانيرا والعبور بها ، فحاول نيسوس الفرار بها ولكن هرقل سمع صراخها فرماه بسهم اخترق قلبه ، وأخبر السكنتور ، وهو يحتضر ، ديجانيرا ، أن تحتفظ بوشل من دمه ، فقد تستخدمه كتعويذة تحفظ لها غرام زوجها .

ففعلت ديجانيرا هذا وقبل وقت طويل توهمت أن الفرصة حانت لاستخدامه ، فقد أسر هرقل فى إحدى غزواته فتاة حسناء ، تدعى أيولا (Iole) ، بدا شغوفا

بها أكثر مما يرضى ديجانيرا ، وحين أشرف هرقل على تقديم قرابينه للآلهة تكريما لها على ما أحرزه من نصر ، بعث إلي زوجته يطلب رداء أبيض لاستخدامه فى هذه المناسبة ، وإذ ظنت ديجانيرا أن هذه سانحة طيبة لاختبار طلسم الغرام الذى تحمله ، غمست الرداء فى دم نيسوس ، ولنا أن نفترض أنها اهتمت بتنظيفه وإزالة كل أثر للدم ، ولكن أثر السحر ظل باقيا ، وماكاد الرداء يستمد الحرارة من جسم هرقل ، حتى تغلغل فى كل أعضاء جسمه ، وأصابته بأقسى الأوجاع ، فأمسك ، فى سورة هياجه ، بليخاس (Lichas) الذى أحضر له الرداء القاتل ، وقذف به فى اليم ، فخلع الرداء ، ولكنه كان ملتصقا بلحمه ، فانتزع معه مزقا كاملة من بدنه ، واقلع وهو على هذه الحال ، على ظهر سفينة ، ونقل إلى منزله ، وحينما رأت ديجانيرا ما فعلته بغفلتها ، قضت على نفسها شنقا ، عندئذ استعد هرقل للموت ، فارتقى جبل أويتا (OEta) ، حيث أقام من الأشجار محرقة لجثته وأعطى قوسه وسهامه لفيلوكتتس (Philoctetes)، وتمدد بجسمه فوق كومة المحرقة ، معتمدا برأسه على هراوته ، وجلد الأسد منشور من فوقه ، وبطلعة هادئة ، كما لو كان يأخذ مجلسه فى حفل بهيج ، أمر فيلوكتتيس أن يستخدم شعلة الحريق ، فاندلعت اللهب ، وسرعان ما أحاطت بكومة المحرقة وما عليها .

***

ويشير ملتون إلى سورة الهياج ، التى استبدت بهرقل ، كما يلى :—

كما حدث لالسكديس[1] من اويخاليا ، حين تتويجه ،
وهو منتصر ، إذ أحس الرداء المسموم ، وانتزع ،
من الألم ، مزقا من بدنه ، فذوى الثيسالى ،

---

١ — السكديس Alcides اسم آخر لهرقل ، والثيسالى Thessalian نسبة الى ثيساليا .

ثم قذف بليخاس من قمة جبل أويتا ،
إلى أعماق البحر اليوبى .

* * *

فاضطربت آلهة الأرض نفسها ، حين رأت هذا المصير الذى انتهى إليه بطل الأرض ، ولكن جوبتر لاقى الآلهة بوجه باش وخاطبها قائلا : « إنى مبتهج إذ أرى اهتمامكم ، ياأمرائى ، ومغتبط إذ أحس أنى حاكم لشعب مخلص ، وإن ابنى حائز على رضاكم ، ذلك لأنه على الرغم من أن اهتمامكم به نابع من أعماله المجيدة ، فهذا لايقلل من اغتباطى ، ولكني أقول لكم : « لا تجزعوا ، فالذى قهر الآخرين جميعا ، لن تقهره تلك اللهب التى ترونها مندلعة فوق جبل أويتا ، فلن يهلك منه سوى نصيب أمه فيه ، أما ما أخذه منى فهو خالد ، سآخذه ، وقد أصبح ميتا بالنسبة للأرض ، إلى الشوطئ السماوية ، وأبتغى أن تستقبلوه جميعا بود وترحاب ، فإن آلم أحدكم نواله هذا الشرف ، فليس من ينكر عليه استحقاقه له . » فأبدت جميع الآلهة رضاها ، واستهجنت يونو وحدها خاتمة هذا الكلام ، التى اختصتها بالتعريض بها ، ولكن هذا الاستهجان لم يصل إلى حد التحسر لمااستقر عليه عزم زوجها ، ولذلك فعندما قضت اللهب على نصيب الأم فى هرقل ، فان الجانب الإلهى منه ، بدلا من إصابته بالعطب تبعا لذلك ، تراءى مستهلا بيأس جديد ، سمات أكثر رفعة ، ومرتبة أكثر هيبة ووقارا ، فسربله جوبتر فى غمامة ، وارتفع به فى مركبة تجرها أربعة جياد ، ليقيم بين النجوم ، وحالما أخذ مكانه فى السماء ، أحس أطلس زيادة فى الحمل الذى يثقل كاهله .

وآنئذ ، وقد تصالحت معه يونو ، زفت إليه ابنها هيبا .

. . . . . .

ويصور الشاعر شيلر فى إحدى قصائده بعنوان « المثل الأعلى والحياة » التباين

القائم بين العمليين والخياليين ، فى أبيات رائعة ، يمكن ترجمة بعضها كما يلي :

« استهان الكديس حتى أصبح عبدا لوغد ،
فقام مستبسلا بمغامرات لا تحصى ،
وسار مخترقا طريق الفناء الشائك ،
فقتل الهيدرا وقضى على بأس الأسد ،
وزج بنفسه للخروج بصديقه إلى النور ،
مبحراً فى القارب الذى يحمل الموتى .
وجميع العذاب ، وضروب كدح الأرض
التى استطاعت يونو فرضها عليه بحقدها ،
تحملها فى جلد منذ مولده المحتوم ،
إلى خاتمة حياته المحزنة المجيدة .

. . .

« حتى تخلى الإله عن الشطر الأرضى ،
فانتزعه من الإنسان وسط اللهب ،
وارتشف أنفاس السماء النقية الأثيرية .
ولابتهاجه بالخفة الجديدة غير المعتادة ،
حلق مرتفعا فى لألاء السماء ،
مبددا بالموت حمل الأرض المظلم الثقيل .
فاستقبله الأوليمبس الشامخ بترحاب عام ،
وساقه إلى قاعة عرش والده المزينة ،
واحمر وجه إلاهة الشباب حياء عند اللقاء ،
حين سلمت لبعلها شراب النكتر .

شيلر

هيبا وجانيميد

كانت هيبا ، ابنة يونو ، وإلاهة الشباب ، ساقية الآلهة ، التي تحمل إليهم كئوس الخمر ، وتقول الرواية العادية إنها اعتزلت هذا المركز حينما أصبحت زوجة لهرقل ، ولكن هناك رواية أخرى ، أخذ بها مواطننا كروفورد النحات ، في مجموعته عن هيبا وجانيميد ، الموجودة الآن بمعرض اثينوم الفني ، وقد طردت هيبا ، وفقاً لهذه الرواية ، من مركزها ، نتيجة لسقطة وقعت فيها ، يوما ما ، وهي في حضرة الآلهة ، فخلفها جانيميد ، في مركزها ، وهو غلام من طروادة ، أمسك به جوبتر ، وهو متنكر كعقاب ، وحمله من وسط أخدانه فوق جبل ايدا (Ida) ، وارتفع به إلى السماء ، وأسند إليه المركز الشاغر .

ووصف تنيسون في قصيدته « صرح الفن » صورة تمثل هذه القصة ، ضمن الروائع التي على الحوائط : —

وهناك أيضا جانيميد المهتاج ، بفخذه الوردي ،
فقد كاد أن يختنق في زغب العقاب ،
وهو فريد كشهاب خاطف يخترق السماء ،
فوق المدينة ذات العمد .

. · .

وفي قصيدة شيلي « بروميثيوس » يخاطب جوبتر ساقيه قائلا : —

« صب خمر السماء ، ياجانيميد الإيداوي ،
واملأ بها الكئوس الموشاة مثل النار . »

. · .

ويمكن الإطلاع على قصة « مختارات هرقل » الجميلة في « الراوية Tottler » الرقم السابع والتسعين .

الفصل العشرون

ثسيوس — دايدالوس — كستور وبولكس

ثسيوس

كان ثسيوس ابنا لآيجيوس ، ملك أثينا ، وآيثرا (AEthra) ابنة ملك ترويزن ، وهي البلاد التي شب فيها ، وحين بلغ مبلغ الرجال ، كان عليه التوجه لأثينا ، وتقديم نفسه لوالده ، وعند افتراق آيجيوس من آيثرا ، قبل مولد ابنه ، وضع سيفه وحذاءه تحت حجر ضخم ، وأخطرها أن تبعث إليه بابنه عندما يشتد عوده ويقوي على دحرجة الحجر ، وأخذهما من تحته ، وحين رأت أن الوقت قد آن ، أرشدت ثسيوس أمه إلي الحجر ، فدحرجه بسهولة ، وأخذ السيف والحذاء ، وإذ كان اللصوص يقطعون الطرق ، شدد عليه جده كي يأخذ أقصر الطرق وأكثرها أمنا ، للوصول إلى مملكة والده — بحرا — ولكن الشاب ، وقد أحس روح البطل ونخوته ، واشتاق أن يبرز كما برز هرقل ، الذى طبقت شهرته آنذاك آفاق اليونان ، لإبادته الأوشاب والمسوخ الذين أرهقوا بلاده وأذاقوها العذاب ، عقد العزم على أن يقوم برحلته برا ، وهى أكثر خطورة وأشد تعرضا للمخاوف .

ووصلت به رحلته لأول يوم إلى ايدورس ، حيث يقيم رجل يدعي بريفتيس ، وهو ابن لفولكان ، وكان هذا الهمجي المفترس يخرج دائما وهو مسلح بهراوة من الحديد ، وكان جميع المسافرين يقفون فزعا من عنفه ، فلما رأى ثسيوس

قادما ، هاجه ولكنه وقع في الحال تحت ضربات البطل الصغير ، الذى استولى على هراوته ، وحملها دائما بعد ذلك ، كتذكار لأول انتصاراته .

وشفع هذا ببضع معارك مماثلة ، انتصر ثسيوس ، فى جميعها ، على الأوشاب من طغاة البلاد وناهبيها ، ويدعي أحدهؤلاء الأشرار بروكرستيس أو « الشداد » ، وكان معه سرير اعتاد أن يربط به جميع المسافرين الذين يقعون فى يده ، فإذا كانوا أقصر من السرير مط أعضاءهم أو شدها حتى يجعلها تطابقه ، فإذا كانت أطول من السرير بتر جزءا منها ، فكان الجزاء ، الذى لاقاه على يد ثسيوس ، من جنس عمله .

وبعد أن تغلب ثسيوس على جميع أهوال الطريق ، وصل أخيرا إلى آثينا ، حيث وجد مخاطرا جديدة فى انتظاره ، وكانت ميديا الساحرة ، التى فرت من كورينثا ، بعد انفصالها عن ياسون ، قد أصبحت زوجة لآيجيوس ، والد ثسيوس ، وإذ عرفت بفنونها من هو ، وخشيتها أن تفقد نفوذها على زوجها ، إن هو اعترف بثسيوس ابنا له ، ملأت ذهن آيجيوس بالشكوك ضد الأجنبى الشاب ، وأغوته على أن يقدم له كأسا من السم ، ولكن فى اللحظة التى تقدم فيها ثسيوس وهم يتناولها ، تكشف لوالده حقيقته من السيف الذى يحمله ، فمنع الجرعة المميتة ، وإذ ضبطت ميديا متلبسة بجريمتها ، فرت مرة أخرى من القصاص الذى تستحقه ، فوصلت إلى آسيا ، حيث الإقليم الذى يسمى بعد ذلك ميديا ، أخذ اسمه عنها ، واعترف الوالد بابنه ثسيوس ونصبه وليا لعهده فى الملك .

وكان الأثينيون فى ذلك الحين يلاقون أشد العناء ، بسبب الجزية التى أرغموا على دفعها لمينوس ، ملك كريت ، وكانت هذه الجزية تتألف من سبعة شبان وسبع صبايا ، يرسلون كل عام ليلتهمهم المينوتور (Minotaur) ، وهو مسخ له بدن عجل ورأس إنسان ، مفرط فى القوة والشراسة ، ومقيم فى متاهة ، أنشأها دايدالوس بطريقة خفية ماكرة ، حتى إنه لم يكن فى استطاعة من يدخلها أن يجد طريقه

إلى الخارج دون أن يعاونه أحد ، وهنا كان يجول المينوتور ويعيش على العرائس البشرية .

فعقد تسيوس العزم على أن يخلص مواطنيه من هذه المحنة الشديدة ، أو أن يموت فى سبيلها ، ولذلك فعندما حل وقت رسال الجزية ، وألقيت القرعة ، وفق العادة ، بين الشبان والصبايا ، لإرسالهم ، قدم نفسه كواحد من الضحايا ، على الرغم من توسلات والده ، فأقلعت السفينة وقد نشرت قلوعا سوداء كالمعتاد ، ووعد تسيوس والده باستبدالها بقلوع بيضاء ، فى حالة عودته منتصرا ، وعندما وصلوا إلى كريت استعرض مينوس الشبان والفتيات ، وكانت اريادنا ، ابنة الملك ، حاضرة هذا الاستعراض ، فوقعت صريعة هواها بتسيوس الذى استجاب فورا لهواها ، فأمدته بسيف يقاتل به المينوتور ، وبخيط يستدل به على طريق الخروج من المتاهة ، فحالفه التوفيق ، إذ قتل المينوتور ، وفر من المتاهة ، وأخذ أريادنا رفيقة لطريقه ، ومن ثمة أبحر إلي أثينا مع صحبة الذين نجوا ، وتوقفوا ، وهم فى طريقهم ، عند جزيرة نكسوس ، حيث هجر تسيوس أريادنا ، وتركها نائمة(١) ، محتجا على هذه المعاملة السيئة الناكرة لجميل من أسدت إليه معروفها ، بأن منيرفا ظهرت له فى حلم وأمرته أن يفعل ذلك .

ونسى تسيوس ، عند وصولهم إلي شاطىء اتيكا الإشارة المتفق عليها مع والده ، فأغفل رفع الأشرعة البيضاء ، وإذ ظن الملك الشيخ أن ابنه قد هلك ، وضع حدا لحياته ، وبذلك أصبح تسيوس ملكا لأثينا .

ومن أشهر مغامرات تسيوس حملته ضد الأمازونيات ، فهاجمهن قبل أن يفقن من مقاتلة هرقل ، وحمل معه ملكتهن انتيوبا (Antiope) فغزت الأمازونيات

---

(١) من أروع قطع النحت فى إيطاليا ، تمثال اريادنا المستلقية ، وهو بالفاتيكان ، ويمثل تلك الحادثة ، وتوجد نسخة منه بمعرض أثينوم الفنى ببوسطن .

يدورهن إقليم أثينا ، وتغلغلن داخل المدينة نفسها ، وآخر موقعة ، دحرهن فيها تسيوس ، دار فيها القتال وسط المدينة ، وهذه المعركة من الموضوعات الأثيرة إلى قلوب النحاتين القدماء ، وما زالت ذكراها باقية فى بضع تحف فنية تقف فى الذروة من غيرها .

وكانت الصداقة بين تسيوس وبريثوس وثيقة لا يفصم عراها ، على الرغم من أنها نشأت وسط قعقعة السلاح ، فقد حدث أن أغار بريثوس على سهل الماراثون ، وساق أمامه قطعان ملك أثينا ، فذهب تسيوس لاسترداد ماشيته المغيرون ، فلما رآه بريثوس ، أخذته نشوة الإعجاب به ، فمد يده عربونا للسلام وصاح قائلا : « كن أنت الحكم — أية ترضية تنشدها ؟ » فأجابه الأثينى : « أنشد صداقتك » وأقسما على الولاء بمروءة الوثق ، وكانت أفعالهما تطابق مهيهما ، واستمرا دائما أخوين صادقين فى القتال ، وتمنى كل منهما أن يخطب إحدى بنات جوبتر ، فركز تسيوس اختياره على هلين (Helen) التى كانت آنئذ طفلة ، واشتهرت فيما بعد باعتبارها سبب نشوب حرب طروادة ، وبمساعدة صديقه حملها ولاذ بالفرار ، أما بريثيوس فقد اشتهى أن يحصل على زوجة ملك إربوس ، وعلى الرغم من وقوف تسيوس على الخطر ، اصطحب العاشق الطموح فى هبوطه إلى العالم السفلى ، ولكن بلوتو أمسك بهما ، وألقى بهما فوق صخرة مسحورة عند باب قصره ، حيث بقيا حتى وصل هرقل وحرر تسيوس ، تاركا بريثيوس لمصيره .

وبعد وفاة انتيوبا ، تزوج تسيوس من فايدرا (Phaeddra) ابنة مينوس ، ملك كريت ، ورأت فايدرا فى هيبوليتوس ، بن تسيوس ، وهو شاب متسم بكل محاسن والده وفضائل ، وسنه تناسب سنها ، فأحبته ولكنه صدها عن التمادى فى عاطفتها ، فانقلب حبها له إلى بغض وكراهية ، فاستخدمت نفوذها على زوجها الأخرق ، لإثارة حسده ضد ابنه ، فاستنزل عليه نقمة نبتونا ، وبينما كان هيبوليتوس يسوق مركبته يوما ما ، حذاء الشاطىء ، رفع مسخ بحرى نفسه فوق الماء ،

فأفزع الجياد حتى جفلت واندفعت لاتلوى على شيء ، فتحطمت المركبة ، وقتل هيبوليتوس ، ولكن بمعونة ديانا ، أعاده آيسكولابيوس (AEsculapius) إلى الحياة ، ثم أبعدت ديانا هيبوليتوس عن دائرة نفوذ والده المخدوع ، وزوجة أبيه الخائنة ووضعه فى إيطاليا تحت حماية الحورية اجيريا (Egeria) .

وأخيرافقد ثسيوس رضا شعبه ، فاعتكف ببلاط ليكومديس(Lycomedes) ، ملك سكيروس (Scyros) ، الذى رحب به فى مبدأ الأمر ، وبعد ذلك غدر به وقتله ، وفى عهد متأخر ، عثر القائد الأثينى كيمون (Cimon) على المكان الذى ووريت فيه رفاته ، فنقلها إلى أثينا ، وهنــاك وضعت فى معبد يسمى الثيسيوم ، أقيم تكريما للبطل .

وملــكة الأمازون التى تزوجهــا ثسيوس ، يطلق عليهــا البعض اسم هيبوليتا (HiPPolyta) ، وهو الاسم الذى تعرف به فى مسرحية شكسبير « حلم ليلة فى منتصف الصيف » — التى موضوعها مهرجانات زفاف ثسيوس وهيبوليتا .

ولمسزهانز قصيدة عن المتواتر اليونانى القديم بأن « شبح ثسيوس » ظهر ليشجع مواطنيه فى موقعة مراثون .

وثسيوس شخصية نصف تاريخية وسجل التاريخ له أنه جمع بين العشائر التى كانت تقيم آنذاك بمنطقة اتيكا، وجعل منها دولة واحدة ،عاصمتها اثينا ، وإحياء لذكرى هذه الحادثة الهامة ، كرس مهرجان البناثناى (Panathenae) تكريما لمنيرفا ، الإلاهة حامية أثينا ، واختلف هذا المهرجان عن غيره من الألعاب الإغريقية الأخرى فى نقطتين رئيسيتين ،فهو قاصر على الأثينيين، وأهم معالمه موكب رهيب ، يحمل فيه البيلوس (PePlus) ، أو رداء منيرفا المقدس ، إلى البارثينون ، حيث يعلق أمام تمثال الإلاهة ، وكان البيلوس مزينا بزخارف ، الأبرة والمخرمات ، التى تقوم بتطريزها عذارى من أشرف أسر أثينا ، وكان الموكب يؤلف من أشخاص

من الجنسين من جميع الأعمار ، وكان الشيوخ يحملون أغصان الزيتون فى أيديهم، والشبان يحملون السلاح ، والنساء الصبايا يحملن على رءوسهن السلال التى تحوى الأوانى المقدسة والكعك وكل الأشياء اللازمة لتقديم القرابين ، وهذا الموكب يؤلف موضوع النقوش المنحوتة التى تزين خارج معبد البارثينون ، وشطر كبير من هذه المنحوتات موجود الآن بالمتحف البريطانى ضمن تلك المعروفة باسم « تماثيل الجن » نسبة إلى لورد الجن (Elgin) الإنجليزى .

الألعاب الأولمبية وغيرها

ويبدو أنه ليس من خطل الرأى أن نذكر هنا ما كان يزاوله اليونانيون من ألعاب شعبية أخرى ذائعة الصيت ؛ فأولاها وأبرزها هى الألعاب الأولمبية ، التى أنشأها جوبتر نفسه على حد ما يقال ، وكان يحتفل بها بأولمبيا فى اليس (Elis) ، وكانت حشود كبيرة من النظارة تخف إليها من كل ناحية من بلاد اليونان ، ومن آسيا وأفريقيا وصقلية ، وكانت تتكرر كل سنة خامسة فى منتصف الصيف ، وتستمر خمسة أيام ، وقد أحيت عادة حسبان الوقت ، وتسجيل الأحداث ، بوساطة فترات الألعاب الأولمبية المسماة أولمبياد (OlymPiad) ، واعتبرت أول أولمبياد بوجه عام مطابقة لعام ٧٧٦ قبل الميلاد ، وكان يحتفل بالألعاب البيثية بجوار دلفى ، والألعاب البرزخية ، على برزخ كورنثيا ، والنيمية فى نيميا ، وهى مدينة فى أرجوليس (Argolis) .

وكانت التمرينات فى الألعاب خمسة أنواع : العدو ، والقفز ، والمصارعة ، ورمي القرص ، وقذف الرمح ، أو الملاكمة ، وبجانب هذه التمرينات فى القوة البدنية والرشاقة ، كانت هناك مباريات فى الموسيقى والشعر والبيان ، وهكذا فإن هذه الألعاب أمدت الموسيقيين والشعراء والمؤلفين بأحسن الفرص لتقديم إنتاجهم إلى العامة ، ونشر شهرة الفائزين على أوسع نطاق .

دايدالوس

كان دايدالوس ، وهو صناع مفرط المهارة ، هو الذى بنى المتاهة التى فر منها ثسيوس بوساطة لفافة الخيط التى أمدته بها اريادنا ؛ وهذه المتاهة مبنى ذو ممرات متشعبة عديدة ، ومفارق يفتح الواحد منها فى الآخر ، دون بداية أو نهاية على ما يبدو ، مثل نهر ميندر ، الذى يكر راجعا من حيث أتى ، فيتدفق حينا إلى الأمام ، وحينا إلى الخلف ، فى مجراه إلى البحر ، وبنى دايدالوس المتاهة للملك مينوس ، ولكنه بعد ذلك فقد عطف الملك ، فسجنه فى حصن ، فحاول الفرار من السجن ، ولكنه لم يستطع مغادرة الجزيرة بحرا ، إذ أقام الملك حراسة دقيقة على كل السفن ، ولم يصرح لأحد بالسفر بحرا دون تفتيش بمنتهى الدقة ، فقال دايدالوس : « قد يتحكم مينوس فى الأرض والبحر ، ولكنه لن يتحكم فى أقطار الهواء ، سأحاول عن هذا الطريق . . . . » ومن ثمة شرع فى صنع أجنحة لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس (Icarus) ، فراح يغزل ريش الطير إلى بعضه البعض ويضفره ، مبتدئا بأصغره ، ومضيفا إليه أكبره ، حتى يكون سطحا متزايداً ، وقد ثبت الريش الأكبر بخيوط ، والأصغر بالشمع ، وأعطى الكل انحناءة كانحناءة أجنحة الطير ، وكان الصبى ايكاروس واقفا يتطلع إليه ، فيجرى أحيانا ليجمع الريش الذى بعثره الريح ، ثم يجس الشمع ويشكله بأصابعه ، فيعوق بلعبه والده عن عمله ، وأخيرا عندما تم العمل رفرف الفنان بأجنحته فوجد نفسه محمولا بخفة إلى أعلى ، حيث ظل معلقا ، موازنا نفسه فوق الهواء برفرفته ، بعد ذلك أعد ابنه بنفس الطريقة ، وعلمه كيف يطير ، كما يغرى الطائر صغاره من العش المرتفع إلى الهواء ، وعندما تمت كافة الاستعدادات للطيران قال : « ابنى ايكاروس ، ألزمك أن تكون دائما على ارتفاع معتدل ، فأنت إذا طرت خفيضا عرقلت الرطوبة جناحيك ، أو عاليا أذابتهما حرارة الشمس ، كن بجانبى تكن آمنا . » وبينما هو يسدى إليه هذه الإرشادات ، ويثبت الجناحين إلى كتفيه ، انهمرت دموع الوالد وارتعشت يداه ، وقبل الصبى

دون أن يعلم أنها آخر قبلة ، ثم ارتفع بجناحيه ، ومرق طائرا ، وهو يستحثه كي يتبعه ، متطلعا إلى الخلف خلال طيرانه ، ليرى كيف يدير ابنه جناحيه ، وإذ هما يطيران توقف الحارث عن عمله وراح يتفرس فيهما ، واتكأ الراعي على عكازه ، وراح يرقبهما ، والكل فى دهشة ، يظنون أنهما إلهان إذ استطاعة أن يشقا أجواز الهواء بهذه الصورة .

مرا بساموس وديلوس على اليسار ، وبلبنثوس على اليمين ، وعندئذ أخذت الصبي نشوة الطيران، فأهمل إرشاد رفيقه ، وحلق مرتفعا ، كأنما يبغى الوصول للسماء ، فأذاب قربه من الشمس المتوهجة الشمع الذي كان يثبت الريش بعضه البعض، حتى تساقط وتناثر ، فرفرف بذراعيه ولكن لم يكن بهما ريش يحفظ الهواء ، وبينما كان يطلق الصرخات مستغيثا بوالده ، غاص فى مياه البحر الزرقاء ، الذي أطلق عليه اسمه منذ هذا التاريخ ، فصاح أبوه قائلا : « ايكاروس ، ايكاروس ، أين أنت ؟ » . . . وأخيرا رأى الريش طافيا فوق الماء ، وراح ينتحب بمرارة لما أوصلته إليه فنونه ، ثم دفن الجثة ، ودعى الإقليم ايكاريا لإحياء ذكرى ولده ، ووصل دايدالوس سالما إلى صقلية ، وهناك بنى معبدا للاله أبوللو ، حيث علق جناحيه ، كتقدمة للاله .

وكان دايدالوس فخورا بأعماله الجليلة ، إلى حد لم يستطع معه أن يحتمل فكرة وجود منافس له ، وكانت شقيقته قد وضعت ابنها بردكس (Perdix) تحت رعايته لتعليمه الفنون الميكانيكية ، وهو دارس كفء ، أثبت عبقريته بشواهد رائعة ، فإذ هو يسير على شاطىء البحر التقط السلسلة الفقرية لإحدى الأسماك ، فحاكاها بأن أخذ قطعة من الحديد ، ونشر فى حافتها أسنانا وبذلك اخترع المنشار ، كذلك ضم قطعتين من الحديد إلى بعضهما البعض، وثبتهما ببرشام، وسن الطرفين الآخرين ، وهكذا صنع فرجارا ، فحسد دايدالوس ابن شقيقته على أعماله ، وانتهز الفرصة ، عندما كانا ، فى يوم ما ، على قمة برج عال ، وقذف به من حالق ، ولكن منيرفا

التى تعطف على العباقرة ، رأته يسقط ، فاعترضت مصيره بأن حولته إلى طائر يسمى الحجل نسبة إلى اسمه Partridge ، وهذا الطائر لا يبنى عشه فوق الأشجار ولا يرتفع فى طيرانه ، ولكنه يعشش فى الأحراش ، ويتوق الأماكن العالية ، لتذكره سقطته .

ويتكلم دارون فى السطور التالية عن موت ايكاروس : —

« . . . . بشمع مذاب وخيوط مفككة ،
تهاوى ايكاروس المنكود بجناحين خائرين ،
ساقطا كالشهاب الخاطف خلال الهواء المذعور ،
بأعضاء متقلصة مشوهة وشعر أشعث ،
وريشه المبعثر يتراقص فوق الأمواج ،
فزينت الحوريات الحزانى قبره المائى ،
ملقيات بأزهارهن اللؤلؤية فوق جثمانه الشاحب ،
وناثرات الأعشاب القرمزية على فراشه الرخامى ،
ودقت الأجراس تنعيه من أبراجهن المرجانية ،
فردد المحيط صدى الدقات الحزينة .

* * *

كاستور وبولكس

كاستور وبولكس هما ولدا ليدا (Leda) وذكر البجع الذى تنكر جوبتر فى

إهابه ، وقد وضعت ليدا بيضة خرج منها التوءمان ، وهيلن التي اشتهرت فيما بعد بأنها العلة في قيام حرب طروادة ، كانت شقيقة لهما .

وعندما حمل ثسيوس وصديقه بريثوس ، هيلن وفرا بها من اسبرطه ، خف لنجدتها البطلان الشابان ، كاستور وبولكس ، ومعهما أتباعهما ، وكان ثسيوس غائبا عن اتيكا ، فنجح الشقيقان في استرداد أختهما .

وكان كاستور مشهورا بترويضه وتذليله للخيول ، وبولكس بمهارته في الملاكمة ، وكانت تجمعهما أقوى أواصر الحب ، كما كانا في كل أعمالهما متحدين لا تنفصم عروة وحدتهما ، فرافقا حملة الأرجو ، وهبت عاصفة خلال الرحلة ، وابتهل أورفيوس إلى آلهة جزيرة ساموثراكا (Samothrace) ، وعزف على قيثاره ، ومن ثمة هدأت العاصفة ، وطلعت النجوم فوق رأسي الشقيقين ، ومن هذه الحادثة ، اعتبر كاستور وبولكس بعد ذلك ، الإلاهين الحاميين للملاحين والمسافرين بحرا ، كما أطلق اسماهما على الأضواء المتوهجة الشبيهة باللهب الذي يتراقص حول أشرعة السفن وصواريها ، في حالات معينة من طبقات الهواء .

وبعد حملة الأرجو ، نجد كاستور وبولكس ، منهمكين في قتال مع ايداس (Idas) ولنكيوس (Lynceus) ، فقتل كاستور ، أما بولكس فقد استحالت تعزيته عن فراق أخيه ، ولذلك التمس من جوبتر أن يسمح له بأن يقدم حياته فدية عنه فقبل جوبتر أن يسمح للشقيقين بأن يستمتعا بنعمة الحياة ، فيقضيان بالتناوب يوما تحت الأرض ، وآخر بالمساكن السماوية ، ووفقا لصورة أخرى من القصة ، كافأ جوبتر محبة الشقيقين بأن أجلسهما بين النجوم ، وهما الجوزاء التوءمان (Gemini the Twins) .

وأغدقت عليهما ضروب التكريم الإلهي تحت اسم ديوسكوري (Dioscuri) « ابني جوبتر » ، وراج اعتقاد بأنهما كانا يظهران بعد ذلك ، بين الفينة والفينة ،

وينتصران لأحد الفريقين المتقاتلين فى حومة الوغى ، ويقال إنهما كانا ، فى هـذه المناسبات ، يمتطيان جيادا بيضاء مطهمة ، وعلى هذا فى تاريخ روما القديم ، قيل إنهما ساعدا الرومانيين فى موقعة بحيرة رجلوس (Regillus) ، وبعد الانتصار شيد معبد لتكريمهما فى البقعة التى ظهرا فيها .

وفى « أناشيد عن روما القديمة » يشير ماكولى إلى هذه الأسطورة كما يلى :

« كانا متماثلين ، حتى ليعجز أى بشر
عن أن يميز أحدهما عن الآخر ،
وكان درع كل منهما أبيض كالثلج ،
وجيادهما هى الأخرى بيضاء كالثلج ،
ولم يصادف قط ، فوق سندان أرضى ،
أن تألقت مثل هـذه الدروع النادرة
أو أن مثل هذه الجياد الأصيلة
روت ظمأها من أى نبع أرضي .

***

هكذا يعود الرئيس محتفلا بعيد النصر ،
وقد رأى حين استحر وطيس القتال ،
هذين الشقيقين التوأمين فى عظمة بادية ،
عن يمينه فوق صهوات جياد مطهمة ،
كذلك تعود السفينة سالمة إلى مرفئها ،
مجتازة الأمواج المتلاطمة وأنواء البحر الصاخبة ،
مادام الشقيقان التوأمان المتسمان بالعظمة ،
يجلسان فوق القلوع فى تألق وإشراق .

***

الفصل الحادي والعشرون

باخوس ـ أريادنا

باخوس

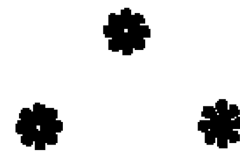
كان باخوس ابنا لجوبتر من زوجه سملا (Semele) ، وكي تسرى يونو عن نفسها ما سببته لها سملا من تبرم وامتعاض ، وضعت خطة للقضاء عليها ، فانتحلت شخصية بيروى (Beroe) مربيتها العجوز ، وأثارت شكوكها فيما إذا كان جوبتر نفسه هو الذى يتردد عليها حقا فى صورة العاشق ، ثم تنهدت وراحت تقول : « أرجو أن يتضح أن الأمر كذلك ، ولكنى لا أجد محيصا من التخوف فالناس فى حقيقتهم ، ليسوا دائما كما يتراءون ، فإذا كان هو جوبتر حقا ، دعيه يقدم الدليل ، اطلبى منه الحضور وهو متسربل بكل البهاء الذى يحيطه فى السماء ، وبذلك ينتفى كل شك » . . فاقتنعت سملا بأن تحاول هذه التجربة ، فطلبت من جوبتر أن يؤدى لها مكرمة لم تذكرها ، فأعطى جوبتر وعده ، وأكده بقسم لا ينقض ، مشهدا عليه نهر ستكس ، الذى يفزع الآلهة نفسها ، بعد ذلك كشفت عن طلبتها ، وكان الإله يود أن يوقفها عن الكلام ، ولكنها كانت أسرع منه ، لقد وقع المحظور فهو لا يستطيع النكول عن وعده وتحقيق طلبتها ، فغادرها عائدا إلى المناطق العليا وقلبه ينفطر حزنا ، وهناك تسربل بكل بهائه ، ولم يرتد كل أهواله ، كما حدث عندما قهر المردة والعمالقة ، بل بما هو معروف بين الآلهة بالزرد غير الكامل ، ودخل حجرة سملا وهو بهذه الصورة ، فلم يستطع هيكلها البشرى الفانى تحمل بهاء التألق الإلهى ، فهلكت واستحالت إلى رماد .

فأخذ جوبتر الطفل باخوس ، وسلمه لعناية الحوريات النيسيات ، اللاتى قمن على تربيته فى طفولته وصباه ، فكافأهن جوبتر على عنايتهن ، بأن أجلسهن بين النجوم باسم الثريا (Hyades) ، ولما شب باخوس واشتد عوده اكتشف زراعة الكروم ، وطريقة استخراج عصيرها الثمين ، ولكن يونو أصابته بلوثة من الجنون ، فخرج هائما على وجهه ، يذرع أصقاع الأرض ، وفى فريجيا شفته الإلاهة ريا من مرضه ، وعلمته طقوسها الدينية ، فقام برحلة داخل آسيا ، حيث راح يعلم الناس زراعة الكروم ، ورحلته إلى الهند هى أشهر قسم من طوافه ، ويقال إنها استمرت بضع سنين ، وحين عودته فائزا ، عمد إلى إدخال عبادته بلاد اليونان ، ولكن قاومه بعض الأمراء الذين خشوا من دخولها بسبب ما يصحبها من خلل وخبل .

وحينما أشرف على موطنه بمدينة طيبة ، حرم الملك بنثيوس تأدية شعائر العبادة الجديدة ، التى لم يكن يوقرها ، ولكن عندما ذاع أن باخوس كان قادما ، تزاحم الرجال والنساء ، وخاصة النساء ، عجائز وصبايا ، لمقابلته والاشتراك فى زحفه الظافر .

ويصف مستر لونجفيللو ، فى قصيدته « أغنية السقيا » زحف باخوس فيقول :

سارت آلهة الأحراش بصحبة باخوس
ونبات اللبلاب يكلل جبهته المنيفة ،
التى تحاكى جبهة الإله أبوللو ،
فى شبابه الذى لا يبلى قشيبه .



ومن حوله مريدات باخوس الفاتنات ،
يحملن الصنوج والناى وعناقيد العنب ،

المقطوفة من كروم جـــزيرة زنتا
بأحراش نـكسوس وهن يغنين كالمحمومات .

*
* *

وعبثا احتج بنثيوس وأمر وهدد ، وأخيراً قال لأتباعه : « اذهبوا واقبضوا على هذا الأفاق الذى يتزعم الأوشاب ويثير الصخب ، واستحضروه إلى ، وسأجعله يعترف فورا بتزييفه لنسبه السماوى ، وعبادته المنتحلة . » وعبثا حاول أخلص أصدقائه وأصدق ناصحيه أن يصرفوه عن عزمه متوسلين إليه ألا يقاوم الإله ، ولـكن اعتراضاتهم زادته حدة وعنفا .

ولـكن الأتباع الذين أرسلهم للقبض على باخوس عادوا آنذاك ، إذ طردهم أتباع باخوس ، ولـكن بعد أن وفقوا إلى اعتقال واحد منهم ،فاستحضروه أمام الملك ، ويداه موثقتان خلفه ، فتطلع إليه بنثيوس بوجه غاضب ثم قال : « أيها الرجل ! ستعدم عاجلا ليكون مصيرك عبرة للآخرين، ولـكن على الرغم من نفورى من تأخير القصاص ، فإنى آمرك أن تتـكلم وتخبرنا من أنت ، وما هذه الطقوس الجديدة التى تزاولونها . »

فأجابه السجين ، دون وجل ، قائلا : « اسمى اكتيس (Acetes) من بلاد ميونيا (Maeonia) ، وكان والداى من الفقراء ، فلم يتركا لى حقولا أو قطعانا ، ولـكنهما خلفا لى قصب صيد السمك وشباكه ، وهى أدوات الحرفة التى كانا يزاولانها ، والتى زاولتها بعض الوقت ، حتى إذ سئمت البقاء فى مكان واحد ، تعلمت فن الملاحة ، وكيف أشق طريقى فى البحر مسترشدا بالنجوم ، وحدث إذ كنت مبحرا فى طريقى إلى ديلوس أن أشرفنا على جزيرة ديا (Dia) فعرجنا عليها ، وفى صباح اليوم التالى أرسلت رجالى يستسقون ، أما أنا فقد اعتليت الهضبة لملاحظة الريح ، وعندئذ عاد رجالى يحملون ما يظنون أنه غنم حلال لهم ،

وهو صبى سمح الطلعة ، وجدوه نائماً ، ففطنوا إلى أنه غلام نبيل ، لعله ابن ملك ، يحصلون عنه على دية كبيرة سخية ، فتفرست فى لباسه ومشيته ووجهه ، ووجدت فيها شيئاً وثقت بأنه أكثر من بشرى ، فقلت لرجالي : «لست أدرى أى إله يختفى فى هذا الإهاب ، ولكن ما من شك فى وجوده ، اغفر لنا ، أيها الإله الوديع ، عما ارتكبناه فى حقك من وزر ، ووفقنا فى أمورنا . . . » وحينئذ تقدم دكتيس (Dictys) وهو واحد من أبرع رجالى فى الصعود إلى الصارى والنزول منه بوساطة الحبال ، وملانثوس ، ربان السفينة ، وابو بيوس (EPoPeus) زعيم النوتية ، فصاحوا جميعهم قائلين : « وفر عليك توسلاتك فلن نأبه لها » . . . تبا لشهوة الربح القبيح فهى عمياء ! وعندما عمدوا إلى حمله إلى السفينة قاومتهم قائلا : « لن تدنس هذه السفينة بمثل هذا الفسوق ، إن نصيبي أعظم من نصيب أى واحد منكم ، » ولكن ليكاباس (Lycabas) وهو شخص مشاغب ، أمسك بخناقى وحاول أن يقذف بى فى اليم ، وبالجهد أنقذت نفسى إذ تشبثت بالحبال ، ووافق الباقون على هذه الفعلة .

« عندئذ صاح باخوس (فقد كان هو دون شك) وكأنه يطرد النعاس عن جفنيه قائلا : « ماذا تفعلون بى ؟ علام هذا القتال ؟ من جاء بى إلى هنا ؟ إلى أين ستحملوننى ؟ » فأجابه أحدهم قائلا : « لا تخش شيئاً ، أخبرنا أين تريد أن تذهب ، وسنأخذك إلى هناك ، . . . فقال باخوس : « نكسوس هى وطنى ، خذونى إليها وسأجزل لكم الجزاء . » فوعدوا أن يفعلوا هذا ، وطلبوا منى أن أقلع بالسفينة إلى نكسوس ، وكانت إلى اليمين ، فرحت أنشر القلوع لحملنا إلى هناك ، فأفضوا إلى ، بعضهم بالإشارة والآخرون بالهمسات ، برغبتهم فى أن أبحر إلى الناحية المضادة ، وآخذ الغلام إلى مصر لبيعه كعبد هناك ، فكدت أن أصعق ومن ثمة قلت لهم : « ليدر أحد غيرى السفينة » ... وامتنعت عن أن يكون لى أى يد فى الشر الذى يبيتون» ، فضبوا لعنائهم على رأسى ، وصاح أحدهم قائلا :

لا تفتر فتتوهم أننا نعتمد عليك فى نجاتنا . . . ثم أخذ منى مكان القيادة ، وأقلع منحرفاً عن نكسوس

« وإذ تظاهر الإله بأنه فطن أخيرا إلى غدرهم ، تطلع إلى البحر وقال فى صوت باك : «ليست هذه هى الشواطىء التى وعدتم بأخذى إليها، فهذه الجزيرة التى أمامنا ليست موطنى ، ماذا فعلت حتى إنكم تعاملوننى بهذه الصورة ؟ . . . إنكم إذ تخدعون غلاما مسكينا لن تجنون إلا قليلا ، .. فبكيت حين سمعته، ولكن البحارة سخروا من كلينا ، وأسرعوا يمخرون بالسفينة عباب البحر ، وعلى حين بغتة — وهذا حق وإن بدا غريبا — توقفت السفينة سريعا وسط البحر ، كما لو كانت قد جنحت واستقرت على الأرض ، فعمد الرجال ، وهم مندهشون ، إلى استخدام مجاديفهم ، وبسطوا الأشرعة عن آخرها، محاولين تحريكها بمساعدة الاثنين ، ولكن عبثا كانوا يحاولون، فقد التف نبات اللبلاب حول المجاديف وعطل حركتها وتعلق بالأشرعة ، وتدلت منه عناقيد ضخمة ، وارتفع حول الصارى وعلى جانبى السفينة كرم مثقل بالعنب ، وملأت الأسماع أنغام الناى ، وعبق الجو أريج الخمر ، وكان الإله نفسه يحمل إكليلا من أوراق الكروم ، وفى يده رمح تزينه أغصان اللبلاب ، وقد ربضت النمور عند قدميه ، وراحت المواشيق والفهود المبرقشة ، تلعب حوله فاستبد الفزع بالرجال أو أصابتهم لوثة ، فألقى البعض بأنفسهم فى اليم ، وبينما هم آخرون بأن يحذوا حذو رفاقهم ، رأوهم فى الماء وهم آخذون فى التغيير فانبسطت أبدانهم وانتهت بذيل معقوف ، فصاح أحدهم قائلا : « يالهذه المعجزة ! . . . » وإذ هو يتكلم اتسع فمه وانبسطت فتحتا أنفه ، وغطت الحراشيف كل بدنه ، وآخر إذ عمد إلى جذب المجداف ، أحس بيديه تتقلصان ، وفى الحال تحولتا إلى زعنفتين ، وآخر حاول أن يرفع ذراعيه ليمسك بهما حبلا، فلم يجد لنفسه ذراعين، وعندئذ قوس بدنه المشوه ، وقفز فى الماء ، أما ساقاه، باعتبار ما كان، فأصبحتا طرفين لذيل هلالى الشكل، وأصبح كل البحارة مجموعة من ثدييات.

الدولفين المائية ، التي راحت تسبح حول السفينة . تارة فوق السطح ، وتارة تحته وهي تنثر الزبد ، وتنفث الماء من خياشيمها الواسعة ، فلم ينج من عشرين رجلا سواي ، وبينما أرتعش فرقا ، خاطبني الإله وهو متهلل ، فقال : « لاتخف ، أدر الدفة إلى نكسوس » فأطعت ، وعندما وصلنا إلي هناك ، أوقدت نيران الهياكل ، واحتفلت بإقامة شعائر باخوس المقدسة .

وهنا صاح بنثيوس قائلا : « لقد أضعنا وقتا طويلا في سماع هذه القصة السخيفة ، خذوه من أمامي وأعدموه دون تأخير . » . . . فساقت الحاشية أكتيس ، وألقوا به في السجن ، ولكن بينما هم يعدون أدوات الإعدام ، انفتحت أبواب السجن من نفسها ، وسقطت الأغلال عن أطرافه ، وحينما بحثوا عنه ، لم يجدوه في أي مكان.

ولكن بنثيوس لم يتعظ ، بل بدلا من أن يرسل آخرين ، أصر على أن يذهب بنفسه إلى حيث تقام الحفلات الدينية ، وكان جبل كيثرون (Citheron) يعج بالمتعبدين ، وصيحات أتباع باخوس تتردد في كل جانب منه ، فأثار الصخب غضب بنثيوس ، كما يلهب صوت البوق جواد الحرب ، فاخترق الغابة ، ووصل إلى ساحة مكشوفة ، حيث وقع بصره على المنظر الرئيسي لضروب القصف واللهو ، وفي اللحظة ذاتها رأته النساء ، وأولاهن أمه أجافا (Agave) ، إذ طمس الإله على بصرها ، صاحت قائلة : « تطلعن إلى الخنزير البري القادم هناك ، إنه أضخم وحش يسترق الخطا في هذه الغابات! سرن معي أيتها الأخوات سأكون أولى من يصبن الخنزير البري . » . . . وهاجمته العصابة بأكلها فراح يخاطبها تارة بلهجة أقل غطرسة ، وأخرى ملتمسا لنفسه الأعذار ، وحينا مقرا بذنبه وطالبا الصفح والغفران ، وهن في هذه الأثناء يثبن عليه ويجرحنه ، وعبثا كان يستغيث بعماته لحمايته من أمه ، فأمسكت أوتونوئي (Autonoe) بذراع وأينو Ino بالآخر ، وبينما تمزقت أوصاله ، راحت أمه تصيح قائلة : النصر ! النصر ! لقد أحرزناه ! الفخار لنا ! » وهكذا قامت عبادة باخوس ببلاد اليونان .

وهناك إشارة إلى قصة باخوس والبحارة فى قصيدة ملتون ، « للحفل البهيج » السطر السادس والأربعين ، أما قصة كيركا فهى فى الفصل التاسع والعشرين :

باخوس ، أول مـن عصر العنب بعد احمراره ،
واستخرج سم الخمر اللذيذ بإساءة استخدامـه ،
بعد إذ انقلبت سحن البحارة التسكانيين وهيآتهم ،
كان يسير محاذيا لشاطىء ترهينا فاتت سفينته ،
وانحرفت إلى جزيرة كيركا (ومن لا يعرف كيركا ؟)
إنها ابنة إلاهة الشمس ذات الـكأس المسحورة ،
التى تفقد مـن يحتسيها قوامه المنتصب ،
وتمسخه إلى خنزير خسيس محنى الظهر .

***

أريادنا

رأينا من قبل فى قصة ثسيوس ، كيف أن أريادنا ، ابنة الملك مينوس ، بعد أن ساعدت ثسيوس على الفرار من المتاهة ، حملها إلى جزيرة نكسوس وتركها هناك نائمة ، بينما واصل ثسيوس الناكر للجميل سيره ميمما دونها شطر الوطن ، وحين وجدت أريادنا نفسها مهجورة استسلمت للأحزان ، ولـكن رثت لحالها وواستها إذ وعدتها بحبيب خالد غير بشرى بدلا من الحبيب الفانى الذى فقدته .

وكانت الجزيرة التى تركت أريادنا بها هى جزيرة باخوس الميمونة ، وهى بالذات التى أراد من البحارة الترهانيين حمله إليها عندما حاولوا بغدر أن يجعلوه غنيمة لهم ، وبينما كانت أريادنا جالسة منتحبة تنعى مصيرها ، وجدها باخوس فواساها وجعلها زوجة له ، وكهدية للزفاف خلع عليها تاجا ذهبيا مرصعا بالجواهر ، وعندما

ماتت أخذ تاجها وألقى به في الجو ، وحين صعد فى الجو تلألأت جواهره وتحولت إلى نجوم ، مع احتفاظه بشكله ، استقر تاج أريادنا ثابتا فى السماء ، كمجموعة من النجوم بين هرقل الجاثى والرجل الممسك بالثعبان .

ويشير سبنسر إلى تاج أريادنا ، وإن كان قد وقع فى بعض الأخطاء فيما يتعلق بمعرفته بعلم الأساطير ، فالشجار الذى وقع بين الكنتورس ولابيثاء حدث عند زفاف بريثوس وليس تسيوس .

« تطلع إلى التاج الذى حملته أريادنا
على جبينها العاجى فى نفس اليـوم
الذى حملها فيه تسيوس عروساً له ،
فأثار الكنتورس الشجعان تلك المعركة الدامية
ضد مسوخ اللابيثا المفترسة التى يبغضها ،
والآن لقد أجلست فى القبة الزرقاء
حيث يشع بهاؤها فى السماء الصافية
وهى بين النجوم حلية تزينها ،
وتتحرك حول مدارها فى نظام رائع »

* * *

الفصل الثانى والعشرون

آلهة الريف — اريسختون — رويكس — آلهة الماء — الكامناى — الرياح .

آلهة الريف

كان بان (Pan) ، إله الغابات والحقول ، والقطعان ورعاة الأغنام ، يعيش فى الكهوف ، ويتجول فوق الجبال وفى الوديان ، ويرفه عن نفسه بالصيد والقنص ، أو بأن يؤم الحوريات فى رقصاتهن ؛ وكان شغوفا بالموسيقى ، وهو ، كما رأينا ، مخترع مزمار الراعى المسمى سرنكس ، وكان يعزف عليه فى إجادة وإتقان ، وكان بان ، كغيره من الآلهة التى تعيش فى الغابات ، مبعث خوف لأولئك الذين تدفعهم مهنهم لاختراق الغابات في الليل ، ذلك لأن ظلام ووحشة مثل هذه المناظر ، تملأ الذهن بالمخاوف الوهمية ، ومن ثمة نسب الخوف المفاجىء ، الذى ليس له سبب ظاهر ، إلى بان وأطلق عليه اسم : «خوف بانى» (Panic) بمعنى ذعر شديد .

وكما أن اسم الإله يعنى « كل » فقد اعتبر بان رمزاً للوجود ، وتجسيما للطبيعة ؛ بل لقد أصبح بعد ذلك ممثلا لجميع الآلهة ولعبادة الأصنام نفسها .

وكان سلفانوس (Sylvanus) وفونوس(Faunus) إلهين لاتينيين ، تكاد خصائصهما أن تطابق خصائص بان حتى ليصح أن نقرر دون تحرج أنهما نفس الشخص باسمين مختلفين .

وكانت حوريات الغاب ، وهن شريكات بان فى الرقص ، طغمة واحدة من الحوريات ، بجانبها حوريات النيـاد (Naiads) اللائي يشرفن على الجداول وينابيع المـاء ، والأورياد (Oriads) وهن حوريات الجبال والـكهوف ، والنريد (Nereids)،حوريات البحر،وكانت الطوائف الثلاث الأخيرة دائمة البقاء، أما حوريات الغاب المسميات درياد (Dryads) أو هامدرياد (Hamadryads) ، فـكان من المعتقد هلاكها مع الأشجار التى تقطنها ، والتى جاءت معها إلى الوجود، ولذلك كان التفريط بإعدام شجرة يعد عملا بعيداً عن التقوي ، ويكون القصاص شديداً فى بعض الحالات المتطرفة ، كما تم فى حادث اريسختون ، الذى سنسوقه إليك وشيـكا .

* * *

ويشير ملتون ، فى وصفه الرائع للخليقة الأولى ، إلى بان باعتباره تجسيداً للطبيعة .

« . . . . بان العـــالمى
معقود بالبركات والساعات فى الرقص
المقـــام على الينبوع الخالد . »

* * *

ويصف موطن حواء فيقول :

« . . . . تحت خميلة أندى ظلا
وأوفر قدسية وانعزالا ، رغم الادعاء ،
لم يتم فيها بان أو سلفانوس قط ،
ولم تسكنها حورية أو آلهة الأحراش .

الفردوس المفقود -- الـكتاب الرابع .

وللوثنية القديمة حسنة تشرح الصدر ، فقد كانت شغوفة بأن تتقصى عمل الآلهة فى كل أحداث الطبيعة ، فخيال اليونان جعل جميع أقطار الأرض والبحر مأهولة بالآلهة ، التى ننسب إلى فعلها تلك الظواهر الطبيعية ، التى تعزوها فلسفتنا إلى قوانين الطبيعة ، وفى بعض الأحيان التى تغمرنا فيها نشوة شعرية ، نحس رغبة فى الأسى لهذا التغيير ، ونرى أن القلب قد فقد بقدر ما كسب العقل بهذا البديل ، ويعبر الشاعر وردسورث (Wordsworth) بقوة عن هذا الإحساس على النحو التالى :

« . . . . . . أيها الإله العظيم ، إنى أفضل أن أكون
وثنيا ممن نشأوا في عقيدة دينية بالية ،
كى ، وأنا واقف فى هذا المرج البهيج ،
أحظى بومضات تجعلنى أقل وحشة ،
فأرى برتيوس صاعدا من البحر ،
وأسمع تريتون الشيخ نافخا في بوقه المكلل بالزهر . »

* * *

وشلر ، فى قصيدته « آلهة بلاد اليونان » يعبر عن أسفه لاندحار أساطير الأقدمين الجميلة ، بطريقة دفعت للرد عليه شاعرة مسيحية ، هي مسز أ . باريت براوننج ، فى قصيدة لها بعنوان « بان الميت » ، وفيما يلى نموذج منها :

« بروائع شعرك التى تعترف فيها
أن سيدة الجميلات استولت على لبك ،
أما نحن فبتكهناتنا المتأصلة الباسلة ،
تغلغلنا إلى باطل تزييفك للحق ،

لن نبكي ! والأرض ستظل دائرة ،
وقد ورثت عن كل إله هالة مجده ،
وهكذا مات پان
نضجت الأرض عن الأوهام الأسطورية
التي رتلت بجانبها في صباها ،
وتلك الأقاصيص الخيالية المتسمة بالمرح
تبدو تافهة بليدة بجانب الحق .
لقد أنهت مركبة فوبوس دورتها !
فتأملوا الشمس أيها الشعراء ووقروها !
فپان — پان مات . »

* * *

وأساس هذه الأشعار قائم على تقليد متواتر منذ فجر المسيحية ، مضمونه أن جمهور الملائكة الذين بشروا الرعاة في بيت لحم بمولد السيد المسيح سمع ، في كل جزائر اليونان ، أنينا عميقاً ، ينبىء بموت پان العظيم ، وسقوط ملكية اوليمپوس ، وطرد الآلهة العديدة تهيم على وجوهها في البرد والظلام ، ولذلك يقول ملتون في قصيدته « ترنيمة عيد الميلاد » :

« فوق الجبال الموحشة
والشاطىء المردد للأصداء
تصك الآذان أصوات بكاء وعويل ،
ومن الينابيع والوديان المسكونة بالأرواح ،

والمحفوفة بأشجار الحور الشاحبة الظليلة
خرجت روح بان الراحل متأوهة :
وبجدائل مفككة من الأزهار الذابلة ،
راحت الحوريات تنتحب بالأدغال المظلمة . »

* * *

اريسيختون

كان اريسيختون زنديقا يحتقر الآلهة ، ففكر فى إحدى المناسبات أن ينتهك بالفأس حرمة دغل مكرس لكيريس ، وكان بهذا الدغل شجرة بلوط عتيقة ، وصلت من الضخامة حدا جعل الناس يتوهمون أنها غابة بنفسها ، وكان جذعها الضارب فى القدم ، يسمق مرتفعاً إلى أجواز الفضاء ، حيث تعلق عليه دائما أكاليل الأزهار المنذورة ، وتحفر نقوش تعبر عما يحسه المتعبدون من عرفان لجميل حورية الشجرة ، وكثيرا ما كانت حوريات الدرياد يرقصن حولها وهن متشابكات الأيدى ، وكان محيط جذعها خمس عشرة ذراعاً .وكانت تعلو بقمتها فوق باقى الأشجار ، كما كانت هذه تعلو على الأعشاب ، ولكن على الرغم من كل هذا ، فلم ير اريسيختون سببا يدعوه لتركها ، فأصدر الأمر إلى خدمه بقطعها . وعندما أحس ترددهم اختطف فأسا من أحدهم وصاح مجدفا بقوله : « لا يعنينى أن تكون شجرة أثيرة عند الإلاهة أو غير أثيرة ، فلو كانت الإلاهة نفسها لأزلتها إن هى وقفت فى طريقى . » . وحين قال هذا رفع الفأس ، فبدا كما لو كانت شجرة البلوط ترتعش وتنتحب . وحين تلقى الجذع أول ضربة نزف الجرح دما ، فأذهل الرعب جميع الحاضرين ، وتجاسر أحدهم واحتج بشدة وأمسك بالفأس المشئوم ، فنظر إليه اريسختون شزرا وقال له : « خذ جزاء تقواك . » . . . وصوب إليه السلاح الذى نحاه عن الشجرة ، ومزق جسده بجراح كثيرة ، وقطع رأسه ، وعندئذ صدر من أعماق شجرة البلوط

صوت يقول : أنا ، قاطنة هذه الشجرة ،حورية أثيرة عند كيريس ، وهأنذا ألاقى حتفى الآن على يديك ، فأنذرك بالقصاص الذى ينتظرك . » . . . فلم ينثن بل تمادى فى جريمته ، وأخيرا تهاوت بالضربات المتوالية . وسقطت بجذبها بالحبال، وكان لسقوطهادوى شديد ، وأسقطت بجانبها عدداً كبيراً من أشجار الدغل .

فاجتمعت حوريات الدرياد ، فى أسف وامتعاض لفقد رفيقتهن ، ولرؤيتهن ماأصاب نخر الغابة من ذلةوامتهان ،وتوجهن إلى كيريس، وجميعهن بلباس الحداد، مطالبات بتوقيع القصاص على اريسيختون ، فأومأت موافقة ، ولما أحنت رأسها انحنت سنابل الحنطة الدانية القطوف بالحقول هى الأخرى ، ودبرت عقوبة صارمة حتى ليرثى المرء لحاله ، إذا كان فى الاستطاعة أن يرثي المرء لمثل هذا المذنب ، وهى تسليمه لإلاهة الجوع فمينا (Famine)وإذ لم يكن فى استطاعة كيريس نفسها ملاقاة فمينا ،إذ قررت آلهة الأقدار ألا تتلاقى هاتان الإلاهتان قط، فاستدعت حوريةادرياد من موطنها بالجبل ، وخاطبتها بهذه الكلمات : « هناك بقعة فى أقصى مكان باسكثيا المغطاة بالثلوج ، وهي إقليم قاحل كئيب،لاأثر فيه لزرع أو ضرع ، وفيه تقطن إلاهات البرد والخوف والرعب والجوع . فاذهبي للأخيرة منهن واطلبى إليها أن تستولى على أحشاء اريسيختون، لاتدعى الخير يأسرها ، ولاقوة عطاياى تصرفها . ولا يزعجنك بعد الشقة ، (ذلك لأن فمينا تقطن بعيدا جدا عن كيريس) ولكن خذى مركبتى ، بالتنانين التى تجرها خفيفة بالغة السرعة . وهى طيعة ذلول وستمرق بك مخترقة أجواز الفضاء فى وقت قصير . » . . . ومن ثمة سلمتها الزمام ، فأطلقت لها العنان . وسرعان ما وصلت إلى سكثيا . وحين وصلت إلى جبل القوقاز (Caucasus) أوقفت التنانين ، ووجدت فمينا فى حقل حجرى ، تنتزع بالأنياب والمخالب ، الحشائش القليلة ، وكان شعرهاأجعد أشعث ، وعيناها غائرتين ، ووجهها يكسوه الشحوب ، وشفتاها مبيضتين ، وفكاها معفرين بالثرى ، وجلدها مشدودا يكشف عن جميع عظامها ، وحين رأتها الادرياد عن بعد (إذ لم

تجسر على الاقتراب منها) أفضت إليها بأوامر كيريس ، وعلى الرغم من توقفها أقصر وقت ممكن ، وحرصها على أن تكون بعيدة عنها قدر المستطاع ، فقد ابتدأت تشعر بالجوع ، فأدارت رءوس التنانين وعادت إلى تساليا .

فأطاعت فينا أوامر كيريس ، وأسرعت على أجنحة الهواء ، إلى موطن اريسيختون ودخلت حجرة نوم الرجل المذنب ، ووجدته يغط فى النوم ، فاكتنفته بأجنحتها ، وتغلغلت فيه بأنفاسها ، وتفثت سمها فى شرايينه .

وبعد ما أتمت مهمتها ، عجلت بالرحيل عن أرض الخيرات ، وعادت إلى مباءاتها المعتادة ، وكان أريسيختون لا يزال نائماً ، وفى أحلامه اشتهى الطعام ، وحرك فكيه كما لو كان يأكل ، ولما استيقظ كان جوعه عنيفاً لا يطاق ، ودون تأخير لحظة واحدة ، كان يطلب الطعام دائماً ، فيوضع أمامه أى صنف تنتجه الأرض أو البحر أو الهواء ، وكان يشكو الجوع حتى حين تناوله للطعام ، وما كان ليكفيه ما قد يكفى مدينة أو شعباً ، وكلما ازداد أكلا ، ازداد اشتهاء للطعام ، وكان جوعه كالبحر الذى يستقبل جميع الأنهار ، ولكنه لا يمتلىء قط ، أو كالنار التى تحرق كل الوقود الذى يكوم فوقها ، وتبقى نهمة تطلب المزيد .

فتضاءلت ممتلكاته سريعاً تحت مطالب نهمه الدائم ، ولكن جوعه لم تخف حدته قط ، وأخيراً صرف كل ما عنده ولم يبق لديه سوى ابنته فقط ، وهي ابنة جديرة بوالد أفضل ، فباعها أيضاً ، ولكنها ترفعت عن أن تكون أمة لأحد المشترين . وإذ هى واقفة على ساحل البحر ، رفعت كفيها مبتهلة إلى نبتونا فاستجاب لضراعتها ، وعلى الرغم من أن سيدها الجديد كان واقفاً على كثب ، وعينه عليها منذ لحظة ، فنبتونا غير شكلها ، وجعلها تبدو فى هيئة صياد للسمك ، منكب فوق عمله ، وإذ راح سيدها يبحث عنها ، ورآها في هيئتها المتغيرة ، خاطبها قائلا « أيها الصياد الطيب ، أين ذهبت الفتاة التى رأيتها الآن حالا ، بشعر مشعث ،

ولباس متواضع ، وكانت واقفة ، حيث أنت واقف ؟ . . . أخبرنى بالصدق كى يسعد حظك ، فلا تقرب سمكة من شصك وتلوذ بالفرار » . . . فرأت أن ضراعتها قد استجيبت ، وابتهجت فى أعماقها إذ سمعت من يسألها مستفسراً عن نفسها ، فأجابت قائلة : « عفواً أيها الغريب ، ولكنى كنت منكبة على صنارتى فلم أر شيئاً سواها ، ولكنى أتمنى ألا أصطاد قط سمكة أخرى لو أنى اعتقدت أن أية امرأة ، أو أى شخص آخر سواى ، كان فى هذا المكان منذ حين » . . . فانخدع ومضي إلى حال سبيله متوهماً أن عبده لاذ بالفرار ، وعند ئذ استردت هيئتها ، فغمر السرور قلب والدها إذ وجدها لا تزال معه ، وكذلك أيضاً المال الذى حصل عليه ببيعها ، ومن ثمة باعها ثانية ، ولكنها تغيرت بعدد المرات التي بيعت فيها ، فتارة حصاناً وأخرى طائراً ، وحيناً ثوراً وآخر غزالا ، فكانت تتخلص ممن يشترونها وتعود إلى منزلها ، وكان الوالد النهم يحصل على الطعام بهذه الطريقة الخسيسة ، ولكن لم يكن ليكفيه ما يحصل عليه ، وأخيراً اضطره الجوع إلى التهام أعضاء جسمه ، واجتهد أن يغذى جسده بالتهام جسده ، حتى أراحه الموت من انتقام كيريس .

رويكوس

كان فى استطاعة حوريات الهمادرياد أن تثيب على الحسنات ، وتعاقب على السيئات ، وتقوم قصة رويكوس دليلا على هذا ، فقد تصادف أن شاهد رويكوس شجرة بلوط على وشك السقوط ، فأمر خدمه بتدعيمها ، فجاءت إليه الحورية ، التي أشرفت على الهلاك مع الشجرة ، وعبرت له عن عرفانها لجميله ، إذ أنقذحياتها ، وسألته أن يطلب أى مكافأة يشتهى ، فالتمس منها رويكوس ، دون استحياء أو وجل ، أن تمنحه حبها ، ورضخت الحورية لرغبته ، وفى الوقت ذاته أخذت عليه المواثيق أن يكون وفياً ثابتاً ، وذكرت له أن نحلة ستكون رسولها إليه ، لتخطره عن الموعد الذى ستسمح له فيه بصحبتها ،

جاءت النحلة ومرة إلى رويكوس ، حين كان يلعب النرد ، فذبها فى إهمال ، ولقد أثار هذا التصرف سخط الحورية حتى إنها سلبته نعمة البصر .

* * *

واتخذ مواطننا ج . ر . لويل من هذه القصة موضوعا لإحدى قصائده القصيرة ، فاستهلها كما يلي :

اسمعوا الآن هذه الأسطورة عن بلاد اليونان القديمة ،
فهى فيما يفعمها من حرية وشباب وجمال أيضاً ،
وفيما تتسم به من رواء خالد تشبه تلك الروائع
المنقوشة على إفريز إحدى المقاصير والباقية على الدهر .

* * *

آلهة الماء

كان أوكيانوس وتثيس هما إلها التيتان ، اللذان حكما عناصر الماء ، وعندما أسقطهما حوبتر وإخوته ، وانتحلوا سلطتهما ، تولى نبتونا وأمفتريتا الحكم فى مناطق المياه بدلا من أوكيانوس وتثيس .

نبتونا

كان نبتونا رئيس آلهة الماء ، ورمز سلطانه هو الرمح الثلاثى الشعب ، أو الحربة ذات الذؤابات الثلاث ، التي اعتاد أن يحطم بها الصخور ، ويستحضر العواصف ويصرفها ، ويزلزل الشواطىء وما أشبه ذلك ، وهو خالق الحصان ، وحامي حلبات السباق ، وخيوله ذات حوافز نحاسية ، ومعرفات ذهبية ، تسحب

مركبته فوق البحر الذى يصبح أمامه ناعما منبسطاً ، بينما تتواثب وحوش البحر عن كثب من مساره .

أمفتريتا

كانت أمفتريتا زوجة لنبتونا ، وكانت ابنة لنريوس (Neveus) ودوريس (Doris) ، وأما لتريتون ، وحين أراد نبتونا أن يخطب لنفسه أمفتريتا ، قدم إليها ممتطياً ظهر دولفين ، ولما فاز بها كافأ الدولفين بأن أجلسه بين النجوم .

نريوس ودوريس

كان نريوس ودوريس هما والدا حوريات البحر النيريد ، وأشهرهن أمفتريتا ، وثيتيس ، وأم اخيليس ، وجالاتيا ، التى أحبها الكاوب بوليفيموس ، وكان نريوس يتسم بالمعرفة ومحبة الحق والعدل ، ولذلك دعى بالشيخ ، وكانت موهبة التنبؤ أيضاً من خصائصه .

تريتون وبروتيوس

كان تريتون ابنا لنبتونا وأمفتريتا ، وجعل الشعراء منه نافخ البوق لوالده ، وكان بروتيوس ابنا آخر لنبتونا ، وأطلق عليه هو الآخر ، مثل نريوس ، اسم شيخ البحر ، لحكمته ومعرفته لأحداث المستقبل ، وكانت القوة الخارقة التى يتميز بها هى قدرته على تغيير هيئته حين يريد .

ثيتيس

وثيتيس ، ابنة نريوس ودوريس ، بلغت من الجمال حدا جعل جوبتر ينشد

الزواج بها ، ولكنه إذ علم من بروميثيوس التيتان ، أن ثيتيس ستضع ابنا يصبح أعظم من والده ، انصرف جوبتر عن التفكير في هذا الزواج ، وقرر أن تكون ثيتيس زوجة لبشرى ، وبمعونة خيرون السكنتور ، وفق بليوس في أن يفوز بالإلاهة عروسا له ، وكان اخيليس الذائع الصيت ثمرة زواجهما ، وسيتضح في الفصل الذى ستقدمه عن حرب طروادة ، أن ثيتيس كانت أما وفية له ، فأمدته بمعونتها في جميع الشدائد ، وراعت مصالحه من البداية حتى النهاية .

ليوكوثيا وبلياموں

اينو ابنة كادموس وزوجة أثماس ، حين فرارها من زوجها الذى أطاش الغضب صوابه ، وابنها مليكرتيس (Melicertes) بين ذراعيها ، ألقت بنفسها في اليم من فوق صخرة على شاطىء البحر ، وبدافع من الإشفاق صنعت الآلهة منها إلاهة للبحر تحت اسم ليوكوثيا (Leucothia) ، وصنعت منه إلها ، تحت اسم بلیامون (Palaemon) ، ووهب لكل منهما القدرة على إنقاذ الغرقى ، فكان البحارون يستغيثون بهما ، وكان بلیامون يصور عادة ممتطيا ظهر دولفين ، وكانت ألعاب خليج كورنثا تقام تكريما له ، وكان الرومانيون يسمونه بورتنوس (Portunus) ، ويعتقدون أن منطقة نفوذه تشمل الموانى والشواطىء .

ويشير ملتون إلى جميع هذه الآلهة في الأغنية التى وردت في ختام « الحفل البهيج » :

« يا سابرينا الجميلة ، . . .
اصغى واظهري لنا ،
باسم أوكيانوس العظيم ،

وصولجان نبتونا الذى يزلزل الأرض ،
وخطا تثيس الملكية الوقورة ،
وطلعة نريوس الأشيب الجعدة ،
وشص بروتيوس ساحر الكرابات .

* * *

وبمحارة تريتون المموجة ذات الحرافيش ،
وتعويذة جلوكوس العراف الشيخ ،
ويدى ليوكوثيا الجميلتين ،
وابنها الذى يحكم شواطىء البحار ،
وثتيس بقدميها براقتى النعلين ،
والأغاني الشجية لحوريات البحر المضلات .

* * *

وأرمسترونج شاعر « فن المحافظة على الصحة » ، بوحي من هيجيا ، إلاهة الصحة ، يحتفل بحوريات الناياد على الصورة التالية ، وأطلق اسم بايون (Paeon) على كل من ابوللو وأيسكولابيوس :

« أقبلن يا حوريات النياد ! واتجهن صوب النافورات ،
أيتها العذارى الرقيقات ! عليكن أن تصدحن ،
فأنتن موهوبات (وهذا أمر من بايون وآلهة الصحة)
أشدن بما لعنصركن البللورى من حسنات .

هيه أيتها الينابيع الرحبة ! بشفاه ظمأى متلهفة ،
وأيد مرتعشة ، راح العطاش السقاء يعبون
ما فيك من حياة جديدة ، ليملئوا شرايينهم بالعنفوان .

* * *

لم تعرف العصور الزراعية أقداحا أكثر عذوبة
ولم ينشد آباء البشرية الأولون شيئا أكثر دفئا ،
فسعدوا فى اعتدال السلام بأيام متساوية ،
لم يشعروا فيها بالنوبات الموزعة بين الطرب المحموم
والهمة الخامدة ، بل احتفظوا بالرزانة والرضا ،
ونعموا بحصانة إلهية ضد الأمراض والشرور ،
وامتدت حياتهم قرونا طويلة ، فكان مصيرهم
عمر ناضج مديد ، انتهى بالرقاد لا بالموت . »

* * *

الكامناى

يطلق اللاتين هذا الاسم على إلاهات الموسيقى والشعر (Muses) ، ولكنهم يدخلون تحته أيضا بعض آلهة أخرى ، وبالأخص حوريات الينابيع ، وكانت اجيريا ، من بينهن ، ما زالت نافوراتها وغارها ظاهرين ، وقيل إن نوما (Numa) ثانى ملوك روما ، آثرته هذه الحورية بمقابلات سرية ، علمته

خلالها دروس الحكمة والشريعة التى تجسدت فى قوانين شعبه الصاعد ، وبعد موت نوما أخذت الحورية فى التحول ، وأخيرا انقلبت إلى نافورة .

ويشير بايرون ، فى قصيدته « الشاب الباسل هرولد » القسم الرابع ، إلي اجيريا وغارها كما يلى : —

« هنا ، فى هذا الوقاء المسحور ، تسكنين ،
وكل قلبك البشرى يخفق يا اجيريا ،
ترقبا لخطا حبيبك البشرى البعيـــدة ،
وقد ستر الليل القانى ذلك اللقاء السرى
بغلالة رقيقة من الكواكب المنثورة . »

* * *

كذلك يعطى تنيسون فى قصيدته « صرح الفن » لمحة عن الحبيب الملكي وهو يرقب هذا اللقاء . —

« أحاط أذنه بيـده ليرهف سمعه ،
فلا تفوته خطـا حورية الغـاب ،
قبل رؤيتها ، وراح الملك التوسكانى ،
ينصت لروائع حكمتها وشريعتها . ، »

* * *

الرياح

لما كان كثير من العوامل التى تقل نشاطاً وأثراً عن الرياح قـد تجسدت ، فليس هناك من يزعم أن الرياح عجزت عن أن تنال نصيبها فى التجسد ، فبورياس (Boreas) أو أكويلو (Aquilo) هو ريح الشمال ، وزفيروس (Zephyrus)

أو فافونيوس (Favonius) هو الرياح الغربية ، ونوتس (Notus) أو أوستر (Auster) هو ريح الجنوب ، ويوروس (Eurus) هو الرياح الشرقية ، واحتفل الشعراء بالأولين منهما ، ريح الشمال كنموذج للجفوة والغلظة ، والرياح الغربية للرقة والرفق ، وأحب بورياس الحورية أوريثيا (Orithyia) ، وحاول أن يقوم بدور العاشق ، ولكنه لم يلق إلا قسطا ضئيلا من النجاح ، فكان صعبا عليه أن يتنسم برفق ، أما التنهد فلم يكن ثمة مجال لتفكيره فيه ، وإذ ضاق أخيرا بالجهود التى ذهبت أدراج الرياح ، كشف عن طباعه الحقيقية ، فأمسك بالعذراء وحملها بعيدا ، وأنجب منها زتيس (Zetes) وكالايس (Calais) ، وهما محاربان مجنحان ، رافقا حملة الأرجو ، وقاما بخدمات جليلة فى المعركة التى دارت بين أبطال الأرجو ، وبين مسوخ النسنوس الطائرة (Harpies) .

وكان زفيروس متيما بفلورا (Flora) ، ونوه ملتون بهما فى « الفردوس المفقود » حيث وصف آدم وقد استيقظ من النوم وراح يتأمل حـواء وهي ما تزال نائمة : —

« . . . . . . وهـــو على جنبه
متكىء نصف قائم ، بنظرات والهة ،
تطلع إليها مفتونا ، فشاهـد جمالا
تتجلى روعته فى اليقظة أو الكرى ،
وبصوت رقيق كأنسام زفيروس إلى فلورا ،
همس ، وهو يمس يدها برفق ، استيقظى ! ،
ياجميلتى ، وحليلتى ، ومن وجدتها أخيرا ،
ياآخر وأحسن هبات السماء ، وبهجتى المتجددة

***

ويروح دكتور يونج الشاعر فى قصيدته « أفكار الليل » يخاطب الكسالى والمترفين قائلا : —

« أيها المتظرفون ! العاجزون عن العطاء ،
(لا طاقة لأحد قط على احتمالكم)
فأنتم ترقبون وردة الشتاء تأتيكم طواعية ،
وتلتمسون من ڤافونيوس الحريرى الناعم ،
نسيما أكثر نعومة أو أصبحتم شانئيه . »

الفصل الثالث والعشرون

أخيلوس وهرقل — أدمتوس والكستيس — انتيجونا وبنيلوبا .

أخيلوس وهرقل

روى إله النهر ، أخيلوس ، قصة اريسيختون ، لثسيوس ورفاقه ، الذين احتفى بهم وأكرم وفادتهم ، حين عطلهم فيضان مياهه عن السفر ، وبعدما أتم قصته أضاف قائلا : « ولكن ما الذى يدعونى إلى التحدث عما يطرأ على أشكال الآخرين من تغيير ، بينما أنا نفسى نموذج لامتلاك هذه المقدرة ؟ فتارة أصبح ثعبانا ، وتارة أخرى أصبح ثورا ، بقرنين على رأسه ، أو بتعبير أدق ، كان فى استطاعتى يوما أن أفعل هذا ، ولكن لم يعد لى الآن سوى قرن واحد إذ فقدت واحدا قبل ذلك . » ...وهنا انتحب ولاذ بالصمت .

فسأله ثسيوس عن سبب حزنه ، وعن الطريقة التى فقد بها قرنه ، فأجاب إله النهر عن هذا السؤال بما يلى : « مَن من الناس يحب أن يتحدث عن هزائمه ؟ ... ولكنى لن أتردد عن أن أسوق هزائمى ، ويعزينى فى هذا ما يتسم به قاهرى من العظمة وجلال القدر ، فهو هرقل ، فلعلكم سمعتم طرفا من شهرة ديجانيرا ، أجمل العذارى ، التى حاولت جمهرة من راغبى الزواج أن تحظى بها ، وكان هرقل وكنت أنا ضمن الراغبين ، فتخلى الباقون وتركوا لكلينا المجال ، فدعم طلبه بصلة الرحم التى تربطه بجوبتر ، وبمغامراته التى بزَّ بها إرهاصات يونو ، زوج والده ، أما أنا فقلت لوالد العروس : « تطلع إلى ، فأنا ملك المياه التى تجرى فى أحشاء

بلادك، ولست غريبا أوقادما من ساحل أجنبي ، ولكنى أنتسب إلى الإقليم، وهو جزء من مملكتك ، ولن يعرقل مطلبى أو يشوبه أي عداء تكنه لى يونو الملكية ، أو معاقبتى بأقسى ضروب المهام ، أما فيما يتعلق بهذا الرجل الذى يباهى بأنه ابن جوبتر : فأحد اثنين ، إما أن هذا ادعاء باطل ، وإما صح فهو مما يشينه ، إذ يستحيل تحقيقه إلا على حساب شرف أمه المهدر وعفتها السليبة ، ... وعندما قلت هذا عبس هرقل وكبت غضبه بعد لأي ، ثم قال : « ستكون يدى أفصح فى الإجابة عن لسانى ، أسلم بغلبتك فى مهاترتك بالكلام ، ولكنى ألجأ للفصل فى قضيتى إلى النزال ومقارعة الأفعال » . . . وبهذا تقدم نحوى ، فاستحييت ، بعد تورطى فى الكلام ، أن أستسلم ، فخلعت ردائى الأخضر، وتقدمت للنزال ، فحاول أن يلقى بى أرضا ، ممسكا تارة برأسى وأخرى بيدنى ، فكان جرمى هو وقائى ، وعبثا حاول أن يتمكن منى ، وتوقفنا فترة بعدها عدنا إلى النزال ، وصمد كل منا فى مكانه لا يتحول عنه أو يريم ، مصمما ألا يستسلم ، وكنت منحنيا فوقه ، ويدى متشبثة بيده ، ورأسى تكاد أن تلامس رأسه ، وحاول هرقل ثلاث مرات أن يلقى بى إلى الأرض ، وتمكن منى فى المرة الرابعة ، فأوقعنى وهو من فوق ظهرى ، وأصارحك الحقيقة أننى أحسست كما لو كان جبل قد انهار فوقى ، فجاهدت كى أحرر ذراعى من قبضته ، وأنا ألهث وأتصبب عرقا ، ولكنه لم يتح لى أية فرصة للنجاة بل أمسك بخناقى ، وكانت ركبتاى فوق الأرض وفمى فى الرغام .

« وإذ وجدت أننى لم أكن ندا له فى فن النزال ، رحت أجرب غيره وتسللت فى هيئة ثعبان ، وطويت بدنى ملتفا حول نفسى ، وأطلقت عليه فحيحى من لسانى ذى الشعاب ، فابتسم سخرية من هذا وقال : « كانت مهمتى وأنا طفل أن أقضى على الحيات . » وإذ قال هذا قبض على عنقى بيديه ، حتى أشرفت على الاختناق ، وجاهدت كى أخلص عنقى من قبضته ، وإذ انهزمت وأنا بهذه الصورة ، لجأت

إلى تجربة لم تبق لى سواها ، واتخذت صورة ثور ، فأطبق على عنقى بذراعه ، وجذب رأسى نحو الأرض ، وقلبنى على الرمل ، ولم يكتف بهذا ، فانتزع قرنى من رأسى بيده القاسية ، فأخذته حوريات النياد ، وقدسته ، وملأنه بالأزهار ذات الأريج ، فأخذت بلنتى[1] (Plenty) قرنى وانتحلته لنفسها ، ودعته كورنيو كوبيا (Cornucopia) أو قرن الرخاء . »

* * *

كان القدماء مولعين باستنباط معنى خفى من قصصهم الأسطورية ، فيفسرون هذا القتال الذى نشب بين اخيلوس وهرقل بقولهم إن اخيلوس كان نهرا يغمر شاطئيه فى فصول الأمطار ، فإذا ذكرت الأسطورة أن اخيلوس أحب ديجانيرا ، وراح ينشد وصالها ، فمعنى هذا أن النهر كان يتدفق ، خلال تعرجاته ، فى أحشاء شطر من مملكة ديجانيرا ، ويقال إنه أخذ صورة الحية بسبب تعرجه ، وأخذ صورة الثور بسبب فورانه أو خريره خلال جريانه ، وحينما فاضت مياه النهر ، صنع لنفسه مجرى آخر ، وبهذا أصبح لرأسه قرنان ، ومنع هرقل عودة هذه الفيضانات الدورية بالحواجز والقنوات ، ولذلك قيل عنه إنه قهر إله النهر وانتزع قرنه ، وأخيرا فالأراضى التى كانت من قبل عرضة لأن تغمرها المياه ، وعتقت الآن ، أصبحت موفورة الخصب ، وهذا ما يعنيه قرن الرخاء .

وثمة قصة أخرى تروى عن أصل الكورنيو كوبيا ، وهى أن جوبتر ، عند مولده ، أناطت أمه ريا أمر العناية به إلى بنات مايسيوس (Melisseus) ملك كريت ، فأرضعن الإله الطفل لبن المعزة أملثيا (Amalthea) ، فانتزع

---

(١) اسم آخر يطلق على المعزة التى يزعمون أنها أرضعت جوبتر .

جوبتر أحد قرنى المعزة وأعطاه لمرضعاته ، ووهبه القدرة العجيبة على أن يمتلىء بأى شىء يشتهيه مالكه .

وأطلق بعض الكتاب اسم أملثيا على أم باخوس أيضا ، واستخدمه ملتون هكذا فى « الفردوس المفقود » السفر الرابع :

« . . . تلك الجزيرة النيسية ،
التى يطوقها نهر تريتون ، هناك خان العجوز ،
الذى يسميه الأمميون آمون ، والليبيون جوبتر ،
قد خبأ أملثيا مع ابنها البهى النضير ،
باخوس الصغير ، بعيدا عن زوج أبيه ريا . »

* * *

أدمتوس والكستيس

وهب أبوللو ابنه آيسكولابيوس براعة فى فن الشفاء حتى أنه كان يحيى الموتى ، عند ذلك انزعج بلوتو فأشار على جوبتر أن ينزل صاعقة على آيسكولابيوس ، فحنق أبوللو لهلاك ابنه ، وراح يثأر بالتنكيل بالفعلة الأبرياء الذين صنعوا الصاعقة وهم مسوخ الكيكلوبس الذين كان مصنعهم تحت جبل اتنا ، حيث يتصاعد الدخان واللهب ، دون انقطاع من أفرانهم ، فرشق أبوللو بسهامه الكيكلوبس ، الأمر الذى أثار سخط جوبتر فحكم عليه ، كقصاص منه ، أن يخدم واحدا من البشر مدة عام ، وبناء على ذلك دخل أبوللو فى خدمة أدمتوس ، ملك ثيساليا فتولى رعى قطعانه على شواطىء نهر امفريسوس الخضراء .

وكان أدمتوس أحد راغبى الزواج الذين تقدموا يطلبون يد الكستيس ابنة بلياس الذى وعد أن يزوجها لمن يحضر لطلبها فى مركبة تجرها الأسود

والخنازير البرية وأتم أدمتوس هـذه المهمة بمعونة راعيه الإلهي وسعد بحيازته لالكستيس، ولكن أدمتوس أضناه المرض ، وإذ أشرف على الموت ، أشار ابوللو على إلاهات الأقدار أن تحفظ عليه حياته شريطة أن يقبل شخص آخر أن يموت عوضا عنه ، وفي غمرة من السرور بوقف هذا المصير ، لم يفكر إلا قليلا في الفدية ، ولعله وقد تذكر ما طالما سمعه من رجال حاشيته وأتباعه فى تصريحاتهم عن تعلقهم به ، توهم أنه من السهل أن يجد عن نفسه بديلا ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فالمقاتلون البواسل الذين كانوا على أتم استعداد لتعريض حياتهم للأخطار طائعين فى سبيل ملكهم ، جفلوا جزعين من فكرة الموت عنه فى فراش المرض . والخدم الطاعنون فى السن الذين غمرتهم خيراته وخيرات بيته، منذ طفولتهم حتى المشيب لم يكونوا راغبين في التخلي عن البقية الضئيلة من أيامهم ، للاعراب عن عرفانهم للجميل . وتساءل الناس: «لماذا لا يقوم بهذا أحد والديه ؟ إنهما لا يستطيعان، وفق سنن الطبيعة أن تمتد بهما الحياة طويلا ، ومن يستطيع أن يحس مثلهما الدعوة لانقاذ الحياة ، التي أعطياها ، من نهاية عشواء مبكرة ؟ » ولكن على الرغم من حزن الوالدين لفكرة فقده نفروا من الدعوة ، وحينئذ تقدمت الكستيس ، فى فيض من الحب الخالص ، وعرضت نفسها كبديل عنه ، وعلى الرغم من تعلق أدمتوس بالحياة ، فما كان ليرضى أن يقبلها بمثل هذا الثمن ، ولكن لم يكن ثمة مناص أو علاج ، فالشرط الذى وضعته الأقدار قد قبل ، وقرارها لم يمكن النكول عنه ، فمرضت الكستيس، بينما تماثل أدمتوس للشفاء ، وسرعان ما أصبحت من القبر قاب قوسين أو أدنى .

ووصل هرقل ، فى هذا الحين بالذات ، إلى قصر أدمتوس ، ووجد الحزن مخيما على جميع من به ، لتوقعهم فقد الزوجة الوفية وربة البيت المحبوبة ، فهرقل الذى لم يكن ليعجز عن القيام بأى عمل مهما كان شاقا ، عقد العزم على أن يحاول إنقاذها ، فذهب وأقام منتظرا عند باب غرفة الملكة المحتضرة ، وعندما حضر إله

الموت ينشد فريسته ، قبض عليه وأرغمه على أن يتخلى عن ضحيته ، وتماثلت السكستيس للشفاء وعادت إلى حظوة زوجها .

* * *

ويشير ملتون إلى قصة السكستيس فى قصيدته « عن زوجته الراحلة » :

« يخيل إلى أنى رأيت زوجتى القديسة الراحلة
مقبلة على من القبر مثل السكستيس ،
التى سلمها ابن جوبتر الأكبر لزوجها النشوان ،
إذ أنقذها من الموت بالقوة ، رغم شحوبها وضعفها . »

* * *

واختار ج . ر لويل « راعى ملك أدمتوس » موضوعا لشعر قصير ، وجعله من تلك الحادثة أول مقدمة فى الشعر إلى الناس :

« دعاه القوم شابا فاشلا ،
ولم يتوسموا فيه أى خير ،
ولكنهم حقا ، دون أن يفطنوا ،
جعلوا من كلماته العابرة شريعتهم .

* * *

ويوما فيوما ازدادت قداسة
كل بقعة وطأتها أقدامه ،

حتى عرف الشعراء فيما بعد
أن أخاهم البكر كان شاعرا . »

* * *

انتيجونا

إن شطرا كبيرا من الشخصيات الممتعة وجلائل الأعمال ببلاد اليونان الأسطورية ، تدور حول العنصر النسائى ، وكانت انتيجونا نموذجا رائعا للوفاء الزوجى ، وكانت شقيقة لأوديب (OEdipus) ويوكاستا (Jocasta) اللذين ذهبا مع جميع ذراريهما ضحية لقدر قاس ساقهم إلى الهلاك ، وفى نوبة من الجنون سمل أوديب عينيه ، وطرد من مملكته ، طيبة ، نخشيه الناس وتحاشوه كمحط للنقمة الإلهية ، ولم يرافقه فى تجواله وطوافه سوى ابنته انتيجونا التى بقيت معه حتى لاقى حتفه ثم عادت إلى طيبة .

واتفق شقيقاها ، اتيوكليس (Eteocles) و بولينكيس (Polynices) ، على اقتسام المملكة بينهما ، وحكمها بالتناوب عاما فعاما ، وجاء العام الأول من نصيب اتيوكليس ، الذى رفض أن يسلم المملكة لأخيه حين انتهت نوبته ، ففر بولينكيس لائذا بادراستس ، ملك أرجوس ، الذى زوجه ابنته ، وأمده بجيش يؤيد به مطالبته بالعرش ، فأدى هذا إلى قيام حملة « السبعة ضد طيبة » الشهيرة ، التى هيأت مادة موفورة لشعراء الملحمة والمأساة ببلاد اليونان .

فاعترض أمفياروس (Amphiaraus) صهر ادراستس على الفكرة ، لأنه كان عرافا ، وعلم بفنه أنه لن يبقى على قيد الحياة من الزعماء ليعود سالما سوى أوراستس ، ولكن أمفياروس ، عند زواجه بأريفيلا (Aryphile) شقيقة الملك ، وافق على أنه كلما اختلف فى الرأى مع أوراستس ، تركا لأريفيلا أمر الفصل

فيه ، وإذ عرف بولينسكيس هذا أعطى أريفيلا طوق هرمونيا ، وبذلك اكتسبها إلى صفه ، وكان هذا الطوق أو العقد هدية قدمها فولكان لهرمونيا عند زواجها بكادموس ، وأخذه بولينسكيس معه حين فراره من طيبة ، ولم تستطع اريفيلا مقاومة مثل هذه الرشوة المغرية ، ومن ثمة تقرر شن الحرب بناء على فتواها ، وذهب أمفياروس إلى مصيره المحتوم ، وقد أدى دوره فى المعركة ببسالة ، ولكنه لم يستطع أن يتلافى مصيره ، وإذ طارده العدو فر حذاء النهر ، وعندئذ أرسل جوبتر صاعقة ، فانخسفت الأرض ، وابتلعته مع عجلته الحربية وقائدها .

وليس هذا مجال تفصيل كل أعمال البطولة والقسوة التى اتسمت بها المعركة ، ولكن لزاما علينا ألا نغفل تسجيل وفاء افادنا (Avadne) كتعويض عن ضعف أريفيلا ، ففى وطيس القتال صرح كابنيوس (Capaneus) زوج افادنا ، بأنه سيشق طريقه داخل المدينة على الرغم من جوبتر نفسه ، فأسند سلما إلى الحائط وارتقاه ، ولكن جوبتر ، وقد أساءه تجديفه ، أماته بصاعقة ، وعند الاحتفال بحرق جثمانه قذفت افادنا بنفسها فى محرقه المأتم وهلكت .

وفى مستهل المعركة استشار اتيوكليس ، العراف تيرسياس عن نتيجتها ، وكان تيرسياس (Tiresias) قد شاهد، فى شبابه ، بمحض الصدفة ، منيرفا وهى تستحم ، فخنقت الإلاهة وسلبته نعمة البصر ، ولكنها أشفقت عليه بعد ذلك ، وعوضته بالقدرة على معرفة أحداث المستقبل ، وعندما استطلعه اتيوكليس صرح بأن طيبة ستحرز النصر لو أن منوكيوس (Menoeceus) بن كريون (Creon) ضحى بنفسه طائعا مختارا ، وإذ علم الشاب الباسل بالرد ، ألقى بنفسه إلى التهلكة فى أول معركة .

واستمر الحصار طويلا بأشتات من التوفيق ، وأخيرا اتفق الجيشان على أن يحسم الشقيقان نزاعهما بمبارزة واحدة ، فتقاتلا وسقط كل منهما بيد الآخر ،

وعندئذ عاد الجيشان إلي القتال من جديد ، وأخيرا اضطر الغزاة إلي الإذعان ، وفروا تاركين قتلاهم فى العراء ، وآنئذ أصبح كريون ، عـم الأميرين القتيلين ، ملـكا ، فأمر بدفن اتيوكليس بكل إجلال واحترام ، ولكنه ترك جثة بولينكيس حيث سقطت ، منذرا بالموت من يدفنها .

فسمعت انتيجونا ، شقيقة بولينكيس ، فى استياء وغضب ، ذلك القرار الثائر النابى الذي دفع بجثمان شقيقها إلى الـكلاب والطيور الجارحة ، وحرمه من الطقوس الدينية التى كانت تعتبر أساسية لراحة الموتى ، وإذ لم تأخذ بنصيحة شقيقتها الوفية المذعورة التى حاولت صرفها عما تنوي ، ولعدم استطاعتها الحصول على أية معونة عقدت العزم على الاستبسال والمخاطرة فتدفن الجثة بيديها ، فضبطت متلبسة ، وأصدر كريون الأمر بدفنها حية ، لتعمدها الزراية بقرار المدينة الرسمى ، ولما لم يستطع حبيبها هيمون (Haemon) بن كريون أن يجنبها مصيرها المحتوم ، لم يرد أن يحيا من بعدها ، فقضى على نفسه بيده .

***

وتكون انتيجونا موضـــوع مأساتين رائعتين للشاعر اليونانى سوفوكليس (Sophocles) ، وقد وازنت مسز جيمسون فى مؤلفها « خصائص النساء » بين طباعها وطباع كورديليا فى مسرحية « الملك لير » لشـكسبير .

وفيما يلي عويل انتيجونا على أوديب ، عندما أراحه الموت أخيرا من عذابه :

« واحسرتاه ! ماتمنيت قط سوي أن أموت
مع أبى فلماذا ألتمس الحياة مـــن بعده ؟
لشد ما كـنت مولعة بمشاركـــته شقاءه ،
حتى كانت أبغض الأشياء أحبهـــا إلى
طالما كان معى ، يا أعز الآباء ،
وأنت الآن تحت الثرى مغيب فى أعماق الظلام ،

وقد أنهكتك الشيخوخة ، لا زلت لى عزيزا
كما كنت ، وكما ستظل إلى الأبد . »
فرنكلين سوفوكليس

بنيلوبا

إن بنيلوبا واحدة أخرى من البطلات الأسطوريات اللاتى تتسم محاسنهن بالطابع الخلقى والسلوكي أكثر مما تتسم بالطابع الذاتى ، وكانت ابنة لإيكاريوس، الأمير الاسبرطى ، وخطبها يوليسيس ، ملك ايشكا ، وفاز بها من دون المنافسين جميعا، وعندما أزف الوقت لرحيل العروس عن بيت أبيها لم يستطع إيكاريوس أن يتحمل فراق ابنته فحاول أن يغريها على البقاء معه فلا تصحب زوجها إلى ايشكا . فترك يوليسيس حرية الاختيار لبنيلوبا ، إما أن تبقى وإما أن تذهب معه ، فلم تجب بنيلوبا ، بل أسدلت نقابها على وجهها فكف ايكاريوس عن تحريضها ، ولكنه بعد رحيلها أقام تمثالا لإلاهة التواضع فى المكان الذى افترقا عنده .

ولم يستمتع يوليسيس وبنيلوبا بالتئام شملهما أكثر من عام بعده فرقت بينهما الأحداث التى دعت يوليسيس إلى حرب طروادة ، وخلال غيبته الطويلة ، وحينما تسرب الشك فى بقائه على قيد الحياة ، وأصبح احتمال عودته ضعيفا أشد الضعف راح راغبو الزواج العديدون يطلبون يد بنيلوبا فى لجاجة وإلحاح ، حتى بدا أنه لاخلاص لها إلا باختيار زوج لها من بينهم ، ولكن بنيلوبا استخدمت كل الحيل لكسب الوقت ، إذ ظلت تؤمل أن يعود يوليسيس إليها . ومن ضمن هذه الحيل التى لجأت إليها للتأجيل ، انشغالها فى إعداد رداء الغصب الجنائزى المقام لذكري لايرتيس (Laertes) والد زوجها ، واطمأنت إلى أنهالن ترغم على اختيار زوج لها حتى تنتهى من الرداء ، وخلال النهار كانت تشتغل بنسج الرداء ، ولكنها فى الليل تحل مانسجته ، وهذا نسيج بنيلوب المشهور الذي يستخدم كعبارة مأثورة عن أى شئ لاينقطع منه العمل ولكنه لايتم أبدا ، وسنسوق إليك بقية قصة بنيلوبا عندما نروى لك مغامرات زوجها .

الفصل الرابع والعشرون

أورفيوس ويوريديكا — ارستاوس —
امفيون — لنوس — ثاميرس — مرسياس —
ملامبوس — ميوساوس .

أورفيوس ويوريديكا

كان أورفيوس ابنا لأبوللو وإلاهة الموسيقى كليوبا ، فأهداه والده قيثارة وعلمه العزف عليها ، الأمر الذى أتقنه إلى حد أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يقاوم سحر موسيقاه ، ولم يقتصر أثر أنغامه على بنى جنسه من البشر ولكنه كان يلين طباع الوحوش ، فتتجمع حوله وقد زايلتها نزعة الافتراس ، ووقفت مبهورة الأنفاس ، بل إن الأشجار والصخور ذاتها كانت تحس روعة الأنغام ، فالأولى تتزاحم حوله والثانية تخفف من صلابتها ، من فرط التأثر بألحانه .

ودعى هيمن (Hymen) ليبارك بحضوره زفاف أورفيوس ويوريديكا ، ولكن على الرغم من حضوره فلم يأت لهما ببشرى أو بفأل حسن ، فالدخان تصاعد من شعلته ، وامتلأت عيونهما بالدموع ، واقترن بهذه الهواجس أنه بينما كانت يوريديكا ، بعد زواجها بقليل ، تتجول مع رفيقاتها الحوريات ، رآها الراعى ارستاوس ، فافتتن بجمالها وراح يتودد إليها ، فلاذت بأذيال الفرار ، وإذ هى تعدو وطأت حية بين الحشائش ، فنهشتها فى قدمها ، وماتت ، فأطلق أورفيوس لحزنه العنان فى ألحان أسمعها جميع من يستنشقون هواء ما فوق الأرض ، من آلهة وبشر ، وإذ لم يجد أية جدوي فى كل هذا ، عقد العزم على أن يبحث عن زوجته

فى أقطار الموتى ، فنزل عن طريق كهف يقع على حافة مرتفع تينارس (Taenarus)
ووصل إلى إقليم نهر العالم السفلى ، فاجتازه بين حشود من الأشباح حتى مثل أمام
عرش بلوتو وبروسيربينا ، وراح يعزف على قيثارته وهو يشدو قائلا : « يا إلهى
العالم السفلى ، يا من إليهما لا بد سنأتى جميعا نحن الأحياء ، أنصتا لكلماتى ،
لأنها صادقة ، لست قادما لاستطلاع خفايا ترترس ، أو لاختبار قوتى ضد الكلب
ذى الرءوس الثلاثة والشعر الثعبانى الذى يحرس المدخل ، ولكنى قادم للبحث عن
زوجتى ، التى اهتصرت أنياب الأفعى السامة فاتحة حياتها قبل الأوان ، فساقنى الحب
إلى هنا ، فالحب إله مهيمن علينا نحن سكان الأرض ، وإذا صحت الأحاديث
القديمة المتواترة فهو لا يقل شأنا هنا ، أستحلفكما بهذه المواطن المليئة بالرعب ،
وبهذه الأقطار ، أقطار الصمت والأشياء غير المنظورة ، أن تصلا حبل حياة
يوريديكا ، فمصيرنا جميعا إليكما ، ولا بد من القدوم إلى مملكتكما إن عاجلا
أو آجلا ، وهى أيضا ، حين تتم أجلها من الحياة ، ستكون لكما بحق ، ولكن
حتى ذلك الحين ، أتوسل إليكما أن تهبانى إياها ، فإذا رفضتما سؤلى فلن أستطيع
العودة وحيدا ، وستفوزا بموتنا معا . »

وبينما كان يشدو بهذه الأنغام الشجية ، انهمرت دموع الأشباح ذاتها ،
وأوقف تنتالوس لحظة بحثه عن الماء على الرغم من ظمئه ، وتوقفت عجلة اكسيون عن
الحركة ، وتوقف النسر عن تمزيق كبد العملاق ، واستراحت بنات دانوس
(Danaus) عن القيام بمهمتهن فى نقل الماء بغربال ، وجلس سيسفوس
(Sisyphus) على صخرته منصتا ، ولأول مرة ، كما قيل ، بللت الدموع وجنات
إلاهات الغضب (Furies) ، فلم تستطع بروسيربينا أن تقاوم ، وأذعن بلوتو
نفسه ، ومن ثمة استدعيا يوريديكا ، فأقبلت من بين الأرواح القادمة حديثا ،
وهى تظلع بقدمها المنهوشة ، فأذنا لأورفيوس أن يذهب بها ، شريطة ألا يلتفت
لينظر إليها حتى يصل بها إلى الفضاء الأعلى ، وتحت هذا الشرط سارا فى طريقهما ،

هو يتقدمها ، وهى تتبعه ، مخترقين ممرات مظلمة وعرة ، يخيم عليها صمت مطبق ، حتى كادا أن يصلا إلى المنفذ للعالم الأعلى البهيج ، عندئذ أراد أورفيوس ، فى لحظة نسيان ، أن يستوثق من أنها لا زالت تتبعه ، فألقى نظرة خلفه ، وفي الحال حملت بعيدا ، فمد كل منهما ذراعيه للعناق ، ولكنهما لم يقبضا إلا على الهواء ! وهي تموت آنئذ للمرة الثانية ، ولكنها لم تستطع أن تعزل زوجها ، إذ كيف تستطيع مؤاخذته على نفاد صبره لرؤيتها ؟... فقالت : « وداعا ، وداعا لآخر مرة » — وعجل حاملها بالابتعاد سريعا حتى إن الصوت لم يصل إلى أذنيه إلا همسا .

فجاهد أورفيوس كى يتبعها ، والتمس الأذن بعودته ومحاولة إطلاق سراحها مرة ثانية ، ولكن النوتى الصارم صده ورفض نقله ، فقضى سبعة أيام متريثا عند الحافة ، دون طعام أو نوم ، بعد ذلك راح يشدو شكاياته ، متهما قوات اربوس بالقسوة ، مخاطبا الصخور والجبال ، مذيبا قلوب النمور ، ومحركا أشجار البلوط من أماكنها ، واعتزل جنس النساء إذ عاش دائما في غمرة من ذكرى مأساته الحزينة ، وحاولت عذارى تراقيا أن يستحوذن على لبه ولكنه صدهن عن التمادى ، فطاولنه فى صبر واحتمال إلى أبعد مدى مستطاع ، ولكن إذ وجدنه غافلا عنهن يوما ما ، وكن منفعلات بشعائر باخوس ، صاحت إحداهن قائلة : « تطلعن فهاهو ذا المزدرى بنا ! » وقذفته برمحها ، فما كاد السلاح يصبح على مسمع من قيثارته حتى سقط دون إيذاء عند قدميه ، وكذلك حدث بالأحجار التى قذفنه بها ، ولكن النساء أطلقن صرخة بددت صوت الموسيقى ، وعندئذ وصلت قذائفهن إليه ، وسرعان ما خضبتها دماؤه ، فمزقته الملتاثات إربا إربا ، وألقين برأسه وقيثارته فى نهر هبروس ، فطفا الاثنان وهما يتمتمان بأنغام حزينة ، رددت الشواطىء صداها بسيمفونية تفيض أسى ، وجمعت الإلاهات الموسيقى أشلاءه ودفنتها عند ليبثرا (Libethra) ، حيث يقال إن العندليب يصدح فوق قبره بأنغام أكثر حلاوة .

منها فى أية بقعة أخرى ببلاد اليونان ، ووضع جوبتر قيثارته بين النجوم ، واجتاز شبحه ثانية إلى ترترس حيث جد فى أثر زوجته يوريديكا ، وتلقفها بين ذراعيه فى لهفة واشتياق ، وهما الآن يتجولان بالحقول السعيدة معا ، تارة يتقدمها فى المسير ، وأخرى تتقدمه ، وأورفيوس يتفرس فيها قدر ما يشاء ، فلم يعد يخشى القصاص لنظرة عابرة قد تقع عفوا .



وأمدت قصة أورفيوس الشاعر بوب بصورة عن قوة الموسيقى ، لقصيدته « أنشودة ليوم القديسة سسليا » ، والأبيات التالية تروى ختام القصة :

« ولكن سريعا ، سريعا جدا ، يدير العاشق عينيه ،
وتقع الفتاة مرة أخرى ، وتموت ثانية ، تموت !
فكيف ستستدر الآن عطف الشقيقات القاتلات ؟
إنك لم تجرم ، إذ لم يكن الحب جريمة .
والآن تحت الجبال المتدلية ،
بالقرب من الينابيع الجارية ،
أو حيث يجرى هبروس ،
متدفقا فى منىدرس ،
وحيدا بغير رفيق ،
يشدو الشاب منتحبا ،
مناديا شبحها ،
الذى رحل إلى الأبد !
والآن تحيط به الساخطات ،
وهو يائس مذهول ،

فيرتعش ويحتدم ،
وسط ثلوج رودوبا .
انظروا ، إنه يغرق على الرغم من قسوة رياح الصحراء ،
أنصتوا فهبموس يردد صدى صراخ عابدات باخوس .
آه ، انظروا ، إنه يموت !
ولكنه ، حتى فى الموت ، يشدو باسم يوريديكا ،
وعلى لسانه لا زال يتردد اسم يوريديكا ،
فاسم يوريديكا يدوى
فى الغابات
ومع الفيضانات
وفوق الصخور وأغوار الجبال . »

* * *

ويشير الشاعر سوذى (Southy) فى قصيدته « ثلبا » (Thalaba) إلى روعة النغم فى أغرودة العندليب فوق قبر أورفيوس :

ثم يا للأنغام المؤتلفة
التى وردت على أذنه !
موسيقى بعيدة وأغنية رخيمة
منبعثة من خمائل الطرب ،
مساقط المياه النائية ،
وحفيف أغصان الأدغال ،
والعندليب المنفرد

على شجرة الورد يتقن الشـــدو
كما لم يسبق لهذا الطائر الصداح
أن شدا لأليفته المفرخة أغرودة حب مماثلة
ولم يسبق للراعى التراقى سماع أحلى منها
وهو بجانب قـــبر أورفيوس ،
على الرغم من أن شبح اللحد هناك
نفث كل قوتـــه ليزيد ضرام
البخور الذى يحبه .

أرستاوس حارس النحل

إن الإنسان ليستخدم غرائز الحيوانات الدنيا لنفعه الخاص ، ومن ثمة ظهر فن حراسة النحل ، ولابد أن الشهد عرف من قبل كمحصول برى ، فكان النحل يبنى خلاياه فى تجاويف الأشجار ، أو ثقوب بالصخور ، أو أية فجوة مماثلة تسوقها الظروف ، ولهذا كان النحل أحيانا يحتل رمة حيوان ميت لهذا الغرض ، ولا شك أن من هذه الحادثة برزت الخرافة القائلة بتوالد النحل من لحم الحيوان المتعفن ، وفى القصة التالية يبين فيرجيل (Virgil) كيف أن هذه الواقعة المزعومة يمكن أخذها كعلة لتجديد سرب النحل حين ضياعه بسبب المرض أو حدث من الأحداث .

وكان ارستاوس ، وهو أول من علم تربية النحل ، ابنا لحورية الماء ، كيرينا (Cyrene) ، وكان نحله قد هلك ، فالتجأ إلى أمه يلتمس معونتها ، فوقف عند شاطىء النهر وخاطبها قائلا : « أى أمى ، لقد سلب منى فخر حياتى ! أضعت نحلى الثمين ، ولم أنتفع بشىء من عنايتى ومهارتى ، وأنت يا أمى لم تدفعى عنى صدمة الكارثة » . فسمعت أمه هذه الشكوى وهى جالسة بقصرها فى قاع النهر ، وحولها

حاشيتها من الحوريات ، اللاتى كن يشتغلن بالفنون النسوية ، كالغزل والنسيج ، بينما راحت واحدة منهن تروى القصص لتسلية الأخريات ، وإذ ألهاهن صوت ارستاوس الحزين عما فى أيديهن ، اشرأبت إحداهن برأسها فوق الماء ، وإذ رأته عادت وأخطرت أمه ، التى أمرت بإحضاره للمثول بين يديها ، وانفغر النهر تلبية لأمرها وسمح له باجتيازه ، بينما انتصب كالجبل على كل من الجانبين ، فهبط إلى القطر الذى تربض فيه ينابيع الأنهار العظيمة ، فرأى أوانى المياه العملاقة وكاد أن يصاب بالصمم ، بينما كان يتأملها وهي مندفعة فى شتى الاتجاهات كى تروى وجه الأرض ، وحالما وصل إلى مسكن أمه استقبلته كيرينا وحورياتها أحسن استقبال ، وأعددن له مأدبة من أفخر الأطعمة وأشهاها ، مبتدئات بإهراق السكائب لنبتونا ، ثم استمتع الجميع بالوليمة ، وبعد ذلك خاطبته كيرينا قائلة : « هناك نبى متقدم فى السن يدعى بروتيوس ، يسكن البحر وأثير عند نبتونا ، وهو يتولى رعاية قطيعه من عجول البحر ، ونحن الحوريات نوقره أعظم توقير ، فهو حكيم مستنير ، يعلم كل شيء ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، وفى استطاعته أن يخبرك يا ولدى عن علة الهلاك المتفشى فى نحلك وكيف تتوقاه ، ولكنه لن يفعل ذلك طواعية ، مهما توسلت إليه ، فلا محيص لك من إرغامه قسراً ، فإذا أمسكت به وقيدته ، فسيجيب على جميع أسئلتك كى تطلق سراحه ، إذ لا يستطيع الخلاص ، بكافة حيله ، إذا أحكمت حوله الأصفاد ، وسأحملك إلى كهفه حيث يأتى عند الظهيرة للقيلولة ، وعندئذ يسهل عليك اقتناصه ، ولكنه حالما يجد نفسه أسيراً ، يلجأ إلى ما فى حوزته من سلطان على تغيير نفسه إلى هيئات مختلفة ، فيصبح خنزيراً بريًا أو نمراً مفترساً ، أو تنينا بحرافيش أو أسداً بمعرفة صفراء أو أنه سيصدر جلبة كاندلاع اللهب أو هدير المياه ، كى يدفعك لترك أغلاله ، حينما يعمد للفرار ، ولكن ما عليك إلا أن تشدد عليه الخناق ، وأخيراً حينما تذهب جميع حيله أدراج الرياح يعود إلى هيئته الصحيحة ويطيع أوامرك » .

وإذ قالت هذا رشت ابنها بالنكتر ذى الأريج ، وهو مشروب الآلهة ، وسرعان

ما سرى البأس فى كيانه ، وأفعمت البسالة قلبه ، بينما عبق العطر كل ما حوله .

فتقدمت الحورية ابنها إلى كهف النبي ، وخبأته بين تجاويف الصخور ، أما هى فأخذت مكانها خلف الغمام ، وعندما حل وقت الظهيرة ، وهى الساعة التى يفر فيها الناس والقطعان من وهج الشمس ليحظوا بسنة من النوم الهادئ ، برز بروتيوس من الماء ، وفى أعقابه قطيعه من عجول البحر ، التى انتشرت على طول الشاطئ ، وجلس على الصخرة وأحصى قطيعه ، ثم تمدد فوق قاع الكهف ، واستسلم للكرى ، ولكنه ما كاد يستغرق فى النوم حتى كان ارستاوس قد قيده بالأصفاد ، ورفع عقيرته بالصياح ، وحين استيقظ بروتيوس ووجد نفسه معتقلا ، لجأ فورا إلى حيله ، فتحول أولا إلى نار ، ثم فيضان ، ثم حيوان برى مفترس ، فى سلسلة سريعة التوالى ، ولكنه إذ لم يجد أية جدوى فى كل هذا ، استعاد أخيرا هيئته الحقيقية ، وخاطب الشاب وهو غاضب فقال : « من أنت أيها الشاب الوقح ، الذي اقتحمت مسكنى بهذه الصورة ، وماذا تبتغى منى ؟ » فأجابه أرستاوس : « أنا مطلع على الواقع يابروتيوس ، فمن الخطل أن يحاول أحد خداعك ، وهل لك أن تكف عن محاولة الإفلات منى ، فمعونة إلهية هى التى جاءت بى إلى هنا ، لأقف منك على سبب نازلتى ، وكيف أعالجها » وحين سمع النبى هذه الكلمات ، ثبت فيه عينيه الرماديتين بنظرة نفاذة وقال : « إنك تلاقى الجزاء الحق عن أعمالك التى أدت إلى وفاة يوريديكا ، إذ عند فرارها منك وطأت حية ماتت من لدغتها ، وللأخذ بثأر موتها ، أرسلت الحوريات رفيقاتها هذا الوباء للقضاء على نحلك ، فعليك أن تسكن غضبهم ، ولا بد أن يتم هذا كما يلى : تخير أربعة ثيران ، مكتملة الحجم فارهة المنظر ، وأربع بقرات تعدلها حسنا ، وشيد أربعة مذابح للحوريات ، وانحر الحيوانات زلفى إليها ، مخلفا جثثها بالدغل المورق ، وقدم لأورفيوس ويوريديكا شعائر التكريم الجنائزى لتخفيف حدة استيائهما ، وعند عودتك بعد تسعة أيام ، ستفحص جثث الماشية المذبوحة لترى ماذا حدث . » فأطاع ارستاوس

هذه التوجيهات فى أمانة ، فضحى بالمواشى ، وترك جثثهم فى الدغل ، وقام بشعائر التكريم الجنائزية لشبحى أورفيوس ويوريديكا ، ثم إذ عاد في اليوم التاسع وجد ، مع بالغ الدهشة ، أن سربا من النحل قد احتل إحدى الجثث وراح يزاول عمله كما لو كان فى خلية .

. . .

ويشير كوبر فى قصيدته « الواجب » إلى قصة ارستاوس حينما تكلم عن قصر الثلج الذى شيدته إمبراطورة روسيا ، فوصف الأشكال الخيالية الرائعة التى اتخذها الثلج فيما يتصل بالمساقط المائية :

« يستدر الإعجاب أكثر مما يستحق الثناء ،
بسبب جدته كعمل بشرى موفور الرواء ،
يا عاهلة شعب روسيا المتدثر بالفراء ،
صرحك العملاق المتناهى فى العظمة والبهاء ،
أعجوبة الشمال ، فلم تزيلى غابة عند البناء ،
ولم يبعث محجر، لإقامة أسوارك ، بمدخراته الصماء ،
ولكنك قمت بنحت مياه الفيضان ،
وصنعت ، من الأمواج البللورية ، الرخام .
فى صرح كهذا الصرح وجد أرستاوس
أمه كيرينا ، حين حمل قصته الكئيبة
عن نحله المفقود إلى أذنها الحانية » .

. . .

ويبدو أيضا أن كيرينا ومشكلتها المنزلية كانت تجول بخاطر ملتون وهو

يضف لنا سابرينا ، حورية نهر سفرن ، فى أغنية الروح الحارس بمؤلفه « الحفل البهيج » :

« يا سابرينا الجميلة !
أنصتى حيث أنت جالسة
تحت الموجة الشفيفة الندية البلاورية
بجدائل السوسن المضفورة
فى خصلات شعرك الكهرمانى المتهدل ،
أنصتى بحق الشرف العزيز ،
يا إلاهة البحيرة الفضية !
أنصتى وخلصى . »

. . .

وفيما يلى عدد آخر من مشاهير الشعراء والموسيقيين الأسطوريين ، بعضهم لا يكاد يقل عن أورفيوس نفسه .

أمفيون

كان أمفيون ابنا لجوبتر وانتيوبا ، ملكة طيبة ، وعند مولده مع شقيقه التوأم زيثوس (Zethus) ظهرا على جبل كثايرون حيث شبا بين الرعاة ، دون أن يعرفا حقيقة نسبهما ، وأعطى مركيورى قيثارة لأمفيون وعلمه أن يعزف عليها ، وعكف شقيقه على الصيد ورعاية الأغنام ، وفى غضون ذلك وجدت أمهما انتيوبا ، التى عاملها بقسوة شديدة ليكوس (Lycus) ملك طيبة المغتصب ، وزوجته ديركا (Dirce) ، وسيلة لاطلاع ولديها على حقوقهما ، واستدعائهما لمساعدتها ، فهاجما ليكوس بجماعة من زملائهما الرعاة وذبحاه ، وربطا ديركا

من شعر رأسها فى ثور وجعلاه يجرها حتى ماتت[1] ، وحينما أصبح أمفيون ملكا الطيبة ، حصن المدينة بسور ، وقيل إنه عندما كان يعزف على قيثارته ، كانت الأحجار تتحرك من تلقاء نفسها ، وتحتل أماكنها فى السور .

طالع أشعار تنيسون عن « أمفيون » لاستخدامه هـذه القصة بطريقة ممتعة .

. . .

لينوس

كان لينوس معلم الموسيقى لهرقل ، ولكنه إذ قسا على تلميذه يوما ما فى تقريعه له ، أثار حنق هرقل ، فضربه بقيثارته وأماته .

. . .

ثاميرس

هو شاعر غنائى قديم من تراقيا ، تحدى بغروره إلاهات الموسيقى والشعر إلى اختبار فى البراعة ، فانهزم فى المباراة ، وسلبته الإلاهات بصره ، ويشير ملتون إليه مع آخرين من شعراء الغناء المكفوفين ، حينما يتحدث عن عماه ، « الفردوس المفقود » السفر الثالث ـ ٣٥ .

* * *

مرسياس

اخترعت منيرفا الناى ، ووقعت عليه لتدخل السرور على قلوب السامعين

(١) قصاص ديركاهو موضوع مجموعة شهيرة من التماثيل موجودة الآن فى المتحف بنابولى.

من سكان السماء ، ولكن كيوبيد الخبيث اللاذع إذ تجاسر على أن يسخر مما كان يطرأ على سحنة الإلاهة من عوج خلال قيامها بالعزف ، ألقت منيرفا بالآلة ، وهى غاضبة ، فسقطت على الأرض وعثر عليها مرسياس ، فنفخ فيها وحصل على أصوات فاتنة أغرته على أن يتحدى أبوللو نفسه للدخول فى مباراة موسيقية ، ففاز الإله دون شك ، وعاقب مرسياس بسلخ جلده حياً .

* * *

ملامبوس

كان ملامبوس أول بشرى أنعم عليه بموهبة التنبؤ ، وكان أمام منزله شجرة بلوط تحتوى على وكر حية ، وكان الخدم يقتلون الحيات الكبيرة ، أما الصغيرة فأولاها ملامبوس عنايته وكان يطعمها بنفسه ، وبينما كان نائماً تحت البلوطة يوماً ما ، لعقت الحيات أذنيه بألسنتها ، ولشد ما كانت دهشته حين وجد ، عند استيقاظه من النوم ، أنه يفهم لغة الطير والزواحف ، ومكنته هذه المعرفة من استطلاع أحداث المستقبل ، حتى أصبح عرافاً ذائع الصيت ، ومرة أخذه أعداؤه أسيراً ، وسجنوه تحت حراسة مشددة ، وفي هدأة الليل سمع ملامبوس ديدان الخشب تتحدث وهى فى باطن أخشاب الحجرة ، واكتشف مما قالت أن تلك الأخشاب قد تآكلت من داخلها تماما أو كادت ، وأن السقف سينهار عما قريب ، فأخبر آسريه وطلب إليهم إخراجه كما حذرهم أيضاً ، فنزلوا عند تحذيره ومن ثمة أفلتوا من الهلاك ، وكافئوا ملامبوس ورفعوا منزلته .

***

ميوساوس

شخصية نصف أسطورية ، جاء بإحدى التقاليد المتواترة أنها تمثل ابناً

لأورفيوس ، ويقال إنه دوّن أشعاراً وحكماً دينية ، ويقرن ملتون اسمه باسم أورفيوس فى قصيدته « الشجن » (Il Penseroso) :

ولكن أيتها العذراء الحزينة ، يا من بقوتها
تستطيعين أن تنهضى ميوساوس من خميلته ،
أو أن تستكفى روح أورفيوس أن يشدو
بتلك الأنغام التى تردد حلاوتها الأوتار ،
فجعلت دموع بلوتو الحديدية تنهمر على خده ،
وجعلت الجحيم يهب ما ينشده الحب .

الفصل الخامس والعشرون

أريون — ابيكوس

سيمونديس — سافو

كان الشعراء الذين تؤلف مغامراتهم هذا الفصل ، أشخاصاً حقيقيين ، لاتزال بعض مؤلفاتهم باقية ، كما لايزال التأثير على الشعراء الذين أعقبوهم أكثر أهمية من مخلفاتهم الشعرية ، وتستند المغامرات المروية عنهم فى القصص التالية إلى ذات المصدر الذى أمدنا بقصص « عصر الأساطير » الأخرى ، أعنى نفس الشعراء الذين رووها ، ومغامرات الشعراء الأول ، والثانى ، فى شكلها الحالى مترجمة عن الألمانية ، فأريون عن شليجل ، (Schlegel) وأبيكوس عن شلر (Schiller) .

أريون

كان أريون موسيقيا شهيراً ، أقام بقصر برياندر ، ملك كورنثا ، الذى كان كثير الإعزاز له ، وكانت ستقام مباراة موسيقية بصقلية ، فتاق أريون إلى التنافس للحصول على الجائزة ، فكشف عن رغبته لبرياندر الذي نصحه كأخ أن يتخلى عن الفكرة ، وأضاف قائلا : « حبذا لو قنعت بالبقاء معى » فأجاب أريون قائلا : « إن من يحاول الفوز قد يبوء بالفشل ، فالحياة الهائمة تلائم القلب الحر الذى يحمله الشاعر ، فالموهبة التى أنعم على بها أحد الآلهـة ، سأجعل منها مصدراً لسرور أسبغه على الآخرين ، وإذا مافزت بالجـائزة فلشد ماسيزداد ابتهاجى حين أحس شهرتى المستفيضة ! » . . . فذهب وفاز بالجـائزة ، وأقلع بثروته على سفينة كورنثية عائداً إلى وطنه ، وفى صباح اليوم التالى بعد الإبحار ،

أصبحت الريح رخاء لينة ، فصاح قائلا : «أبعد المخاوف عنك يابرياندر ! فلسوف تنساها عند معانقتي، ياالقرابين الغالية التي سنقدمها للآلهة تعبيراً عن عرفاننا لجميلها، وياالبهجة التي ستغمر قلوبنا في حفلها البهيج ! » . . . واستمرت الريح مواتية، والبحر ساكنا ، ولم تشب غمامة صفحة السماء ، لم يكن اطمئنانه للمحيط كاملا — ولكنه اطمأن للانسان ، ودون قصد سمع البحارة يتبادلون العبارات المورّاة ، وعرف أنهم يتآمرون للاستحواذ على كنزه ، وسرعان ما أحاطوا به في جلبة وعصيان ، وقالوا : « لابد من هلاكك ياأريون ! إذا أردت لنفسك قبراً على الشاطىء ، فاستسلم للموت على هذه البقعة ، وإذا كان لك رأي آخر ، فألق بنفسك في اليم » . . . فقال لهم : « ألا تقنعون بشيء سوى حياتي ؟ خذوا ذهبي ومرحبا بكم ، فإني راض بأن أشتري حياتي بهذا الثمن . » . . . فأجابوا قائلين « حاشا وكلا ، فلن نستطيع تسريحك ، إذ ستصبح حياتك خطراً علينا ، فكيف يتيسر لنا الفرار من برياندر إذا علم أننا اغتصبنا مالك ؟ وسيصبح ذهبك قليل الجدوى إذا وجدنا ، بعد عودتنا للوطن ، أننا لن نتمكن قط بعد ذلك من التحرر من الخوف . » فقال : « حققوا لي إذن رغبة أخيرة ، مادام لايوجد شيء ينقذ حياتي ، وهي أن أموت ، كما عشت ، وأنا متسم بخصائص الشاعر الغنائي فحين أنشد لحن وفاتي ، وتكف أوتار قيثارتي عن الترداد ، عندئذ أودع الحياة ، وأذعن لمصيري دون تذمر أو شكوى » . . . وكان من المحتمل إغفال هذه الطلبة كسابقاتها — فهم لم يفكروا إلا في غنيمتهم — ولكن أن يشنف آذانهم مثل هذا الموسيقي الشهير ، الذي حرك قلوبهم القاسية ، فهذا أمر آخر . وأضاف قائلا : « تريثوا وارفقوا بي حتى أرتب لباسي ، فلن يصطفيني أبوللو مالم أكن مرتديا بردة الموسيقيين » .

فسربل أعضاء بدنه المتناسقة بالذهب والأرجوان ، الذي يسر الناظرين ، وتدلت عباءته من حوله في ثنيات بديعة ، وزينت الجواهر ذراعيه ، وتوج جبينه إكليل ذهبي ، وتهدل شعره المعطر على عنقه وكتفيه ، وأمسك القيثارة بيده اليسرى ، وباليمنى العصية العاجية التي يضرب بها الأوتار ، وكشخص ملهم ، بدا

كما لو كان يرتشف هواء الصباح ، ويتألق فى أشعة الصبـاح ، فتفرس البحارة فيه وهم معجبون ، فتقـدم نحو طرف السفينة وشخص ببصره فى زرقة البحر العميق ، وراح يشدو وهو يعزف على قيثارته فقال : « يارفيق صوتى ، اصطحبنى إلى مملكة الأشباح ، وحتى لو تذمر كربروس ، فنحن نعلم أن الغناء يستطيع بتأثيره أن يروضه ويزيل حنقه ، يا أبطال اليسيوم (Elisium) الذين اجتازوا الفيضـان المعتم ـ أيتهـا الأرواح السعيدة، سأنضم إلى طغمتكم عاجلا ، ولكن أنى استطاعتكم تخفيف حزنى ؟ واحسرتاه ، إنى تارك صديقى من بعدى ، أنت يامن وجدت عزيزتك يوريديكا ، وفقدتها ثانية بمجرد أن وجدتها ، حينما اختفت كحلم ، لشد ما كان بغضك للنور البهيـج ! لامناص من الرحيل ، ولكنى لن أخاف ، الآلهـة تزدرينا ، فأنتم يامن ستقضون على دون جريرة ، ستنخلع مفاصلكم وتأخذكم الرعشة بعد فنائى ياحوريات النرايد ، استقبلن ضيفكن الذى يلقى بنفسه ملتمسا منكن الرحمة ! » وحين قال هـذا ألقى بنفسه فى اليم ، فتلقفته الأمواج ، واستمر البحـارون فى سيرهم ، متوهمين أنهم قد أمنوا كل خطر للكشف عن جريمتهم .

ولكن أنغام موسيقاه كانت قد جذبت حوله سكان البحر لسماعه ، وتبعت ثدييات الدولفين السفينة كما لو كانت مشدودة إليها بسلاسل مسحورة، وإذ هو يصارع الأمواج عرض عليه دولفين ظهره ليركبه ، فامتطاه ومن ثمة حمله فى أمان إلى الشاطىء ، وفى البقعة التى رسا عندها ، أقيم بعد ذلك تمثال من النحاس على الشاطىء الصخرى لإحياء ذكري الحادث .

وعندما افترق أريون عن الدولفين ، وذهب كل منهما إلى عنصره ، أعلن عن شكره قائلا: « وداعا أيتها السمكة الصديقة الأمينة ! ليتنى أستطيع مكافأتك ، ولكنك عاجزة عن أن تضربى فى الأرض معى، كما أنى عاجز عن جوب البحار معك ، فرفقتنا غير ميسورة ، فليت جلاتى (Galatea) ملكة البحر، تؤثرك بعطفها ، فتجرى أنت ، يا من تفخري بحمل الأثقال ، مركبتها فوق مرآة البحر المصقولة الناعمة . »

وأسرع أريون مبتعدا عن الشاطىء ، وسرعان ما برزت أمامه حصون كورنثا ، فغذ السير ، وقيثارته فى يده ، وهو يغنى خلال مسيره ، وقد امتلأ قلبه بالحب والسعادة ، ونسى خسائره ، غير مفكر إلا فيما تبقى له وهما صديقه وقيثارته فتلقته قاعات القصر بالترحاب ، وتلقاه برياندر بالأحضان ، فقال له : « لقد عدت إليك يا صديقى ، فالموهبة التى أنعم بها إله أضفت السرور على آلاف ، ولكن الخدم الأوغاد المخادعين سلبوا كنزى الذى حصلت عليه باستحقاق، ولكنى محتفظ ، على الرغم من ذلك ، بالشهرة المستفيضة » ثم أخبر برياندر عن جميع الأحداث العجيبة التى وقعت له ، فسمعها وهو فى غمرة من العجب ، وصاح قائلا : « أمثل هذا الشر يذكو ويفوز ؟ إذن عبث تلك السلطة التى فى يدى ، وكى نكتشف المجرمين ، عليك أن تبقى هنا مختفيا ، وبذلك يحضرون دون أن يتوجسوا شرا » وعندما وصلت السفينة إلى المرفأ ، استدعى البحارة للمثول أمامه ، وسألهم قائلا : « أسمعتم أي شىء عن أريون ؟ إنى أرقب عودته فى تلهف » فأجابوا قائلين : « تركناه موفقا مزدهرا فى تارنتوم » وحين نطقوا بهذه الكلمات برز إليهم أريون وجها لوجه ، وقد سربل أعضاء بدنه المتناسقة بالذهب والأرجوان ، الذى يسر الناظرين ، وتدلت عباءته من حوله فى ثنيات بديعة ، وزينت الجواهر ذراعيه ، وتوج جبينه إكليل ذهبى ، وتهدل شعره المعطر على عنقه وكتفيه ، وأمسك القيثارة بيده اليسرى ، وباليمنى العصية العاجية التى يضرب بها الأوتار ، فسقطوا على وجوههم عند قدميه ، كما لو كانت قد أصابتهم صاعقة ، ثم صاحوا قائلين : « قصدنا قتله فأصبح إلها ، فانفغرى أيتها الأرض وابتلعينا »... حينئذ قال برياندر : « هو حى وهو سيد النغم ! فالإله الكريم حفظ حياة الشاعر ، أما أنتم فلن آخذكم بروح الانتقام ، ذلك لأن أريون لا يريد إراقة دمائكم ، أغربوا عنا يا عبيد الجشع ! انشدوا بلادا همجية تعيشون فيها ، وليكن العناء نصيب أرواحكم فلا يبهجها شىء على الإطلاق ! »

***

ويصور سبنسر فيما يلى أريون ، ممتطيا ظهر الدولفين ، وسائرا فى معية نبتونا وأمفتريتا .

« وعندئذ طرق السمع صوت سماوى رائع
لموسيقى شجية جاءت فى الأعقاب ،
وفوق المياه المتعالية ، كأنه متوج
أقبل أريون بقيثارته ، وقد جذب إليه
أسماع وقلوب جميع النوتية الدمثى الطباع ،
بل إن الدولفين الذي حمله فوق ظهره
مجتازا بحار ايجه ، مبتعدا عن القراصنة
كف عن الحراك ، مبهورا بروعة أنغامه ،
وفى نشوة السرور نسيت البحار الهائجة هديرها . »

* * *

وأشار بيرون فى قصيدته « الشاب الباسل هرولد » المجموعة الثانية إلى قصة اريون ، حينما راح يصف رحلته البحرية ، فصور أحد البحارة وهو يعزف لتسلية الآخرين :

« لقد بزغ القمر ، وحق السماء إنه لمساء بهيج
فتيارات من النور تنساب فوق الأمواج الراقصة ،
والآن فليتنهد الغلمان على الشاطىء ولتؤمن الفتيات
أن هذا سيكون مصيرنا حين نعود إلى اليابسة !
وكأن يد أريون ، حينذاك ، دون استقرار أو كلل
تثير الأنغام المتوافرة التى يتعشقها الملاحون
فتلتف جماعة من السامعين المرحين وينصتون ،
أو يرددون لحنا مشهورا فيه يشتركون ،
غير مكترثين لشىء كأنهم على الشاطىء يقصفون .

* * *

ابيكوس

إنه لزام، لفهم قصة ابيكوس التالية ، أن نذكر أولا أن مسارح القدماء كانت مبانى هائلة تسع من عشرة آلاف إلى ثلاثين ألفا من النظارة ، إذ كانت هذه الدور تستخدم فقط فى مناسبات الأعياد ، ويصرح لجميع الشعب بارتيادها ، كانت تمتلىء عادة ، وكانت بغير أسقف ومكشوفة للسماء ، وكان العرض يتم فى وضح النهار ، وثانيا أن الصورة المخيفة لإلاهات الغضب غير مبالغ فيها بالقصة ، ودون أن ايسكيلوس ، شاعر المآسى ، صور فى إحدى المناسبات إلاهات الغضب فى جوقة من خمسين ممثلا ، ففزع المشاهدون حتى إن كثيرين منهم أغمى عليهم وتقلصت أطرافهم ، فحرم المسئولون أى عرض مماثل فى المستقبل .

وكان ابيكوس ، الشاعر التقى ، فى طريقه إلى سباق العجلات الحربية والمباريات الموسيقية المقامة فى خليج كورنثا ، التى اجتذبت إليها كل المنحدرين عن أصل إغريقى ، وكان أبوللو قد أنعم عليه بموهبة الغناء ، وبشفتى الشاعر التى تقطر شهداً ، وواصل سيره بخطا خفاف ، والإله هاديه ، وبرزت للعيان حصون كورنثا عالية متشامخة ، وولج دغل نبتونا المقدس فى هيبة وتقوى ، ولم يكن على مرمى البصر أى كائن حى سوى سرب من طيور الكراكى راح يحلق فوق رأسه متخذاً نفس طريق الشاعر فى هجرة السرب إلى مناخ الجنوب ، فصاح قائلا : « أرجو لك أيتها الطيور حظاً سعيداً ، يا رفاقى عبر البحر ، إنى متفائل برفقتك ، فكلانا قادم من بعيد ينشد كرم الوفادة ، فحبذا لو لاقى كل منا ذلك الترحيب الذى يقى الضيف الغريب من الأذى ! » .

فواصل السير حثيثا ، وسرعان ما أصبح وسط الغابة ، وعلى حين بغتة برز لصان ، عند ممر ضيق ، وقطعا عليه الطريق ، وكان لا مناص له من الاستسلام أو القتال ، ولكن إذ كانت يده معتادة عزف القيثارة لا حمل السلاح فقد سقط خائرا مخذولا ، فاستغاث بالبشر والآلهة ، ولكن صراخه لم يصل إلى مسامع من يدفع عنه الأذى ، فقال : « إذن لا مفر من أن أموت هنا ، فى

بأرض غريبة ، غير مبكي علي ، ذبيحا بيد الخارجين على القانون ، وما من أحد يأخذ بثأري » . ثم خر على الأرض مثخنا بالجراح ، ودوت صرخات الكراكي من فوق رأسه ، فقال : « ارفعي أنت شكايتي أيتها الكراكي ، مادام لم يستجب لصراخي سوي صوتكم » . وحين قال هذا أغلق عينيه وأسلم الروح .

وعثر على الجثة ، وهي أشلاء معراة ، وعلى الرغم من تشويهها بالجراح فقد تعرف عليها صديقه في كورنثا ، الذى كان سينزل ضيفاً عليه ، فصاح قائلا : « أعلى هذه الصورة أجدك في عودتك إلى ؟ أنا الذى وددت أن أتوج هامتك بإكليل الغار في مباراة الغناء ! » .

وسمع الضيوف المجتمعون بالحفل الأنباء في امتعاض شديد ، فأحس جميع سكان بلاد اليونان ألم الجرح ، وأحس كل قلب مدي الخسارة ، فتزاحموا حول مجلس القضاء الأعلى مطالبين بالانتقام من القتلة وإهدار دمهم .

ولكن أي أثر أو أية علامة ستكشف عن الجاني من بين الحشد الكبير الذى اجتذبه بهاء الحفل ، وهل وقع بأيدى اللصوص ، أو هل قتله عدو شخصي ؟ الشمس الكلية الأبصار هي وحدها التي تستطيع الرد ، فلم تر أي عين ما حدث ، ولكن من المحتمل أن القاتل يسير الآن وسط الزحام ويستمتع بثمار جريمته ، ولعله يتحدى الآلهة في ساحة معبدهم ، مختلطا دون تحرج بهذا الجمهور من الناس الذين يقتحمون المدرج الآن .

فالناس أنذاك كانت تتزاحم ، والجماهير تملأ المقاعد ، صفاً فوق صف ، حتى بدا كأن المبنى نفسه سيتداعى ، وكانت جلبة الأصوات تدوى كهدير البحر ، بينما تتسع الدوائر في ارتقائها صفاً فوق صف ، كما لو كانت ستصل إلى السماء .

وآنئذ أخذ الحشد الهائل ينصت للصوت الرهيب الصادر من الجوقة التى تمثل إلاهات الغضب ، التى تقدمت في تنكر مخيف بخطا متسقة ، وراحت تتحرك حول دائرة المسرح ، أميسور أن من تتألف منهن هذه الجماعة الرهيبة نساء من بنات البشر ، أو أن يكون هذا الحشد الكبير من الشخوص الصامتة كائنات حية ؟

وكانت المرنمات ، وهن ملتحفات بالسواد ، يحملن في أيديهن النحيلة المعروقة ، مشاعل يندلع منها لهيب القطران ، وكانت خدودهن شاحبة لا دم فيها ، وعوضا عن الشعر كانت تلتف حول جباههن حيات تلتفش وتتلوى ، وإذ انعقدت هذه الكائنات المرعبة في دائرة ، راحت ترفع العقيرة بترانيمها ، فشقت قلوب المجرمين شقا ، وغلت جميع قدراتهم بالأصفاد ، ثم علت ودوت ، حتى أخفتت صوت الآلات ، فاغتصبت القضاء ، وشلت القلب ، وخثرت الدم .

« مغبوط هو الإنسان الذي يحفظ نفسه نقيا من المعصية والجريمة ! فلن نمسه نحن المنتقمات ، ويجتاز طريق الحياة بمأمن منا ؛ ولكن تبا له ! تبا له ! ذلك الذي ارتكب جريمة القتل خفية ، فنحن أسرة الليل المفزعة نقحم أنفسنا على كيانه بأ كمله ، أيظن أنه يفلت منا بفراره ؟ نحن في المطاردة أكثر إسراعا ، نلف حياتنا حول قدميه ، ونلقي به أرضا ، نطارد دون كلل أو ملل ، ولا تعوقنا رحمة أو شفقة ، نسير قدما متعقبات أثره ، حتى خاتمة حياته ، دون أن نهبه سلاما أو راحة » ... هكذا أنشدت إلاهات الغضب ، وتحركن في إيقاع رهيب ، بينما خيم سكون كسكون الموت ، فوق الحشد كله ، كما لو كان الجميع في حضرة كائنات فوق البشر ، وإذ أتممن دورة المسرح في خطوات رتيبة رهيبة خرجن من خلف المنصة .

نخفق كل قلب وهو نهب مقسم بين الحقيقة والخيال ، ولهث كل صدر برعب لا يوصف ، متخاذلا أمام القوة الرهيبة التي تلاحظ الجرائم الخفية ، وتدير عجلة القدر بعيدة عن الأنظار ، وفي تلك اللحظة انطلقت صرخة من إحدى المقاعد بأعلى المسرح — « انظر ! انظر ! هاك ياصاح كراكا ! » . . . وبغتة ظهر شيء أسود يسبح عبر السماء ، ولدى تمعنه لحظة اتضح أنه سرب من الكراكى يطير فوق المسرح مباشرة ، كراكى ايبكوس ! أقال هذا ؟ » . . . فأحيا الاسم المحبوب الشجن في كل قلب ، وكما تعقب الموجة الموجة على وجه البحر ، هكذا انتقلت من فم لفم كلمات : « كراكى ايبكوس ! ايبكوس الذي انتحب عليه

جميعا ، الذى قضى عليه قاتل أثيم ! أى شأن للكراكى معه ؟ » وزادت جلبة الأصوات ارتفاعا ، بينما مرقت الفكرة ، كومضة البرق ، داخل كل قلب ، — «لاحظوا ما لإلاهات الغضب من سلطان ! سيؤخذ ثأر الشاعر التقى ! لقد وشى القاتل ضد نفسه ، اقبضوا على الرجل الذي أطلق هذه الصيحة ، وعلى الآخر الذى خاطبه ! » .

وتمنى الجانى ، بجدع الأنف ، لو أنه استطاع أن يسحب كلماته ، ولكن الفرصة كانت قد ولت ، وكشفت وجوه القتلة ، بشحوب الفزع الذى كساها عن جريمتهم ، فساقهم الناس إلى القاضى ، حيث اعترفوا بجرمهم ، ونالوا القصاص الذى يستحقونه .

سيمونديس

كان سيمونديس من أعظم قدامى شعراء اليونان المكثرين ، ولكن لم يصل إلينا من أشعاره سوى أشتات قليلة ، فدون تراتيل وملاحم حماسية ومراثى ، وبز أقرانه بصفة خاصة فى الضرب الأخير من إنتاجه ، فعبقريته يغلفها الشجن ، ولم يكن لها مثيل فى مس أوتار العطف الإنسانى بصدق وحرارة ، فأشعاره « نحيب دناى (Danae) » وهى أهم أشتات أشعاره المتبقية ، تقوم على أساس قصة متواترة تقول إن دناى وابنها الطفل وضعا فى صندوق بأمر أبيها اكرسيوس (Acrisius) وألقى بالصندوق فى اليم يحمله التيار أنى شاء ، فطفا الصندوق ميمما شطر جزيرة سيريفوس (SeriPhus) ، حيث أنقذهما دكتيس الصياد ، وحملهما إلى بوليدكتيس (Polydectes) ، ملك البلاد ، الذى استقبلهما وأسدل عليهما حمايته ، وعندما شب الطفل برسيوس واشتد عوده أصبح بطلا ذائع الصيت ، وقد سجلت مغامراته فى فصل سابق .

وقضى سيمونديس شطراً كبيرا من حياته فى قصور الأمراء ، وكثيراً ما استخدم مواهبه فى المديح وأهازيج الأعياد ، وتناول مكافآته من العطايا السخية التى كان يغدقها عليه أولئك الذين كان يشيد بمغامراتهم ، ولم يحط هذا الاستخدام

من قدره ، ولكنه يشبه تماما ما كان يعمد إليه شعراء الموسيقى الأقدمون ، مثل ديمودكس (Demedocus) الذى وصفه هوميروس . أو مثل هوميروس نفسه ، كما دون فى الأحاديث المتواترة .

وفى إحدى المناسبات ، حين كان مقيما بقصر سكوبس (Scopas) ملك تساليا ، رغب إليه الملك أن يعد قصيدة يشيد فيها بمغامراته ، لإلقائها فى مأدبة ، وكى ينوع موضوعه ، أدخل سيموندس ، الذى اشتهر بتقواه ، مغامرات كاستور وبولكس ، فى شعره ، ولم تكن مثل هذه الزيادات غير مألوفة بين الشعراء فى المناسبات المماثلة ، وكان المفروض أن يشرح صدر أى بشرى مشاركته للمديح الذى يضفى على أبناء ليدا ولكن قاتل الله الغرور ، فبينما كان سكوبس جالسا على منصته بالمأدبة ، ومن حوله رجال بطانته ومهرجوه ، استنكر كل بيت من الشعر لم يشد بمديحه ، وعندما تقدم سيموندس لتسلم جائزته الموعودة ، دفع سكوبس نصف المبلغ المنتظر فقط وهو يقول : « هاك أجر نصيبى من إنتاجك ، وسيعوضك كاستور وبولكس دون شك على الكثير الذى نسبته إليهما ».. فعاد الشاعر المخذول إلى مقعده وسط عاصفة من الضحك أعقبت دعابة الرجل العظيم ، وبعد فترة قصيرة وصلته رسالة بأن شابين ممتطياً كل منهما صهوة جواده ينتظرانه خارجاً ، راغبين فى رؤيته ، فهرول سيموندس إلى الباب ، ولكن بحثه عن الزائرين ذهب أدراج الرياح ، ولكنه ما كاد يغادر قاعة المأدبة حتى خر السقف على من فى القاعة بدوى شديد ، فدفن سكوبس وكل ضيوفه تحت الأنقاض ، وبالتحرى عن الشابين اللذين بعثا يطلبانه استوثق سيموندس بأنهما لم يكونا سوى كاستور وبولكس بقضهما وقضيضهما .

سافو

كانت سافو شاعرة ازدهرت فى عهد مبكر جداً من تاريخ الأدب اليونانى ، ولم يبق من مؤلفاتها سوى أشتات قليلة ، ولكنها كافية لأن تدعم حقها كشاعرة عبقرية عظيمة ، ويشار عادة إلى قصة سافو بأنها أحبت إلى حد الوله

شابا وسيما يدعى فاون (Phaon) وإذ عجزت عن أن تحظى باستجابة لحبها ، ألقت بنفسها فى البحر من فوق مرتفع ليوكديا (Leucadia) متأثرة بخرافة تقول : إن أولئك الذين يقومون «بقفزة العاشق» يشفون من أسقام حبهم مالم يلاقوا حتفهم .

* * *

ويشير بيرون إلى قصة سافو فى قصيدته « الشاب الباسل هرولد » المجموعة الثانية :

أبحر الشاب الباسل هرولد مجتازاً البقعة الجرداء
حيث مدت بنلوبا الحزينة بصرها عبر الأمواج
فلمحت الجبل أمامها ، ولم تكن قد نسيت بعد ،
ملاذ العاشق ومقبرة جزيرة لسبوس .
أى سافو المكتئبة ! ألا يستطيع الشعر الخالد
إنقاذ ذلك الصدر المضطرم بمثل هذه النار الخالدة؟

* * *

وكان مساء يوم خريفى لطيف ببلاد اليونان
فهتف هرولد الباسل حين رأى رأس ليوكديا من بعيد .

* * *

وعلى من يرغبون فى معرفة المزيد عن سافو و « قفزتها » أن يعودوا إلى صحيفة سبكتاتور « Spectator » العددين ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، وعليهم أيضا أن يطلعوا على قصيدة مور الشاعر « أمسية فى بلاد اليونان » .

* * *

الفصل السادس والعشرون

أنديميون — أوريون — أورورا وتثونس

اكس وجلاتيا

كان أنديميون شابا وسيما يرعى قطيعه فوق جبل لتموس ، وفي ليلة هادئة صافية ، تطلعت ديانا إلاهة القمر من عليائها ورأته نائماً ، فبعث جماله الفائق الدفء إلى قلب الإلاهة العذراء البارد ، فهبطت إليه ، وقبلته ، وقامت على حراسته فى أثناء نومه .

وثمة رواية أخرى تزعم أن جوبتر أنعم عليه بالشباب الدائم مقرونا بالنوم المتواصل ، ولا يمكن أن يكون لشخص بمثل هذه المواهب سوى مغامرات قليلة ندونها ، وقيل إن ديانا حرصت على ألا تتضاءل ثروته بسبب حياته الخاملة ، إذ أذكت قطيعه ، وحمت خرافه وحملانه من وحوش الغاب .

وقصة أنديميون ذات سحر خاص ينبعث من المغزى الإنسانى الذى يسدل عليه نقاب صفيق خفيف ، فترى فى الشاعر الشاب أنديميون ، خياله وقلبه يبحثان عبثا عما يمكن أن يكون فيه إرضاؤها ، فيجد أن أحب الساعات إليه هى فى ضوء القمر الهادئ ، وهناك تحت أشعة الشاهد المنير الصامت يروح يرعى الشجن والشوق اللذين يقضيان عليه ، والقصة توحى بحب شعرى ملهم ، وحياة صرفت فى الأحلام أكثر من الواقع ، وميتة مشتهاة مبكرة .

* * *

وقصيدة «أنديميون» لـكيتس من القريض الخيالى السائب ، الذي يحوي بعض الشعر الشائق ، إلى القمر ، كما يلى :

« . . . . الأغنـام النـائمة .
رابضة فى لألائك تحـلم بحقول إلهية .
جبـال لا تحصى تعـلو وتعـلو ،
طامعـة فى نظـرة من عينيـك ،
ومع ذلك فبركـتك لا تغفـل
مخبـأ مغمـوراً أو بقعـة صغيرة
حيث يمكن بعث السرور ، فالصفراغون المفرد
يحظى بوجهك الجميـل فى عشه الهـادئ »

* * *

ويشير دكتور يونج فى قصيدته « أفكار المساء » إلى أنديميون ، كما يلى :

« . . . هذه الأفكار ، ياليل ، أفـكارك ،
لمنك انبثقت كتنهدات العاشقين الخفية ،
والآخرون نيام . وهكذا كنثيا ، كما يزعم الشعراء ،
المتسللة من عليـائها ، فى غلالة من الظلال ،
للاحتفاء براعيها ، فـكان نصيبه من حبها
أقل من نصيبي منك . »

* * *

ويقول فلتشر فى « الراعية الأمينة » :

كيف أن فوبا الشاحبة ، وهى تصطاد بالأحراش ،
رأت الغلام أنديميون لأول مرة ، ومن عينيه

قبست ناراً خالدة لا يخبو أوارها ،
وكيف نقلته فى رقة ، وهو نائم ،
وجبهته مشدودة بالخشخاش إلى قمة
لتموس العتيق المرتفع ، حيث تهبط كل ليلة ،
مموهة الجبل بضوء شقيقها الذهبى ،
كى تلثم أعز الكائنات إليها . »

* * *

أوريون

كان أوريون ابناً لنبتونا ، وكان عملاقاً حسن الصورة ، وصياداً كبيراً ، ومنحه أبوه القدرة على الخوض فى أعماق البحر ، أو كما يزعم البعض ، على السير فوق سطحه .

وأحب أوريون ميروبا (Merope) ابنة الملك أنوبيون (OEnoPion) ملك خيوس (Chios) وراح يطلب يدها ، فطهر الجزيرة من الحيوانات المتوحشة ، وقدم غنائم الصيد كهدايا لحبيبته ، ولكن لما كان أنوبيون يرجىء موافقته دائماً ، حاول أوريون أن يستحوذ على الفتاة بالإكراه ، فاستشاط والدها غضباً لهذا السلوك ، ومن ثمة سلبه بصره بعد أن أثقل عليه بالشراب ، وقذف به إلى شاطىء البحر ، فتبع البطل الذى سملت عيناه ، صوت مطرقة كيكلوس حتى وصل إلى لمنوس ، وجاء إلى مصنع حدادة فولكان ، الذى رثى لحاله ، وأعطاه واحداً من رجاله اسمه كداليون ، ليرشده إلى موطن الشمس ، فحمل أوريون مرشده كداليون على كتفيه ، وسار قدما صوب الشرق ، وهناك حين قابل إله الشمس ، استرد بصره بأشعته .

بعد ذلك عاش كصياد مع ديانا ، وأصبح أثيراً عندها ، حتى قيل إنها كانت على وشك الزواج به ، فاستاء أخوها أشد الاستياء ؛ وكثيراً ما وبخها ولكن

دون جدوى ، وفى أحد الأيام ، إذ كان أبوللو يشاهد أوريون يخوض وسط البحر ، ورأسه فقط فوق الماء ، أشار إليه لشقيقته ، واستثارها بقوله إنها لا تستطيع إصابة ذلك الشيء الأسود فوق سطح البحر ، فرمت الإلاهة القواسة بسهم قاتل أصماه ، وحملت الأمواج جثة أوريون إلى البر ، فانتحبت ديانا لغلطتها القاتلة وبكت بدموع غزيرة ، ثم أجلسته بين النجوم ، حيث يظهر كعملاق ، بزنار ، وحسام ، وجلد أسد وهراوة ، وكلبه سريوس (Sirius) يتبعه ، ونجوم الثريا (Pleiads) تعدو أمامه .

وكانت الثريا بنات لأطلس ، وحوريات فى بطانة ديانا ، وفى يوم ما رآهن أوريون فشغف بهن وراح يلاحقهن ، فلما ضاق بهن الأمر تضرعن إلى الآلهة كى تغير أشكالهن ، فأشفق جوبتر عليهن ، وحولهن إلى حمامات ، ثم جعلهن مجموعة من النجوم فى السماء ، وعلى الرغم من أن عددها سبع ، فست منها فقط هى الظاهرة ، ذلك لأن الكترا (Electra) ، وهى إحداها على حد ما قيل ، هجرت مكانها حتى لا تشاهد خراب طروادة ، تلك المدينة التى أسسها ابنها دردنوس (Dardanus) ، وكان للمنظر من الأثر على شقيقاتها ما جعلها تبدو شاحبة منذ ذلك الحين .

* * *

ولمستر لونجفللو قصيدة عن « احتجاب أوريون » ، ويشير فى السطور التالية إلى القصة الأسطورية ، ولزام علينا أن نستهل بالقول إن كرة أوريون السماوية تصور متسربلة بجلد أسد ، ورافعة هراوة ، وفى اللحظة التى تختفى فيها نجوم المجموعة ، واحدة إثر الأخرى ، فى ضوء القمر يقول الشاعر :

« سقط جلد الأسد الأحمر
فى النهر عند قدميه ،
وهراوته الغليظة لم تعد تضرب
جبهة الثور ، ولكنه تهاوى

بجانب البحر ، كما كان قديما ،
وعندما سمل أنوبيون عينيه
بحث عن الحداد فى مصنعه
وإذ ارتقى الممر الجبلى الضيق
ثبت عينيه الخامدتين فى الشمس

* * *

ولتنيسون نظرية مختلفة عن الثريا :

« رأيت الثريا عدة ليال تتهاوى وسط الظل الظليل ،
تتألق كسرب من الحباحب أطبقت عليه جدائل فضية . »

* * *

ويشير بيرون إلى نجمة الثريا المفقودة فيقول :

« كنجمة الثريا المفقودة لم تعد ترى من تحت . »

* * *

طالع أيضا أشعار مسز هيمان عن نفس الموضوع .

أورورا وتثونس

كانت إلاهة الفجر ، مثل شقيقتها إلاهة القمر ، تقع أحيانا فى حب بنى البشر . وكان أعز الناس إليها تثونس بن لاومدون ملك طروادة ، فاختطفته وأغرت جوبتر على أن يمنحه الخلود ، ولكنها إذ نسيت أن تطلب له الشباب مع الخلود ، ابتدأت بعد حين تدرك وهى ذليلة حزينة ، أن الشيخوخة أخذت تدب إلى جسمه ، وقد هجرته حين اشتعل رأسه شيبا ، ولكنه ظل يعيش فى قصرها ، ويتناول طعام الآلهة ، ويرتدى ثياب السماويين ، وأخيرا فقد

القدرة على استخدام أعضاء بدنه ، فحبسته فى غرفته ، حيث كان صوته الخافت الضعيف يسمع فى بعض الأحيان ، وأخيرا مسخته إلى جندب .

وكان ممنون ابنا لأورورا وتثونس، وهو ملك الأثيوبيين ، فعاش فى أقصى الشرق ، على ساحل المحيط ، وقد حضر مع رجاله المحاربين لمساعدة أقرباء والده فى حرب طروادة ، فاستقبله الملك بريام (Priam) أحسن استقبال ، وأنصت ، فى إعجاب إلى روايته عن أعاجيب ساحل المحيط .

وعقب وصول ممنون ، سار بجنوده فى نفس اليوم إلى ساحة القتال ، إذ كان قد ضاق ذرعا بالراحة ، فخر انتيلوخوس (Antilochus) بن نسطور الباسل ، صريعا بيده ، وراح اليونانيون يلوذون بالفرار عندما ظهر أخليس واسترد الموقعة ، فنشبت ملحمة طويلة غير مستقرة بينه وبين ابن أورورا ، وأخيراً عقد لواء النصر لأخليس ، وسقط ممنون فى ساحة الوغى ، وفر أهل طروادة مذعورين .

وحين رأت أورورا ، فى هلع ، وهى مشرفة من السماء ، الخطر المحدق بابنها ، حين شاهدته يسقط فى ميدان الحرب ، وجهت إخوته ، الرياح ، لنقل جثمانه إلى شواطىء نهر اسبوس فى بفلاجونيا ، وفى المساء أقبلت أورورا تصحبها الساعات(١) والثريا ، وبكت ابنها فى نشيج ونحيب ، واشترك الليل معها فى أساها ، ومن ثمة غطى السماء بالغمام وناحت الطبيعة كلها على إلاهة الفجر ، وأقام الأثيوبيون قبره على شواطىء الينبوع فى دغل الحوريات ، وحول جوبتر شرر محرقته الجنائزية ورمادها إلى طيور ، وحالما انقسمت إلى سربين أخذت تتقاتل فوق المحرقة حتى سقطت فى اللهيب ، وتعود كل عام يوم ذكرى وفاته للاحتفال بمأتمه بنفس الطريقة ، ولكن أورورا لا تزال ترفض العزاء ولا تزال دموعها تنهمر ، ويمكن رؤيتها فى الصباح الباكر ، على هيئة قطرات من الندى فوق الحشائش .

وعلى خلاف معظم غرائب الأساطير القديمة ، لا تزال هناك بعض الآثار التى

(١) مجموعة من النجوم .

تذكرنا بهذه الأسطورة ، فعلى شواطىء نهر النيل فى مصر تمثالان ضخمان يقال إن أحدهما هو تمثال ممنون ، ويقول الكتاب الأولون إنه عندما كانت طلائع أشعة الشمس عند شروقها تقع على هذا التمثال ، كان يسمع صوت صادر يشبه رنة وتر القيثارة ، وهناك بعض الشك فيما يتعلق بتطابق الأوصاف بين التمثال الموجود وذلك الذى وصفه القدماء ، وأكبر الشك فيما يتعلق بالأصوات الخفية ، ولكن لا يتعذر وجود بعض الوثائق الحديثة التى تزعم أن هذه أصوات يمكن سماعها حتى الآن ، ويرون أن الأصوات التى يصدرها الهواء المحبوس عند انطلاقه من حنايا الصخور وفجواتها قد تكون هى التى أمدت هذه القصة ببعض دعامتها، وفحص سيرجرونر ويلكنسون ، وهو سائح وحجة فى هذه الشئون ، التمثال نفسه واكتشف أنه أجوف وأن « فى ثنية التمثال حجراً ، إذا دق صدر عنه صوت رنان مازال يمكن استخدامه لخداع زائر به ميل سابق لتصديق كراماته » .

وتمثال ممنون الصوتى موضوع أثير عند الشعراء للتنويه به ، ويقول دارون فى قصيدته « حديقة لعلم النبات » :

وهكذا إلى إله الشمس ، فى معبد ممنون ،
انبعثت ترنيمة الصباح ، متسقة من تلقاء نفسها ،
حين مسه ضوء مشرقه فاستجابت له مرددة ،
تلك القيثارة الحية ، التى اهتزت كل أوتارها ،
وأروقة المعبد المتناسقة تطيل تلك الأنغام الشجية ،
والأصداء المقدسة تزيد روعة النغم البديع ،

« السفر الأول — سطر ١٨٢ »

اكس وجلاتيا

كانت سكيللا عذراء جميلة من صقلية ، محبوبة من حوريات البحر ، وكان لها خطاب كثيرون ولكنها رفضتهم جميعاً ، وكانت تذهب إلى غار جلاتيا وتخبرها عما نالها من الاضطهاد ، وفى يوم ما بينما كانت سكيللا تصفف شعر الإلاهة ، أنصتت لقصتها وأجابتها قائلة : « ولكن مضطهديك ، يا فتاة ، ليسوا من صنف الرجال غير الدمث ، الذين لو شئت لاستطعت إبعادهم ، بينما أنا ، ابنة نريوس التى تحميها مثل هذه الطغمة من الشقيقات ، لم أجد مهرباً من نزوات الكيكلوبس إلا فى أعماق البحر » ... وخنقتها الدموع فكفت عن الكلام ، فأشفقت الفتاة على الإلاهة ، ومسحت دموعها بأصبعها الحانية ، وراحت تسرى عنها قائلة : « أخبرينى عن سبب أساك يا عزيزتى » عندئذ أجابتها جلاتيا قائلة : كان اكس ابنا لفونس من إحدى الحوريات ، وكان محبوباً من والديه جداً ولكن حبهما له لم يكن معادلا لحبى ، كان الشاب الوسيم متعلقاً بى فقط ، ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره ، وشاربه لم يكن قد طر بعد ، وبقدر ما كنت أنشد صحبته كان الكيكلوبس ينشد صحبتى ، فإذا سألتنى عما إذا كان حبى لاكس أو بغضى لبوليفيموس (Polyphemus) هو الأقوى ما استطعت إجابتك ، إذ كانا متعادلين ، أى فينوس يا لشد قوتك . فهذا المارد المفترس ، مرعب الغابات الذى لم يفلت من أذاه غريب منكود الحظ ، بل وتحدى جوبتر نفسه ، عرف كيف يختلج قلبه بالحب ، وإذ هام بى غراما نسى قطعانه وكهوفه المليئة بالخيرات ثم ابتدأ لأول مرة يعنى قليلا بمنظره ، ويحاول أن يصطنع دماثة الطبع ، فصفف خصلات شعره الخشن بمشط كبير وشذب لحيته بمنجل ، وتطلع إلى تقاسيم وجهه فى الماء ، وأصلح من شأنها ، وكف عن تعطشه إلى سفك الدماء ، وعن الافتراس والقتل ، كما أنه لم يعد يتعرض للسفن التى تمر بجزيرته ، بل كان يتركها فى أمان ، وكان يذرع شاطىء البحر جيئة وذهاباً ، وآثار أقدامه الضخمة تنطبع هناك ، فإذا أحس تعباً ، آوى إلى كهفه فى هدوء .

وهناك شاطىء صخرى يبرز داخل البحر ، الذى يلاطمه من الجانبين ، وفى

أحد الأيام صعد إليه الكيكلوبس الضخم ، وجلس هناك ، بينما انتشرت قطعانه من حوله ، وإذ وضع هراوته جانبا ، وكانت تصلح لأن تكون صاريا لسفينة، وأخذ آلته المكونة من عدد كبير من قصب المزمار ، ومن ثمة جعل الجبال والبحار تردد أصداء موسيقى أغنيته ، فاختفيت خلف صخرة بجانب محبوبى اكس ، وأنصت للنغمة البعيدة المليئة للمديح المفرط فى جمالى ، يخالطه التأنيب الشديد على برودى وقسوتى .

وعندما أتمها انتصب واقفا وراح يهيم فى الغابات مثل ثور هائج فلم تعره التفاتا ، اكس وأنا ، حتى جاء فجأة إلى بقعة هيأت له رؤيتنا ونحن جالسان ، فصاح قائلا : « هأنذا أراكما وسأجعل هذا آخر لقاء غرامى بينكما » وكان صوته زئيراً لايصدر إلاعن كيكلوبس غاضب فقط، فارتعشت اتنا من الصوت ، أما أنا فاستبد بى الفزع حتى وثبت إلى الماء ، وفر اكس هاربا وهو يصيح : « أنقذينى ياجلاتيا ، أنقذانى ياوالدى ! » فتبعه الكيكلوبس ، وقذفه بصخرة انتزعها من جانب الجبل ، فسحقته على الرغم من أن بعضها فقط هو الذى أصابه.

فقمت لاكس بكل ما تركه القدر فى طوقى أن أفعله ، فأنعمت عليه بمفاخر جده إله النهر ، فتدفق الدم القانى من تحت الصخرة ، ولكن الاحمرار أخذ يتضاءل شيئا فشيئا ، حتى بدى كجرى نهر عكرته مياه الأمطار ، وبعد حين أصبح رائقا ، فانشطرت الصخرة وانفغرت ، وحين انبثق الماء مندفعا من الشق ، صدر عنه خرير يسر السامعين .

وهكذا تحول اكس إلى نهر ، واحتفظ النهر باسم اكس .

* * *

وساق درايدن (ryden) فى ملحمته « كيمون وأفيجنيا » (Cymon and IPhigenia) قصة مهرج تحول إلى سيد مهذب بقوة الحب ، بطريقة تبين بعض العلاقة بينها وبين القصة القديمة عن جلاتيا والكيكلوبس :

ما لم تستطع عناية أبيه وفن مربيه
غرسه ، بالجهد والعناء فى قلبه غير المشذب ،
سرعان ما ألهمه إياه أفضل مهذب وهو الحب ،
مثل الأرض القاحلة حين تتفتح للخصب والنماء ،
فالحب علمه الحياء ، والحياء وهو يصارع الحب
علمه سريعا آداب الحيـاة الاجتماعية المدهشة .

• • •

الفصل السابع والعشرون

حرب طروادة

كانت منيرفا إلاهة الحكمة ، ولكنها قامت فى إحدى المناسبات بعمل بالغ الحماقة ، إذ دخلت مع يونو وفينوس فى مباراة لإحراز جائزة الجمال ، وقد وقع الحادث كما يلى : فى حفلة زفاف بليوس وثتيس ، دعيت جميع الآلهة ، ما عدا إريس (Eris) أو « الفتنة » ، وإذ غضبت هذه الإلاهة لاستبعادها ، ألقت بتفاحة ذهبية ، بين الضيوف ، منقوش عليها هذه العبارة : « إلى أجمل حسناء » ومن ثمة طالبت كل من يونو وفينوس ومنيرفا بالتفاحة كحق لها ، وإذ كان جوبتر غير راغب فى البت فى مثل هذا الأمر الدقيق ، فقد بعث بالإلاهات إلى جبل ايدا ، حيث كان باريس، الراعى الوسيم الطلعة ، يقوم على حراسة قطعانه ويعنى بها ، إذ أناط به أمر الفصل فى هذا الموضوع ، وعلى ذلك مثلت الإلاهات أمامه ، فوعدته يونو بالقوة والغنى ، ومنيرفا بالمجد والشهرة ، وفينوس بتزويجه لأجمل النساء ، محاولة كل منهن أن تؤثر عليه كى يفصل لصالحها ، فأصدر باريس قراره لصالح فينوس وأعطاها التفاحة الذهبية . وبذلك باء بعداوة الإلاهتين الأخريين ، وأبحر باريس تحت حماية فينوس ، إلى بلاد اليونان ، حيث استقبله منلوس ، ملك اسبرطة ، وأكرم وفادته ، وكانت هلن ، زوجة منلوس ، وأجمل بنات جنسها ، وهى عين المرأة التى جعلتها فينوس من نصيب باريس ، وكان الكثيرون قد تقدموا يطلبون يدها ، وقبل أن تفصح عن اختيارها ، أقسموا ، بناء على اقتراح أحدهم وهو يوليسيس ، أن يدفعوا عنا كل أذى ، وأن يقتصوا ممن يعترض رغبتها إذا لزم الأمر ، فاختارت منلوس ، وعاشت معه هانئة حين نزل باريس ضيفا عليهما ، وأغواها باريس ، بمعاونة فينوس ، على الفرار معه . فحملها إلى طروادة ، ومن ثمة نشبت حرب طروادة ، وهى موضوع أروع الملاحم الشعرية القديمة ، التى وضعها هوميروس وفيرجل .

فاستدعى منلوس إخوانه قواد اليونان للوفاء بوعدهم ، والانضمام إليه فى محاولاته لاسترداد زوجته ، نخفوا إليه ولكن يوليسيس الذي تزوج بنلوبا، وكان سعيداً جداً مع زوجته وطفله ، لم يكن راغباً فى الإبحار لمثل هذه المهمة المتعبة ولذلك تخلف متلكئاً ، وجاء إليه بلامديس يستحثه ، وحين وصل بلامديس إلى اتيكا ، تظاهر يوليسيس بالجنون ، فعاق حماراً وثوراً معاً بالمحراث ، وابتدأ يبذر ملحاً، وإذ أراد بلامديس أن يختبره ، وضع الطفل تليماك (Telemachus) أمام المحراث ، وعندئذ حول الوالد المحراث ليتفاداه ، فاتضح فى جلاء أنه لم يكن ملتاثا ، وبعد ذلك لم يستطع التمادى فى رفضه الوفاء بوعده وإذ ظفرت المهمة باشتراكه فى أدائها ، راح يساهم فى التأثير على القادة المتخلفين ، وبخاصة أخليس وكان هـذا البطل لثتيس التى ألقيت عند زفافها تفاحة « الفتنة » بين الإلاهات ، وكانت ثتيس نفسها حورية بحر من الخالدات ، ولعلمها أنه من المقدر أن يهلك ابنها أمام طروادة إذا اشترك فى الحملة ، حاولت جاهدة أن تمنعه من الذهاب ، فأبعدته إلى بلاط الملك ليكوميديس ، وحرضته على أن يتنكر فى زى فتاة بين بنات الملك ، وإذ سمع يوليسيس بوجوده هناك ، ذهب إلى القصر ، متنكراً كتاجر ، حيث عرض للبيع أدوات لزينة السيدات ، ووضع بينها بعض الأسلحة ، وبينما كانت بنات الملك لاهيات يستعرضن هذه الأدوات ، راح أخليس يختبر الأسلحة ، وبذلك كشف عن نفسه لعين يوليسيس الفاحصة الذى لم يصعب عليه كثيراً ، أن يحرضه على إغفال نصائح أمه الحكيمة والاشتراك مع مواطنيه فى الحرب .

وكان بريام ملكا على طروادة ، وباريس ، الراعى ومغوى هان ، ابنا له ، وشب باريس مغموراً ، إذ ثمة تكهنات مشئومة تتعلق به منذ طفولته ، زعمت أنه سيتسبب فى القضاء على المملكة ، وأخيراً بدا أن هذه التكهنات محتمل تحقيقها ، إذ كان التسليح ، القائم على قدم وساق ، باليونان آنذاك ، لم يسبق له نظير ، ووقع الاختيار على أجاممنون (Agamemnon) ملك ميكناى Mycenae وشقيق منلوس المجنى عليه ، ليكون قائداً أعلى للحملة وكان أخليس أبرز شخصية بين المحاربين ، ويليه أجاكس ، وكان عملاق الجرم موفور البسالة ،

ولـكنه متبلد الذهن ، أما ديوميدا (.Diomede) فلم يكن ليبزه فى كل صفات البطولة سـوى أخليس ، واشتهر يوليسيس بحصافته ، وكان نسطور أعرق قادة اليونان ، وممن يؤتى الحـكم فى بيته ، ولكن طروادة لم تكن عدواً هزيلا ، فبريام الملك كان قد طعن فى السن ، ولكنه كان حكيما ، فدعم دولته بحكم صالح فى الداخل ، ومحالفات عديدة مع جيرانه ، ولكن ابنه هكتور كان الدعامة الرئيسية الدائمة لعرشه ، وهو من أنبل الشخصيات التى صورها العـالم الوثنى القديم ، ساوره منذ البدء ، هاجس بسقوط بلاده ، ولـكنه ثابر على مقاومته الباسلة ، وإن لم يبرر الخطأ الفاحش الذى أوقعها فى هذا الخطر ، وكان مصاهراً لاندروماك (Andromache) وشخصيته كزوج وأب لم تكن أقل روعة من شخصيته كمقاتل جسور ، وكان زعمـاء قادة فريق طروادة ، بجانب هكتور هم اينياس ، وديفوبس ، وجلوكس ، وسربيدون .

وبعد عامين من الاستعداد للحرب ، احتشد الأسطول والجيش اليونانى بميناء أولس فى بثوتيا (Boeotia) ، وهنا خرج أجا ممنون للصيد فقتل غزالا تقدسه ديانا ، وفى مقابل ذلك أصابت الإلاهة الجيش بالوبأ ، ونشرت سكينة منعت السفن من مغادرة الميناء ، وعلى ذلك صرح كلخس (Calchas) العراف ، أن غضب الإلاهة العذراء لا يمكن تسكينه ، إلا بتضحية فتاة عذراء على مذبحها ، ولن تقبل الإلاهة ضحية سوى ابنة الجانى ، وعلى أية حال فقد رضى أجا ممنون ، وهو كاره ، ومن ثمة أرسل يستدعى ابنته أفيجينيا ، على زعم أنها ستزف إلى أخليس ، وإذ هى على وشك التضحية بها ، أشفقت الإلاهة عليها ، فاختطفتها وتركت ظبية مكانها ، وا كتنفت افيجينيا غمامة حملتها إلى توريس حيث نصبتها ديانا كاهنة على معبدها .

ويجعل تنيسون ، فى قصيدته « حـلم النساء الجميلات » ، أفيجينيا تصف مشاعرها ، فى لحظة التضحية بها ، فتقول :

« شاحِ منى الرجاء في هذا المكان الحزين
الذي تتقزز روحي من ذكر اسمه وتفزع ،
حين رفع أبى يده ليخفى بها وجهه ،
وانهمرت عبراتى فطمست على بصرى ،

. . .

ولما حاولت الكلام تحشرج صوتى بالتنهدات ،
وكما فى حلم ، استطعت أن أبصر دون وضوح
الملوك الصارمين بلحاهم السوداء وعيونهم المفترسة ،
وهم يرقبون رؤيتى حين أموت .

. . .

وكانت الصوارى العالية تهتز فى السفن الطافية ،
وبجانبها تراصت المعابد واحتشد الناس على الشاطىء
وغمد شخص سكينا حادا فى عنقى الغض
ببطء – ثم – لا شىء بعد ذلك . »

* * *

وأخيرا اعتدلت الريح ، فأبحر الأسطول ، ووصل بالقوات إلى شاطىء طروادة ، فأقبل جيش طروادة لصدهم عن النزول ، وفى أول ملحمة خر بروتيسلوس بيد هكتور ، وكان بروتيسلوس قد ترك بالوطن زوجته لودميا ، التى كانت شديدة التعلق به ، فلما وصلها نبأ موته ، توسلت إلى الآلهة ، كى تسمح لها بمخاطبته ثلاث ساعات فقط ، فاستجيبت طلبتها ، ومن ثمة أعاد مركيوري بروتيسلوس من العالم السفلى ، وحين مات للمرة الثانية ، ماتت لودميا معه ، وثمة قصة تزعم أن الحوريات غرسن أشجار الفرفار حول مقبرته ، فنمت وترعرعت وانتصبت على سيقانها مزدهرة ، حتى أطلت على طروادة ، ثم ذبلت ، وذوت ، بينما برزت أغصان جديدة من الجذور .

وقد اتخذ ورد سورث ، قصة بروتيسلوس ولودميا ، موضوعا لقصيدة ، ويبدو أن العراف صرح بأن النصر سيكون من نصيب الفريق الذى سيسقط منه أول ضحية فى الحرب ،فالشاعر هنا يصور بروتيسلوس ، فى عودته القصيرة إلى الأرض ، كما لو كان يروى لزجته لودميا ، قصة مصيره :

« هبت الريح المنشودة ، وعندئذ درت بسفينتى
لتحقيق النبوءة ، فوق البحر الساكن ،
مصمما ، إن لم يتقدمنى شخص أحق منى ،
أن تكون سفينتى ، من بين ألف سفينة ،
هى الأولى التى تمخر العباب إلى الشاطىء . —
ويكون دمى أول مايخضب رمال طروادة .

* * *

« ولكن مريرة تلك الغصة التى طالما أحسستها
حين كنت أفكر فى فقدك يازوجتى العزيزة !
وأيضا حين كانت ذاكرتى تحلق حولك فى شغف ،
وحول المباهج التى تقاسمناها فى الحياة الدنيا ،
والطرقات التى وطأناها — وتلك الينابيع والأزهار ،
ومدنى حديثة التخطيط ، والحصون التى لم تتم .

. . .

ولكن هل يسمح هذا التردد للأعداء بالتصايح قائلين :
«انظروا إنهم يرتعشون امع قواتهم المتراصة فى زهو
لايجرؤ أى واحد منهم على أن يتقدم للموت ؟ »
وفى أعماق الروح ، لاشيت هذا التحقير والسب ،
وعندئذ عادت هنات الماضى ملحة ، ولكن الفكر
الرفيع دفعنى للعمل فجسدت خلاصى ونفذته .

. . . : . . .

وعلى جانب هلسبونت (هذه الفكرة كانت سائدة)
نمت على الأجيال، طائفة من الأشجار الهرمية الشكل
منبثقة من قبر ذلك الذى ماتت زوجته لأجله،
وكلما تسامقت وبلغت فى ارتفاعها حداً
يمكنها من رؤية أسوار مدينة طروادة ، ذبلت
أعالى هذه الأشجار عند هذه الرؤية ،
وهكذا دواليك تعيد سيرتها الأولى من نماء ووباء.

* * *

الالياذة

استمرت الحرب تسع سنوات دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، ثم وقع حادث بدا من المحتمل أن يكون فيه القضاء على قضية اليونان ، وهو شجار نشب بين أخليس وأجاممنون ، وعند هذه النقطة تبتدىء ملحمة هوميروس الشعرية العظيمة « الالياذة » وعلى الرغم من أن اليونانيين لم يظفروا بطروادة ، فقد استولوا على المدن الحليفة والمجاورة ، وعند توزيع الغنائم ، كانت أسيرة ، تدعى خريسايس (Chryseis) ابنة خريسيس (Chryses) كاهن أبوللو ، من نصيب أجاممنون ، فجاء خريسيس حاملا شعار مركزه الكهنوتي المقدس ملتمساً إطلاق سراح ابنته ، فرفض أجاممنون . وعند ئذ ابتهل خريسيس إلى أبوللو كى يقتص من اليونانيين حتى يضطروا لتسليم فريستهم ، فاستجاب أبوللو لطلبة كاهنه ، وأنزل وبأ بالمعسكر اليوناني ، فانعقد مجلس للتفكير فى وسيلة لتسكين غضب الآلهة ، ولتوقى الطاعون ، فحمل أخليس ، فى جرأة ، أجاممنون تبعة هذه الكوارث التى وقعت بسبب احتفاظه بخريسايس . فاستشاط أجاممنون غضباً ، ووافق على التنحى عن أسيرته ، ولكنه اشترط أن يتنازل له أخليس ، بدلا منها ، عن بريسايس (Briseis) وهى فتاة جاءت من نصيب أخليس عند توزيع الغنائم ، فأذعن أخليس ولكنه سرعان ماصرح بأنه لن يشترك بعد ذلك

فى الحرب ، فسحب قواته من المعسكر العام ، وأعلن على رءوس الأشهاد ، عن نيته فى العودة إلى موطنه باليونان .

وشغل الآلهة والإلاهات أنفسهم فى هذه الحرب الشهيرة قدر ما انشغلت بها الأطراف المتنازعة ، وكان معروفا لديهم أن سقوط طروادة أمر كان مقضياً ، مادام أعداؤها سيثابرون ولا يتنحون طواعية عن حملتهم ، ولكن ثمة مجالا كبيراً كان متروكا للصدفة ، الأمر الذى جعل قوات السماء التى اشتركت ، مع كل من الفريقين ، نهباً مقسما بين الآمال والمخاوف ، فوقفت يونو ومنيرفا موقف العداء من أهل طروادة ، نظراً لاستخفاف باريس بمفاتنهما ، أما فينوس فقد حبتهم بعطفها لعكس هذا السبب ، وضمت فينوس المعجب بها مارس إلى الجانب نفسه ، ولكن نبتونا آثر الإغريق ، وكان أبوللو محايداً ، تارة ينضم إلى جانب ، وأخرى إلى الجانب الثانى ، وعلى الرغم من أن جوبتر نفسه كان يحب الملك الطيب بريام ، ولكنه آثر عدم الانحياز ، مع بعض الاستثناءات أحيانا .

واستاءت ثيتس ، أم أخليس ، كثيراً ، لما أصاب ابنها من أذى ، فتوجهت فوراً إلى قصر جوبتر ، والتمست منه أن يجعل اليونانيين يندمون على سوء معاملتهم لأخليس ، بمنح الظفر لجيوش طروادة ، وفى المعركة التى تلت ، حظيت قوات طروادة بنصر مبين ، بينما باء اليونانيون بالفشل ، ففروا من الميدان ولجأوا إلى سفنهم .

فدعا أجاممنون لعقد مجلس يضم أكثر قادته حصافة وبسالة ، فأشار نسطور بإرسال سفارة إلى أخليس لإقناعه بالعودة إلى الميدان ، وأن يقدم أجاممنون ، الفتاة موضع النزاع ، مع هدايا كثيرة ، للتكفير عن الخطأ الذى ارتكبه ، فقبل أجاممنون ومن ثمة أرسل يوليسيس وأجاكس وفونكس يحملون رسالة الندم والأنابة إلى أخليس ، فقاموا بتلك المهمة ، ولكن أخليس أصم أذنيه عن الإصغاء لتوسلاتهم ، فرفض فى إصرار أن يعود إلى ساحة القتال ، وعقد العزم على الإبحار إلى بلاد اليونان دون تأخير .

وكان اليونانيون قد أقاموا حصناً حول سفنهم ، والآن فبدلا من محاصرتهم لطروادة ، أصبحوا هم أنفسهم محاصرين داخل حصنهم ، وفي اليوم التالى للسفارة الفاشلة إلى أخليس ، نشبت معركة ، انتصر فيها أهل طروادة ، بمعونة جوبتر ونجحوا في شق طريق داخل الحصن اليونانى ، وكانوا على وشك إشعال النار بالسفن ، وحين رأى نبتونا اليونانيين على هذه الحال من الوهن والعناء ، خف لنجدتهم ، فظهر فى هيئة كلخس النبي ، وراح يشجع المقاتلين بالهتاف والصياح ، مستحثاً كلا منهم منفرداً ، حتى أثار تحمسهم إلى حد أن أكرهوا أهل طروادة على التخفيف من غلوائهم ، فأبدى أجاكس من أساليب البسالة ما يثير الحواس ويبهر الأنفاس ، وأخيراً التقى بهكتور ، فصاح به متحدياً ، وقبل هكتور التحدى ، وقذف المحارب الضخم برمحه ، وكانت الرمية جيدة التسديد فأصابت أجاكس فى مكان التقاء ، الحزام الذى يحمل سيفه بالحزام الذى يحمل درعه ، فوق صدره ، فصدها الحارس المزدوج ، وسقط الرمح دون إيذاء ، ثم أمسك أجاكس بحجر ضخم ، من تلك الأحجار التى تسند بها السفن ، وقذف به هكتور ، فأصابه فى عنقه ، وألقى به ممدداً فوق الشاطىء ، وسرعان ما حمله أتباعه . وذهبوا به ، وهو جريح غائب عن الوعى .

وبينما كان نبتونا يساعد اليونانيين على هذه الصورة ، ويرد الطرواديين على أعقابهم ، لم يلاحظ جوبتر شيئاً مما كان دائرا ، إذ صرفته يونو ، بحيلها ومفاتنها عن الاهتمام بساحة القتال ، فاستخدمت هذه الإلاهة كل مالها من أساليب الفتنة والجمال ، وتوجت هذا جميعه بأن استعادت من فينوس نطاقها المسمى كستوس (Cestus) الذى كان من أثره أن يزيد مفاتن من ترتديه إلى حد يجعل فتنتها لا يمكن مقاومتها ، وبعد أن تزينت يونو وتأهبت بهذه الصورة لحقت بزوجها الذي جلس فوق الأوليمبوس يراقب الموقعة ، وحين رآها ، كانت تبدو فاتنة حتى إن غرامه الباكر بها استرد أواره ، وإذ نسى الجيوش المتناحرة وغير هذا من شئون الدولة ، لم يعد يفكر إلا فى يونو ، وترك المعركة لحال سبيلها .

ولكن هذا الاستغراق لم يستمر طويلا ، فحالما حول بصره إلى أسفل ورأى هكتور ممددا على الشاطىء ، لا يكاد يحس ألماً أو كدوما ، أبعد عنه

يونو وهو حانق، وقد أمرها أن ترسل إليه اريس وأبوللو ، وعندما حضرت اريس بعث بها إلى نبتونا برسالة صارمة يأمره فيها أن يغادر ميدان القتال فورا ، كما بعث بأبوللو لإبراء هكتور من جراحه وإعادة الحياة إلى قلبه . فنفذت هذه الأوامر بسرعة كان من شأنها أنه بينما كانت المعركة لا تزال دائرة ، عاد هكتور إلى الميدان ، وحمل نبتونا نفسه إلى أملاكه .

وجرح باريس بسهم من قوس ، مخاءون (Machaon) ، بن اسكولابيس ، الذى ورث عن والده فن الشفاء ، ولذلك أصبح عظيم النفع لليونانيين كجراح ، إلى جانب كونه من أشجع المحاربين ، فأخذ نسطور مخاءون فى مركبته ونقله من الميدان ، وإذ كانا يمران بسفن أخليس ، رأى ذلك البطل ، حين كان يتطلع إلى الميدان ، مركبة نسطور ، وعرف القائد العجوز ، ولكنه لم يتبين ماهية القائد الجريح ، فاستدعى بتروكلس (Patroclus) رفيقه وأعز أصدقائه ، وبعث به إلى خيمة نسطور للاستفسار .

وحين وصل بتروكلس إلى خيمة نسطور ، شاهد مخاءون جريحا ، وبعد أن أفضى بسبب مجيئه ، كان عليه أن يعجل بالعودة ، ولكن نسطور احتجزه ، كى يطلعه على مدى الكوارث التى أحاقت باليونانيين ، وذكر أيضا أنه حين حل وقت مغادرتهما لطروادة ، أسدى إليهما ، والد أخليس ووالده ، نصائح متباينة : فينشد أخليس ذروة المجد ، بينما يرعى بتروكلس ، باعتباره الأرشد ، صديقه ويهديه سواء السبيل ، وقال نسطور : « الآن هو أوان هذا النفوذ ، فاذا شاءت الآلهة ، قد تكسبه ثانية لمناصرة الهدف المشترك ، فاذا لم توفق ، فلا أقل من أن تجعله يرسل جنوده إلى الميدان ، وتعال أنت يا بتروكلس مرتديا درعه ، فلعل منظر الدرع وحده يصد الطرواديين .. »

فكان لخطابه على بتروكلس أكبر أثر ، ومن ثمة خف عائدا إلى أخليس ، وأفضى إليه بكل ما رآه وسمعه ، فأطلع الأمير على سوء حالة معسكر رفاقهما السابقين : فديامودا ، ويولسيس ، وأجا ممنون ، ومخاءون ، جرحوا جميعا ، والحصن تداعى ، والعدو بين السفن راح يستعد لحرقها ، وبذلك يقطع كل

وسائل العودة إلى بلاد اليونان ، وبينما كانا يتكلمان اندلعت اللهب من إحدى السفن ، فغمرت الشفقة قلب أخليس إلى حد أنه استجاب لرغبة بتروكلس فى السير بمحاربى الميرمدون (فهذا اسم جنود أخليس) إلى الميدان ، وإعارته درعه ، وبذلك يلقى مزيدا من الرعب فى قلوب الطرواديين ، فاصطفت الجنود دون تأخير ، وارتدى بتروكلس الدرع اللامع ، واعتلى عجلة أخليس الحربية ، وتقدم بالرجال وهم يتحرقون لخوض المعركة ، ولكن قبل ذهابه ، شدد عليه أخليس أن يقنع بطرد العدو ، قائلا له : « لا تحاول تشديد التنكيل على الطرواديين بدونى ، لئلا تزيد العار الذى لحقنى فعلا . » وإذ حث الجنود أن يؤدوا واجبهم على أكمل وجه ، صرفهم وهم يتلهفون فى تحمس للقتال .

وفى الحال ألقى بتروكلس وجنوده الميرمدون بأنفسهم فى أتون المعركة ، فهلل اليونانيون لدى رؤيتهم ، ورددت السفن أصداء التهليل والهتاف ، وحينما لمح الطرواديون الدرع المشهور ، أخذتهم الصاعقة ، وأخذوا يبحثون ، فى كل مكان ، عن ملاذ لهم ، وأول ما حدث أن أولئك الذين استولوا على السفينة ، وأشعلوا فيها النار ، تركوها وسمحوا لليونانيين باستردادها ، وإخماد نيرانها المشتعلة ، ثم فر باقى الطرواديين مذعورين ، وقام أجاكس ومنلوس وابنا نسطور بعظائم الأمور الباسلة ، واضطر هكتور أن يدير رءوس جياده ، وينسحب من الحظيرة ، تاركا رجاله يحاولون تخطى الخندق الذى يعوقهم ، والفرار كما يستطيعون ، فساقهم بتروكلس أمامه ، وقتل كثيرين ، ولم يجرأ أحد على الوقوف أمامه واعتراض طريقه .

وأخيرا أقدم سربدون بن جوبتر بطلب منازلة بتروكلس ، فازدراه جوبتر وكان يود أن ينتزعه من المصير الذى ينتظره ، ولكن يونو ألمعت إلى أنه لو فعل ذلك فانه سيحرض الآخرين جميعا من سكان السماء ، على التدخل بطريقة مماثلة ، لإنقاذ أبنائهم كلما تعرض أحدهم للخطر ، فأزعن جوبتر أمام هذه الحجة ، فألقى سربدون برمحه ، ولكنه أخطأ بتروكلس ، بينما وفق بتروكلس حين رشقه برمحه ، إذ اخترق صدر سربدون ، وخر صريعاً ، بعد أن أهاب بأصدقائه أن ينقذوا

جسده من العدو ، وأعقب ذلك صراع عنيف نشب بين الفريقين للاستحواذ على الجثمان ، ففاز اليونانيون وعروا سربدون من درعه ، ولكن جوبتر لم يكن ليسمح بتحقير رفات ولده . وبناء على أمره اختطف ابوللو جثمان سربدون من وسط المتحاربين ، وأناط للعناية به الشقيقان التوأمان (الموت) و (النوم) فنقلاه إلى ليسكيا (Lycia) موطن سربدون ، حيث أقيمت له الشعائر الجنائزية .

وهكذا وفق بتروكلس ، إلى أقصى حد يشتهيه ، في صد الطرواديين ، والتخفيف عن مواطنيه ، ولكن دفة الحظ تغير اتجاهها الآن ، فهكتور برز إليه ، وهو راكب في عجلته الحربية ، فقذفه بتروكلس بحجر ضخم ، ولكنه أخطأه وأصاب كبريونيس (Cebriones) قائد العجلة الحربية ، وأسقطه من فوقها ، فوثب هكتور من المركبة لنجدة صديقه ، كما هبط بتروكلس ليتم نصرته ، وهكذا تلاقى البطلان وجها لوجه ، وفي هذه اللحظة الحاسمة يدون الشاعر ، كما لو كان يأبى أن يمنح المجد لهكتور ، إن فوبس قام بدور ضد بروكلس ، فأطاح بخوذته من فوق رأسه ، وبرمحه من يده ، وفي اللحظة ذاتها أصابه طروادي مغمور بجرح في ظهره ، وأقبل هكتور ، ورشقه برمحه ، فسقط مصابا بجرح قاتل .

ثم استحر القتال على جثمان بتروكلس ، ولكن سرعان ما استحوذ هكتور على درعه ، وابتعد مسافة قصيرة ، حيث خلع درعه ، وارتدى درع أخليس ، ثم عاد للقتال ، فدافع أجاكس ومنلوس عن الجثمان ، بينما راح هكتور مع أشد محاربيه بسالة يقاتلون كي يستولوا عليه ، واستمرت المعركة والحظ فيها يتبادله الفريقان ، وعندئذ أسدل جوبتر على وجه السماء غمامة كثيفة ، ولمع البرق ، وقصف الرعد ، فبحث أجاكس حوله عن شخص يبعث به إلى أخليس لينبئه عن وفاة صديقه ، وعن الخطر الكبير المحدق برفاته لاحتماله وقوعها في أيدي الأعداء ، ولكنه لم يجد رسولا صالحا ، وفي هذه اللحظة راح يهتف بهذه الأشعار المشهورة الكثيرة الاقتباس والتداول :

« يا والد السماء والأرض ! هيىء أسباب الخلاص
لجماعة أخايا من الظلام ، وأنر السماء ،
امنحنا نهارا ، وما دامت هذه إرادتك الملكية ،
فليحل بنا الدمار ، ولكن تعطف وامنحنا نهارا !
كوبر

***

أو ، كما ساقها بوب قائلا :

« . . . يا إله الأرض والسماء !
يا ملك ! يا أب ! أصغ لصلاتى الذليلة !
أقشع هذا الغمام ، وأعد نور السماء
هيىء لى الرؤية ، ولن يطلب أجاكس سواها ،
وإذا كان هلاك اليونان محتوما ، فلارادتك نحن طائعون ،
ولكن دعنا نهلك فى وضح النهار .
بوب

***

فاستجاب جوبتر للابتهال ، وبدد الغيوم ، وعندئذ بعث أجاكس بانتيلوخس ، حاملا إلى أخليس نبأ وفاة بتروكلس ، والمعركة الناشبة على رفاته ، وأخيرا فاز اليونانيون بحمل الجثمان إلى السفن ، بينما راح هكتور وإينياس وباقى الطرواديين يطاردونهم دون هوادة .

فاشتد الحزن بأخليس ، عند سماعه نبأ وفاة صديقه ، حتى خشى انتيلوخس ، إلى حين ، أنه قد يقضى على نفسه ، فوصل نواحه إلى أذنى أمه ، ثيتس ، فى أعماق

المحيط ، حيث تقيم ، نخفت إليه مستفسرة عن السبب ، فوجدته محسورا مقهورا ينحى على نفسه بأشد اللوم لتماديه فى التبرم والتباعد ، ودفعه بصديقه إلى التهلكة كنتيجة لهذا ، ولكن عزاءه الوحيد كان فى أمله فى الانتقام ، فهو سيخف عاجلا باحثا عن هكتور ، ولكن أمه ذكرته بأنه كان آنذاك بغير درع ، ووعدته ، فيما لو انتظر فقط حتى الغد ، بأن تمده بدرع مزرودة ، من صناعة فولكان ، تزيد فى قيمتها عن التى فقدها ، فقبل ، وتوجهت ثيتس فورا إلى قصر فولكان ، فوجدته منهمكا فى مصنعه ، ويقوم بطرق حوامل حديدية لاستخدامه الخاص ، وكانت مصنوعة بطريقة فنية ، حتى إنها كانت تتحرك إلى الأمام من تلقاء نفسها ، حين الحاجة ، وتعود ثانية ، حين صرفها ، وحين سمع فولكان رجاء ثيتس ، سارع فوضع عمله جانبا ، وخف لتلبية رغباتها ، فصنع زردا فخما لأخليس ، من درع مزين بنقوش دقيقة ، وخوذة مطعمة بالذهب ، وصدار مزرود ، ووقاء مدرع للساقين ، لا تنفذ السهام منها جميعا ، وكلها أتقن صنعها وفق مقاسه ، وتم صنع هذا جميعه فى ليلة واحدة ، وحينما تسلمتها ثيتس هبطت بها إلى الأرض ، وفى الفجر وضعتها عند أقدام أخليس .

وكان أول وهج من السرور أحسه أخليس منذ وفاة بتروكلس ، هو الذى شعر به حين رأى هذا الزرد الفخم ، فارتداه وتوجه إلى المعسكر ، حيث عقد مجلسا من جميع القادة ، وحينما تكامل عددهم ، خاطبهم مصرحا بتنازله عن خصومته لأجاممنون ، ومنتحبا فى مرارة لما أسفر عنها من تعاسة وشقاء ، وأهاب بهم أن يتوجهوا فورا إلى الميدان ، فأحسن أجاممنون الرد ، إذ عاد باللائمة كلها إلى أتا (Ate) الإلهة الفتنة ، ومن ثمة تم الصلح بين البطلين ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ثم توجه أخليس إلى الحرب وهو متحرق حنقا وتعطشا للانتقام ، الأمر الذي جعله صمدا لا يقهر ، ففر من أمامه أشجع المحاربين ، أو سقطوا صرعى رمحه ، أما هكتور ، فاذ حذره أبوللو ، ظل بمعزل ، ولكن الإله ، متخذا هيئة أحد أبناء بريام ، وهو ليكاءون (Lycaon) حرص ايلياس على ملاقاة

المحارب المخيف ، على الرغم من إحساس اينياس أنه لم يكن ندا له ، فلم يتخلف عن القتال ، فألقى حربته ، بكل قوته ، نحو الترس ، صنعة فولـكان ، وكان مكونا من خمسة ألواح معدنية ، اثنين من النحاس ، واثنين من القصدير ، وواحد من الذهب ، فاخترقت الحربة اثنين منها ، ولكنها وقفت عند الثالث وألقى أخليس برمحه وكان أكثر توفيقا ، إذ اخترق ترس اينياس ، وبرز عند كتفه ، ولكنه لم يصبه ، عندئذ أمسك بحجر ، قد يعجز اثنان من المعاصرين عن حمله ، وأشرف على قذفه فاستل أخليس سيفه ، وكان على وشك أن يصرعه ، لولا أن أشفق نبتونا ، الذى كان يشاهد المعركة ، على اينياس ، إذ رأى أنه مقضى عليه حتما مالم يخف لنجدته ، فنشر غمامة بين المتقاتلين ، ورفع اينياس من الأرض ، ثم حمله من فوق رءوس المقاتلين والجياد إلى مؤخرة المعركة ، وعندما انجاب الضباب ، تطلع أخليس حواليه يبحث عن عدوه عبثا ، وإذ فطن للأعجوبة ، صوب أسلحته ضد أبطال آخرين ، وبينما كان بريام مطلا من أسوار المدينة ، رأى جنوده جميعا يفرون نحو المدينة لا يلوون على شىء ، فأصدر أمرا بفتح الأبواب على مصاريعها ، لاستقبال الفارين ، وإغلاقها حالما يمر منها الطرواديون ، لئلا يدخل العدو مثلهم ، ولكن أخليس كان فى أعقابهم ، وكان من المستحيل إفلاتهم ، لو لم يبرز ابوللو ، فى هيئة اجينور بن بريام ، لملاقاة أخليس برهة ، بعد أن لاذ بأذيال الفرار متخذا الطريق الذى يبعده عن المدينة ، فتبع أخليس ضحيته المزعومة وطاردها بعيدا عن الأسوار ، وحينئذ كشف ابوللو عن حقيقته ، ولما رأى أخليس كيف غرر به ، عدل عن المطاردة .

ولكن عندما فر الباقون إلى المدينة ، وقف هكتور خارجها ، مصرا على أن يقف للقتال ، فناداه والده الشيخ من الأسوار ، وطلب إليه أن يعود ، وألا يثير خصمه ، وكذلك طلبت منه أمه هكوبا ، ولكن عبثا ، ومن ثمة راح يخاطب نفسه قائلا : « كيف أستطيع أن التمس الأمن لنفسى بالفرار من عدو واحد ، وأنا الذي بأمره ذهب القوم للنزال اليوم ، حيث خر كثيرون صرعى ؟ ولكن ماذا لو عرضت عليه تسليم هلن ، وكل مجوهراتها ، والكثير مما نملك ؟ آه ، لا ! لقد فات الأوان ، لن يقبل مجرد الإنصات لى ، بل سيقتلنى وأنا أخاطبه » وإذ

هو يجتر أفكاره على هذه الصورة ، أقبل أخليس ، مرعبا مثل مارس ودرعه يسطع ، كلما تحرك ، كأنه وميض البرق ، فبعث هذا المنظر الفزع فى قلب هكتور ، وأعطى ساقيه للريح ، فتبعه أخليس مسرعا ، وراحا يعدوان ، وهما عن كثب من الأسوار ، حتى دارا حول المدينة ثلاث مرات ، وكلما اقترب هكتور من الأسوار ، اعترض أخليس طريقه ، وأرغمه على أن يظل بعيدا عنها فى دورة أكثر اتساعا ، ولكن أبوللو أمد هكتور بقوة من لدنه ، ولم يسمح أن يتهاوى من فرط الإعياء ، عندئذ اتخذ بلاس هيئة ديفوبس (Deiphobus) أشجع إخوة هكتور ، وظهر بغتة إلى جانبه ، فتطلع إليه هكتور فى سرور ، وهكذا تشجع فكف عن الفرار ، واستدار لملاقاة أخليس ، ثم قذف رمحه يبغى إصابته فصده ترس أخليس ، والتفت لتسلم رمح آخر من يد ديفوبس ، ولكن ديفوبس كان قد اختفى ، فأدرك هكتور مصيره المحترم وقال : واحسرتاه واضح أن ساعة وفاتى قد حلت ، ظننت أن ديفوبس قريب منى ، ولكن بلاس خدعنى ، فهو لازال فى طروادة ، ولكنى لن ألاقى الموت هيابا ذليلا . وإذ قال هذا استل سيفه ، واندفع فورا للقتال ، فوقف أخليس ، وهو آمن خلف محفة ، ينتظر اقتراب هكتور منه ، وعندما أصبح فى متناول رمحه ، وقع اختيار أخليس على جزء سهل العطب ، حيث يترك الدرع العنق مكشوفا ، وصوب رمحه إلى ذلك الجزء ، فخر يعالج سكرات الموت ، وقال فى صوت ضعيف خافت : «اصفح عن جثمانى ادع والدى يدفعان ديته ، ودع أبناء طروادة وبناتها يقومون بشعائر مأتمى » فأجابه أخليس قائلا « لا تذكر دية أو رحمة أمامى ، أنا الذى عانيت على يديك تلك المحنة المضنية المريرة ، كلا ! ثق أنه لا شىء سينقذ جثتك من أن تنهشها الكلاب ، ولو عرض لافتدائك عشرون دية ووزنك ذهبا لرفضتها جميعا . »

وإذ قال هذا عري الجثة من درعها ، وثبت القدمين بالحبال وربطها خلف عجلته الحربية ، وبذلك ترك الجثة اسحلها فوق الأرض ، ثم اعتلى العجلة ، وحث الخيل على المسير ، وهكذا راح يسحل الجثة جيئة وذهابا ، أمام المدينة ، فأية ألفاظ تستطيع التعبير عن أسى الملك بريام والملكة هكتوبا لهذا المنظر ! ولم

يستطع رجال الملك الشيخ منعه من الاندفاع خارجا إلا بشق النفس ، وقد ألقى بنفسه فى التراب وراح يتوسل إلى كل منهم باسمه كى يفسح له الطريق ، ولم يكن حزن هكوبا أقل مرارة ، فوقف المواطنون حولهم يبكون ، ووصل صوت العويل إلى أذنى اندروماك زوجة هكتور ، بينما كانت جالسة مع وصيفاتها منهمكات فى العمل، ولتوجسها الشر توجهت صوب السور ، وعندما رأت المنظر وفطنت لما جرى ، اندفعت تبغى إلقاء نفسها من فوق السور ، لكنها خرت مغشيا عليها بين أيدى وصيفاتها ، ولما استردت وعيها ، أخذت تندب حظها ، متخيلة خراب بلادها ، ووقوعها أسيرة ، وافتقار ابنها لكسرة الخبز من أيدى المحسنين الغرباء .

وعندما أخذ أخليس واليونانيون بثأرهم من قاتل بتروكلس، عكفوا على إقامة الشعائر الجنائزية لصديقهم ، فنصبوا محرقة ، وقاموا بحرق الجثمان بالتوقير اللازم، وأعقب ذلك عرض لألعاب القوى والمهارة ، وسباق عجلات الحرب ، والمصارعة والملاكمة وقذف السهام ، ثم جلس القواد إلى مائدة المأتم ، وبعد ذلك انسحبوا للراحة والاستجمام ، ولكن أخليس لم يشترك فى الولائم أو النوم ، فذكرى صديقه الفقيد أقضت مضجعه وحرمته الرقاد ، إذ راح يذكر صحبتهما ، فى العمل واجتياز الأخطار ، وفى ساحة الوغى ، وفوق أمواج البحر المحفوف بالمخاطر ،وقبل بزوغ الفجر ترك خيمته، وأسرج جياد عجلته الحربية، ثم أسرع فربط بها جثمان هكتور ليسحله خلفه ، وقد سحله حول مقبرة بتروكلس مرتين ، وأخيرا تركه ممددا فوق الثرى ، ولكن أبوللو لم يسمح بتمزيق البدن أو تشويهه مع كل هذا التعسف والتعدى الشديد ، بل حفظه مبرءا من كل عفن أو دنس .

وحينما كان أخليس مستغرقا فى سخطه على هذه الصورة من امتهان هكتور الباسل ، أشفق جوبتر فاستدعى ثيتس للمثول بين يديه ، وطلب منها الذهاب إلى ابنها لإقناعه برد جثمان هكتور إلى أصدقائه، ثم أرسل جوبتر الإلاهة ايرس إلى الملك بريام تستحثه على التوجه إلى أخليس ومطالبته بجثمان ابنه ، فسلمت ايرس

رسالتها ، وتأهب بريام لتنفيذها فورا ،ففتح مخازن كنوزه وأخذ منها ثيابا وأقمشة ثمينة ، ومع عشر وزنات من الذهب وحامايين فخمين ، وقدح من الذهب لامثيل لصنعته ، ثم استدعى أبناءه وطلب إليهم إعداد عجلته ، وتزويدها بالاشياء المختلفة المعدة لأن تكون دية لأخليس ، وعندما تم إعداد كل شيء ، اصطحب الملك الشيخ رفيقاً واحدا في مثل سنه ، وتابعه ايداوس (Idaeus) ، وركب معهم إلى أبواب المدينة ، حيث فارق هكوبا ملكته ، وأصدقاءه الذين انتحبوا عليه كما لو كان ذاهباً إلى موت محتوم .

ولكن جوبتر تحنن على الملك الشيخ الوقور ، وأرسل مركيورى ليكون مرشده وحاميه ، فقدم مركيورى نفسه ، في هيئة محارب شاب ، إلى الرجلين الطاعنين في السن ، وفيما هما مترددان ، حين رؤيته ما بين الفرار والاذعان ، اقترب الاله ، وأمسك بيد بريام ، وعرض أن يرشدهما إلى خيمة أخليس ، فقبل بريام بسرور خدمته المعروضة فاعتلى العربة وأخذ الأعنة ، وسرعان ماوصل بهما إلى خيمة أخليس ،وهناك استغرق جميع الحراس فى النوم بوساطة عصا مركيورى السحرية ، ودون عائق أدخل بريام الخيمة ، حيث جلس أخليس ، ويقوم على خدمته اثنان من المحاربين ، فألقى الملك الشيخ بنفسه عند أقدام الملك أخليس ، وقبل تلكما اليدين الرهيبتين اللتين قضيا على الكثيرين من أبنائه ،وخاطبه قائلا : «فكر يا أخليس فى والدك ، الطاعن فى السن مثلى ، والذى يقف مرتعشا على الحافة القاتمة من الحياة ، ولعل حاكم مجاور يجور عليه الآن ، فلا يجد من يخف لنجدته فى محنته ، ولكنه دون شك إذ يعلم أن أخليس على قيد الحياة ، فهو مايزال مبتهجاً ، مؤملا أنه يوما ما سيرى وجهك مرة ثانية ، أما أنا فما من شيء يعزيني ، إذ فقدت أشجع أبنائى الذين كانوا أخيار زهرة طروادة ،ولكن لدى واحدا ،واحدا بألف ،وكان عماد شيخوختى ،فقد قتلته وهو يحارب فى سبيل بلاده ، وحضرت لافتداء جثمانه ومعى دية لاتقدر بمال ، ياأخليس ! كرم الآلهة ! واذكر والدك ! واعطف على زلفى إليه ! » فأثرت هذه الكلمات على

أخليس حتى بكي ، إذ تذكر والده الغائب وصديقه الفقيد ، وإذ أخذته الشفقة إزاء خصلات بريام ولحيته الفضية ، رفعه من الأرض وخاطبه قائلا: « اعلم يابريام أنك وصلت إلي هذا المكان يقودك أحد الآلهة ، فبدون معونة من السماء ، لم يجرؤ مخلوق ، ولو كان فى عنفوان شبابه ، على المجيء ، فأنا أجيبك إلي سؤالك ، مادام من الواضح أن هذه هي إرادة جوبتر . » وإذا قال هذا نهض ، وتقدم مع صديقيه ، حيث أفرغوا المحفة من حملها ، تاركين رداء وعباءتين لتغطية الجثة ، التي وضعوها بالمحفة ، وبسطوا الثياب فوقها ، كى ترد إلى طروادة مستورة غير مكشوفة ، ثم صرف أخليس الملك الشيخ مع أتباعه ، بعد أعطى على نفسه عهدا ، بالتصريح بهدنة مدة اثني عشر يوما ، للقيام بالشعائر الجنائزية .

وعندما اقتربت المحفة من المدينة ، وتبينها الشعب من الأسوار ، تقاطروا من كل حدب وصوب ، ليلقوا النظرة الأخيرة على وجه بطلهم ، وكانت أم هكتور وزوجته فى مقدمة الحاضرين ، وعندما رأتا الجثمان المسجى عادتا إلي الانتحاب والعويل ، وبكي الشعب معهما ، وحتى مغرب الشمس لم يكفوا عن التحيب أو يخففوا عن أنفسهم .

وفى اليوم التالى قامت استعدادات الحفل الجنائزي على قدم وساق ، وظل القوم تسعة أيام يستحضرون الأخشاب ويشيدون المحرقة ، وفى اليوم العاشر وضعوا الجثمان فوق المحرقة وأشعلوا النار ، بينما تقاطر القوم من جميع أنحاء طروادة وأحاطوا بالجثمان ، وعندما احترق بأكمله أطفئوا الرماد بالخمر ، وجمعوا العظام ووضعوها فى إناء من الذهب ، ودفنوه فى الأرض ، وأقاموا فوقه نصبا من الأحجار .

هكذا كرمت طروادة بطلها ،
ونام شبح هكتور العظيم آمنا .

بوب

الفصل الثامن والعشرون

سقوط طروادة ـ عودة اليونانيين

أجا ممنون ، أورستيس والـكترا .

سقوط طروادة

تنتهى الالياذة بموت هكتور ، وقد وقفنا على مصاير باقى الأبطال من الأوديسا والقصائد التى جاءت بعدها، ولم تسقط طروادة بعد وفاة هكتور مباشرة، ولكنها واصلت مقاومتها إذ خف لنجدتها حلفـاء جدد ، وكان ممنون ، الأمير الأثيوبى ، أحد هؤلاء الحلفاء ، وقد روينا قصته من قبل ، وبنثسليا ، ملـكة الأمازونيات ، حليفة أخري ،جاءت مع جماعة من المحاربات الإناث ، وقد شهدت المصادر الموثوق بها جميعاً ببسالتهن وأثر صرختهن الحربية المرعبة ، وقد قتلت بنثسليا كثيرين من أشجع المحاربين ، ولـكن أخليس قتلها فى النهاية ، ولـكن عندما انحنى البطل فوق عدوه الساقط ، وتأمل فى حسنها وشبابها وبسالتها ، ندم أشد الندم على انتصاره ، فسخر بحزنه ثرسنتيس ، وهو مشاغب وقح من زعماء السوقة ، فقتله البطل جزاء وفاقا .

وبمحض الصدفة كان أخليس قد شاهد بوليكسنا (Polyxena) ابنة الملك بريام ، ولعل هذا تم بمناسبة الهدنة التى سمح بها لأهل طروادة للقيام بدفن هكتور ، فاستولت على لبه بمفاتنها ؛ وكى يفوز بزواجها وافق على أن يستخدم نفوذه مع اليونانيين لعقد الصلح مع طروادة ، وإذ كان بالمعبد يقوم بمفاوضات الزفاف ،

وشقه باريس بسهم مسموم ، وبإرشاد من أبوللو ، أصابه فى عقبه ، وهو الجزء الوحيد فيه المعرض للعطب ، ذلك لأن أمه ، ثيتس ، كانت قد غمرته ، وهو طفل فى نهر ستيكس ، الذى جعل كل عضو من جسمه غير قابل للعطب ، ماعدا العقب الذي كانت ممسكة به[1] .

فخلص أجاكس ويوليسيس جسد أخليس ، الذى قتل بهذه الطريقة النادرة ، فأشارت ثيتس على اليونانيين أن يهبوا زرد ابنها للبطل ، من بين جميع الباقين على قيد الحياة ، الذي يثبت أنه أجدرهم به ، وكان أجاكس ويوليسيس هما وحدهما المرشحان ؛ وعينت مجموعة مختارة من القادة الآخرين لمنح الجائزة ، فمنحوها ليوليسيس ، إيثارا للحكمة على البسالة ، فكان أن قضى أجاكس على نفسه ، فبرزت فى البقعة التي تشربت فيها الأرض دمه ، زهرة باسم «السوسن» تحمل على أوراقها الحرفين الأولين من اسمه (ا ج) وهما اللفظ اليونانى (للويل) ولذلك فإن أجاكس شريك للصبى هياكنثوس فى ادعاء شرف مولد هذه الزهرة .

واتضح آنذاك أنه ليس من المستطاع الاستيلاء على طروادة إلا بمساعدة سهام هرقل ، التي كانت فى حيازة فلوكتتيس ، صديق هرقل الذى ظل معه حتى النهاية ، وأشعل النار بمحرقة جثمانه ، وكان فلوكتتيس قد انضم إلى الحملة اليونانية ضد طروادة ، ولكن قدمه جرحت ، بسهم مسموم ، فى حادث ، وتعفنت رائحة الجرح حتى حمله رفاقه إلى جزيرة لمنوس وتركوه هناك . فلما احتاجوا إليه أرسلوا ديوميد (Diomed) كى يقنعه بالعودة إلى الجيش ، فوفق فى مهمته ، وشفى مخاءون المائد فلوكتتيس من جرحه ، وكان باريس أول ضحية للسهام القاتلة ، وتذكر باريس ، وهو فى محنته ، واحدة كان قد نسيها حين ازدهاره ، وهي

(١) لم ترد قصة حصانة أخليس فى أشعار هوميروس ، وهى لا تتفق مع روايته ، إذ كيف احتاج أخليس إلى الزرد السماوى مادام جسمه غير معرض للعطب .

الحورية أينونا (OEnone) التي كان قد تزوجها في شبابه ؛ وهجرها مبهوراً بجمال هلن الصاعق ، وإذ تذكرت أينونا ما قاسته من عناء ، رفضت شفاء جرحه ، فعاد باريس إلي طروادة حيث مات ، وسرعان ماندمت أينونا ، وخفت خلفه بالدواء ، ولكن بعد فوات الأوان ، فشنقت نفسها حزنا عليه[١] .

وكان في طروادة تمثال شهير لمنيرفا يسمى البللاديوم (Palladium) ، وقيل إنه هبط من السماء ، وكان الاعتقاد السائد أن المدينة لا يمكن الاستيلاء عليها مادام التمثال باقيا فيها ، فدخل يوليسيس وديوميد المدينة متنكرين ، وهناك نجحا في الحصول علي البللاديوم ، وحملاه إلى المعسكر اليوناني .

ولكن طروادة صمدت ، وابتدأ اليأس يدب إلىقلوباليونانيين فيإخضاعها بالقوة ، ومن ثمة عولوا على الالتجاء للمناورات الحربية بناء على نصيحة يوليسيس ، فتظاهروا بالاستعداد للتخلى عن الحصار ، وانسحب عدد من السفن ميمما شطر جزيرة مجاورة اختفى وراءها ، ثم صنع اليونانيون حصانا خشبياً هائلا صرحوا أنهم ينوون تقديمه إلى منيرفا استرضاء لها وزلفى ، ولكنه في الواقع كان ممتلئا بالرجال المسلحين ، ولجأ اليونانيون الباقون إلى سفنهم ، وأبحروا بها كما لو كانوا ينوون الرحيل نهائيا ، وحين رأى الطرواديون أن المعسكر قد انفض والأسطول قد أبحر ، انتهوا إلى أن العدو قد تخلى عن الحصار ، ففتحوا الأبواب علي مصاريعها ، وخرج الأهلون على بكرة أبيهم ، مبتهجين بالحرية التى حرموا منها طويلا ، والتي أتاحت لهم اجتياز منطقة المعسكر القديم كما يشاءون ، وكان الحصان الضخم هو مثار العجب الرئيسى ، وقد راح الجميع يتساءلون عما يمكن أن يكون الغرض منه ، وأشار البعض بحمله إلى المدينة كغنيمة حرب ، بينما ساور البعض الآخر الخوف منه .

---

(١) اختار تنيسون الشاعر ، أينونا ، كموضوع لقصيدة قصيرة ، ولكنه حذف من القصة أعظم جزء عاطفي ، وهو عودة باريس جريحا ، وقسوتها ، وندمها عقب ذلك .

وإذ هم فى ترددهم صاح لئوكوون (Laocoon) ، كاهن نبتونا قائلا : «ما هذا الخبل أيها المواطنون ؟ ألم تتعلموا من خداع اليونانيين ما يكفي لأن يجعلكم تأخذون حذركم ؟ أما عنى فإنى أتوقى اليونانيين حتى ولو قدموا القرابين » وإذ قال هذا رشق جنب الحصان برمحه ، فأصابه وصدر منه صوت أجوف يشبه الأنين ، ولعل القوم كانوا سيعملون بنصحه ، ويدمرون الحصان المشئوم وكل محتوياته ، ولكن في تلك اللحظة ظهر لفيف من الناس يدفعون أمامهم شخصا بدا كأنه أسير يونانى ، وفى خدر من الفزع أوقفوه أمام الرؤساء ، الذين طمأنوه ووعدوه بعدم التعرض لحياته شريطة أن يجيب بصدق عن الأسئلة التى توجه إليه ، فأخبرهم أنه يونانى يدعى سينون (Sinon) ، وأن مواطنيه تخلوا عنه وتركوه عند رحيلهم بعل دفين فى صدر يوليسيس ، أما عن الحصان الخشبى فأخبرهم أنه تقدمة منهم لاسترضاء منيرفا ، وأنهم تعمدوا هذه الضخامة فى حجمه كى يمنعوا حمله داخل المدينة ، إذ أخبرهم كالحس النبي أنه إذا استولى الطروادبون عليه ، فإنهم سينتصرون حتما على اليونانيين ، فغير هذا الكلام اتجاه مشاعر القوم ، وأخذوا يفكرون فى الطريقة المثلى للمحافظة على الحصان العملاق ، وتحقيق البشرى المتصلة به ، وعندئذ حدثت عجيبة لم تدع مجالا للشك ، فقد ظهرت حيتان هائلتان تتقدمان عبر البحر ، حتى وصلتا إلى اليابس ، ففرت الجموع فى كل منحى ، فاندفعت الحيتان مباشرة إلى حيث كان لئوكوون واقفا مع ابنيه ، فهاجمتا الطفلين أولا ، فالتفتا حول بدنيهما ، ولفحتا وجهيهما بأنفاسهما القاتلة ، وإذ حاول الوالد إنقاذهما ، حوته الحيتان ، هو الآخر ، بين طياتهما ، فراح يحاول التخلص مع طفليه منهما ، ولكنهما شلتا حركته ، وكتمتا أنفاسه وأنفاس طفليه وقضتا عليهم جميعا بطياتهما المسمومة ، واعتبر هذا الحادث علامة واضحة على عدم رضا الآلهة بسبب معاملة لئوكوون غير التقية للحصان الخشبي ، فلم يترددوا بعد ذلك عن اعتباره شيئا مقدسا ، وتأهبوا لحمله إلى المدينة بالتكريم اللائق ، فتم هذا بالأناشيد وهتافات النصر ، وانتهى اليوم بحفل بهيج ، وفى الليل

البهيم أخرج سينون الخائن ، الرجال المسلحين المحتشدين داخل هيكل الحصان ، وهؤلاء فتحوا أبواب المدينة لأصدقائهم الذين عادوا تحت جنح الظلام ، فأشعلت النيران بالمدينة ، وقتل الأهلون بالسيف ، وهم مثقلون بالقصف والنوم معا ، وقهرت طروادة وذلت .

ومن أشهر مجموعات التماثيل الموجودة ، مجموعة لثوكوون وطفليه ، وقد التفت الأفعيان حولهم ، والتمثال الأصلى موجود بالفاتيكان فى روما ، والأبيات التالية مقتطفة من « هرولد الباسل » لبيرون :

« وأنت متجه الآن للفاتيكان اذهب لتشاهد
عذاب لثوكوون رافعا شأن الألم ،
حب أب وفجيعة إنسان فان
مختلطان بصبر الخالدين — ولكن عبثا !
فلا جدوى من معركة كلها رهق ،
بين طيات التنين وقبضته القاتلة
وتقلصات الشيخ ، فالأصفاد المسمومة المترامية
تشل حركة الأحياء ، والأفعى الهائلة
تتبع اللدغة باللدغة والفحة بالفحة . »

* * *

كذلك يستعير الشعراء التكاهيون أحيانا إشارة من الآداب اليونانية واللاتينية ، وفيما يلى مقتطفات من قصيدة سويفت : « وصف رذاذ فى مدينة » :

« التصق السيد الأنيق بمقعده وقد نفد صبره ،
بينما الميازيب تتدفق مياهها هادرة من السقف ،

وعن كثب ، فى طنـــين مزعج لا ينقطع
صات الجلد ، فارتعش السيد الأنيق في أعماقه .
وهكذا عندما حمل زعماء طروادة الحصان الخشبي ،
المحتشد باليونانيين وقد نفد صبرهم يبغون الفكاك ،
(أولئك اليونانيون الباغون الفاعلون كما يفعل المعاصرون ،
والذين بدلا من مجازاتهم للزعماء فبهم يندددون) ،
رشقه لئوكوون من الخارج برمح مسنون
فراح الأبطال فى محبسهم من الفزع يرتعشون . »

سويفت

* * *

وعاش بريام ليشاهد سقوط مملكته وقتل أخيراً في الليلة المشئومة عندما استولى اليونانيون على المدينة، وكان قد ساح نفسه وأوشك أن يختلط بالمقاتلين ، ولكن هكوبا ، ملكته المسنة أقنعته أن يلوذ معها ومع بناته بأستار مذبح جوبتر ، وبينما هو هناك وصل ابنه الأصغر بوليتس (polites) مندفعا وهو جريح، يطارده بيروس (Pyrrhus) بن أخليس ولفظ أنفاسه الأخيرة عند أقدام والده ، فاستبد الغضب ببريام ، وقذف رمحــــه بيد ضعيفة يبغى قتل بيروس[1] ، ولكن هذا الأخير قتله .

وحملت الملكة هكوبا وابنتها كسندرا (Cassandra) أسيرتين إلى بلاد اليونان ، وكان أبوللو قد عشق كسندرا وأعطاها موهبة النبوة، ولكنه بعد ذلك،

---

(١) أصبحت صيحة بيروس . « لا يتطلب الزمن مثل هذه المعونة ، ولا هؤلاء المدافعين » من الأقوال المأثورة.

بسبب إساءتها له ، أبطل نفع هذه الموهبة ،إذ جعل تكهناتها لا يصدقها أحد قط، أما بولكسينا ، وهى ابنة أخرى كان قد أحبها أخليس ، فقد طلبها شبح هذا البطل ، وقدمها اليونانيون ضحية على قبره .

منلوس وهلن

ويتلهف قراؤنا لمعرفة مصير هلن الجميلة ، علة هذه المذبحة غير البريئة ، فعند سقوط طروادة استرد منلوس زوجته ، التى لم تكف عن محبته ، على الرغم من إذعانها لتأثير فينوس ، وهجرانها له إلى آخر ، وبعد وفاة باريس ساعدت اليونانيين سرا ، فى عدة مناسبات ، وبصفة خاصة عندما دخل يوليسيس وديوميد المدينة متنكرين لأخذ البلاديوم معها ، فرأت يوليسيس وعرفته ، ولكنها كتمت السر ، بل وساعدتهما فى الحصول على التمثال،وهكذا اصطلحت مع زوجها ، وكانا من أوائل من تركوا شواطئ طروادة فى طريقهم إلى أرض الوطن ، ولكنهما إذ لم يحظيا برضي الآلهة، ساقتهما العواصف من شاطىء لشاطىء فى البحر الوسيط، فزارا قبرص وفينيقية ومصر ، واستقبلهما المصريون بترحاب ، وأغدقوا عليهما هدايا ثمينة ، كان نصيب هلن منها مغزلا ذهبيا ، وسلة على عجلات ، لحفظ الصوف وملفات الخيط ، لأشغال الملكة .



ويشير داير فى قصيدته « الجزة » إلى هذه الواقعة فيقول :

« . . . ما زالت كثيرات يعمدن
للمردن القديم ، يثبتنه إلى صدورهن ،
ويقذفن بالمغزل الدائر وهن سائرات .

كان هذا قديما ، فى عهد غير خامل ،
عهد الغزل ، حين أهدى الأمير المصرى
مردنا من ذهب ، للحورية ذات البهاء ،
هلن بجمالها المفرط وهديتها ذات الرواء .»

***

ويشير ملتون أيضا إلى وصفة مشهورة لجرعة مقوية ، باسم نبنثا (Nepenthe) ، وهى التى أعطتها الملكة المصرية لهلن :

« ليست نبنثا التى أعطتها زوجة ثونا
فى مصر ، لهلنا التى أنجبها جوبتر ،
ذات مفعول يثير مثل هذه البهجة ،
لحياة ود مماثلة أو رى بعد ظمأ . »

***

وفى النهاية وصل منلوس وهلن إلى اسبرطة فى سلام ، واستعادا منزلتهما الملكية ، وعاشا وحكما فى أبهة ورواء ، وعندما وصل تليماك بن يوليسيس ، فى بحثه عن والده ، إلى اسبرطة ، وجد منلوس وهلن يحتفلان بزفاف ابنتهما هرميونا (Hermione) إلى نيو بتلموس (Neoptolemus) بن أخيلوس .

***

أجاممنون ، أورستيس والكترا

لم يحالف الحظ أجاممنون ، قائد قوات اليونانيين الأعلى وشقيق منلوس ، والذى زج به في المعمعة ، للثأر لما أصاب أخاه لا ما أصابه ، فقد خانته زوجته

كليتمنسترا (Clytemnestra) خلال غيبته ، وحين توقعت عودته ، وضعت مع عشيقها آيجستوس(AEgisthus) خطة للقضاء عليه ، وهكذا قتلاه فى الوليمة التى أقيمت احتفالا بعودته .

وكان المتآمرون ينوون أيضا قتل ابنه أورستيس (Orestes) وهو غلام صغير ما كان أحد ليتوجس منه شرا ، ما لم يترك حتى يشب ويشتد عوده ومن ثمة يصبح مصدرا للخطر ، فأنقذت الكترا ، شقيقة أورستيس ، حياة أخيها ، إذ بعثت به سرا إلى عمه ستروفيس(Strophius) ، ملك فوكيس (Phocis) ، وشب أورستيس ، فى قصر الملك ستروفيس ، مع ابن الملك بيلاديس(Pylades) ، وارتبط معه بصداقة حميمة أضبحت مضربا للأمثال ، ولم تن الكترا عن تذكير شقيقها ، بالرسول تلو الرسول ، بواجبه فى الانتقام لقتل والده ، وعندما استوى عوده استشار كاهن دلفى ، فأيده فى خطته ، ومن ثمة عاد متنكرا إلى أرجوس ، متظاهرا بأنه رسول قادم من طرف ستروفيس ، للاعلان عن وفاة أورستيس ، وقد حمل معه رفات الراحل فى إناء بعد حرق جثمانه ، وبعد زيارته لمقبرة والده ، وتقديمه عليها القرابين اللازمة ، وفق طقوس الأقدمين ، كشف عن نفسه لشقيقته الكترا ، وسرعان ما قتل بعد ذلك آيجستوس وكليتمنسترا .

وعلى الرغم من أن هذا العمل الثائر غير المشروع ، وهو قتل ابن لأمه ، خففه ذنب الضحية وأمر الآلهة الملزم ، لم يقلل من شعور الأقدمين ببشاعة الجرم كما يحدث معنا سواء بسواء ، فاستبدت اليومينديس ، إلاهات الانتقام ، وساقته ملتاثا من بلد لآخر ، فاصطحبه بيلاديس فى جولاته وقام على حراسته ، وأخيرا أشار عليه الكاهن ، حين استرشده مرة ثانية ، أن يذهب إلى طورس (Tauris) فى سكثيا ، وأن يستحضر من هناك تمثالا لديانا ، كان من المعتقد أنه هبط من السماء ، ومن ثمة ذهب أورستيس وبيلاديس إلى طورس ، حيث اعتاد البرابرة هناك أن يقدموا جميع الأجانب ، الذين يقعون فى أيديهم ، ضحايا بشرية

للالاهة ،فقبضوا على الصديقين وحملوهما مقيدين إلى الهيكل لإحراقهما وتقديمهما قربانا ولكن كاهنة ديانا لم تكن سوى افيجنيا ، شقيقة أورستيس ، التى ، كما يذكر قراؤنا ، كانت ديانا قد اختطفتها فى اللحظة التى كانت على وشك التضحية بها ، وعندما استوثقت من حقيقة الأسيرين عرفتهما افيجنيا بنفسها ،ولاذ الثلاثة بالفرار حاملين تمثال الإلاهة وعادوا إلى ميكناى .

ولكن أورستيس لم يكن قد تخلص تماما من انتقام ارنيس ، وأخيراً لاذ بحمى منيرفا فى أثينا ، فأسدلت الإلاهة عليه حمايتها ، وعينت مجلس أريوباجس (Areopagus) لتقرير مصيره ، فبسطت إلاهات الانتقام اتهامها ، واحتج أورستيس بالأمر الذى أصدره إليه كاهن دلفى ، وحينما أعطى أعضاء المجلس أصواتهم وجاءت متعادلة ، أطلق سراح أورستيس بأمر منيرفا .

* * *

ويشير بيرون فى « الشاب الباسل هرولد » المجموعة الرابعة إلى قصة أورستيس :

« يا من لم تدعى قط ظلما بشريا
ترجح كفته ، يا إلاهة الانتقام العظيمة !
يا من استدعيت إلاهات الغضب من الهاوية
وأمرتهن بالعواء والفحيح حول أورستيس ،
للقصاص الجافى للفطرة الذى وقعه — فقط
ليته من يد أقل قرابة — إنى أدعوك
إلى ملكوتك القديم ، من تحت الثرى ! »

ومن المناظر التى تثير أشد الأسى فى الدراما القديمة ذلك المنظر الذى يصور فيه سوفوكليس لقاء أورستيس والـكترا، عند عودته من فوكيس ، فأورستيس ، إذ أخطأ شقيقته متوهما أنها إحدى الخادمات ، ولرغبته فى الاحتفاظ بوصوله سرا حتى تحل ساعة الانتقام، أخرج الإناء الذى يحوى رفاته المزعومة، فظنت الـكترا أنه مات حقاً ، وأخذت الإناء ، وراحت تعانقه ، وهى تسكب حزنها في لغة مفعمة بالرقة والقنوط .

***

ويقول ملتون فى إحدى قصائده الغزلية :

« . . . إن اللحن المردد

من شاعر الـكترا الحزينة كان قويا ،

فأنقذ من الدمار أسوار أثينا العارية . »

***

وهذا يشير إلي القصة التى تزعم أنه، في إحدى المناسبات ، عندما كانت مدينة أثينا تحت رحمة أعدائها الاسبرطيين ، واقترح البعض تدميرها ، فرفضت الفكرة ، حين ردد أحد الحاضرين بالصدفة عبارة مقتبسة من أناشيد يوربديس .

طروادة

لعل القارىء ، بعد سماعه كل هذا عن طروادة وأبطالها ، سيعجب حين يعلم أن موقع هذه المدينة الشهيرة مايزال موضع جدال، فهناك بعض آثار لقبور فوق السهل الذى يرجح أنه يتفق كثيرا مع الوصف الذى قدمه هوميروس والشعراء الأقدمون ، ولـكن ليس هناك عدا ذلك مايثبت كيانا سابقاً لمدينة عظيمة .

ويصف بيرون المنظر فى حالته الحاضرة كما يلى:

الرياح عاصفة ، وتيار هيـــلا
يندفع داكنــا صوب المحيط ،
وظلال ذوائب الليل تخــفى
ذلك السهل المخضب عبثا بالدماء ،
صـــحراء كانت فخر بريام الشيخ ،
مقابرها هي بقايا حكمه الوحيدة .
فالأحلام الخالدة وحــدها تبهج
شيخ جزيرة سكيو الصخرية الكفيف.

عروس ابيدوس

الفصل التاسع والعشرون

مغامرات يوليسيس ـ آكلو اللوتس ـ

عمالقة السكيكلوبس ـ كيركا ـ حوريات البحر المغنيات ـ

سكيللا وخاريبدس ـ كاليبسو .

عودة يوليسيس

إن أشعار الأوديسا الرائعة الخيال تستحوذ الآن على لبنا ، وهى تروى تطواف يوليسيس (أودسيوس فى اللغة اليونانية) فى عودته من طروادة إلى مملكته ايثكا .

ومن طروادة رست السفن لأول مرة فى اسمارس (Ismarus) مدينة السكيكونيين ، حيث فقد يوليسيس ، فى معركة ، ستة رجال من كل سفينة ، وحين أبحروا من هناك هبت عليهم عاصفة ، ساقتهم تسعة أيام فوق عباب البحر حتى وصلوا إلى بلاد آكلى نبات اللوتس ، وهنا بعد أن ارتووا ، أرسل يوليسيس ثلاثة من رجاله للتعرف على الأهلين ، وحينما حل هؤلاء الرجال بين آكلى اللوتس أحسنوا استقبالهم وأكرموا وفادتهم ، وأعطوهم بعض طعامهم ، نبات اللوتس ، ليأكلوا ، وكان من أثر هذا الطعام على من تناولوه أنهم فقدوا ذاكرتهم فيما يتعلق بالوطن ، وأرادوا البقاء بتلك البلاد ، حتى لقد استخدم يوليسيس القوة لحمل هؤلاء الرجال معه ، بل اضطر لربطهم تحت مقاعد سفنه[1]

---

(١) صور تنيسون فى «قصيدته آكلو اللوتس» فى روعة أخاذة ، ذلك الشعور الحالم المتراخى الذى قيل إن طعام اللوتس قد هيأه لمتناوليه .

« ما أبدع سماع خرير التيار المنحدر
والعيون نصف مغلقة حتى ليبدو القوم
كمن يداعبهم السكرى وتتراقص أمامهم الأحلام!
فيحلمون ويحلمون كهذا الضوء الكهرمانى البعيد
الذى يلازم شجرة المر فوق التل فلا يريم ،
وكل منهم يسمع حديث الآخر المهموس ،
إنهم يأكلون اللوتس يوما إثر يوم ،
ليراقبوا الأمواج تهدر وتتكسر على الشاطىء ،
وخطوط الزبد الأبيض ذات الثنيات اللينة .
ومن ثمة فلنهب قلوبنا وأرواحنا كاملة
لسلطان الشجن اللين العريكة غير المتزمت ،
فنفكر ونتأسى ونحيا ثانية فى الذكرى ،
مع تلك الوجوه القديمة المتصلة بطفولتنا ،
التى تراكمت ومعها تل من الحشائش ،
فاستحالت حفنتين من رفات أبيض بإناء نحاسى . »
تنيسون



بعد ذلك وصلوا إلى بلاد الكيكلوبس ، وهم عمالقة سكنوا جزيرة وامتلكوها بغير شريك ، والاسم يعنى « عين مستديرة » وأطلق على هؤلاء العمالقة ، لأن لكل منهم عينا واحدة فى وسط جبهته ، وكانوا يسكنون الكهوف ، ويعيشون على المحاصيل البرية بالجزيرة ، وعلى منتجات قطعانهم لأنهم كانوا رعاة ، فترك يوليسيس سفنه بالمرفأ ، وأقلع بسفينة واحدة إلى جزيرة الكيكلوبس ، يبحث عن الزاد ، فنزل مع رفاقه ، يحملون جرة من الخمر هدية ، ودخلوا كهفاً فسيحا

وصلوا إليه ، وإذ لم يجدوا به أحدا أخذوا يفحصون محتوياته ، فوجدوه زاخرا بأسمن القطمان ، وكميات الجبن ، وجرار اللبن وقصاعه ، وحملان وجداء فى حظائرها ، وكل شيء مرتب أجمل ترتيب ، وسرعان ماوصل صاحب الكهف ، بوليفيمس ، يحمل حزمة ضخمة من خشب الحريق ، ألقاها أمام فتحة الكهف ، ثم ساق داخل الكهف الأغنام والمعز لحلبها ، وبعد أن دخل سد فوهة الكهف بصخرة كبيرة لايستطيع عشرون ثورا زحزحتها ، ثم جلس يحلب النعاج ، وأعد شطرا من اللبن لعمل الجبن ، وحجز الباقى لشربه كمألوف عادته ، وإذ هو يدير بعد ذلك عينه العظيمة في أنحاء الكهف ، تبين الدخلاء ، فهمهم ودمدم ، وسألهم من يكونون ومن أين أتوا ، فأجاب يوليسيس فى تواضع وانكسار بأنهم يونانيون ، من الحملة العظيمة ، التى أحرزت أخيرا نصرا مؤزرا فى فتح طروادة ، وأنهم الآن فى طريقهم إلى وطنهم ، واختتم ملتمساً أن يكرم وفادتهم باسم الآلهة ، فلم يتفضل بوليفيمس بالجواب ، بل مد يده وأمسك باثنين من اليونانيين ، وضرب بهما عرض الكهف ، فنثر مخهما ، وراح يلتهمهما بتلذذ عارم ، وبعد أن استمتع بأكلة شهية ، تمدد فوق الأرض لينام ، فراودت يوليسيس نفسه ، كى ينتهز الفرصة ويغمد سيفه ، وهو نائم ، فى أحشائه ، ولكن تذكر أن هذا سيعرضهم جميعا لهلاك محقق ، ذلك لأن الصخرة التى أغلق بها المارد الباب ، لم يكن فى طاقتهم زحزحتها ، ولذلك كانوا سيبيتون فى حبس لانجاة لهم منه ولا فكاك ، وفى صباح اليوم التالى أمسك المارد بآخرين من اليونانيين ، ودق عنقيهما كرفيقيهما ، وأولم بلحمهما حتى لم تبق منه مزقة ، ثم زحزح الحجر عن الباب ، وساق قطعانه وخرج فى إثرها ، وسد الباب خلفه بعناية ، وحينما ذهب ، وضع يوليسيس خطة للأخذ بثأر أصدقائه القتلى ، والفرار مع الباقين على قيد الحياة من رفاقه ، فجعل رجاله يعدون قضيبا ضخما كان الكيكلوبس قد انتزعه لاستخدامه كهراوة ، وجدوها بالكهف فدببوا طرفه ، وحددوه بالنار وأخفوه تحت القش فوق أرضية الكهف ، ثم وقع الاختيار على أربعة من أبسلهم ، ضم يوليسيس نفسه إليهم خامساً ، وفى المساء

عاد الكيكلوبس إلي منزله ، ودحرج الحجر وأدخل قطيعه كالمعتاد ، وبعد حلبه للنعاج ، وتجهيز لبنها كما سبق أمسك باثنين آخرين من رفاق يوليسيس وهشم رأسيهما وتناول وجبة المساء بهما كما صنع مع الآخرين من قبل ، وبعد أن تناول عشاءه اقترب منه يوليسيس وسلمه طاسا من الخمر قائلا : « أيها الكيكلوبس هذه خمر تذوقها واحتسها بعد وجبتك من لحم البشر . » فتناولها وعبها ، وسربها كثيراً ، وطلب المزيد فزوده بها ثانية ، الأمر الذى أبهج المارد حتى وعده بأن يكرمه فلا يلتهمه إلا آخر الجماعة وسأله عن اسمه فأجابه يوليسيس قائلا : « اسمى لا إنسان . »

وبعد أن تناول المارد عشاءه استلقى للرقاد وسرعان ما استغرق فى النوم ، فدفع يوليسيس مع أصدقائه الأربعة المنتخبين بطرف السفود فى النار حتى أصبح بأكمله جمرة متقدة ، ثم إذ سددوه صوب عين المارد الوحيدة غيبوه فى محجرها ، وراحوا يديرونه كما يفعل النجار بمثقابه ، فملأ المسخ المخيف حنايا الكهف بصرخات استغاثته المدوية وابتعد يوليسيس ومعاونوه عن طريقه ، وأخفوا أنفسهم فى الكهف ، وفى صوت كخوار الثور ، راح ينادى جميع الكيكلوبس المقيمين فى الكهوف حوله ، القريبين والبعيدين ، فتقاطروا ، أثر صراخه ، حول كهفه ، واستفسروا عن الأذي الشديد ، الذي دفعه إلي إطلاق مثل هذه الصيحة ، وإزعاجهم من نومهم ، فأجابهم قائلا : «إنى أموت يا أصدقائى ، و (لا إنسان) سدد الضربة. » فأجابوه قائلين : « إذا كان لا إنسان أصابك ، فهذه ضربة جوبتر ، ولزام عليك أن تتحملها . » وحين قالوا هذا ، انصرفوا عنه وهو يتوجع .

وفي صباح اليوم التالى دحرج الكيكلوبس الحجر ، ليخرج قطيعه إلى المراعي ، ولكنه تصدر فتحة باب الكهف ليتحسسها جميعا وهى خارجة ، حتى لا يفر معها يوليسيس ورجاله ، ولكن يوليسيس اتخذ حيلة لإخفاء رجاله عن المارد فجعلهم يربطون كباش القطيع ، ثلاثة ثلاثة ، بيوص وجدوه بأرض الكهف ، وكان كل رجل

يلتصق ببطن الكبش الأوسط ، ويحميه من الجانبين الكبشان الآخران ، وفى أثناء مرورها كان المارد يتحسس ظهور الحيوانات وجوانبها ، ولكنه لم يفكر قط فى بطونها ، وهكذا مر جميع الرجال فى أمان . وكان يوليسيس نفسه آخر الكل ، وما كادوا يبتعدون بضع خطوات عن الكهف ، حتى حلوا أنفسهم من الكباش ، وساقوا شطراً كبيراً من القطيع إلى الشاطىء حيث كانت سفينتهم ، وشحنوها بكل عجلة ، ثم أقلعوا من الشاطىء ، وحين ابتعدوا إلى مسافة أمينة ، صاح يوليسيس قائلا : « كيكلوبس ، لقد جازتك الآلهة بما تستحقه على أعمالك الرهيبة ، فلتعلم أنك مدين لأوليسيس بعار فقدك لبصرك . » وحين سمع الكيكلوبس هذا أمسك بصخرة بارزة من جنب الجبل ، وانتزعها من مكانها ثم رفعها فى الهواء ، وقذف بها ناحية الصوت بعد أن أودعها كل قوته ، فسقطت الصخرة عن كثب من دفة السفينة ، ودفعت بها إلى اليابس حتى كادت الأمواج أن تغرقها ، وعندما ابتعدوا عن الشاطىء بعد لأى ونصب ، كان يوليسيس على وشك أن ينادى المارد ثانية ، ولكن أصدقاءه ناشدوه ألا يفعل ذلك ، ولكنه لم يسعه أن يعفى المارد من الوقوف على إفلاتهم من قذيفته ، إنما انتظر حتى أصبح بمأمن تام منه ، فانهال المارد عليهم باللعنات ، ولكن يوليسيس وصحبه أعملوا المجاديف بقوة ، وسرعان ما لحقوا برفاقهم .

بعد ذلك وصل يوليسيس إلى جزيرة أيولس (AEolus) ، وكان جوبتر قد أناط بهذا العاهل حكم الرياح ، يرسلها أو يحبسها كما يشاء ، فأكرم وفادة يوليسيس ، وعند رحيله أعطاه ، تلك الرياح التى قد تكون مؤذية وخطرة ، فى حقيبة من الجلد مربوطة بخيط من الفضة ، وأمر الرياح المواتية أن تهب متجهة بالسفن صوب بلاده ، فساقتهم الرياح رخاء تسعة أيام ، وطوال تلك المدة ظل يوليسيس واقفاً أمام سكان السفينة لا ينام ، وأخيراً رقد لينام وهو فى حالة إعياء تام ، وفيما هو نائم راح البحارة يتداولون الرأى فى أمر الحقيبة الخفية ، وانتهوا إلى أنها لا بد تحوى كنوزا أهداها الملك المضياف السخى ، أيولس ،

لقائدهم ، وعند محاولتهم الحصول علي نصيب لأنفسهم ، فكوا الخيط ، وحينئذ تدافعت الرياح إلي الخارج فورا ، فانحرفت السفن عن طريقها قصيا ، وعادت أدراجها إلى الجزيرة التى أقلعت منها ، فاستاء أيولس من حماقتهم حتى رفض أن يساعدهم ثانية ، واضطروا أن يعملوا جاهدين لاتخاذ الطريق السوى مرة أخرى ، مستخدمين مجاديفهم .

وكانت مغامرتهم الثانية مع قبيلة الليستريجونيين المتوحشة، فتكأكأت السفن جميعها داخل الميناء ، إذ أغرى البحارة منظر الخليج الآمن ، فانحصرت جميع السفن تماما داخل الميناء ، ما عدا سفينة يوليسيس التى رست فى الخارج ، وما كاد الليسترجونيين يجدون السفن تحت رحمتهم تماما ، حتى هاجموها ، وراحوا يقذفونها بأحجار ضخمة حطمتها وقلبتها رأسا على عقب ، وقضوا على البحارة بحرابهم وهم يكافحون للنجاة من الغرق ، فدمرت السفن جميعها وقضى على بحارتها ، ما عدا سفينة يوليسيس الخاصة ، التى ظلت فى الخارج ، وإذ لم يجد مناصا من الهروب حث رجاله على استخدام مجاديفهم بقوة وبأس شديد ، ولاذوا بأذيال الفرار .

وبمزيج من الحزن على رفاقهم القتلى ، والفرح لإفلاتهم من الهلاك ، واصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى جزيرة ايا (AE oe an Isle) حيث أقامت كيركا ، ابنة الشمس ، فرسا يوليسيس هنا ، واعتلى تلا ، وراح يتطلع حواليه فلم ير أى أثر لساكن سوى مكان وسط الجزيرة ، حيث شاهد قصرا تظلله الأشجار ، فبعث بنصف بحارته تحت قيادة يوريلوخس (Eurylochus) ، لاستطلاع ما ينتظرهم من ضيافة ، وحين اقتربوا من القصر وجدوا أنفسهم محاطين بالأسود والنمور ، والذئاب ، غير المفترسة ، إذ كانت كيركا قد روضتها بسحرها ، فهى ساحرة قوية ، وجميع هذه الحيوانات كانت من بنى البشر يوما ما ، ولكن كيركا حولتها بفنونها السحرية إلى هيئة الوحوش ، ومن الداخل كانت تنبعث أنغام موسيقية شجية ، وصوت رخيم لأنثى تغنى ، ونادى يوريلوخس بصوت

عال ، فخرجت الإلهة واستدعتهم للدخول ، فدخلوا جميعهم مبتهجين ، ما عدا يوريلوخس الذى توجس شرا ، وتقدمت الإلهة ضيوفها حيث أجلستهم ، وأمرت فقدمت لهم الخمر وأشهى الأطعمة ، وعندما ملئوا بطونهم من كل ما لذ وطاب ، مستهم ، واحدا تلو الآخر ، بعصاها السحرية ، وفى الحال انقلبوا إلى خنازير فى « الرأس ، والبدن ، والصوت ، والشعر » مع احتفاظهم بعقولهم كما كانت من قبل ، وحبستهم فى حظائرها ، وأمدتهم بثمار البلوط وغيرها من الأشياء التى تحبها الخنازير .

فأسرع يوريلوخس عائدا إلى السفينة ، وروى القصة ، وحينئذ عقد يوليسيس العزم على الذهاب بنفسه ، والعمل ، بكل الوسائل ، على إنقاذ رفاقه ، وإذ تقدم حثيثا بمفرده ، قابل شابا ، خاطبه دون كلفة ، إذ ظهر أنه على علم بمغامراته ، وأعلن أنه مركيورى ، وأطلع يوليسيس على حيل كيركا ، وخطر الاقتراب منها ، وحين عجز مركيورى عن أن يصرفه عن عزمه أمده بغصن من نبات الثوم البرى ، ذي المفعول العجيب فى مقاومة فنون السحر ، وأرشده كيف يتصرف ، ومضى يوليسيس قدما حتى وصل للقصر وهناك استقبلته كيركا فى بشر وإيناس ، واحتفلت به كما احتفلت برفاقه من قبل ، وبعد انتهائه من تناول الطعام والشراب ، مسته بعصاها السحرية قائلة : « ومن الآن فلتكن الحظيرة مشتهاك ، ولتتمرغ فى حمأتها مع رفاقك » ولكنه بدلا من الإذعان ، استل سيفه ، واندفع نحوها والشرر يتطاير من عينيه ، فجثت على ركبتيها تلتمس الرحمة ، حينئذ أملى عليها يمينا مغلظة رهيبة ، أن تطلق سراح رفاقه ، وألا تحاول بعد ذلك إيقاع الأذى به أو بهم ، فتلته من بعده ، وفى الوقت ذاته وعدت أن تصرفهم جميعا فى سلام ، بعد أن تحتفى بهم وتكرم وفادتهم ، وكانت عند وعدها ، فأعادت للرجال هيئاتهم الأولى ، واستدعت باقى البحارة من الشاطىء ، وراح الجميع يقصفون ، يوما أثر يوم ، حتى بدا كما لو كان يوليسيس قد نسى وطنه ، وراض نفسه على حياة الدعة واللهو غير الكريمة .

وأخيرا استحثه رفاقه إلى ميول أسمى وأنبل ، فتلقى نصحهم فى تقدير وعرفان للجميل ، ويسرت كيركا لهم أمر الرحيل ، وأرشدتهم كيف يمرون ،

فى سلام ، بساحل حوريات البحر المغنيات ، اللاتى كان فى استطاعتهن أن يفتن بأغانيهن كل من يسمعهن ، حتى إن البحارة التاعسين كانوا يندفعون ، فى قضاء محتوم ، فيلقون بأنفسهم فى اليم ، حيث يلاقون حتفهم ، وأشارت كيركا على يوليسيس أن يسد آذان بحارته بالشمع كى لا يسمعوا الأنغام ، وأن يسمح لهم ربطه فى الصارى ، محذرا إياهم أشد التحذير ، ألا يحلوا وثاقه بأية حال ، مهما قال أو فعل ، حتى يبعدوا عن جزيرة حوريات البحر المغنيات ، فأطاع يوليسيس هذه التعليمات ، وسد آذان رجاله بالشمع ، وجعلهم يربطونه بالحبال فى الصارى ربطا وثيقا ، وحينما أشرفوا على جزيرة حوريات البحر المغنيات ، كان البحر هادئا ، وعلت أنغام الموسيقى فوق هدير الماء ، شجية ساحرة صاعقة ، حتى إن يوليسيس راح يجاهد ويكافح كى يحل وثاق نفسه ، مبتهلا إلى رجاله ، بالإشارات والصياح ، لإطلاق سراحه ، ولكنهم إطاعة منهم لأوامره السابقة ، وثبوا إلى الأمام وزادوا وثاقه قوة وتمكينا ، واستمروا فى طريقهم لا يتحولون عنه أو يريمون ، وأخذت الموسيقى تخفت حتى بطل سماعها ، وعندئذ أعطى يوليسيس ، وهو مبتهج ، إشارة لرفاقه ، كى ينزعوا السدادة من آذانهم ، ويريحوه من أغلاله .

* * *

وكشف لنا خيال كيتس ، وهو شاعر محدث ، الأفكار التى جالت بخاطر ضحايا كيركا ، بعد مسخهم ، فصور فى قصيدته « انديميون » واحدا منهم ، وهو ماهل فى إهاب فيل ، مخاطبا الساحرة بلغة البشر قائلا :

« لست أطالب باسترداد تاجى وعزته ،
لست أطالب بفيلقى بالوغى وساحته ،
لست أطالب بزوجتى المترملة فى وحدتها ،
لست أطالب بقطرات حياتى فى حمرتها ،
ولا بأطفالى الحسان ، بنين وبنات ،

سأنساهم جميعا ، سأغفل هذه المسرات ،
لست أطالب بهذه السماويات الرفيعة ،
بل فقط محاباتى بميتة سريعة ،
لأتخلص من هذا البدن المعطل ؛
هذا القيد البغيض القذر المعرقل ،
ويلقى بى للهواء البارد والطل ؛
فأشفقى أيتها الإلاهة كيركا ! واستجيبى لصلاتى! »

* * *

سكيللا وخاريبدس

كانت كيركا قد حذرت يوليسيس من المسخين سكيللا وخاريبدس، وسبق أن تلاقينا مع سكيللا فى قصة جلوكس ، ونذكر أنها كانت فى يوم ما فتاة جميلة ، وقلبتها كيركا إلى مسخ أفعوى ، فأقامت فى كهف فوق شاطىء صخرى مرتفع ، اعتادت أن تبرز منه أعناقها الطويلة (إذ كان لها ستة رءوس) وتمسك بكل فم واحداً من بحارة كل سفينة تمر فى متناولها ، وكان الفزع الآخر ، خاريبدس ، غورا بمستوى الماء تقريبا ، وكان الماء يندفع يوميا ثلاث مرات داخل الهوة المخيفة ، وثلاث مرات يقذف خارجها ، وكل سفينة تمر عن كثب من الدوامة ، حين اندفاع التيار داخلها ، كانت حتما تبتلعها حتى ، إن نبتونا نفسه لم يكن ليستطيع إنقاذها .

وعند الاقتراب من موطن المسخين الرهيبين ، حرص يوليسيس على أن يكون تام اليقظة لاكتشافها ، وكان هدير المياه حين يبتلعها خاريبدس ، يحذر الآتين عن بعد ، ولكنه لم يكن فى الاستطاعة تبين مكان سكيللا ، وبينما كان يوليسيس ورجاله يراقبون الدوامة الرهيبة بعيون محاذرة ، لم يكونوا على حذر مماثل من

مهاجمة سكيللا لهم ، وعلى حين بغتة ألقت المسخ رءوسها الافعوية ، وأمسكت ستة من رجاله ، وحملتهم إلى كهفها ، وهم يولولون ، ولم يشاهد يوليسيس ، من قبل منظرا أشد أسى من هذا ، فأصدقاؤه يذهبون ضحية بهذه الصورة ، وهو يسمع صراخهم ، ويعجز عن نجدتهم .

وحذرته كيركا من خطر آخر ، فالأرض التي سيقع عليها بعد مروره بسكيللا وخاريبدس هي ثرينكيا (Thrinakia) ، وهي جزيرة ترعى فيها مواشي هيبريون ، إله الشمس ، تحت رعاية ابنتيه ، لمبتيا وفايثوسا ، فلا بد من تجنب استباحة هذه القطعان ، مهما كانت حاجة المسافرين إليها ، فإذا تعدى أحد حدود هذه الوصية ، كان الدمار حتما نصيب هؤلاء المتعدين .

وكان يوليسيس راغبا حقا في أن يجتاز جزيرة الشمس دون أن يقف عندها ، ولكن رفاقه طلبوا ملحين أن يأذن لهم بالإرساء وقضاء الليلة على الشاطيء التماسا للراحة والاستجمام ، حتى أذعن يوليسيس ، ولكنه قيدهم بقسم ألا يمسوا أي حيوان من المواشي والقطعان المقدسة ، بل يقنعوا بالمئونة المتبقية لديهم من المدخر الذي كانت كيركا قد أمدتهم بها ، وحرص القوم على هذا القسم ، طوال الفترة التي كان المدد فيها متصلا والمدخر لم ينفد ، ولكن رياحا غير مواتية حجزتهم بالجزيرة شهرا ، وبعد استهلاك كل المدخر من مؤنهم ، اضطروا إلى الاعتماد على الطيور والأسماك التي تيسر لهم اصطيادها ، ولكن الجوع ألح عليهم ، وأخيرا يوما ما ، في غيبة يوليسيس ، ذبحوا بعض الماشية ، ثم حاولوا عبثا إصلاح ما أفسدوه ، بتقديم قسم منها قربانا للقوات التي أساءوا إليها ، وعند عودة يوليسيس إلى الشاطيء ، عقد الفزع لسانه ، حين رأي ما صنعوه ، وزاد الطين بلة ، تلك العلامات المحيرة التي تلت ، فالجلود زحفت على الأرض ، وقطع اللحم راحت تخور على السفود عند شيها .

وحين أصبحت الريح رخاء ، أقلعوا من الجزيرة ، ولم يذهبوا بعيدا حتى انقلب الطقس ، وتبعته عاصفة رعدية ووميض البرق ، مع صواعق أسقطت إحداها صاري سفينتهم ، وأسفر سقوطه عن قتل الربان ، وأخيرا تحطمت السفينة وتفككت

أوصالها، وطفت قاعدة السفينة وصاريها جنبا إلى جنب ، فصنع يوليسيس منهما رمثا ، تعلق به، وإذ اعتدل الطقس حملته الأمواج إلى جزيرة كاليبسو ، وهلك جميع البحارة الآخرين .

***

والإشارة التالية للموضوعات التي عالجناها الآن ، مقتطفة من « الحفل البهيج » للمتون ، سطر ٢٥٢ :

« . . . . طالما سمعت
أمي كيركا والحوريات المغنيات الثلاث ،
وسط حوريات الينابيع المتسربلات بالأزهار ،
تنتقي أعشابها القوية وعقاقيرها السامة ،
ويسقن الروح السجينة أمامهن منشدات ،
فتصقلها بوادي اليسيوم . بكت سكيللا ،
ونهرت أمواجها النابحة كي تنتبه ،
وارتد خاريبدس وهو يتمتم مستحسنا . » ،

***

وأصبحت سكيللا وخاريبدس مضربا للأمثال، للاستشهاد بهما على الأخطار المتضادة التي تعترض طريق الإنسان .

***

كاليبسو

كانت كاليبسو إحدى حوريات البحر، والحوريات اسم يطلق على طائفة كبيرة من الربات أقل شأنا من الآلهة ولكنها تشاركها في كثير من الصفات، وقد استقبلت كاليبسو يوليسيس أحسن استقبال ، وأكرمت وفادته ، واحتفت بمقدمه ،

ووقعت صريعة هواه ، ومن ثمة أرادت حجزه معها إلى الأبد ، ومنحه الخلود ، ولكنه أصر على عزمه فى العودة إلى وطنه وزوجه وولده ، وأخيرا تسلمت كاليبسو أمر جوبتر كى تصرفه ، وقد أحضر مركيورى الرسالة إليها، ووجدها فى غارها ، الذى يصفه هوميروس كما يلى :

« كرمة يحوطها الترف من كل جانب ،
تغطى الكهف الفسيح ، وعناقيد العنب
دانية القطوف ، وأربعة ينابيع صافية ،
تجرى ، فى تعرجها ، جنبا إلى جنب ،
مطوفة حواليها ، حيث ازدانت الأرض ،
بالمراعى النضرة الخضراء، توشيها بلونها الأرجوانى،
زهرات البنفسج ، كان المنظر رائعا ،
يملأ إلها من السماء بالعجب والابتهاج . »



فأطاعت كاليبسو أوامر جوبتر فى كثير من التبرم ، وأطلعت يوليسيس على الطريقة التى يبنى بها رمثا ، وأمدته بالمئونة الكافية ، وهيأت له ريحا موانية ، فشق طريقه عبر الماء ، فى توفيق ، بضعة أيام ، وأخيرا عندما ظهرت اليابسة ، هبت عاصفة هشمت الصارى ، وهددت بتحطيم الرمث وتفكيك أوصاله ، فرأته ، فى مأزق حورية بحر شفيقة ، فهبطت على الرمث ، فى هيئة طائر « الغاق » المائى ، وأمدته منطقة ، وأرشدته أن يربطها تحت صدره ، وإذا اضطر أن يلقى بنفسه بين الأمواج ، طفت به فوق الماء ، ومكنته من الوصول إلى الشاطىء سابحا .



وساق لنا فنلون (Fenelon) فى قصته الخيالية (تليماخوس) (Telemachus) مغامرات ابن يوليسيس خلال بحثه عن أبيه ، ومن ضمن الأماكن الأخرى التى وصل إليها مقتفيا آثار والده ، جزيرة كاليبسو ، وكما حدث من قبل ، حاولت الإلاهة أن تحجزه معها بشتى الطرق ، وعرضت عليه أن تشركه معها فى الخلود ولكن منيرفا التى كانت ترافقه وتضبط كل تحركاته ، متخذة هيئة (Mentor)

أو مرب حكيم ،عصمته ونفرته من إغرائها وغوايتها ، ولما استعصت سبل الفرار لم يجد الصديقان مناصا من الوثوب، من فوق جرف صخرى إلى البحر ، وسبحا إلى قارب كان راسيا عند الشاطىء ، ويشير بيرون إلى وثبة تلياك ومربيه فى هذه الأبيات التالية :

« ولكن لا تمر فى صمت بجزائر كاليبسو ،
زميلات البحر الوسيط الشقيقات ،
فما زال هناك مرفأ يرحب بالمتعبين ،
مع أن الإلاهة الجميلة كفكفت عبراتها منذ بعيد ،
وكفت عن المراقبة الفاشلة لشواطئها الصخرية ،
فى سبيل من آثر عليها عروسا بشرية .
هنا أيضا قام ابنه بالوثبة الرهيبة ،
من عل للبحر ، بتحريض مربيه الصارم ،
وإذ فقدت ملكة الحوريات الاثنين تحسرت مرتين »

***

الباب الثلاثون

الفيكيان – مصير الخطاب

الفيكيان

وتعلق يوليسيس بالرمث طوال المدة التى بقيت فيها ألواح منه مشدودة إلى بعضها البعض ، وحينما عجزت الألواح عن حمله، ربط المنطقة حول نفسه، وعمد إلى السباحة ، فعبدت منيرفا لجة البحر أمامه ، وأرسلت إليه ريحاً رخاء ساقت الأمواج أمامه صوب الشاطىء ، وتلاطمت الأمواج الشطية فوق الصخور ، وبدت محذرة من الاقتراب ، وأخيراً إذ وجد الماء ساكنا عند مصب نهير هادىء ، خرج إلى البر ، وقد أنهكه الجهد الشديد ، حتى انبهرت أنفاسه ، وتعطلت حواسه أو كادت فلا ينطق أو يبين ، وبعد برهة، استرد حواسه ، فقبل الأرض مبتهجا، على الرغم من حيرته لعدم معرفته الطريق الذى يتخذه ، وعن كثب رأى غابة توجه إليها، وهناك إذ وجد ملجأ ، تظله أغصان متشابكة ، وتحميه من الشمس والمطر على السواء ، جمع كومة من أوراق الأشجار ، ومهد لنفسه فراشا ، تمدد فوقه ، وغطى نفسه بالأوراق ، وراح يغط فى نوم عميق .

وكانت الأرض التى ألقت به الأمواج فوقها ، هى سخيريا (Scheria) بلاد الفيكيان ، وكان هؤلاء القوم يقيمون أصلا قرب مسوخ الكيكلوبس ، ولكنهم ، لاضطهاد هذه الطغمة المتوحشة لهم، هاجروا إلى جزيرة سخيريا، بزعامة نوسيثويس (Nausithous) ملكهم ، ويقول الشاعر إنهم كانوا شعباً ذا رحم بالآلهة الذين كانوا يظهرون علانية ، ويشاركونهم احتفالاتهم حين يقدمون القرابين ، ولم يخفوا أنفسهم عن عابرى السبيل الفرادى ، حين يلتقون بهم ، وكانوا ينعمون بثراء طائل ، وعاشوا فى بحبوحته ، دون أن تزعجهم أخطار الحرب ، ذلك لأنهم إذ

كانوا يقيمون بعيداً عن الوصوليين من النـاس والنفعيين ، فلم يقرب عدو من شواطئهم، ولم يحتاجوا إلى أن يستخدموا القوس وجعبة السهام ، وكانت الملاحة متعتهم الرئيسية ، وكانت سفنهم ، التى تنساب بسرعة الطير ، مزودة الإدراك ، فتعرف كل ميناء ، ولا تحتاج إلى ربان ، وأصبح أنذاك الكينوس (Alcinous) بن نوسيثوس ملكا عليهم ، وهو عاهل حصيف عادل ، يحبه شعبه .

وحدث عندئذ أنه فى نفس المساء الذى قذفت الأمواج فيه يوليسيس على شاطئ جزيرة الفيكيان ، وبينما كان نائما على فراشه من أوراق الشجر ، رأت نوسيكاء (Nausicaa) حلما أرسلته إليها منيرفا ، تذكرها فيه أن يوم زفافها لم يكن قصيا ، وأنه من الحكمة بهذه المناسبة القيام بغسيل عام لملابس الأسرة جميعها ، ولم يكن هذا بالعمل السهل الميسر ، إذ كانت ينابيع المياه بعيدة ، ولابد من حمل الملابس إلى هناك ، وحينما استيقظت الأميرة ، خفت إلى والديها لتفضى إليهما بذات نفسها ، دون أن تشير إلى يوم زفافها ، إذ وجدت أسبابا تماثله فى وجاهتها فوافق والدها فورا ، وأمر الخدم بإعداد عربة نقل لهذا الغرض ، وضعت فيها الملابس ، كما وضعت الملكة الأم فى عربة النقل ، الوفير من ألوان الطعام والخمر وأخذت الأميرة مقعدها ، واستخدمت السوط ، وتبعتها حاشيتها من العذارى سيرا على الأقدام ، وحالما وصلن إلى شاطئ النهر أطلقن البغال لترعى ، وأفرغن وسق العربة ، وحملن الملابس إلى الماء ، وإذ أقبلن على العمل بسرور ونشاط ، أنجزنه سريعا ، ثم بعد أن نشرن الملابس على الشاطئ لتجف ، وقمن بالاستحمام فى النهر جلسن لتناول الطعام ، وبعد ذلك نهضن ورحن يلتمسن التسلية بلعب الكرة ، بينما كانت الأميرة تغنى لهن خلال اللعب ، وحين أعدن طى الملابس وأوشكن على أن يأخذن طريق العودة للمدينـة ، أسقطت منيرفا ، فى المـاء ، الكرة التى ألقتهـا الأميرة ، فصحن جميعهن ، وأيقظت يوليسيس جلبـة صياحهن .

وعلينا أن نصور الآن لأنفسنا يوليسيس ، بحاراً تحطمت سفينته ولـكنه أفلت من الأمواج منذ ساعات قليلة ، وقد تعرى من ملابسه كلها ، فاستيقظ

ليجد أن ثمة شجيرات معدودة هى التى تعترض الطريق بينه وبين طائفة من الصبايا اللاتى تبين له ، من سلوكهن وملابسهن ، أنهن لسن مجرد ريفيات ، ولكنهن فتيات من طبقة رفيعة ، وكانت حاجته ملحة للمعونة ، ولكن كيف يجسر ، مع عريه أن يكشف عن نفسه ، ويفصح عن احتياجاته ؟ لأمراء فى أنها مسألة جديرة بتوسط منيرفا ، إلاهته الحامية ، التى لم تتخل عنه قط وهو فى مأزق ، فانتزع غصنا مورقا من شجرة ، وستر به نفسه ، وبرز من الدغل ، ففرت العذارى عند رؤيته ، إلى كل اتجاه ، باستثناء نوسيكاء وحدها ، التى أمدتها إلاهتها منيرفا بالعون من لدنها ، وأنعمت عليها بالبسالة والحكمة ، وراح يوليسيس ، وهو واقف فى ترفع ووقور ، يروى مأساته ، ويلتمس من الجميلة (معترفا أنه لايدرى ما إذا كانت ملكة أو إلاهة) طعاما وكساء ، فردت عليه الأميرة ردا رقيقا ، ووعدته بنجدة فى التو واللحظة ، وبكرم ضيافة والدها ، حين وقوفه على الوقائع ، واستدعت وصيفاتها المبعثرات كى يعدن وهى تقرعهن لما أبدينه من فزع ، مذكرة إياهن بأنه ليس للفيكيان أعداء يخشونهم ، وأخبرتهن أن هذا الرجل مسافر منكود الحظ ، من الواجب رعايته ، إذ أن الفقراء والغرباء من لدن جوبتر ، وأمرتهن بإحضار طعام وكساء ، إذ كانت بعض ملابس أشقائها ضمن محتويات عربة النقل ، وحين تم هذا ، أوى يوليسيس إلى مكان مستور ، حيث اغتسل من زبد البحر ، وكسا بدنه وأقام أوده بالطعام ، فأغدق بللاس على هيئته رواء وعلى منكبيه العريضين وجبينه الخليق بالرجال تألقا وبهاء .

وحالما رأته الأميرة امتلأت إعجابا به ، ولم تجد غضاضة فى أن تذكر لفتياتها أنها تتمنى لو أن الآلهة حبوها بزوج مثله ، وأشارت على يوليسيس أن يتوجه للمدينة ، فى أعقابها مع حاشيتها ، طوال سيرهن فى الحقول ، فإذا أشرفن على المدينة ، رغبت إليه ألا يظهر برفقتها ، إذ خشيت ماقد يتداوله أوشاب الناس من تعليقات ، حين رؤيتها عائدة بصحبة غريب رشيق مثله ، ولتلافى هذا وجهته إلى أن يتوقف عند دغل مجاور للمدينة ، به مزرعة وبستان للملك ، وبعد فترة يتيسر فيها للأميرة وصاحباتها أن يصلن للمدينة ، فعليه عندئذ أن يأخذ طريقه إلى هناك ، ومن السهل أن يرشده أى شخص يلاقيه إلى المقر الملكى .

فأطاع يوليسيس التعليمات ، وأقبل على المدينة فى الوقت الملائم ، وحين اقترابه منها لاقى سيدة شابة ، تحمل جرة لتستقى ماء ، وهى منيرفا متنكرة فى هذا الزى ، فخاطبها يوليسيس ، راجيا إرشاده إلى قصر الكينويس الملك ، فردت عليه الشابة فى احترام ، وعرضت أن تكون مرشدة له ، لأن القصر ، كما ذكرت ، يجاور بيت أبيها ، وتحت قيادة الإلاهة ، وبقوتها التى لفت يوليسيس فى غمامة حجبته عن الأبصار ، أخذ طريقه مخترقا حشود العاملين ، وراح يشاهد ، فى غمرة من العجب ، مرفأهم ، وسفنهم ، وساحة الفورم (مجمع أبطالهم) ، وحصونهم ، حتى وصلا إلى القصر ، حيث تركته الإلاهة ، بعد أن زودته ببعض المعلومات عن البلاد والشعب والملك ، المقبل على لقائه ، وقبل أن يلج يوليسيس ساحة القصر ، وقف متطلعا حواليه ، فخلب بهاء المنظر لبه ، فالأسوار النحاسية ممتدة من مدخل القصر حتى المسكن الداخلى ، بأبوابه الذهب ، وعوارضه الفضة ، أما رصائد النوافذ والأبواب فمن الفضة الموشاة بالذهب ، وعلى كل من الجانبين تماثيل كلاب ضخمة من الذهب والفضة ، مصطفة كما لو كانت تقوم على الحراسة ، وعلى طول الأسوار مقاعد ، مغطاة بمفارش من أجمل النسيج ، صنعة فتيات الفيكيان ، وجلس الأمراء على هذه المقاعد يقصفون ، بينما تماثيل ذهبية ، لفتيان بديعى التكوين ، يحملون فى أيديهم شعلات مضيئة ، لإنارة المكان جعلت المنظر متألقا بهيجا ، وخمسون خادمة يرعين شئون المنزل ، فبعضهن يقمن بطحن الغلال ، والأخريات يقمن بغزل الصوف الأرجوانى أو نسجه على النول ، ذلك لأن نساء الفيكيان يبززن كافة نساء العالم فى إتقانهن للفنون المنزلية ، كما أن بحارة البلاد فاقوا باقى الجنس البشرى فى الملاحة وإدارة السفن ، وخارج القصر تمتد حديقة غناء فسيحة مساحتها أربعة أفدنة ، تنمو فيها شتى الأشجار السامقة ، من رمان وكمثرى وتفاح وتين وزيتون ، دون أن يعطل نموها برد الشتاء أو جفاف الصيف ، ولكنها كانت تزدهر فى تعاقب مستمر ، بعضها يبرعم ويزهر ، والبعض الآخر يتكامل نموه ويثمر ، والكروم لا تقل ثمارا وإنتاجا ، ففى ناحية ترى بعض دوالى العنب مزهرة ذات براعم ، والبعض الآخر محمل بالعناقيد الناضجة ، وفى ناحية أخرى ترى قطافى العنب يعصرونه لاستخراج الخمر ، وعلى حوافى الحديقة

كانت زهور من جميع الألوان تنمو نضرة يانعة طوال العام ، منسقة أجمل تنسيق ، وفى الوسط كانت نافورتان تقذفان بمياههما ، إحداهما تتدفق إلى كل أنحاء الحديقة بقنوات اصطناعية ، والأخرى تنساب إلى ساحة القصر ، حيث يتزود منها كل مواطن بما يحتاج إليه .

فوقف يوليسيس يملى بصره فى إعجاب ، دون أن يراه أحد ، إذ كانت الغمامة التى نشرتها منيرفا حوله ، لا تزال تحجبه عن الأبصار ، وأخيرا ، بعد أن متع بصره طويلا بالمنظر ، تقدم بخطوات سريعة نحو القاعة ، التى احتشد فيها الزعماء والشيوخ ، يهرقون السكائب لمركيورى ، حيث أعقبت عبادته وجبة المساء ، وعندئذ فقط بددت منيرفا الغمامة من حوله ، وأظهرته للزعماء المجتمعين ، فتقدم إلى حيث جلست الملكة ، وجثا عند قدميها ، والتمس إنعامها وعونها ، لتمكينه من العودة إلى وطنه ، ثم انسحب وجلس ، مع ذوى الحاجيات ، بجانب المدفأة .

ولبرهة لم يتكلم أحد ، وأخيرا وجه سياسى طاعن فى السن الخطاب إلى الملك فقال : « ليس من الملائم أن يظل غريب ، يلتمس كرم الضيافة ، مع طالبى الحاجيات ، دون أن يرحب به أحد ، دعه إذن يأخذ مقعدا بيننا ، ويتناول الطعام والخمر . » عند هذه العبارات نهض الملك ، وقدم يده ليوليسيس ، وقاده إلى مقعد ، نحى عنه ابنه ، ليفسح المكان للغريب ، ووضع الطعام والخمر أمامه ، فأكل وأنعش نفسه .

بعد ذلك صرف الملك ضيوفه ، بعد أن أخطرهم أنه فى اليوم التالى ، سيستدعيهم إلى جلسة ، للتفكير فى أفضل ما يمكن صنعه للغريب .

وحالما انصرف الضيوف ، تاركين يوليسيس بمفرده مع الملك والملكة ، سألته الملكة عمن يكون ، ومن أين أتى ، و (إذ عرفت أن الملابس التى كان يرتديها هى التى صنعتها مع خادماتها) من أين أتى بتلك الملابس ، فأخبرهما عن إقامته بجزيرة كاليبسو ، ورحيله من هناك ، وعن غرق رمثه ، ونجاته سابحا ،

وعن الصنيع الذى أسدته إليه الأميرة ، فأعاره الوالدان آذانا صاغية حانية ، ووعد الملك أن يمد ضيفه بسفينة يعود فيها إلى بلاده .

وفى اليوم التالى أيد الزعماء المجتمعون الوعد الذى قطعه الملك ، فجهزت سفينة وبحارة من خيرة المجدفين الأقوياء ، وتوجهوا جميعا إلى القصر حيث أقيمت لهم وليمة فاخرة ، وبعد المأدبة اقترح الملك أن يقوم الشبان بعرض براعتهم فى ألعاب القوي على ضيفهم ، فتقاطر الجميع على ساحة الملعب ، للقيام بألعاب العدو والمصارعة وغيرهما ، وبعد أن قام كل منهم بعرض أفضل ما عنده ، تحدى الحاضرون يوليسيس لعرض ما يستطيع ، فازور عنهم فى مبدأ الأمر ، ولكن أحد الشبان أحرجه بكلمات مستخفة ، فأمسك بقرص أثقل من أى قرص قذفه الفيكيان ، وألقى به فى رمية بز بها الجميع ، فرانت الدهشة على الحاضرين ، ونظروا إلى ضيفهم باحترام شديد متزايد .

وبعد الألعاب عادوا إلى القاعة ، وأدخل الحاجب إليهم ديمودوكس (Demodocus) الشاعر المغنى الضرير .

« ... عزيز عند إلاهة الموسيقى والشعر ،
التى قضت له بنصيبه فى الخير والشر ،
أعطته أنغاما علوية وسلبت منه البصر . »

* * *

فاختار لأغانيه موضوع « الحصان الخشبى » الذى أتاح لليونانيين دخول طروادة ، فهبط عليه الوحى من أبوللو ، وراح يسكب عواطفه وهو يغنى ساردا أهوال ومغامرات تلك الفترة المليئة بالأحداث ، حتى ابتهج الجميع ، ولكن يوليسيس تحركت أشجانه وانهمرت عبراته ، وإذ شاهد الكينويس هذا ، سأله حين انتهت الأغنية ، عما أثار أحزانه عند ذكر طروادة ، وعما إذا كان قد فقد أبا أو أخا أو أي صديق عزيز ، فأجاب يوليسيس مصرحا باسمه الحقيقى ، ونزولا على رغبتهم ، روى المغامرات التى وقعت له منذ رحيله عن طروادة ، فرفعت هذه القصة

إلى الذروة شعور التعاطف والإعجاب عند الفيكيان ، نحو ضيفهم ، واقترح الملك أن يقدم له جميع الزعماء هدايا ، وجعل من نفسه قدوة لهم ، فأطاعوا ، وتنافسوا فى إغداق هداياهم الثمينة على الغريب الذائع الصيت .

وفى اليوم التالى أبحر يوليسيس على ظهر سفينة الفيكيان ، ووصل سالما بعد وقت قصير إلى جزيرة ايثاكا، وحين وصلت السفينة إلى الشاطىء كان نائما ، فحمله البحارة إلى الشاطىء ، متحاشين إيقاظه ، وأنزلوا معه الصندوق ، الذي يحوي هداياه ، ثم أبحروا عائدين .

وقد استاء نبتونا من سلوك الفيكيان لإنقاذهم يوليسيس من يده ، حتى إنه عند عودة السفينة إلى الميناء ، حولها إلى صخرة فى مواجهة مدخل المرفأ .

وهوميروس ، فى وصفه لسفن الفيكيان ، يبدو كما لو كان قد توقع عجائب الملاحة التجارية الحديثة ، فالكينويس يخاطب يوليسيس قائلا :

« قل من أية مدينة ، ومن أية أقاليم أقدمت ،
وبمن من الأهلين تفاخر تلك الأقاليم ،
وعندئذ سرعان ما تصل إلى الصقيع المنشود ،
فى سفن عجيبة ، تسير بنفسها ، وتدرك بعقلها ،
فلا دفة تضبط مجراها ، ولا ربان يقودها ،
فهى كالإنسان بحصافة تشق عباب البحار ،
مدركة لكل ساحل ، واعية بكل خليج
يقع تحت أشعة الشمس التى ترى كل شىء .

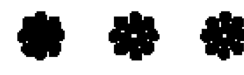
الأوديسا — الكتاب الثامن.

* * *

ولورد كارسل فى « المدونة اليومية عن البحار التركية واليونانية » يتكلم عن كورفو ، التى يعتبرها جزيرة الفيكيان القديمة ، فيقول :

« المواقع توضح الأوديسا ، فمعبد إله البحر ، لا يتيسر أن يكون فى مكان أكثر ملاءمة ، فوق سطح معشوشب من مرج ممتد ، على جبهة صخرة شاهقة ، تطل على المرفأ والبوغاز والمحيط ، وعند فوهة المرفأ الداخلى ، صخرة بديعة يعلوها دير صغير ، وهى التى ذكرت الأساطير أنها قارب يوليسيس المتحول .

« ويكاد النهر الوحيد بالجزيرة أن يكون على بعد ملائم من الموقع المحتمل للمدينة ولقصر الملك ، لتبرير استخدام نوسيكاء لمركبها ، وتناولها الغذاء ، حين ذهبت مع حاشيتها لغسل الثياب . »



مصير الخطاب

وكان يوليسيس قد ظل حتى الآن بعيدا عن إيثكا عشرين عاما ، وحينما استيقظ لم يتعرف على معالم بلاده ، فظهرت له منيرفا فى إهاب راع شاب ، وأخطرته بمكان وجوده ، وأطلعته على أحوال قصره وسير الأمور به ، فأكثر من مائة من أشراف إيثكا والجزائر المجاورة ، يلاحقون زوجته بنيلوبا ، ويرهقونها بطلب يدها ، منذ سنين ، وكى يستطيع أن يثأر منهم ، لا بد أن يبقى مجهولا لا يتعرف عليه أحد ، ولهذا الغرض غيرت منيرفا هيئته إلى شحاذ مغمور ، وبهذه الصورة رحب به يوماءس (Eumaeus) راعى الخنازير ، وخادم بيته الأمين .

وكان ابنه تليماخوس غائبا يفتش عن أبيه ، فتوجه إلى قصور الملوك الآخرين الذين عادوا من حملة طروادة ، وإذ هو منهمك فى هذا البحث ، وصلته رسالة من منيرفا بالعودة إلى وطنه ، فوصل عائداً ، وبحث عن يوماءس ، ليقف على طرف من أحوال القصر قبل أن يكشف عن نفسه للخطاب ، وحين وجد غريبا مع يوماءس عامله برفق وأدب جم ، على الرغم من هيئته كمتسول ، ووعد بمساعدته وأرسل يوماءس إلى القصر لإخطار بنيلوبا سرا بوصول ابنها ، إذ كان الحذر ضروريا

فيما يتعلق بالخطاب الذين ، كما علم تليماخوس ، كانوا يتآمرون على التحرش به وقتله ، وعندما ذهب يوماءس ، ظهرت منيرفا ليوليسيس ، وأشارت عليه بأن يكشف لابنه عن حقيقته ، وفى الوقت نفسه مسته ، وأزالت عنه هيئة الشيخوخة والخصاصة ، وأعادت إليه هيئة الرجولة القوية المتدفقة التى كانت من خصائصه فتطلع إليه تليماخوس وقد عقدت الدهشة لسانه ، وظن فى مبدأ الأمر أنه حتما أسمى من البشر ، ولكن يوليسيس عرفه بأنه والده ، وعلل التغيير الذى طرأ على منظره ، بأنه من عمل منيرفا وكراماتها .

« ... عندئذ طوق تليماخوس
بذراعيه عنق والده ، وبكى .
وألحت بالاثنين رغبة عارمة للعويل
وراحا يتهامسان ، كل يفرج
حزنه . »

.·.

وتشاور الأب والابن فيما يمكن عمله للظفر بالخطاب والاقتصاص منهم على إتيانهم حرمة القصر وتعدياتهم ، فتم الاتفاق على أن يتقدم تليماخوس إلى القصر ويختلط بالخطاب كعهده السابق ، وأن يذهب يوليسيس أيضا كشحاذ ، وهو شخصية كان لها فى العهود القديمة غير المتحضرة ، مزايا تختلف عما نمنحه لها الآن ، فكان من المصرح للمتسول ، كسافر وقصاص ، أن يتردد على ساحات رؤساء العشائر ، حيث يعامل دائما كضيف ، ولكن لامراء أنه أحيانا يقابل بالازدراء ، وشدد يوليسيس على ابنه ألا يبين، بأى مظهر من مظاهر الاهتمام غير المعتاد به ، أنه يعرف عنه أكثر مما يبدو عليه ، وحتى إذا رآه يسب أو يضرب فلا يتدخل إلا كما يتدخل مع غريب عنه ، وفى القصر شاهدا المنظر المألوف من القصف والعربدة واللهو ، واستقبل الخطاب تليماخوس ، متظاهرين بالابتهاج لعودته ، وإن كانوا يطوون النفس على الغل والأسى لإخفاق مؤامراتهم فى

القضاء عليه ، وصرح للشحاذ الشيخ بالدخول ونال نصيبا من أطايب المائدة ، وحين دخل يوليسيس ساحة القصر ، وقعت حادثة تهز المشاعر ، فثمة كلب كادت الشيخوخة تقضي عليه ، كان رابضا فى الساحة ، وحين رأى الغريب داخلا رفع رأسه ، وأرهف أذنيه ، فهو أرجوس ، كلب يوليسيس الخاص ، الذى طالما صحبه ، للصيد والقنص ، فى الأيام الخالية .

« . . . . وحالما رأى
بقربه يوليسيس بعد غيبته الطويلة ، أرخى أذنيه ،
وأرهف السمع ، وبصبص فى حبور بذنبه
مهنئا ، لعجزه عن النهوض منتصبا
وموافاة سيده ، كما عهده من قبل .
وحين رآه يوليسيس ، رقأ دمعة
غير ملحوظة .

. . . . عندئذ أطلق الموت سراح
أرجوس الهرم ، فقد عاش حتى رأى
يوليسيس عائدا فى العام العشرين .

∴

وحينما جلس يوليسيس لتناول طعامه فى القاعة ، أخذ الخطاب يتبادلونه بالسباب والتجريح ، وعندما أبدى احتجاجه برفق ، رفع أحدهم مقعدا وقذفه به فوجد تليماخوس صعوبة فى كبت غضبه حين رأى والده يعامل بهذه الغلظة داخل قصره ، ولكنه إذ تذكر أوامر والده ، لم ينطق إلا بما يستلزمه مركزه كسيد للمنزل ، على الرغم من صغر سنه ، وكحام لضيوفه .

كانت بنيلوبا قد أرجأت البت فى الأمر ، لصالح أى من خطابها ، طويلا حتى بدا أنه لم يعد هناك أى مبرر للتأخير ، فغياب زوجها المتواصل بدا كافيا لإثبات

أن عودة زوجها لم تعد متوقعة ، وفى الوقت ذاته أصبح ابنها يافعا قادرا على إدارة شئونه الخاصة ، لهذا رضيت أن تعلق أمر اختيارها على مباراة فى البراعة بين خطابها ، وكانت الرماية بالقوس هى التى وقع عليها الاختيار ، فرتبت اثنتى عشرة حلقة فى صف واحد ، ومن مرق سهمه خلال الحلقات الاثنتى عشرة فاز بالملكة جائزة له ، فاستحضروا من مستودع الأسلحة قوسا كان أحد الإخوة الأبطال قد أهداها ليوليسيس ، فى الأيام الخالية ، ومعها جعبة مليئة بالسهام ، ووضعوها فى قاعة القصر ، وقد راعى تليماخوس إبعاد جميع الأسلحة ، على زعم أن ثمة خطرا قد يسفر عن حدة المنافسة ، إذ قد يسيئون استخدامها فى لحظة متهورة .

وبعد إعداد كل شىء للمباراة ، كان أول شىء يلزم عمله ، هو إحناء القوس لوصل الوتر ، فحاول تليماخوس جاهداً أن يفعل هذا ، ولكنه وجد أن جهوده غير مثمرة ، وإذ اعترف فى تواضع ، بأنه حاول مهمة فوق طاقته ، سلم القوس لآخر ، فلم يكن نصيبه من النجاح أوفر من سابقه ، وفى عاصفة من من ضحك زملائه وصفير استهزائهم ، تنحى يائسا ، وحاول آخر فآخر ، وهم يحكون القوس بالشمع ، ولكن دون جدوى ، فلم يستطع أحد إحناء القوس ، حينئذ تكلم يوليسيس ، مقترحا فى تواضع ، السماح له بالمحاولة ، ذلك لأنه ، على حد قوله : « وإن كنت متسولا ، فقد كنت جنديا يوما ما ، وما زالت هناك بعض القوة ، بأعضاء جسمى الطاعن فى السن » فضج المكان بضحكات الاستهزاء وصفير الازدراء التى صدرت عن الخطاب ، ولكن تليماخوس تكلم مدافعا عنه ، وكى يرضى الشيخ فحسب ، أمره بأن يحاول ، فتناول يوليسيس القوس ، فكان كمن أعطوا القوس باريها ، وفى يسر ثبت الوتر فى مكانه . ثم وضع سهما بالقوس وجذب الوتر وأطلقه داخل الحلقات لا يريش .

ودون أن يتيح لهم فرصة يعبرون فيها عن دهشتهم قال : « والآن فإلى هدف آخر ! » وسدد السهم مباشرة إلى قلب أشد الخطاب وقاحة ، فاخترق السهم عنقه وخر صريعا ، وفى الحال وثب تليماخوس ويوماءس وتابع أمين

آخر إلى جانب يوليسيس وهم فى كامل سلاحهم ، فتطلع الخطاب حواليهم يلتمسون سلاحا فلم يجدوا شيئا ، كما أنهم لم يجدوا أمامهم سبيلا للفرار ، إذ كان يوماءس قد استوثق من الباب ولم يترکهم يوليسيس طويلا فى الشك ، فأعلن عن نفسه باعتباره الزعيم المفقود منذ أمد طويل ، الذى غزوا منزله ، واستباحوا ماله ، واضطهدوا زوجه وابنه عشر سنوات طويلة ، وصارحهم بما ينويه إزاءهم من انتقام رهيب ، فقتل الجميع ، وبقى يوليسيس سيداً على قصره ، وعاهلا لمملكته ، ومالكا لزوجه .

. . .

وقصيدة تنيسون « يوليسيس » تصور البطل الشيخ ، بعد انتهاء مخاطره ، ولم يبق له شىء سوى المسكث فى المنزل والحياة الرغيدة ، وقد ران عليه السأم من البطالة ، فعقد العزم على الرحيل ثانية ، بحثا عن مغامرات جديدة :

« . . . . . . هلم إلى يا أصدقائى ،
فلم تفت الفرصة بعد للبحث عن عالم جديد
أقلعوا ، وحين تجلسون منتظمين اضربوا بالمجاديف
تلك الأمواج وهى تهدر ، فقد استقر منى العزم
على الإبحار وراء مغرب الشمس ، وإلى حيث تستحم
جميع النجوم التى فى الغرب ، حتى ألاقى حتفى .
قد يكون من نصيبنا أن تفرقنا الخلجان ،
أو لعلنا نصل سالمين إلى الجزائر الهانئة ،
ونرى أخليس العظيم الذى عرفناه » إلخ

الفصل الحادى والثلاثون

مغامرات إينياس – مسوخ النسنوس – ديدو وبلنروس .

مغامرات اينياس

لقد تتبعنا أحد أبطال اليونانيين ، وهو يوليسيس ، فى طوافه حين عودته إلى وطنه من طروادة ، والآن ننوى أن نسهم فى مقدرات بقية الشعب المقهور، تحت زعامة إينياس، فى بحثهم عن وطن جديد ، بعد تدمير مدينتهم ومسقط رأسهم، ففى تلك الليلة المشئومة ،حين أفرغ الحصان الخشبى مافى باطنه من الرجال المسلحين ، وأسفر الأمر عن الاستيلاء على المدينة وحرقها ، توصل إينياس للفرار من مكان الدمار مع والده وزوجته وابنه الصغير، وكان الوالد أنخسيس(Anchises)طاعنا فى السن إلى حد لم يستطع معه السير بالسرعة المطلوبة ، فحمله إينياس على منكبيه ، وسار بحمله هذا ، وابنه فى يده ، وزوجته تتبعه ، حتى أشرف على الخروج من المدينة المحترقة ، ولكن الجماهير ، خلال الهرج ، اكتسحت زوجته فلم يقف لها على أثر .

وعند الوصول إلى مكان الموعد ، كان هناك عدد غفير من اللاجئين ، من كلا الجنسين، فوضعوا أنفسهم تحت قيادة إينياس، فانقضت بضعة شهور فى الاستعداد، وأخيرا أبحروا ، فأرسوا أولا على شواطىء ثراكا المجاورة ، وكانوا يتأهبون لإنشاء مدينة ، ولكن أعجوبة أعاقت إينياس ، فبينما هو يستعد لتقديم محرقة ، انتزع بضعة أغصان من إحدى الشجيرات ، فقطر مكان الأغصان من الشجيرات دماً صبيبا ، وحينما أعاد الكرة ، صاح صوت من الأرض قائلا له : « أشفق على يا إينياس فأنا قريبك بوليدور (Polydore) ، سقطت هنا قتيلا بسهام كثيرة ، ومنى نبتت شجيرة غذتها دمائى . »

فأعادت هذه الكلمات إلى ذاكرة إينياس أن بوليدور كان شابا من أمراء طروادة أرسله والده ، مثقلا بالكنوز ، إلى إقليم ثراكا المجاور ، لتربيته هناك ، بعيدا عن أهوال الحرب ، فقتله الملك الذى قدم إليه واستولى على كنوزه ، وإذ اعتبر إينياس ورفاقه هذه البقعة ملعونة لتلطخها بمثل هذه الجريمة ، أسرعوا مبتعدين .

بعد ذلك نزلوا بجزيرة ديلوس ، التى كانت يوما ماجزيرة طافية ، حتى ثبتها جوبتر بقيود حديدية إلى أعماق البحر ، وهناك ولد أبوللو وديانا ، وهى جزيرة مقدسة عند أبوللو ، وهناك أيضا استشار إينياس كاهن أبوللو ، وجاءه الرد غامضا كالمعتاد : « ابحث عن أمك التليدة ، فهناك ستقيم عشيرة إينياس ، وستخضع جميع العشائر الأخرى لسلطانها . » فسمع الطرواديون وهم فرحون ، وشرعوا فورا يسأل كل منهم الآخر : « أين البقعة التى أشار إليها الكاهن؟ » فتذكر أنخسيس رواية متواترة تزعم أن أسلافهم قدموا من كريت ، ومن ثمة عقدوا العزم على الإبحار إلى هناك ، فوصلوا إلى كريت ، وشرعوا يبنون مدينتهم ، ولكن المرض تفشى فيهم ، وعجزت الحقول التى زرعوها عن إعطاء أى محصول ، وفى هذه الصورة القاتمة للأمور ، جاء تحذير إلى إينياس فى حلم ، كى يرحل عن هذا المكان ، ويبحث فى الغرب عن إقليم يسمى هسبريا (Hesperia) ، الذى هاجر منه أصلا داردنس المؤسس الحقيقى لعشيرة الطرواديين ، ومن ثمة حولوا اتجاههم إلى هسبريا التى تسمى الآن إيطاليا ، فلم يصلوا إليها إلا بعد مغامرات عديدة ، وانقضاء مدة من الزمن كافية لحمل ملاح معاصر ، حول العالم ، عدة مرات .

مسوخ النسنوس

فأرسوا أولا عند جزيرة مسوخ النسنوس ، وهذه كانت طيورا بغيضة ، لها رءوس فتيات ، ومخالب طويلة ، ووجوه شاحبة من الجوع ، وكانت الآلهة قد أرسلتها للقيام على تعذيب فنيوس (Fineus) الذى سلب منه جوبتر بصره ، عقابا له على قسوته ، وكلما وضع أمامه طعام ، حطت عليه مسوخ النسنوس من الجو وطارت به بعيدا ، وقد طرد هذه المسوخ عن فنيوس أبطال حملة الأرجوس فلجئوا إلى هذه الجزيرة التى وجدهم إينياس فيها آنذاك .

وحينما دخل الطرواديون الميناء شاهدوا قطعان الماشية ترعى فى السهل ، فذبحوا منها قدر ما أرادوا استعدادا للمأدبة ، ولكنهم ما كادوا يجلسون إلى المائدة ، حتى امتلأ الجو بضجيج مرعب ، وحط عليهم سرب من مسوخ النسنوس البغيضة ، واختطفت اللحم بمخالبها من الأطباق وطارت به بعيدا ، فامتشق إينياس ورفاقه سيوفهم وراحوا يكيلون الطعنات للمسوخ ، ولكن دون جدوى ، إذ كانت رشيقة الحركة حتى استحال ضربها أو كاد ، كما أن ريشها كان كالزرد لا يخترقه الحديد ، وحطت إحدى المسوخ فوق صخرة مجاورة ثم صاحت قائلة : « أهكذا ، أيها الطرواديون ، تعاملوننا نحن الطيور البريئة ، تبدءون بذبح ماشيتنا ، وتنتهون بشن الحرب علينا ؟ » وبعد ذلك استنزلت عليهم ، متكهنة ، أقسى ضروب العناء والوصب فى مستقبل حياتهم ، وحين أفثأت غضبها طارت بعيدا ، فعجل الطرواديون بالرحيل عن هذا الاقليم ، وعندئذ وجدوا أنفسهم مبحرين حذاء شاطىء أبيروس ، فأرسوا هنا ، وعلموا ، وهم مندهشون ، أن بضعة منفيين طرواديين ، وكانوا قد اعتقلوا هناك كأسرى ، أصبحوا حكاما للإقليم ، وأصبحت أندروماخا ، أرملة هكتور ، زوجة لأحد زعماء اليونانيين المنتصرين ، وأنجبت منه غلاما ، وحين مات زوجها ، خلفها حاكمة للبلاد ، ووصية على ابنها ، فتزوجت أحد زملائها الأسرى ، وهو هلينس (Helenus) من أسرة طروادة الملكية ، فأكرم هلينس وأندروماخا وفادة المنفيين إلى أقصى حد ، وصرفاهم مثقلين بالهدايا .

ومن هناك أبحر إينياس محاذيا لشاطىء صقلية ومارا ببلاد الكيكلوبس ، وهنا ناداهم من الشاطىء كائن منكود ، تبينوا من ملابسه ، على الرغم من هلهلتها ، أنه يونانى ، فأخبرهم أنه أحد رفاق يوليسيس ، تركه هذا الزعيم خلفه ، حين رحيله العاجل ، وروى قصة مغامرة يوليسيس مع بوليفيمس ، والتمس منهم أن يأخذوه معهم ، إذ لم يكن لديه أية وسيلة للعيش بهذا المكان سوى التوت البرى وجذور النباتات ، كما أنه يعيش فى ذعر دائم من الكيكلوبس ، وبينما هو يتكلم ، برز بوليفيمس للعيان « مارد مرعب ، لا منظر له مترامى الأطراف ، سملت عينه الوحيدة » وسار بخطوات حاذرة ، متحسسا طريقه بهراوته ، منحدرا إلى شاطىء البحر ، ليغسل محجر عينه فى الأمواج ، وعندما وصل إلى الماء ، خاضه فى طريقه

إليهم ، ويسر له ارتفاعه الشاهق أن يتوغل فى البحر ، حتى ران الفزع على قلوب الطرواديين ، فأعملوا المجاديف كى يبعدوا عن طريقه ، وحينما سمع بوليفيمس صوت المجاديف ، صاح خلفهم ، حتى رددت الشواطىء صياحه ، فتقاطر زملاء الكيكلوبس ، من الكهوف والغابات ، على هذه الجلبة ، ووقفوا على الشاطىء ، كصف من أشجار الصنوبر السامقة ، فجد الطرواديون فى التجديف وسرعان ما ابتعدوا واختفوا عن الأبصار .

وكان، إينياس قد حذر هلينس كى يتجنب البوغاز الذى يقوم على حراسته المسخين سكيللا وخاريبدس ، وهناك ، كما يذكر القراء ، فقد يوليسيس ستة من رجاله ، أمسكت بهم سكيللا، بينما كان الملاحون متجهين بكل انتباههم لتفادى خاريبدس ، واتباعا لنصيحة هلينس ، تجنب إينياس الممر الخطر وأبحر محاذيا لجزيرة صقلية .

وحين رأت يونو الطرواديين موفقين فى شق طريقهم سراعا صوب شاطئهم المنشود ، طغى عليها حقدها القديم الذى تكنه نحوهم ، إذ لم تستطع أن تنسى امتهان باريس لكرامتها ، بمنحه جائزة الجمال لغيرها . « أميسور أن يستقر فى العقول الإلهية مثل هذا الحقد ! » ومن ثمة خفت إلى أيولس ، حاكم الرياح ، — وهو نفسه من أمد يوليسيس بالرياح المواتية ، وأعطاه العواصف المضادة معبأة فى حقيبة ، فأطاع أيولس الإلهة ، وأرسل بنيه بورياس وتيفون والرياح الأخرى ، لإثارة أمواج المحيط ، ومن ثمة هبت عاصفة هوجاء ، فانحرفت السفن الطروادية ، عن مجراها ، صوب ساحل أفريقيا ، وأحدق بها خطر الغرق من كل جانب وتشتت جميعها حتى ظن إينياس أنه لم تنج سوى سفينته .

وفى هذا المأزق ، حين سمع نبتونا زئير العاصفة ، ولعلمه أنه لم يصدر أمره لهبوب أية واحدة ، رفع رأسه فوق الأمواج ، ورأى أسطول إينياس تكتسحه العاصفة ، ولوقوفه على عداوة يونو لم يتعذر عليه أن يفطن للسبب ولكن هذا لم يخفف من غضبه لهذا التدخل فى سلطته ، فنادى الرياح وطردها وهو يزجرها

وينهرها ، ثم هدأ الأمواج ، وأقشع الغيوم من أمام وجه الشمس، ودفع من فوق الصخور ، بصولجانه ذي الشعب الثلاث ، بعض السفن ، بينما تريتون وإحدى حوريات البحر ، وضعا مناكبهما تحت سفن أخرى ، وعوماها ثانية ، وحين هدأ البحر ، بحث الطرواديون عن أقرب شاطىء ، وهو ساحل قرطاجة (Carthage) حيث غمرت السعادة قلب إينياس حين وجد السفن تصل سالمة ، واحدة إثر الأخري ، على الرغم مما لحقها من عطب شديد .

* * *

ويشير ولر (Waller) في قصيدته « رثاء للسيد الحامى » (كرومويل) إلى ما فعله نبتونا من تهدئته للزوبعة :

« فوق الأمواج ، كما أظهر نبتونا وجهه ،
لينهر الرياح ويقمعها ، ويخلص شعب طروادة ،
كذلك سموت أنت بعظمتك فوق الآخرين ،
وكبت عواصف الأطماع عن التلاعب بنا » .

* * *

ديدو

وكانت قرطاجة التي وصل المنفيون إليها وقتئذ ، بقعة على ساحل أفريقيا المواجه لصقلية ، حيث كانت في ذلك الحين ، مستعمرة صورية (نسبة إلى مدينة صور) ، تحت حكم ملكتها ديدو ، تضع الأساسات لدولة ، قدر لها أن تنافس روما نفسها في الأجيال القادمة ، وكانت ديدو ابنة بيلوس ، ملك صور ، وأخت بيجماليون ، الذي خلف والده على العرش ، وكان زوجها سيخوبوس (Sichoeus) رجلا طائل الثراء ، ولكن بيجماليون ، الذي حسده على كنوزه وطمع فيها ، تسبب في القضاء على حياته ، فوقفت ديدو ، مع جمع غفير

من الأصدقاء والاتباع ، رجال ونساء ، إلى الفرار من صور ، فى عدة سفن ، حاملين معهم كنوز سيخويوس ، وعند وصولهم إلى البقعة التى اختاروها كمركز لوطنهم الجديد ، لم يطلبوا من الأهلين سوى قطعة أرض يستطيعون إحاطتها بجلد ثور ، فلما نالوا الموافقة على هذه المنحة ، أمرت بقطع الجلد سيورا ، أحيطت بها قطعة أرض ، بنت فوقها قلعة سمتها بيرسا (Byrsa) ومعناها «جلد حيوان» ، وحول هذه القلعة قامت مدينة قرطاجة ، التى سرعان ما قويت وازدهرت .

كانت هذه هى الحال التى سارت عليها الأمور ، عندما وصل إينياس ورفاقه الطرواديون إلى هناك ، فاستقبلت ديدو المنفيين العظام فى مودة وأكرمت وفادتهم وهى تقول : « ليس الضنى غريبا على ، لذلك تعلمت أن أخف لنجدة البائسين . » وظهر كرم الملكة جليا فى الحفلات التى عرضت فيها ألعاب القوى والمهارة ، وقامت المباراة لإحراز قصب السبق ، بين الغرباء ورعايا الملكة ، على قدم المساواة ، وصرحت الملكة قائلة « إن المنتصر سواء أكان طرواديا أم صوريا لن يغير من الأمر شيئا . » وفى الوليمة التى تلت الألعاب ، قام إينياس ، بناء على رغبتها ، بسرد الأحداث الختامية لتاريخ طروادة ، ومغامراته بعد سقوط المدينة ، فانبهرت ديدو بحديثه وامتلأت إعجابا بمغامراته ، فهامت به حبا واستبد بها الوجد ، وهو من جانبه بدا راضيا مغتبطا بالفرصة المواتية التى ظهر أنها ستهيىء له فورا نهاية سعيدة لطوافه : وطنا ومملكة وعروسا ، ومرت الشهور تباعا وهما فى غمرة من هذه الصلة السعيدة ، وبدا كما لو أن إيطاليا والإمبراطورية المرتقب تأسيسها على شواطئها ، قد طواهما النسيان سواء بسواء ، وحين رأى جوبتر هذا ، أوفد مركيورى برسالة إلى إينياس ، يذكره بمصيره الرفيع ويستحثه إليه ، ويأمره باستئناف سفرته .

فرحل إينياس مخلفا ديدو ، على الرغم من أنها حاولت حجزه ، بكل ضروب الفتنة والإغواء ، وكانت اللطمة الموجهة إلى حبها وكبريائها أشد من أن تحتمل ، وعندما وجدت أنه رحل ، اعتلت محرقة جنائزية ، كانت قد أمرت بإقامتها ، وبعد أن طعنت نفسها بخنجر ، التهمت جثتها النيران ، وحين اندلع اللهب مرتفعا

فوق المدينة ، شاهده الطروادیون الراحـلون ، وعلى الرغم من أن السبب كان مجهولا فإنهم لحوا لإينياس بالحادث المشئوم .

وفى قصيدة « مقتطفات بارعة » وردت الأفكوهة الشعرية التالية :

عن اللاتينية
« ديدو ، كان منكودا مصيرك ،
فى المرتين الأولى والثانية من زواجك !
فزوج سبب بوفاته فرارك ،
وآخر سبب بفراره وفاتك . »

***

باليـنورس

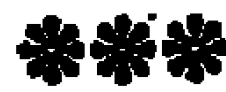
وبعد وصول الطرواديين إلى جزيرة صقلية ، التى كان يحكمها أكستيس (Acestes) وهو أمير من ذرارى الطرواديين أكرم وفادتهم ، أبحروا ثانية ميممين شطر إيطاليا ، وتشفعت آنئذ فينوس لدى نبتونا كى يسمح لابنها أخيراً بالوصول إلى الهدف المنشود ،ووضع حد للأخطار التى تعرض لها بالبحار، فقبل نبتونا الشفاعة مشترطا تقديم حياة واحدة كفدية عن الباقين ، وكان بالينورس ربان السفينة ، هو الضحية المطلوبة ، وبينما هو جالس ، يراقب النجوم ، ويده على الدفة ،تقدم منه سومنس موفدا من قبل نبتونا ، ومتنكرا فى زى فوربس وخاطبه قائلا : « بالينورس ، الريح رخاء ، والمياه سواء،والسفينة تشق طريقها دون عناء ، ثم برهة فإن لبدنك عليك حقا ولامحيص لك من الراحة ، وسأقف عند الدفة بدلا منك . » فأجاب بالينورس : « لاتحدثنى عن البحار الهادئة ، أو الرياح المواتية ، ــ أنا الذى عانيت الـكثير من غدرها ، هل أترك إينياس عرضة لنزوات الطقس والرياح ؟ » واستمر ممسكا بالدفة ، مركزا عينيه على النجوم ، ولكن سومنس حرك فوقه غصنا مبللابندى نهر النسيان فأغلق عينيه على الرغم

من كل جهوده ، ثم دفع به سومنس من فوق ظهر السفينة فسقط فى اليم ، ولكنه إذ ظل متشبثا بالدفة انتزعها معه حين سقوطه ، ولحرص نبتونا على وعده ، حفظ السفينة سالمة ، دون دفة أو ربان ، حتى اكتشف إينياس خسارته ، فتولى قيادة السفينة بنفسه ، وهو مكتئب حزين لفقد ربانه الأمين .



وهناك إشارة بديعة إلى قصة بالينورس، وردت بملحمة «مرميون» الشعرية لسكوت ،تصديرا للمجموعة الأولى، حيث يقول الشاعر، متحدثا عن وفاة وليم بت:

« اذكروا كيف أنه حتى آخر أيامه
بينما الموت محلق يطلب فريسته ،
وبالينورس شديد الإصرار على موقفه،
لا يتحول عن مركزه الخطر أو يريم ،
رافضا كل دعوة للراحة اللازمة ،
ممسكا الدفة بيد مشرفة على الموت ،
حتى إذ تردى فى سقطته القاتلة ،
تزعزعت قيادة الدولة من أساسها » .



وأخيراً وصلت السفينة إلى شواطىء إيطاليا ، ووثب المغامرون إلى البر فى ابتهاج ، وبينما كان قومه منهمكين فى إنشاء مخيمهم ، راح إينياس يبحث عن موطن سيبول العرافة ، وهو مكون من كهف يتصل بمعبد وغار مكرس لأبوللو وديانا، وبينما كان إينياس يتأمل المنظر، بادأته العرافة بالحديث ، فبدا كما لو كانت تعرف مهمته ، وتحت تأثير إلهة المكان ووحيها ، انبرت تلقى خطابا نبويا ، فيه تلميحات قاتمة عن مشاق ومخاطر من المقدر أن يجتازها فى طريقه إلى النجاح النهائى ، واختتمت بالعبارات التشجيعية المأثورة : « لا تهن أمام المحن ، بل تقدم أنت وأشد استبسالا » فأجاب إينياس بأنه أعد نفسه لكل ما قد يصادفه ويترقبه

وليس له سوى مطلب واحد ، فقد جاءه فى حلم من أشار عليه أن يبحث عن موطن الموتى ، كى يخاطب والده أنكسيس ، ليتلقى منه بيانا عما قدر له ولعشيرته فى المستقبل ، فأجابت العرافة قائلة : « النزول إلى أفيرنوس سهل ميسور ، فباب بلوتو مفتوح على مصراعيه ليلا ونهارا ، أما السير فى طريق العودة والرجوع إلى مافوق الأرض ، فهذا هو العناء كل العناء » وأرشدته إلى أن يفتش فى الغابة ، عن شجرة نبت عليها غصن ذهبى ، وعليه أن يقطف هذا الغصن ، ويقدمه هدية إلى بروسيربينا وإذا كان الحظ مواتيا ، لان الغصن تحت يده ، وفارق الجذع الذى يحمله وإلا فليس هناك قوة تستطيع انتزاعه ، وإذا انتزع فغيره يخلفه . »

فسلك إينياس وفق تعليمات العرافة ، وأرسلت أمه فينوس حمامتين تطيران أمامه وترشدانه إلى الطريق ، فوجد الشجرة بمعونتها له ، واقتطف الغصن ، وأسرع عائدا إلى العرافة .

الفصل الثانى والثلاثون

طبقات الجحيم ـ سيبول العرافة

طبقات الجحيم

كما صنعنا عند ابتداء مجموعتنا فسقنا الرواية الوثنية عن خليقة العالم ، كذلك سنقدم ، وقد أشرفنا على ختامها ، صورة لمناطق الموتى ، كما وصفها أحد شعرائهم المثقفين المستنيرين ، الذى استقى نظرياته عن أعظم الفلاسفة الأجلاء ، ولعل المنطقة التى وضع فيها فيرجيل المدخل إلى هذا الموطن ، قد هيئت بطريقة بالغة حد الروعة كى تثير أشد الأراء رعبا وشذوذا على سطح الأرض ، فهى منطقة فيزوف (Vesuvius) ، حيث انشطر الإقليم كله بهزات هائلة ، يتصاعد منها اللهب الفوسفورى ، بينما تهتز الأرض بالأبخرة المحبوسة ، وتنبعث أصوات خفية من باطن الأرض ، وتملأ بحيرة أفيرنوس ، كما يزعمون ، فوهة بركان خامد ؛ وهى مستديرة ، مساحتها نصف ميل ، وشديدة العمق ، تحيطها شواطىء عالية ، كانت مغطاة ، فى عهد فيرجيل بغابة داكنة ، وتنبعث من مياهها أبخرة سامة منتنة ، حتى انعدمت الحياة على شواطئها ، وكفت الطيور عن التحليق فوقها ، وهنا ، على حد ماذهب إليه الشاعر ، كان الكهف الذي يؤدى إلى مناطق الجحيم ، وهنا قدم إينياس القرابين إلى آلهة الجحيم : بروسربينا وهيكاتا وإلهات الانتقام وعندئذ امتلأت الأرض بالضجيج ، واهتزت الغابات فوق قمم التلال ، وأعلن عواء الكلاب عن اقتراب الإلهات ، وقالت سيبول العرافة : « والآن استجمع شجاعتك فستحتاج إليها » ونزلت إلى الكهف يتبعها إينياس ، وقبل وصولها إلى عتبة الجحيم ، مرا بمجموعة من الكائنات ، تسرد باعتبار أنها الأحزان وهموم الأخذ بالثأر ، والأمراض الشاحبة والشيخوخة الحزينة ، والخوف والجوع اللذان يدفعان لارتكاب الجرائم ، والنصب والفقر والموت ـ وهى صور مروعة لايطيق المرء رؤيتها ، فدت إلهات الانتقام فراشها هناك ، وربطها إله الخلل

ذو الشعر الأفعوى بشباك دموية ، وهنا كانت أيضا المسوخ برياريوس بأذرعته المائة ، وهيدراس بفحيحه ، وخيماراس بزفيره النارى ، فارتعش إينياس حين رأى هذا ، وامتشق حسامه ، وكان على وشك النزال ، ولكن سيبول العرافة منعته ، بعدئذ توجها إلى النهر الأسود كوكيتس ، حيث وجدا النوتى ، خارون ، وهو شيخ قذر ، ولكنه قوى صلب المراس ، يستقبل فى قاربه مسافرين من جميع الطوائف ، أبطالا عظاء ، وغلمانا وبنات غير متزوجات ، وكان العدد فى وفرة أوراق الشجر التى تسقط فى فصل الخريف ، أو القطعان التى تفر جنوبا عند اقتراب فصل الشتاء ، ووقف الجميع يتزاحمون للمرور ، ويرجون سرعة الوصول ولكن النوتى الصارم ، لم يحمل معه إلا من اختارهم ، مبعداً عنه الباقين ، واندهش إينياس لهذا التفريق فى المعاملة ، وسأل سيبول قائلا : « لم هذا التمييز ؟ » فأجابته قائلة : « أولئك الذين يؤخذون بالقارب هم أرواح أولئك الذين تمت المراسيم الدينية عند دفنهم ، أما جمهور الآخرين وهم الذين لم يدفنوا ، فغير مصرح لهم باجتياز مجرى النهر ، بل يهيمون على وجوههم مائة عام ، ويتسكعون على الشاطىء ، جيئة وذهابا حتى يؤخذون أخيراً » فحزن إينياس حين تذكر لفيفا من رفاقه الذين هلكوا فى العاصفة ، وفى هذه اللحظة شاهد بالينورس ، ربان سفينته ، الذى سقط فى اليم ومات غريقا ، فناداه وسأله عن سبب مصيبته فأجاب بالينورس بأن الدفة انخلعت ، وإذ كان ممسكا بها فقد ابتلعه التيار معها ، والتمس من إينياس فى لجاجة وإلحاح أن يمد له يده ، ويأخذه برفقته إلى الشاطىء الآخر ، ولكن سيبول العرافة قرعته على رغبته فى تعدى شريعة بلوتو ، ولكنها طيبت خاطره إذ أخبرته أن سكان الشاطىء الذى قذفت الأمواج بجثمانه عليه ، سيرون من الأعاجيب ما يدفعهم إلى دفنه كما يليق ، وأن المرتفع سيحمل اسم رأس بالينورس ، وما زال يحمله حتى اليوم ، وإذ تركا بالينورس مطمئن النفس لهذه الكلمات ، تقدما صوب القارب ، فركز النوتى نظره ، بصرامة فى البطل المقبل نحوه وسأله بأى حق ، وهو من الأحياء شاكى السلاح ، قد اقترب من ذلك الشاطىء فأجابت سيبول بأنهما لن يستخدما العنف ، وأن رغبة إينياس الوحيدة هى ان يرى والده ، وأخيرا أظهرت الغصن الذهبى ، فسرى عن خارون حين رآه وزال

غضبه، ومن ثمة عجل بالعودة بقاربه إلى الشاطىء ، وحملهما معه ، فناء القارب ، المعد فقط لحمل الأرواح غير المجسدة ، بثقل البطل ، وسرعان مانقلهما إلى الشاطىء المواجه ، فتلقاهما هناك الكلب ذو الرءوس الثلاثة ، كيربرس، بأعناقه ذات الأفاعى، وراح ينبح بحناجره الثلاث ، حتى ألقت إليه سيبول بكعكة جافة التهمها بنهم ، ثم تمدد فى وجاره ونام ، فوثب إينياس والعرافة إلى البر ، وكان أول صوت صك آذانهما هو عويل الأطفال الصغار ، الذين ماتوا فى مستهل الحياة وعن كثب من هؤلاء ، كان أولئك الذين أعدموا بتهم باطلة ، ومينوس قائم بينهم قاضيا ، يفحص أعمال كل منهم ، ويلى هؤلاء طائفة الذين انتحروا لكرههم الحياة وبحثهم عن ملاذ لهم فى الموت ، ولشد مايتمنون الآن مجرد العودة للحياة القديمة ، مرحبين معها بالفقر والكدح وغيرهما من الأوصاب ! وكانت أصقاع الحزن تقع بعد ذلك ، وهى مقسمة إلى ممرات معزولة ، تؤدى إلى أدغال من نباتات الآس ، وهنا كان يهيم أولئك الذين سقطوا صرعى الحب الضائع غير المثاب ، والألم يلاحقهم فلا ينقذهم منه حتى الموت نفسه ، وظن إينياس أنه تبين ، بين هؤلاء ، هيئة ديدو وبها جرح لايزال دامياً ، وفى الضوء الخافت ظل لحظة متردداً غير واثق ، ولكنه تحقق من شخصيتها لدى اقترابه منها ، فانهمرت الدموع من عينيه ، وخاطبها بعبارات الحب قائلا : « ديدو التاعسة ! أكانت حقا إذن تلك الشائعة عن هلاكك ؟ وإننى واحسرتاه ، سبب ذلك ، إنى أشهد الآلهة أن رحيلى عنك كان بغيضا إلى نفسى ، ولم يدفعنى إليه سوى طاعتى لأوامر جوبتر ، وما كان فى استطاعتى قط أن أعتقد بأن غيابى سيكلفك حياتك الغالية، أبتهل إليك أن تقفى ، ولاتضنى على بوداع أخير . » فوقفت لحظة ، كاشحة وجهها، غاضة بصرها، ثم اجتازت الممر فى صمت ، غير متأثرة بتوسلاته كأنها قدت من صخر، فتبعها إينياس بضع خطوات ، ثم عاد ، بقلب مثقل مهموم ، إلى رفيقته، واستأنفا المسير .

بعد ذلك دلفا إلى الميادين التى يهيم فيها الأبطال الذين سقطوا صرعى فى ساحة الوغى ، وهنا شاهدا أشباح كثيرين من أبطال اليونان وطروادة ، فتزاحم الطرواديون حوله ، ولم يستطيعوا أن يقنعوا برؤيته ، فسألوه عن سبب مجيئه ،

وأرهقوه بأسئلة لا تحصى ، ولكن اليونانيين ، لدي رؤيتهم للدرع وهو يتألق فى الجو المعتم ، عرفوا البطل ، فامتلئوا رعبا ، ومن ثمة أداروا ظهورهم ، ولاذوا بأذيال الفرار ، كما اعتادوا أن يصنعوا فى سهول طروادة .

وكان إينياس يود أن يتلكأ ويمكث طويلا مع أصدقائه الطرواديين ، ولكن سيبول استعجلته للمسير ، فوصلا إلى مكان يتفرع عنده الطريق إلى فرعين ، أحدهما يؤدى إلى الأليسيوم أو وادى المغبوطين. والآخر يؤدى إلى مناطق الهالكين ، ورأى إينياس ، على جانب ، أسوار مدينة هائلة ، أحاطها فليجيثون بمياهه النارية ، وأمامه باب من الفولاذ لا تستطيع الآلهة أو البشر أن تجتازه ، وبجانب الباب انتصب برج حديدي ، قامت عليه بالحراسة تيسيفونا (TisiPhone) الإلهة المنتقمة ، وكانت تصل من المدينة أصوات التوجع والجلد ، وقعقعة الحديد ، وصرير السلاسل ، فاستفسر إينياس من مرشدته ، وقد استبد به الفزع ، عن الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين تصدر عن قصاصهم هذه الأصوات ! فأجابت سيبول قائلة : « هنا قاعة محاكمة رادمنثوس الذى يكشف الجرائم التى ارتكبت خلال الحياة ، والتى ظن مقترفها أنها خفية لا يمكن هتك ستارها ، فتيسيفونا تستخدم سوطها المركب من العقارب ، وتسلم المذنب لشقيقاتها إلهات الانتقام . » وفى هذه اللحظة انفتحت الأبواب النحاسية بصلصلة مفزعة ، ورأى إينياس داخلها أخطبوطا له خمسون رأساً يحرس المدخل ، وأخبرته سيبول أن هوة ترترس شديدة العمق حتى إن تجاويفها تبعد عن أقدامهم كبعد السموات فوق رءوسهم ، وفى أسفل هذه الهوة ، ترقد أمة التيتان ، التى شنت الحرب على الآلهة ذليلة مغلوبة على أمرها ، وكذلك سلمونيوس ، الذى فكر فى منافسة جوبتر ، وأقام قنطرة من النحاس ، ساق عربته فوقها ، كى تماثل بقعقعتها قصف الرعد ، وراح يقدم لقومه جمرات متقدة ذات لهب ، تقليداً لوميض البرق ، فكان أن أنزل جوبتر عليه صاعقة حقيقية ، وعلمه الفرق بين الأسلحة البشرية والأسلحة الإلهية ، وهنا أيضاً يربض تتيوس (Tityos) المارد ، الهائل الجسم ، الذى يشغل أكثر من تسعة أفدنة ، والذى يتغذى نسر على كبده ، وكلما فرغ من التهام واحدة ، برزت له كبد أخرى ، وبذلك لا ينتهى قصاصه .

ورأى إينياس جماعات جالسة إلى موائد مثقلة بكل مالذ وطاب من ألوان

الطعام ، وبجانبهم وقفت إلهة منتقمة ، تخطف من بين شفاههم ، كل شهى يستعدون لتناوله ، وعن كثب ، آخرون يحملون فوق رءوسهم صخورا ضخمة ، تكاد تسقط لعدم استقرارها ، وهم لذلك فى فزع دائم ، أولئك هم الذين كانوا يبغضون إخوتهم ، أو يضربون أباءهم ، أو يخدعون أصدقاءهم الذين أمنوهم ، أو أولئك الذين ، حين أثروا ، احتفظوا بأموالهم لأنفسهم ، ولم يشركوا فيها الآخرين ، وكان هؤلاء الأخيرون أكثرهم عددا ، وهنا أيضاً أولئك الذين انتهكوا حرمة الزواج ، أو قاتلوا فى سبيل أثيم ، أو عجزوا عن أن يكونوا أمناء لآجريهم ، فهنا من باع بلاده بالذهب ، وآخر من قلب القوانين رأساعلى عقب ، فجعلها تقرر اليوم شيئاً ، وغداً شيئاً آخر .

وكان أكسيون هناك ، مثبتا إلى محيط عجلة ، تدور دون انقطاع ، وسيسوفس (Sisyphus) الذى كان مكلفاً بأن يدحرج حجراً ضخماً إلى قمة تل ، ولكنه حينما كان يشرف على الوصول إلى هذه القمة ، كانت الصخرة تفلت من يده بقوة خفية مفاجئة ، وتندفع رأساً على عقب إلى سفح التل ، فيعود ثانية إلى كدحه ، بينما جميع أعضاء جسمه المنهك تنضح بالعرق ، ولكن دون جدوى ، كما كان هناك تنتلوس ، الذى يقف فى بركة ، وذقنه فى مستوى سطح الماء ، ولكنه كان يحترق ظمأ ، ولم يجد شيئاً يخففه ، فعندما كان يحنى رأسه المشتعل شيباً ، متلهفاً أن يعب الماء عبا ، كان يغيض ، تاركا الأرض عند قدميه جفافا يبابا ، وكانت الأشجار السامقة المحملة بالفواكه ، تميل عليه بقطوفها ، من ثمار الكمثرى والرمان والتفاح والتين الشهى ، ولكنه حينما كان يحاول أن يمسك بها بغتة ويقتطفها ، كانت الرياح تدفعها عالياً فلا تدركها يده .

وآنئذ نبهت سيبول العرافة إينياس أن الوقت أزف للعودة من الأقطار الكئيبة ، والتوجه إلى مدينة المغبوطين ، فاخترقا منطقة وسيطة من القتام ، ووصلا إلى وادى أليسيوم ، حيث الأجام التى يقطنها السعداء المغبوطون ، وهناك استنشقا هواء خالصا ، وشاهدا جميع الأشياء مسربلة فى ضوء أرجوانى ، ولهذا الوادى شمس ونجوم خاصة به ، وكان الأهلون يسرون عن أنفسهم بطرق شتى ، بعضهم بمزاولة الرياضة فوق العشب الأخضر ، بألعاب القوى والمهارة ، والآخرون بالرقص

أو الغناء ، وأورفيوس يضرب أوتار قيثارته فيبعث أنغاما شجية رائعة ، وهنا شاهد إينياس مؤسسى دولة طروادة ، وهم أبطال عظام عاشوا فى الأيام الخالية الهنيئة ،وتفرس بإعجاب ،فى العجلات الحربية والأسلحة ذات البريق ، التى وضعت جانبا دون استعمال ، فالحراب مثبتة فى الأرض ، والجياد ،غير مسرجة ،تمرح فى الوادى ، واحتفظ قدامى الأبطال هنا بنفس فخرهم ، بالدروع الفخمة والجياد الأصيلة ، الفخر الذى كانوا يحسونه وهم فى الحياة الدنيا ، وشاهد جماعة أخرى تقصف وتشنف آذانها بأنغام الموسيقى ، مقيمة بأجمة من أشجار الغار ، حيث ينبع نهر البو العظيم ، ويخرج متدفقا بين البشر ، وهنا يقيم أولئك الذين خروا صرعى فى سبيل أوطانهم ، وكذلك الكهنة الأتقياء ، والشعراء الذين صاغوا أفكاراً جديرة بأبوللو ، وآخرون ممن عملوا على بهجة الحياة وزينتها ، بما قدموه من اكتشافات فى الفنون النافعة ، وخلفوا ذكرى عاطرة بما قدموه من خدمات للجنس البشرى ، وكانوا يزينون جباههم بمخرمات بيضاء كالثلج ، وسألت سيبول جماعة من هؤلاء القوم عن محل إقامة أنكسيس فأرشدوهما إلى حيث يجدانه ، وسرعان ماوقعا عليه فى واد مخصب نضير ، حيث كان يتأمل مراتب ذراريه ، ومصائرهم ، وجلائل الأعمال التى يقومون بها فى الأزمان القادمة ، وحين رأى إينياس مقبلا ، مد له كلتا يديه ، بينما انهمرت من عينيه الدموع مدراراً ، وخاطبه قائلا : « أحضرت إلى أخيرا بعد طول انتظار ، وهل أشاهدك بعد أن زالت هذه المخاطر ؟ لشد ما فزعت لأجلك يا ولدى حين كنت أراقب مجرى حياتك ! » فأجاب إينياس قائلا : « والدى ! كانت صورتك دائما أمامى ترشدنى وتحرسنى . » ثم حاول أن يحتضن والده ويعانقه ، ولكن ذراعيه لم تحتضنا سوى خيال غير ذى جسد .

ورأى إينياس أمامه واديا فسيحا ، به أشجار تتمايل فى رقة مع النسيم ، وأرضا مخضرة هادئة ، يجرى فيها نهر النسيان ، وعلى شاطىء هذا النهر يهيم حشد لاحصر له ، كالهوام التى تملأ جو الصيف ، فتساءل إينياس ، وهو متعجب ، عمن يكون هؤلاء ، فأجابه أنكسيس قائلا : إنها أرواح أناس سيعطون أبدانا فى الوقت المناسب ، وحتى يتم هذا ، يعيشون على شاطىء نهر النسيان ، ويحتسون

شراب السلوان ، فلا يذكرون حياتهم الأولى ، فقال إينياس : « أفى الإمكان ياوالدى ، ان يستبد حب الحياة الدنيا بإنسان ، حتى يرغب فى التخلى عن هــذه الأماكن الهادئة الرغيدة ، مستعيضا عنها بالحياة فوق أطباق الأرض ؟ » فأجاب أنكسيس بأن شرح خطة الخليقة ، فأخبره أن الخالق صنع أصلا المادة ، التى تتركب منها الأرواح ، من العناصر الأربعة ، النار ، والهواء ، والتراب ، والماء فإذا ما اتحدت أخذت صورة أفضل هذه العناصر وهو النار ، وأصبحت لهيبا ، وتبعثرت هذه المادة ، كالبذور ، بين الأجرام السماوية : الشمس والقمر والنجوم ، ومن هذه البذور صنعت الآلهة السفلى الإنسان وجميع الحيوانات الأخرى ، بخلطها بنسب مختلفة من الثرى ، أشابت نقاوتها وقللت من قيمة معدنها ، وهكذا كلمــا كبر الشطر الترابي فى المركب ، قلت نقاوة الفرد ، وها نحن أولاء نرى رجالا ونساء بأجسامهم الكاملة النمو يعوزهم نقاء الطفولة ، وهكذا تزداد الشوائب التى يمتصها الجانب الروحى ازديادا طرديا بالنسبة للمدة التى يتحد فيها الجسد مع الروح ، ولا بد من إزالة هذه الشوائب بعد الموت ، ويتم هذا بتهوية الأرواح فى تيار الرياح أو تغطيسها فى الماء ، أو حرق شوائبها بالنار ، وفئة قليلة ، زعم أنكسيس أنه واحد منها ، يصرح لها بدخول وادى أليسيوم فورا ، حيث تبقى هناك ، أما الباقون ، فبعد تطهيرهم من شوائب الثرى العالقة بهم ، يبعثون أحياء ثانية ، مزودين بأجساد جديدة ، ومغسولين فى مياه نهر النسيان من ذكريات حياتهم السابقة ، ولــكن لايزال هناك بعض ، دب الفساد فيهم إلى أقصى حد ، حتى أصبحوا غير أهل لأن يؤتمنوا على أجساد بشرية ، وهؤلاء يصبحون حيوانات متوحشة كالأسود والنمور والقطط والــكلاب والقرود وغيرها ، وهذا ما كان يسميه القدماء بالتناسخ أو تقمص الأرواح ، وهى نظرية مازال يتمسك بها الأهلون فى الهند ، الذين يتحرجون من القضاء حتى على أقل الحيوانات شأنا ، خشية أن يكون أحد أقربائهم ، فى هيئة متغيرة .

وبعد أن شرح أنكسيس كل هذا ، راح يبين لإينياس أفرادا من ذريته ، سيولدون فى المستقبل ، ويروى له المــآثر التى سيقدمونها للعالم ، بعد هــذا عاد

للحاضر ، وأخبر ابنه عن الأحداث ، التي بقى عليه أن يتمها قبل أن يكمل تدعيم نفسه وأتباعه فى إيطاليا ، فثمة حروب تشن ، .ومعارك تقع ، وعروس تغتنم ، وفى الختام يتم تأسيس ولاية طروادية ، تنبثق منها الدولة الرومانية ، لتصبح بعد حين سيدة العالم .

بعد ذلك استأذن إينياس وسيبول من أنكسيس ، وعادا أدراجهما بطريق مختصر ، لم يبينه الشاعر لعالمنا العلوى .

* * *

أليسيوم

يضع فيرجيل ، كما رأينا ، واديه « أليسيوم » تحت الأرض ، ويخصصه لإقامة أرواح المغبوطين ، ولكن أليسيوم ، فى هوميروس ، لا يؤلف شطرا من مناطق الموتى ، فهو يضعه على الجانب الغربى من الأرض ، قرب أوكيانوس ، ويصفه كبقعة سعيدة ، ليس فيها ثلج أو برد أو مطر ، وتلطفها دائما نسمات زفيروس البهيجة ، هنا يعبر الأبطال المنعم عليهم دون أن يموتوا ، ويعيشون فى هناءة ، تحت حكم رادمنثوس ، أما الأليسيوم الذى ذكره هسيود (Hesiod) وبندار (Pindar) فهو فى جزائر المباركين أو الجزائر الميمونة ، فى المحيط الغربى ، ومن هذه انبثقت أسطورة جزيرة أطلانتس السعيدة ، ومن المحتمل أن هذا الإقليم السعيد كان خيالا محضا ، ولكن من المحتمل أيضا أنه جاء عن طريق ما ذكره بعض الملاحين ، الذين انحرفت بهم العواصف ، فلمحوا ومضة من ساحل أمريكا .

* * *

ويطالب ج . ر . لويل ، فى إحدى أراجيزه ، لجيله الحاضر ، ببعض مزايا الوادى السعيد ، فيخاطب الماضى قائلا :

« كل ما فيك من الحياة الصادقة ،
يجرى في عروق عصرنا .

* * *

فهنا ، وسط أمواج كفاحنا الباردة ،
تطفو ، الجزائر الميمونة ، الخضراء ،
حيث تعيش جميع أرواح أبطالك ،
وتشاركنا مآثر استشهادنا وجهادنا .
فالحاضر يسير وفى معيته
كل باسل ورائع وجميل
مما جعل الماضى مجيدا . »

* * *

كذلك يشير ملتون إلى الأسطورة نفسها فى « الفردوس المفقود » الكتاب الثالث ، السطر ٥٦٨ :

« كبساتين هسبريا الشهيرة منذ القدم ،
حقول سعيدة وأدغال ووديان مزهرة ،
جزائر مثلثة الهناء . »

* * *

وفي الكتاب الثانى يسم أنهار أريبوس وفقا لأسمائها فى اللغة اليونانية :

« ستيكس البغيض فيضان الحقد المميت ،
أخيرون الحزين من الأسى القاتم الدفين ،

كوكينوس أخذ اسمه من العويل المرتفع
المتردد على المجرى الكئيب ، فليجيثون المفترس
الذي تشتعل أمواج تياره النارى بالحنق .
بعيدا عن هؤلاء نهر بطىء صامت ،
ليثا ، نهر النسيان السمح ، تنساب
متاهته المائية ، ومن يشرب منه
ينسى حالته الأولى وينسى نفسه ،
وينسى البهجة والأسى ، واللذة والألم . »

* * *

سيبول العرافة

بينما كان إينياس وسيبول فى طريق عودتهما إلى الأرض قال لها : « سواء أكنت إلهة أم من بنات البشر الأثيرات عند الآلهة ، فستكونين دائما موضع التقديس عندى ، وحالما أصل إلى الجو الأعلى ، سأشيد معبدا لتكريمك ، وسأقدم فيه القرابين بنفسى » ، فقالت سيبول : « لست إلهة ، ولا حق لى فى ضحية أو قربان ، فأنا من بنات البشر الفانيات ، ولكنى لو كنت قد استطعت الاستسلام لغرام أبوللو ، لأصبحت الآن من الخالدات ، فقد وعدنى بتنفيذ رغبتى ، لو أنى استجبت لرغبته ، فتناولت حفنة من الرمل ، وأمسكت بها وأنا أقول : « هبنى أن أرى أعياد ميلاد بعدد حبات الرمل التى فى يدى . » ومن سوء الطالع أنى نسيت أن أطلب شبابا لا يبلى قشيبه ، وكان حريا أن يهبنى هذا أيضا لو أنى قبلت صبابته ، ولكنى إذ أسأت إليه برفضى ، قدر لى أن أطعن فى السن وأصبح عجوزا محطما ، فشبابى وقوتى فارقانى منذ عهد بعيد ، لقد عشت سبعمائة سنة ، وما زال على ، وفقا لعدد حبات الرمل ، أن أرى ثلاثمائة ربيع وثلاثمائة

حصاد ، وجسدى يتقلص ويتضاءل كلما ازدادت السنين ، وسيأتى وقت لا يبقى من جسدى ما يرى ، ولكن صوتى سيبقى ، وستحترم الأجيال القادمة أقوالي . »

وتشير سيبول بكلماتها الختامية إلى سلطانها النبوى ، وفى كهفها اعتادت أن تنقش على الأوراق التى تجمعها من الأشجار أسماء الأفراد ومصائرهم ، وكانت تضع هذه الأوراق المنقوشة مرتبة داخل الكهف ، ليعود إليها مريدوها مسترشدين ، ولكن إذا تصادف عند فتح الباب أن اندفعت الريح وبعثرت أوراق الأشجار ، ضنت سيبول بمعونتها عن إعادة ترتيبها ، ومن ثمة ضاعت النبوءة إلى غير رجعة .

وأسطورة سيبول التالية تركزت فى تاريخ متأخر ، فخلال حكم أسرة تاركوين (The Tarquins) مثلت أمام الملك امرأة عرضت عليه تسعة كتب للبيع ، فرفض الملك شراءها ، وعندئذ انصرفت المرأة وحرقت ثلاثة منها ، وحين عودتها عرضت الكتب الباقية بنفس الثمن الذى سبق أن طلبته عن التسعة ، فكرر الملك رفضه ، ولكن عندما عادت المرأة ، بعد حرق ثلاثة كتب أخرى ، طلبت للثلاثة الباقية ، نفس الثمن الذى قدرته للتسعة ، ثارت نزعة حب الاستطلاع فى نفسه ، واشترى الكتب ، فاتضح أنها تحوى مصائر الدولة الرومانية ، وحفظت فى معبد جوبتر كابيتولنس ، بصندوق حجرى ، ولم يكن مسموحا بفحصها إلا لموظفين إخصائيين معينين لتأدية هذه المهمة ، الذين كانوا يستشارون فى الأحداث الكبرى ، ويفسرون للشعب مغزى النبوءات عنها .

وثمة عرافات مختلفة تحت اسم سيبول ، ولكن سيبول الكومية ، التى كتب عنها أوفيد وفيرجيل ، هى أكثرهن شهرة ، ولعل المقصود مما رواه أوفيد عن حياتها التى امتدت إلى ألف عام ، هو تصوير مختلف العرافات الحاملات اسم سيبول كمجرد تناسخ متعدد لشخص واحد لم يتغير .

* * *

ويشير يونج فى « أفكار الليل » إلى سيبول ، فيتحدث عن الحكمة الدنيوية قائلا :

« إذا دبرت أمرا للمستقبل ضمنته أوراق الأشجار ،
مثل سيبول ، نعمة عابرة ، غير مدعمة ،
عند أول هبة ريح ، تختفى فى الهواء ؛
وكما تشبه الخطط الدنيوية أوراق سيبول ،
كذلك أيام خيار الناس تشبه كتبها ،
فثمنها ما زال يرتفع كلما نقص عددها . »

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

إينياس فى إيطاليا

كامليا ـ أفاندر ـ نيسوس ويوريالوس

ميرنتيوس ـ تورنس .

بعدما افترق إينياس عن سيبول العرافة ولحق بأسطوله ، أبحر حذاء شواطىء إيطاليا ، وألقى مرساه فى مصب نهر التيبر، فبعدما استحضر الشاعر بطله إلى هذه البقعة ، دفعت ، نهاية طوافه المحتومة، إلهـة الشعر لتطلعه على سير الأمور فى هذه اللحظة المليئة بالأحداث ، وكان لاتينس ، ثالث ذرية الإله زحل ، يحكم البلاد ، وكان آنذاك طاعنا في السن ، ولم ينجب ذكراً ، ولـكن كانت له ابنة فاتنة تدعى لافينيا ، وقد طلب يدها للزواج رؤساء كثيرون يجاورونهم ، أحدهم تورنس ، ملك روتليا ، الذى حظى برضا والديها ، ولـكن لاتينس كان قد أخطره والده فونس فى حلم بأن الزوج المقدر للافينيا لابد أن يأتى من بلاد أجنبية ، وهذا الزوج سينجب ذرية من المقرر لها أن تحكم العالم بأسره.

ويذكر قراؤنا أنه خلال القتال مع مسوخ النسنوس ، توعدت إحدى هذه الطيور نصف البشرية الطرواديين بأشد ضروب الوصب والعناء ، ولقد تكهنت ، بصفة خاصة ، أنهم قبل أن يكفوا عن الطواف لا بد سيلح عليهم الجوع حتى يلتهموا موائدهم ، وتحقق هذا النذير الآن ، فبينما هم يتناولون وجبتهم الهزيلة، وهم جالسون على العشب ، وضع الرجال كعكهم الجاف اليابس على حجورهم ، ثم وضعوا فوق الـكعك مادنا من قطـوف الغابة ، وبعد أن أتوا على الأخير ، ختموا بأكل الـكعك اليابس ، وحين رأى الصبي آيولس هذا قال مداعبا : «انظروا ، ها نحن أولاء

تأكل موائدنا. » فالتقط إينياس الكلمات ، وارتضى النذير ،وصاح قائلا : «سلام يا أرض الموعد! هذا منزلنا ، وهذا وطننا. » بعد ذلك عمد إلى معرفة سكان البلاد الأصليين ، ومن يتولون الحكم بينهم ، فأرسل مائة من خيار الرجال ، يحملون هدايا ، وينشدون الصداقة والتحالف ،فذهبوا وقوبلوا بالترحيب، وسرعان مافطن لاتينس إلى أن البطل الطروادى لم يكن سوى الصهر الموعود الذى أعلنت عنه النبوءة ، وقبل التحالف مبتهجا ، وورد الرسل ممتطين جيادا من حظائره ، ومحملين بالهدايا ورسائل الوداد .

وحين رأت يونو الأمور مزدهرة بالنسبة للطرواديين ، أحست حقدها القديم يشتعل أواره ، فاستدعت ألكتو من أريبوس ، وأرسلتها لإثارة الفتنة والقلاقل، فبدأت إلهة الانتقام بأن استولت على قلب الملكة أماتا ، ووسوست إليها بأن تقاوم التحالف الجديد بكل الوسائل ، عند ذلك خفت ألكتو إلى مدينة تورنس ، وتنكرت فى زى كاهنة عجوز ، وأخبرته بوصول الأجانب، ومحاولة أميرهم سلب عروسه منه ، وأعقبت هذا بأن وجهت اهتمامها إلى معسكر الطرواديين ، وهناك رأت الصبي أيولس ورفاقه يزجون الوقت بالصيد والقنص ، فقوت حاسة الشم عند الكلاب ، وحرضتها لأن تثير غزالا أليفا من الأجمة ، وكان هذا الغزال أثيرا عند سلفيا ، ابنة تيرهيوس (Tyrrheus) راعى الملك ، وقذفه أيولس برمح من يده ، فأصابه بجرح استنفد قواه ، حتى إنه لم يقدر إلا على العدو حتى المنزل ، حيث مات عند أقدام سيدته ، فأثارت صرخاتها وعبراتها إخوتها وغيرهم من الرعاة ، وإذ امتشقوا كل الأسلحة التى وصلت إلى أيديهم ، راحوا يهاجمون فريق الصيد فى سخط شديد ، فحمى الفريق أصدقاؤهم . ورد الرعاة على أعقابهم بخسارة اثنين منهم .

كانت هذه الأمور كافية لإثارة زوبعة الحرب ، واستحثت الملكة تورنس

والفلاحون جميعا الملك الشيخ لطرد الأجانب من البلاد ، فقاوم قدر استطاعته ، ولكنه حين وجد مقاومته دون جدوى ، أذعن فى النهاية ، واعتصم بخلوته .

* * *

فتح بوابات يانوس

وكانت عادة البلاد ، حين الإقدام على الحرب ، أن يقوم الحاكم الأعلى ، فى ردائه الرسمى ، وأبهة وفورة ، بفتح بوابات معبد يانوس ، التى كانت تظل مغلقة ما دام السلام مرفرفا ، فاستحث الشعب ملكه الشيخ ليقوم بهذه المهمة الرهيبة ، ولكنه رفض أن يفعل ، وفيما هم يتنابذون ، نزلت يونو نفسها من السماء ، وصكت الأبواب بقوة لا تقهر ، وفتحتها على مصراعيها ، وسرعان ما أصبحت البلاد بأسرها فى لهيب مستعر ، وتقاطر الناس من كل فج عميق ولا حديث لهم إلا عن الحرب .

وأسندت القيادة إلى تورنس بإقرار من الجميع ، وانضم آخرون كحلفاء ، يتزعمهم ميزنتيوس ، وهو جندى باسل قدير ، ولكنه على قسوة بغيضة ، وكان حاكما لإحدى المدن المجاورة ، ولكن شعبه استبعده عن الحكم ، وانضم إليه ابنه لوسس (Lausus) وهو شاب سمح كان أهلا لسيد أفضل .

* * *

كاميلا

وجاءت كاميلا ، حبيبة ديانا ، وهى صيادة ومقاتلة على طريقة الأمازونيات ، تصحبها جماعتها من الأتباع على صهوات الجياد ، منها لفيف من بنات جنسها ، وأخذت مكانها إلى جانب تورنس ، ولم تكن هذه الفتاة قد عودت أصابعها قط

على استخدام عصا المغزل ، ولكنها تعلمت أن تخوض غمار الحرب ، وأن تسابق الريح فى سرعته ، وكان يبدو أن فى مقدورها أن تعدو فوق أعواد الحنطة المنتصبة ، دون أن تصيبها بأذى ، أو فوق سطح الماء دون أن تغوص بقدميها ، وكان تاريخ كاميلا فريدا فى نوعه منذ البداية ، فوالدها ميتابوس ، الذى أبعد عن مدينته فى فتنة أهلية ، حمل معه فى أثناء فراره ابنته الطفلة ، وحين هروبه بين الغابات ، وأعداؤه يطاردونه دون هوادة ، وصل إلى شاطىء نهر أمازاس ، الذى كان يطفح بمياه الأمطار ، حتى بدا مانعا للعبور ، فتوقف لحظة ، ثم انتهى إلى ما يلزم عمله ، فربط الطفلة فى رمحه بأربطة من لحاء الشجر ، وإذ وازن السلاح بيده المرفوعة ، راح يخاطب ديانا : « يا إلهـة الغابات ! أكرس لك هذه الصبية . » ثم ألقى السلاح بما عليه إلى الشاطىء المقابل ، فمرق الرمح عبر المياه الهادرة ، وفى الحال لحق به مطاردوه ، ولكنه وثب فى النهر وعبره سابحا ، ووجد الرمح والطفلة سالمة على الشاطىء الآخر ، وعاش ، منذ ذلك الحين ، مع الرعاة ، وربى ابنته فى الغابات ومرسها على فنونها ، وعلمها وهي طفلة أن تستخدم القوس وتقذف بالرمح ، وكانت تسقط بمقلاعها الكركى والبجع البرى ، وكان لباسها جلد نمر ، وسعت أمهات كثيرات يخطبنها زوجة لأبنائهن ، ولكنها ظلت أمينة وفية لديانا ، وطردت فكرة الزواج .

***

ايفاندر

هؤلاء هم الحلفاء الأقوياء الذين تكتلوا ضد إينياس ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، وقد استلقى على شاطىء النهر وراح يغط فى نوم عميق تحت قبة السماء ، وتراءى له إله النهر ، الأب تيبر ، رافعا رأسه فوق الأمواج ، وراح يقول : « يا ابن الإلهـة ، يا مالك أقطار اللاتين المرتقب المحتوم ، هذه هي أرض الموعد ، هذا

وطنك المرتقب ، هنا ستنتهي عداوة القوات السماوية ، لو أنك فقط ثابرت وكنت أمينا ، فهناك أصدقاء غير بعيدين ، فأعد سفنك ، واخر بها عبابى ، فسأقودك إلى إيفاندر حاكم أركاديا ، فهو فى نزاع ، منذ عهد طويل ، مع تورنس و الروتوليين ، وعلى استعداد لأن يكون حليفا لك ، فانهض ! وقدم نذورك إلى يونو ، وهدئ غضبها ، واذكرنى بعد انتصارك . » وحالما استيقظ إينياس ، أطاع الرؤية الصديقة فورا ، فقدم القرابين ليونو ، واستمد العون من إله النهر وكافة ينابيعه المتشعبة ، ومن ثمة طفى لأول مرة على سطح نهر التيبر مركب مليء بالمقاتلين المسلحين ، فأسلس النهر أمواجه ، وأمر تياره أن يتدفق لينا رخاء ، وإذ راح المجدفون يضربون الماء بقوة ، مرق السفين بسرعة يشق عباب النهر .

وحوالى منتصف النهار أشرفوا على مبانى المدينة الناشئة المبعثرة ، التى أصبحت فيما بعد مدينة روما المتشامخة ، التى وصل مجدها إلى عنان السماء ، وتصادف فى ذلك اليوم أن كان الملك الشيخ إيفاندر يحتفل بشعائر التكريم السنوية ، لهرقل ولجميع الآلهة ، وإلى جانبه وقف بالس وكل حكام المقاطعات ، وحينما شاهدوا السفينة العالية تتقدم الهوينا صوب الغابة ، انزعجوا من المنظر ، ونهضوا من الموائد ، ولكن بالس أمر بعدم الكف عن إتمام الشعائر ، ثم امتشق سلاحا ، ويمم شطر شاطئ النهر ، ونادى بصوت مرتفع ، يسألهم من هم وماذا يبتغون ، فرفع إينياس غصن زيتون وأجاب قائلا : « نحن طرواديون ، أصدقاء لك ، وأعداء للروتليين ، نحن ننشد إيفاندر ، ونعرض ضم قواتنا إلى قواتكم . » وفى غمرة من العجب لذكر هذا الاسم العظيم ، دعاهم للنزول إلى الشاطئ ، وحين نزل إينياس أمسك بيده طويلا فى وداد خالص ، وتقدم الجميع داخل الغابة حيث انضموا إلى الملك وبطانته ، فرحب بهم أجمل ترحيب ، ودعاهم لمشاركته فى وليمته ، التى استمرت فى رونق وبهاء .

***

روما الناشئة

وحينما تمت الشعائر ، توجه الجميع نحو المدينة ، وسار الملك ، وقد أحنت الشيخوخة ظهره ، بين ابنه وإينياس ، مستعينا بذراع أى منهما ، وراحوا يتسامرون كى يقصروا الطريق ، وفى غمرة من الابتهاج كان إينياس ينصت للحديث ويستمتع بمشاهدة مفاتن مايرى ، ويتعلم كثيرا عن أبطال اشتهروا فى الأيام القديمة ، فقال إيفاندر . « هذه الأدغال الشاسعة كانت مأهولة فى يوم ما بآلهة الرعاة وحوريات الماء ، وجنس غير متحضر من الناس انبثق من الأشجار ، وكان مجردا من الشرائع ومن الثقافة الاجتماعية ، ولم يعرفوا كيف يذللون بهيمة ، أو يجمعون حصادا ، أو يدخرون من خير الحاضر ما يسدون به عوز المستقبل ، بل يرعون كالسائمة على الأغصان المورقة ، أو يلتهمون بشراهة مايصطادونه من الحيوانات ، وهكذا كانت حالهم حينما جاء الإله زحل للاقامة معهم ، حين أبعده أبناؤه عن الألمبوس ، فألف بين الهمج المفترسين ، وكون منهم مجتمعا ، وأعطاهم الشرائع والقوانين ، وحل السلام والرخاء فى أعقاب ذلك ، حتى لقد نعت الناس حكمه بالعصر الذهبى ، ولكن خلفته بالتدريج عهود أخرى ، عمها الظمأ إلى الذهب وسفك الدماء ، وكانت البلاد فريسة لسلسلة من الطغاة ، حتى ساقنى الحظ والقضاء المحتوم إلى هنا ، منفيا من وطنى ، أركاديا . »

وإذ قال هذا أراه صخرة تاربيا ، والبقعة غير المشذبة التى كانت آنئذ مليئة بالشجيرات ، حيث شيد بعد ذلك الكابيتول بكل روعته ، بعد ذلك أشار إلى بعض أسوار عارية وقال : « هنا كان معبد يحمل اسم يانوس ، لأن يانوس هو الذى بناه وهناك ساتيرنيا ، مدينة ساتيرن أو الإله زحل » وهكذا ما كاد الحديث يصل إلى هذا الحد حتى كانوا قد وصلوا إلى كوخ إيفاندر المسكين ، حيث شاهدوا القطعان الثاغية ترعى فى السهل حيث يقوم الآن مبنى الفورم الشامخ البديع ، فدلفوا إليه ، وبسطوا لإينياس وسادة محشوة بأوراق الأشجار ، وفوقها جلد دب ليبى .

وفى صبـاح اليوم التالى ، نهض إيفاندر الشيخ ، إذ أيقظته عند الفجر زقزقة العصافير العالية ، تحت سجاف منزله المنخفض ، وخرج متسربلا بعباءة ، وعلى كتفيه جلد فهد ، ومنتعلا حذاء مكشوفا ، وحسامه البتار مثبت فى نطاقه ، إلى حيث يجد ضيفه ،وكان فى ركابه حاشيته وحرسه الخاص جميعا،ويتبعه كلبان كبيران، فوجد البطل وفى معيته تابعه الأمين أخاتيس ، وحالما لحق بهم بالس ، تـكلم الملك الشيخ قائلا :

« أيها الطروادى الشهير ، ما أقل ما نستطيع عمله فى سبيل أمر جلل كهذا ، فدولتنا ضعيفة، يكتنفها النهر من جانب،والروتليون من الجانب الآخر ، ولـكنى أنوى أن أربطك بالتحالف مع شعب غنى وافر العدد ، ساقك القدر إليه في لحظة مواتية ، وهو شعب الأتروسكيين المقيمين بالإقليم الواقع خلف النهر ، وكان ميزنتيوس ملكهم جبارا عتيا ،فراح يتفنن فى اختراع أساليب للتعذيب لا مثيل لها ، كى يشبع غريزة الانتقام فى نفسه ، فكان يربط الموتى بالأحياء ، يدا بيد ، ووجها بوجه ، ويترك الضحايا المنكودة ، لتموت فى هذا العناق الرهيب ، وأخيرا طرده الشعب مع آله وذويه ، وحرقوا قصره وذبحوا أصدقاءه ، ففر لائذا بتورنس التى تحميه بالسلاح، ويطالب الأتروسكيون بتسليمه كى ينال قصاصه الحق ، وكانوا يودون قبل الآن أن يحاولوا تحقيق مطلبهم بالقوة ، ولـكن الـكهنة اعترضوا طريقهم ، وأخبروهم أن السماء لا تريد أن يقودهم إلى النصر مواطن من أهالى هذه البلاد ، فثمة قائد اختارته لهم الأقدار لا بد أن يأتى عبر البحر ، وقد عرضـوا على التاج ،ولـكنى شيخ ، قد وهن العظم منى ، ولا قدرة لى على الاضطلاع بمثل هذه الشئون الجسام، وابنى من مواليد هذه البلاد، الأمر الذى يبعده عن هذا الاختيار ، ومقابل ذلك فأنت بمولدك والعصر الذى تعيش فيه وشهرتك الحربية ، قد اختارتك الآلهة ، وما عليك إلا أن تظهر فيهتفون لك فورا كزعيم لهم، وسألحق بك بالس، ابنى، أملى الوحيد ومناط عزائى ، فسيتعلم فن الحرب ، تحت قيادتك ، محاولا أن

يقتدى بك فى مغامراتك وجلائل أعمالك . »

عندئذ أمر الملك بإعداد جياد للقواد الطرواديين ، ومن ثمة ركب إينياس ، ونخبة مختارة من الأتباع يصحبهم بالس ، وأخذوا طريقهم إلى مدينة الأتروسكيين ، بعد أن أعاد بقية جماعته إلى السفن ، فوصل إينياس وجماعته إلى معسكر الأتروسكيين ، حيث استقبلهم ترخون ومواطنوه بأذرع مفتوحة مرحبة .

نيسوس ويورياليوس

وفى غضون ذلك كان تورنس قد حشد كل قواته ، ووضع كل الترتيبات اللازمة للحرب ، وأرسلت يونو إلى إيريس برسالة تحرضه على انتهاز فرصة غياب إينياس ومباغتة المعسكر الطروادى ، ومن ثمة تمت المحاولة ، ولكن الطرواديين لم يكونوا غافلين بل كانوا على أتم استعداد ، وإذ تلقوا أوامر مشددة من إينياس ألا يقاتلوا فى غيابه ، فقد بقوا ساكنين فى خنادقهم ، وقاوموا كل مساعي الروتليين لاستدراجهم إلى ميدان القتال ، وحينما أتى المساء ، راح جنود جيش تورنس يقصفون ويلهون وهم مبتهجون بتفوقهم المزعوم ، وأخيرا استلقوا بساحة القتال وناموا آمنين .

أما فى معسكر الطرواديين فكانت الأمور تجرى على نمط مختلف ، فهناك كان الجميع متيقظين يرقبون عودة إينياس فى قلق ونفاد صبر ، ووقف نيسوس يحرس مدخل المعسكر ، ومعه يوريالس وهو شاب تميز فى الجيش ، فوق كل شيء ، بصفاته الشخصية وطباعه الدمثة ، وكان هذان الاثنان صديقين فى السلاح ، وقال نيسوس لصديقه : « أترى أية ثقة وأى إهمال يبدى العدو ؟ فالأضواء عندهم قليلة ومعتمة ، ويبدو على القوم جميعاً ترنح السكارى ونعاس المنهوكين ، وأنت تعلم قدر تلهف قادتنا إلى استقدام إينياس أو استطلاع رأيه ، والآن أحس دافعا قويا بأن أشق طريقى ، مخترقا معسكر الأعداء ، وأن أذهب للبحث عن قائدنا ، فإذا

وفقت كان نخار العمل حسبي من الجزاء ونعم الجزاء ، وإذا رأوا أن الخدمة جديرة بجزاء أكبر فدعهم يقدمونه إليك . »

فأجاب يوريالس ، وهو يلتهب من فرط تلهفه إلى المغامرات : « أترفض إذن يا نيسوس أن تشركني في مغامرتك ؟ وهل أدعك تتعرض لهذا الخطر وحيداً ؟ لا ، لم يربني أبي هكذا ، كذلك لم أقدر لنفسي هذا حين التحقت بمن هم في مرتبة إينياس ، وعقدت العزم على أن أقدم نفسي رخيصة في سبيل الشرف . » فأجاب نيسوس : « لا يخامرني أي شك في هذا ياصديقي ، ولكنك تعلم ما يحيط بهذه المهمة من قلقلة وعدم استقرار ، ومهما حدث لي ، فبغيتي أن تكون آمنا لا يصيبك مكروه ، فأنت أصغر مني سنا ، وأمامك الحياة رحبة باسمة ، كذلك لا أستطيع أن أكون سببا في شجن أمك ، التي آثرت أن تكون معك هنا في المعسكر ، عن أن تمكث ، في سلام ، مع باقي الأمهات في مدينة اكستيس » ، وأجاب يوريالس : « أقصر القول ، فعبثا تبحث عن حجة تثني بها عزيمتي ، إني مصر على أن أذهب معك ، فلا تكن سببا في ضياع وقتنا . » فناديا الحارس ، وإذ أخذا منه الإذن ، يمما شطر خيمة القائد ، حيث وجدا كبار الضباط يتشاورون ، للوصول إلى وسيلة يرسلون بها إخطارا إلى إينياس عن موقفهم ، فرحبوا بعرض الصديقين وقلدوهما عقود المدح والثناء ، ووعدوهما بأسخى المكافآت في حالة نجاحهما ، ووجه أيولس إلى يوريالس الخطاب بنوع خاص ، مؤكدا له صداقته الدائمة ، فأجاب يوريالس قائلا : « لي عندك لبانة واحدة ، فأمي الطاعنة في السن تقيم معي بالمعسكر ، وقد تركت أرض طروادة من أجلي ، مؤثرة ذلك على التخلف والإقامة مع باقي الأمهات بمدينة اكستيس ، وإني ذاهب الآن دون استئذانها ، فليس في استطاعتي تحمل دموعها ، أو إغفال ضراعاتها ، فأبتهل إليك أن تهيء لها العزاء في أساها ، عدني بذلك ، وسأذهب بقلب غير هياب لملاقاة أية أخطار أو

خطوب » فتأثر أيولس وباقى القوادحتى فاضت عيونهم بالدموع ، ووعد بتنفيذ رغبته ، وقال أيولس : «سأتخذ من أمك أما لى ، وكل وعد قطعته لك على نفسى سأصطنع منه خيرا لها ، إذا لم تعد أنت لتسلمه بنفسك . »

وغادر الصديقان المعسكر ، وتوغلا فوراً وسط صفوف العدو ، فلم يجدا رقابة أومن يقومون على الحراسة ، بل كان الجنود النائمون مبعثرين فوق الحشائش وبين العربات ، وكانت الحرب فى تلك الأيام الخالية لاتحرم على رجل باسل أن يقتل عدواً نائما ، ولذلك قتل الطرواديان ، فى أثناء مرورهما ، من الأعداء قدر مااستطاعا ، دون أن يكشف أحد أمرهما وحصل يوريالس ، من خيمة ، على خوذة تتألق بالذهب وريش النصر ، وقد اخترقا صفوف الأعداء ولم يفطن إليهما أحد ، ولكن ظهر ، على حين بغتة ، صف من الجنود ، واقفا أمامهما ، بيمما شطر المعسكر تحت قيادة فولسكنس (Volscens) ، فاستلفتت خوذة يوريالس اللامعة أنظارهم فناداهما فولسكنس ، وسألهما من هما ، ومن أى مكان قادمان ، فلم يجيبا ، ولكنهما توغلا فى الغابة ، فانتشر الفرسان فى كل مكان لاعتراض فرارهما ، فراغ نيسوس طرادهما ، وتفادى الخطر ، ولكن إذ لم يلحق به يوريالس ، عاد ليفتش عنه ، ودخل الغابة ثانية ، وسرعان ما أصبح على مسمع من أصوات ولغط ، وحين تطلع داخل الأجمة رأى فصيلة بأكملها محيطة بيوريالس وهى تمطره بوابل من الأسئلة الصاخبة ، فماذا يقتضيه عمله ؟ كيف يستخلص الشاب من مأزقه ؟ ، أو هل يحسن أن يموت معه ؟ .

وإذ رفع عينيه نحو القمر ، الذى سطع فى وضوح ، قال : « أيتها الإلهة ! سددى مسعاى ! » ثم صوب رمحه إلى أحد قواد الفصيلة ، ورشقه به فى ظهره فخر مجندلا فى السهل بجرح قاتل ، وفى غمرة من دهشتهم انطلق سهم آخر ، وخر قتيل آخر من فريقهم ، ولعدم وقوف فولسكنس على المصدر الذى انطلقت منه هذه السهام ، فقد امتشق حسامه فى يده ، وهجم على يوريالس وهو يقول :

« ستؤدى الحساب عن الاثنين » وكان سيغمد سيفه فى صدره ، حينما رأى نيسوس من مخبئه الخطر المحدق بصديقه فاندفع نحوه وهو يصيح قائلا : « إنه أنا ، إنه أنا ، سددوا سيوفكم نحوى أيها الروتليون ، فأنا الذى قذفت الرمح وأطلقت السهم ، أما هو فتبعنى كصديق فحسب . » وبينما هو يتكلم نزل السيف ، واخترق صدر يوريالس المليح ، فانثنت رأسه على كتفه مثل زهرة يخترطها المحراث ، فهجم نيسوس على فولسكنس ، وأغمد سيفه فى بدنه ، وسرعان ما تناوشته السيوف من كل جانب وخر مصابا بطعنات لاعد لها .

* * *

ميزنتيوس

ووصل إينياس ، مع حلفائه الأتروسكيين ، إلى ساحة الوغى ، فى الوقت المناسب ، لنجدة معسكره المحاصر ، والآن والجيشان متعادلان تقريبا من حيث القوة ، بدأت الحرب حامية الوطيس ، ولا يتسع المجال لذكر كل التفاصيل ، ولكن لزام علينا أن نسجل فى بساطة مصير الشخصيات الرئيسية التى قدمناها لقرائنا ، وحينما وجد ميزنتيوس الطاغية نفسه ينازل رعاياه الثائرين ، تهيج مثل وحش كاسر ، فقتل كل من تجاسر على الوقوف فى طريقه ، وأرغم الجمع على الفرار كلما ظهر ، وأخيرا لاقاه إينياس وجها لوجه ، ووقف الجيشان دون حراك يرقبان النتيجة فقذف ميزنتيوس رمحه ، الذى حين ارتطم بترس إينياس ، انزلق وأصاب أنثور ، وكان يونانى المولد ، رحل عن أرجوس ، مسقط رأسه ، وتبع إيفاندر إلى إيطاليا ، وقال الشاعر عنه فى بساطة حزينة ـ جعلت الكلمات مضرب الأمثال : « خر ، تعسا ، بجرح مدبر لغيره ، وتطلع إلى السماء ، وإذ هو يعالج سكرات الموت ، خطرت أرجوس الحلوة على ذاكرته . » وآنذاك قذف إينياس رمحه بدوره ، فاخترق ترس ميزنتيوس وجرحه فى فخذه ،

فلم يستطع ابنه ، لوسس أن يحتمل رؤيته على هذه الحال ، ولكنه اندفع ووضع نفسه فاصلا بينهما ، بينما التف الأتباع حول ميزنتيوس وحملوه بعيدا ، فأمسك إينياس بسيفه معلقا فوق لوسس وأرجأ الطعنة ، ولكن الشاب الحانق هجم عليه فاضطر أن يرديه قتيلا ، وحين سقط لوسس انحنى إينياس فوقه فى إشفاق وقال : « أيها الشاب المنكود الحظ ، ماذا أستطيع صنعه لإيفائك حقك من الثناء ؟ احتفظ بهذه الأسلحة التى تفخر بها وتمجدها ، ولا تخشى ألا يرد جسدك إلى أصدقائك وألا تنال التكريم الجنائزى اللائق . » وحين قال هذا استدعى تابعيه المتخوفين ودفع الجسد إلى أيديهم .

وفى غضون ذلك كان ميزنتيوس قد حمله رجاله إلى شاطىء النهر وغسلوا له جرحه ، وسرعان ما وصله نبأ موت لوسس • وحل الحنق واليأس مكان القوة وعوضاها ، فامتطى جواده واندفع لا يلوى على شىء وسط المعمعة باحثا عن إينياس ، وحين وجده راح يدور حوله ويقذفه برمح تلو رمح ، بينما وقف إينياس محتميا بترسه ، ملتفتا إلى كل ناحية ليستقبلها ويصدها ، وأخيرا بعد أن أتم ميزنتيوس حوله ثلاث دورات ، رشق إينياس برمحه رأس الجواد مباشرة ، فاخترق صدغيه وسقط ، بينما انطلقت صرخة من كلا الجيشين شقت عنان السماء ، ولم يلتمس ميزنتيوس أية رحمة ، ولكنه طلب فقط إنقاذ جثمانه من إهانات رعاياه الثائرين ، وأن يدفن مع ابنه فى مقبرة واحدة ، وتلقى الطعنة القاتلة لا خلسة أو على غير استعداد ، وخرجت روحه مع دمه المتدفق .

بالس ، كاميلا ، تورنس

وبينما كانت هذه الأمور تدور فى جانب من الميدان التقى تورنس فى مكان آخر ببالس الشاب الرطب العود ، وليس ثمة من يشك فى نتيجة نزال يستحر بين بطلين ، أحدهما ليس ندا للآخر ، وقاتل بالس ببسالة ، ولكنه خر صريعا

برمح تورنس ، فكاد قلب الظافر أن ينفطر حين رأى الشاب الباسل مجندلا عند قدميه ، وتنازل عن حقه كمنتصر فى تجريده من أسلحته ، واكتفى بأخذ حزامه المرصع والمزين بنقوش ذهبية ، ولفه حول خصره ، تاركا ما بقى لأصدقاء القتيل .

وبعد المعركة تهادن الطرفان بضعة أيام لتمكين الجيشين من دفن الموتى ، وفى هذه الفترة انبرى إينياس متحديا تورنس ، أن يبارزه حسما للنزاع وحقنا للدماء ، ولكن تورنس راغ من هذا التحدى ، وأعقبت ذلك معركة أخرى برزت فيها كاميلا ، البطلة العذراء ، وعلا نجمها ، وبزت بأعمال البطولة التى أبدتها أشجع الشجعان ، وسقط كثيرون من الطرواديين والأتروسكيين وقد اخترقتهم سهامها أو أصابتهم بفأسها ، وأخيرا شاهدها رجل أتروسكي ، يدعى أرونس ، كان يراقبها طويلا ، ملتمسا فرصة ينتهزها ، وهي تطارد عدوا فارا ، عليه درع فخم يغرى بالجزاء ، وإذ هى منهمكة فى الطراد ، لم تفطن للخطر المحدق بها ، فرشقها أرونس برمح أصابها بجرح قاتل ، فسقطت ولفظت أنفاسها الأخيرة بين أذرع وصيفاتها ، ولكن ديانا التى شاهدت مصيرها ، لم ترض أن يمر مصرعها دون أن تثأر لها ، وبينما كان أرونس يتسلل مبتعدا ، وهو مبتهج ولكنه متخوف ، أصابه سهم خفى ، سددته إلى صدره إحدى حوريات الماء من حاشية ديانا ، فمات مغمورا منبوذا .

وأخيرا وقعت المعركة النهائية بين إينياس وتورنس ، وقد تحاشى تورلس الصدام أطول مدة مستطاعة ، ولكنه اضطر أخيرا تحت ضغط إخفاق أسلحته وهمهمة حاشيته ، أن يدفع بنفسه إلى النزال ، ولم يعتور النتيجة أى ريب ، فإلى جانب إينياس كان قرار القدر المحتوم ، معونة أمه الإلهة فى كل طارئ ، وزرد لا يصدع من صناعة فولكان ، تحت طلبها ، لاستخدام ابنها ، ومن الجانب الثانى كان تورلس قد هجره حلفاؤه السماويون ، إذ حرم جوبتر على يونو صراحة أن تستمر فى مساعدته ، فقذف تورلس برمحه ولكنه ارتد عن ترس إينياس

دون أن يصيبه بأذى ، عندئذ قذف البطل الطروادى برمحه فاخترق ترس تورنس وتغلغل فى فخذه ، وحينذاك زايل تورنس جلده والتمس الرحمة ، وكان إينياس على وشك أن يمنحه الحياة ، ولكنه لمح في تلك اللحظة حزام بالس ، الذى انتزعه من الشاب القتيل ، ومن ثمة سرعان ما تجدد حنقه وصاح قائلا : « بالس يقدمك ضحية بهذه الطعنة . » وغيب سيفه فى أعماقه .

وهنا تنتهى قصيدة « إينياد » ، فانقطع بنا حبل السرد لنوصله باستنتاجنا أن إينياس ، بعد انتصاره على أعدائه ، حصل على لافينيا عروسا له ، وتضيف الرواية المتواترة أنه أسس مدينته ، وسماها « لافينيوم » نسبة إلى عروسه ، وأسس ابنه أيولس مدينة « البالونجا » ، وهى مسقط رأس روملوس وريموس ، ومهد روما نفسها . .

وهناك تنويه بكاميلا فى تلك الأبيات المشهورة لبوب ، التى فيها ، حين يصور القاعدة القائلة « إن الصوت يجب أن يكون صدى للحس » ، يقول :

« حينما يحاول أجاكس قذف حجر ضخم ثقيل ،
يشترك الجهد واللفظ معا فى بطء الحركة .
ليس مثل كاميلا السريعة حين تقطع الوادى ،
فتمرق فوق أعواد الحنطة المنتصبة وعباب الماء » .

مقالة فى النقد

الفصل الرابع والثلاثون

فيثاغورس — آلهة المصريين — الكهان

فيثاغورس

كانت تعاليم أنكسيس إلى إينياس ، المتعلقة بطبيعة الروح البشرية تتفق تماما مع مبادئ الفيثاغورسيين ، وكان فيثاغورس (ولد قبل الميلاد بخمسمائة وأربعين عاما) من أهالي جزيرة ساموس ، ولكنه قضي الشطر الأكبر من حياته في كروتونا بإيطاليا ، ولذلك يسمونه أحيانا « السامى » وأحيانا أخرى « فيلسوف كروتونا » وقد طوف كثيرا وهو صغير السن ، ويقال إنه زار القطر المصرى ، حيث ثقفه الكهنة بكل معارفهم ، وبعد ذلك رحل إلي الشرق ، وزار المجوس الفرس والكلدانيين وبراهمة الهند .

وفى كرتونا حيث استقر ودعم نفسه نهائيا ، جمعت حوله صفاته الممتازة غير المادية عدداً كبيراً من التلاميذ والمريدين ، وكان الأهلون ذوى سيرة غير كريمة لترفهم وتحللهم الخلقي ، ولكن سرعان ما ظهرت ثمار تأثيره الطيب عليهم، إذ جاءت الرزانة والاعتدال فى الأعقاب ، وأصبح له من الأهالي ستمائة تلميذ ، آلفوا من أنفسهم جمعية ، يساعد فيها أحدهم الآخر ، التماسا للحكمة ، ووحدوا أملاكهم وجعلوها مشاعا لصالح الجماعة، وكانوا مطالبين بأن يمارسوا أكبرقسط من الطهارة والبساطة فى السلوك والطباع ، وكان الصمت أول درس يتلقونه ، فيطلب إليهم أن يبقوا سامعين فقط فترة من الزمن ، « هو (فيثاغورس) » قال هذا _ Ipse dixit _

كانت عبارة كافية للتسليم بها ، دون أى دليل ، فالتلاميذ المتفوقون فقط هم الذين كان يسمح لهم ، بعد أعوام من الإذعان والصبر ، أن يوجهوا أسئلة ويثيروا اعتراضات .

وفى اعتبار فيثاغورس كانت الأعداد هى جوهر جميع الأشياء وأصلها ، وقد أسند إليها وجودا حقيقيا ظاهرا ، ولذلك فهى ، فى نظره ، العناصر التى تكون منها العالم ، أما كيف توصل إلى هذه الفكرة ، فلم يجد أحد لهذا تفسيرا مرضيا على الإطلاق ، وقد نسب شتى أشكال العالم ومناظره الطبيعية إلى الأعداد التى اعتبرها أصلا لها وجوهرا ، فاعتبر الوحدة (Monad) أصلا لجميع الأعداد ، والعدد (اثنين) غير كامل ، وهو علة الزيادة والقسمة ، وثلاثة يسمونه عددا متكاملا ، إذ له بداية ووسط ونهاية ، وأربعة ، الممثل للمربع ، فى أرفع درجة من الكمال ، وعشرة ، لاحتوائه على مجموع الأعداد الأربعة الرئيسية ، يستوعب جميع النسب الموسيقية والرياضية ، ويدل على نظام العالم .

وكما أن الأعداد تنبثق من الوحدة ، اعتبر نقاء الألوهية وجوهرها البسيط كمصدر لجميع أشكال الطبيعة ، فالآلهة والشياطين والأبطال ، هى انبثاقات من الكائن الأعلى ، وهناك انبثاق رابع وهو الروح البشرية ، وهى خالدة ، وحين تحررها من أغلال الجسد ، تعبر إلى موطن الموتى ، حيث تبقى حتى تعود إلى العالم ، لتسكن فى جسم إنسان آخر أو فى بدن حيوان ، وأخيرا حينما يتم تطهيرها تعود إلى المصدر الذى انبثقت منه ، ونظرية تقمص الأرواح (التناسخ) هذه ، التى كانت مصرية النشأة ، وعلى اتصال بنظرية الثواب والعقاب فيما يتعلق بأعمال البشر ، هى السبب الرئيسى الذى دفع الفيثاغورسيين إلى تحريم ذبح الحيوانات ، وأوفيد يصور فيثاغورس وهو يخاطب تلاميذ بهذه الكلمات : « لا تموت الأرواح أبدا ، ولكنها حين تغادر موطنا تسكن آخر ، وأنا نفسى أستطيع أن أتذكر أننى فى زمن الحرب الطروادية كنت يوفوربس بن بانثس ، وسقطت برمح مينلوس ، وأخيرا إذ كنت بمعبد يونو

بأرجوس، فتعرفت على ترسى معلقا هناك بين غنائم الحرب، كل الأشياء يعتورها التغيير ، ولكن لايفنى أى شيء ، فالروح تتردد هنا وهناك ، فتارة تشغل هذا الجسم ، وأخرى ذاك، منتقلة من بدن حيوان إلى جسم إنسان ،ومنه إلى حيوان مرة أخرى ، فكما تشكل من الشمع تماثيل معينة ، وبعد ذلك يصهر ويعاد تشكيله من من جديد إلى تماثيل أخرى ، ولكنه دائما هو نفس الشمع ، كذلك الروح ، هى نفسها دائما ، ولكنها ترتدى ، فى أوقات مختلفة ، أشكالا مختلفة ، ولذلك فإذا كان حب ذوى القربى غير منتزع من صدوركم ، فأضرع إليكم أن تتحاشوا إزهاق حياة أولئك الذين قد يكونون من أقربائكم ذوى الأرحام . »

***

وشكسبير فى مسرحيته « تاجر البندقية » يجعل جراشيانو يشير إلى تناسخ الأرواح ، حيث يقول لشيلوك :

« تكاد تجعلني أتذبذب فى إيمانى ،
ومن ثمة أعتنق رأى فيثاغورس ،
بأن أرواح الحيوانات تنفث أنفسها
فى أبدان البشر ، فروحك الدنيئة
حكمت ذئبا،وحين أعدم لقتله إنسانا،
نفث روحه فيك ، ذلك لأن رغباتك
ذئبية ، دموية ، جائعة ، نهمة . »

***

والعلاقة التى بين أنغام السلم الموسيقى والأعداد ، التى بها تنتج ألفة الأصوات (Harmony) من الاهتزازات فى مدد متساوية ، ونشازها من العكس ، ساقت

فيثاغورس إلى استخدام كلمة (Harmony) للخليقة المرئية ، ويعنى بها التكييف السليم لأجزائها بعضها إلى بعض ، وهذه هي الفكرة التي يعبر عنها دريدون فى مستهل قصيدته « نشيد ليوم القديسة سسليا »

« من اتساق ، من اتساق سماوى
بدا هــذا الإطــار الخالد ،
من اتســاق إلى اتســاق
انسابت الأنغام لأقصى مداها ،
فتم التناسق كاملا فى الانسان . »



وفى منتصف الكون (على حد تعليمه) توجد نار وسطى ، هى قاعدة الحياة ، والنار الوسطى محاطة بالأرض والقمر والشمس والخمسة كواكب ، والرأى عنده أن المسافات التى تبعدها الأجرام السماوية ، أحدها عن الآخر ، تتفق مع نسب السلم الموسيقى ، وتقوم الأجرام السماوية مع الآلهة التى تسكنها ، على حد زعمه ، برقصة توقيعية حول النــار الوسطى ، « ليست دون نشيد » وهذه هى النظرية التى يشير إليها شكسبير ، حين يجعل لورنزو يعلم جسيكا الفلك ، بهذا الأسلوب :

« تطلعى ياجسيكا وانظرى كيف أن سقف السماء
مرصع بطاسات عديدة من الذهب البراق !
وليس نجم مما ترين ، مهما كان صغــيراً ،
إلا وهو يرتل فى مــداره مثــل ملك
من طغمة الشاروبيم ذوى العيون الدقيقــة ،

مثل هذه الأنغام المتسقة بالأرواح الخالدة !
ولكن طالما هذا الجسد الترابى الفانى
يضيق عليها الخناق فلا نسمعها . »
تاجر البندقية .

.·.

وكان المعتقد أن الدوائر الفلكية مصنوعات بلورية أو زجاجية ، صفت طباقا واحدة فوق الأخرى ، كمجموعة من السلال المتداخلة المقلوبة ، وكان مثبتاً فى تكوين كل دائرة فلكية ، على حد زعمهم ، جرم سماوى أو أكثر ، يتحرك معها ، ونظراً لأن الدوائر الفلكية شفافة ،فإننا نخترقها ببصرنا ، وبذلك نرى الأجسام السماوية ، التى تحتويها وتحملها معها فى دورانها ، ولكن بما أن هذه الأفلاك التى تحتويها ، لاتستطيع أن تتحرك ، إحداها نحو الأخرى ، دون احتكاك ، فمنها يصدر صوت بديع الألفة والاتساق ، وبالغ حد الرقة فلا تلتقطه مسامع البشر ، ويشير ملتون فى قصيدته « ترنيمة فى عيد الميلاد » إلى موسيقى دوائر الأفلاك كما يلى :

« رددى صليلك أيتها الأفلاك البلورية !
وشنفى مرة مسامعنا البشرية
(إن كنت قادرة على فتنة حواسنا هكذا)
واجعلى رنين دقاتك الفضية
تنساب فى نغمة شجية ؟
ودعى موسيقى أرغن السماء العميقة ،

مع ألفة أصواتك ذات الأضعاف التسعة

تؤلف جوقة كاملة لسمفونية الملائكة . »

.·.

ويقال إن فيثا غورس اخترع القيثارة ، وشاعرنا لونجفللو ، فى قصيدته « أشعار إلى طفل » يشير إلى هذه القصة كما يلي :

« كفيثا غورس العظيم ، منذ القدم ،
الواقف بجانب مصنع الحداد ،
ينصت للمطارق وهى تدق
السندان بنغمة متفاوتة المدى ،
فاختلس من الأنغام المختلفة ،
المنبعثة من كل لسان حديدى ،
سر السلك المردد للرنين ،
وصنع القيثارة ذات الأوتار السبعة . »

.·.

طالع أيضاً لنفس الشاعر قصيدته « خسوف أوريون » :

« قيثارة إله الرياح المظيم بجزيرة ساموس . »

* * *

سيبارس وكروتونا

واشتهرت سيبارس ، وهى مدينة مجاورة لكروتونا ، بالترف والتخنث ،

كما اشتهرت كروتونا بالنقيض ، وأصبح الاسم مضربا للأمثال ، واستخدمه ج . ر لوول بهذا المعنى ، فى قصيدته الرائعة القصيرة « إلى زهرة أسنان الأسد » :

لا يحس ذكر النحل ذو الزرد الذهبى فى منتصف يونية
طقسا أشد صيفاً ، ونشوة سلابة دفيئة ،
بخيمة الزنبقة البيضاء البهيجة (عبدته سيبارس) ،
أكثر مما أحس حينما رأى لأول مرة ،
حلقاتك الصفراء تنبثق من خضرتك القاتمة .

.·.

ونشبت حرب بين المدينتين ، فانهزمت سيبارس وحل بها الدمار ، وتولى ميلو اللاعب الرياضى المشهور ، جيش كروتونا ، ورويت قصص كثيرة عن قوة ميلو الهائلة ، كحمله على كتفيه عجلا ابن أربع سنوات ، والتهامه بعد ذلك عن آخره فى يوم واحد ، ووردت قصة وفاته على النحو التالى : بينما كان مارا داخل غابة رأى جذع شجرة ، كان قاطعو الأخشاب ، قد شقوا جزءا منه ، فحاول أن يتم شقه ، ولكن الخشب أطبق على يديه ، وشل حركته ، فهاجمته الذئاب والتهمته وهو على هذه الحال .

* * *

ويشير بيرون فى قصيدته « نشيد لنابليون بونابرت » إلى قصة ميلو :

« هذا الذى أراد قديما أن يشق شجرة البلوط
لم يتوقع ارتداد الجزء المنشق إلى أصله ،
فأطبق عليه الجذع الذى أراد أن يكسره بمفرده ،
ولشد ماراح يتطلع حواليه ! »

.·.

آلهة المصريين

اعتبر المصريون الإله آمون على رأس آلهتهم ، ودعى فيما بعد زيوس أوجوبتر آمون ، وأظهر آمون نفسه فى كلمته أو إرادته ، التى خلقت نيف (Kneph) وأثور (Athor) ، وهما ذكر وأنثى ، فأنجب نيف وأثور ، أوزيريس (Osiris) وإيزيس (Isis) وعبدوا أوزيريس ، كإله الشمس ، مصدر الدفء والحياة والخصوبة ، بالإضافة إلى اعتباره أيضا إله النيل ، الذى يزور سنويا زوجته إيزيس (الأرض) عن طريق فيضان ، وفي بعض الأحيان كان سيرابيس أو هرميس يصور كنظير لأوزيريس ، وأحيانا أخرى كإله مستقل ، حاكم العالم السفلي وإله الطب ، وأنوبيس ، الإله الحارس ، يصور برأس كلب ، رمزا لأمانته ويقظته ، وكان هورس أو هربوكراتيس (HarPocrates) ابنا لأوزيريس ، ويصور جالسا على زهرة لوتس ، وأصبعه على شفتيه ، كإله الصمت .

وفى إحدى قصائد مور « أنغام إيرلندية » إشارة إلى هربوكراتيس :

« تحت خميلة من الورود سوف
تجلس صامتا وأصبعك على شفتيك ،
مثل ذلك الصبي الذى ولد
بين الأزهار النامية بمجرى النيل ،
فهو يجلس دائما هكذا – وأغنيته الوحيدة
للأرض والسماء « صه جميعا ، صه ! »

***

أسطورة أوزيريس وإيزيس

مال أوزيريس وإيزيس ذات مرة للنزول إلى الأرض ، ومنح سكانها عطاياهما

وبركاتهما ، فبينت لهم إيزيس أولا منافع القمح والشعير ، وصنع أوزيريس آلات الزراعة وعلم الناس استخدامها ، كما علمهم كيف يعلقون الثور بالمحراث ، ثم أعطى الناس القوانين ، وشريعة الزواج ، والتنظيم المدنى ، وعلمهم كيف يعبدون الآلهة ، وبعد أن جعل وادى النيل أمة سعيدة بهذه الصورة ، تخير جماعة من الناس للتوجه معهم إلى حيث يسبغ بركاته على باقى العالم، ففتح الأمصار وغزا القلوب فى كل مكان ولكن لا بالسلاح ، وإنما بالموسيقى والبيان ، وحين رأى أخوه تيفون(TyPhon) هذا امتلأ قلبه حسدا وحقدا ، ومن ثمة راح يحاول خلال غيبته أن يغتصب منه العرش ، ولكن إيزيس ، التى كانت ممسكة بزمام الحكم ، أفسدت عليه خطته ، ولكنه وقد ازداد حقده مرارة ،عقد العزم على قتل أخيه ، وقد صنع هذا بالطريقة التالية : بعد أن دبر مؤامرة مع اثنين وسبعين عضوا، ذهب معهم إلى الحفل الذى أقيم تكريما لعودة الملك ، بعد ذلك هيأ استحضار صندوق أو تابوت كان قد تم صنعه ، ليلائم حجم أوزيريس تماما ، وأعلن أنه سيهدى ذلك الصندوق ـ المصنوع من الخشب الثمين ـ لأى شخص يستطيع ولوجه ، وحاول الباقون عبثا ، ولكن ما كاد أوزيريس يدخله حتى أغلق تيفون ورفاقه الغطاء ،وألقوا بالصندوق فى النيل ، وحينما سمعت إيزيس نبأ جريمة القتل البشعة ، بكت وانتحبت ، ثم راحت تبحث ، بجد ودون هوادة ، عن جثمان زوجها، وقد حلقت شعرها ، وارتدت ثياب الحداد ، وساعدها جديا فى هذا البحث أنوبيس بن أوزيريس ونفتيس (NePhthys) ، فقاما بالبحث حينا ولكن دون جدوى ، ذلك لأن التابوت وقد حملته الأمواج ، إلى شواطىء بيبلوس (ByPlos)، التفت حوله أعواد القصب النامية فى قاع الماء ، فأمدت القوة الإلهية ، المستقرة بجسم أوزيريس ، ذلك الخشب بقدرة جعلته ينمو ويصبح شجرة ضخمة ، احتوت تابوت الإله داخل جذعها ، وبعد هذا بقليل ، أسقطت الشجرة بوديعتها المقدسة،وأقيمت كعمود فى قصر ملك فنيقيا(Phoenicia)، ولكن إيزيس وقفت أخيرا على هذه الوقائع ، بمساعدة أنوبيس والطيور المقدسة ، ثم

توجهت إلى المدينة الملكية ، وهناك عرضت نفسها في القصر كخادمة ، وحين قبلت كشفت عن تنكرها وبدت كإلهة ، يحيطها الرعد والبرق ، وإذ مست العمود بعصاها السحرية ، انشق ولفظ التابوت المقدس من أعماقه ، فاستولت عليه وعادت به ، وأخفته في أعماق غابة ، ولكن تيفون اكتشف مكانه ، وإذ مزق الجسد أربع عشرة قطعة بعثرها هنا وهناك ، وبعد بحث شاق وجدت إيزيس ثلاث عشرة قطعة ، إذ كانت أسماك النيل قد أكلت الأخرى ، فاستعاضت عن هذه بقطعة مماثلة من خشب الجميز ، ووارت الجثة التراب في فيلو ، التي أصبحت دائما بعد ذلك أعظم مدافن الشعب ، والبقعة التي يحج إليها جميع الأهلين من كل فج عميق ، كذلك أقيم هناك معبد بالغ الروعة تكريما للإله ، وفي جميع الأمكنة التي عثر فيها على أعضاء جسمه أقيمت معابد ومقابر أقل شأنا تذكارا للحادث ، وأصبح أوزيريس بعد ذلك الإله الحارس للمصريين ، ويزعمون أن روحه كانت تسكن دائما جسد العجل أبيس (APis) وتنقل نفسها عند موته إلى خلفه .

وكان المصريون يقومون بعبادة أبيس ، عجل ممفيس ، بأعظم توقير ، فالحيوان الفرد المعين ليكون أبيس ، كان يعرف بعلامات معينة ، فمن الضروري أن يكون حالك السواد ، على جبهته علامة بيضاء تشبه الزاوية القائمة ، وأخرى على هيئة النسر فوق ظهره ، وتحت لسانه كتلة قريبة الشبه من الجعران أو الخنفساء ، وحالما كان أولئك الذين يرسلون للبحث عنه ، يجدون عجلا به هذه العلامات ، كانوا يضعونه في مبنى يواجه الشرق ، ويطعمونه لبنا مدة أربعة أشهر ، وعند انقضاء هذه المدة ، كان الكهنة يتوجهون ، حين يكون القمر هلالا ، بأبهة عظيمة ، إلى حظيرته ويحيونه باسم أبيس ، ويضعونه في سفينة رائعة الزينة ويحملونه عبر النيل إلى ممفيس ، حيث يخصص له معبد بعمرايين ، وساحة للرياضة ، وتقدم إليه القرابين ، ومرة كل عام ، قرابة الوقت الذي يبدأ ارتفاع النيل فيه ، يلقى في النهر بقدح من الذهب ، ويقام مهرجان كبير احتفالا بمولده ، وكان الناس يعتقدون أن التماسيح ، خلال هذا

المهرجان ، تنسى شراستها الطبيعية ، وتكف عن الإيذاء ، ولكن ثمة عقبة وحيدة كانت تعترض سعادة ، هذا العجل ، فلم يكن مسموح له أن يعيش أكثر من مدة معينة ، وإذا بقي على قيد الحياة بعد بلوغه الخامسة والعشرين من عمره ، أماته الكهنة غرقا في الحوض المقدس ، ودفنوه في معبد سيرابيس ، وعند موت هذا العجل ، سواء أكان الموت طبيعيا أم كرها ، كانت البلاد يخيم عليها الحزن ويملأ أجواءها النحيب ، وتستمر الحال كذلك حتى يعثرون على خلف له .

ووردت العبارة التالية بإحدى صحف هذا العهد :

« مقبرة أبيس — بيلت التنقيبات القائمة بمنفيس ، أن تلك المدينة المطمورة تماثل بحق مدينة بومبيا فيما تضفيه من متعة وأهمية ، وتم الآن فتح مقبرة أبيس الهائلة ، بعد أن ظلت خفية مجهولة بضعة قرون . »

***

ويشير ملتون في قصيدته « ترنيمة عيد الميلاد » إلى الآلهة المصرية ، لا باعتبارها كائنات خيالية ، بل شياطين حقيقية ، فرت بمجيء السيد المسيح :

« عجلت آلهة النيل البهيمية بالفرار ،
إيزيس وهورس والكلب أنوبيس .
كذلك لم يظهر الإله أوزيريس
بدغل أو بمرعى من ممفيس ،
يطأ عشبه الجاف * ويرفع خواره ،
ولن يستطيع أن يحظى بالراحة
داخل تابوته المقدس ،
فسكفنه هو قاع الجحيم .
وعبثا يعزفون أناشيد الظلام

[*] لانعدام المطر في مصر ، فالعشب جاف ، وتعتمد البلاد في خصوبتها على فيضان النيل . والتابوت المشار إليه في البيت الأخير ، يظهر في الصور التي لاتزال باقية على حوائط المعابد المصرية ، وقد حمله الكهنة في حفلاتهم الدينية ، ولعله يمثل الصندوق الذي وضع فيه أوزيريس .

أولئك السحرة بطيالسهم القاتمة ،
وهم يحملون التابوت المقدس . »

∴

وكانت إيزيس في تماثيلها ذات رأس محجبة ، كرمز لخفاء ، ويشير تنيسون إلى هذا في « مود » الرابع — ٨ :

« فرى الخالق ، كإيزيس يحجبها الخمار . »

منازل الوحى

استخدم لفظ « مهبط الوحى » (Oracle) للدلالة على المكان الذى يزعمون أن أحد الآلهة يجيب فيه أولئك الذين يستشيرونه فيما يتعلق بالمستقبل ، كذلك استخدم اللفظ نفسه للدلالة على الاستخارة أو جواب الآلهة .

وكان أقدم موطن وحى يونانى للإله جوبتر فى دودونا ، وفى رواية إنه أنشىء على النحو التالى : طارت حمامتان سوداوان من طيبة فى مصر ، إحداهما يممت شطر دودونا فى أبيروس ، وحين هبطت فى أجمة من أشجار البلوط ، خاطبت أهالى المنطقة بلغة بشرية ، وأهابت بهم أن يشيدوا هناك مهبطا لوحى جوبتر . وطارت الحمامة الثانية إلى معبد جوبتر أمون فى الواحة الليبية ، وسلمت أمرا مماثلا هناك ، وثمة رواية أخرى تزعم أنهما لم يكونا حمامتين بل كاهنتين حملهما الفينيقيون من طيبة بمصر وأقامتا منزلين للوحى بالواحة ، ودودونا ، وكانت ردود الاستخارات تعطيها الأشجار ، بوساطة حفيف الريح فى الأغصان ، وقيام الكاهنتين بترجمة ما تصدره من أصوات .

ولكن أشهر منازل الوحي اليونانية ، موطن وحي أبوللو في دلفي ، وهي مدينة مشيدة على منحدرات برنسوس في فوكيس .

وكان قد لوحظ في فترة مبكرة جدا ، أن الماعز التي ترعي فوق برنسوس ، كانت تصاب بتقلصات حين وصولها إلى شق معين غائر في جانب الجبل ، وهذا بسبب بخار معين يتصاعد من الكهف ، ورغب أحد الرعاة في أن يجرب تأثيره على نفسه ،وحين استنشق الهواء المخدر اعترته نفس الآثار التي اعترت الأغنام من قبل ، وإذ عجز أهل المنطقة المحيطة ، عن تفسير الواقع ، نسبوا التقلصات وماصحبها من عبارات سائبة فاه بها وهو تحت تأثير الاستنشاق إلى وحي علوى ، فانتشر النبأ سريعاً ، وشيد معبد بهذه البقعة ، وكان السلطان النبوى ينسب في مبدأ الأمر إلى أى من إلهة الأرض أو نبتون أو ثيمس أو آخرين ، ولكنه أسند في النهاية إلي أبوللو دون غيره ،وعينت كاهنة ، مهمتها استنشاق الهواء المقدس، اسمها بيثيا ، وقد تهيأت للقيام بهذه المهمة ، باغتسال سابق في مياه ينبوع كاستليا ، وإذ توجت بأكاليل من الغار ، جلست فوق حامل مثلث مزين بنفس الطريقة ، كان يوضع فوق الفجوة التي ينبعث منها الوحي المقدس ، وكانت كلمات الوحي الهابط عليها وهي على هذا الوضع ، تقوم الكاهنتان بترجمتها .

. . . . .

مهبط وحي تروفونيس

وبجانب مهبطي وحي جوبتر وأبوللو ، في دودونا ودلفي ، كان مهبط وحي تروفونيس في بواتيا ، ذا منزلة رفيعة ، وكان تروفونيس وأجا ميديس شقيقين ، ومن مهندسي المعمار البارزين ، وقد شيدا معبد أبوللو بدلفي ، وخزانة لكنوز الملك هيريوس ، ووضعا في حائط الخزانة حجراً ، بطريقة يستطيعان بها انتزاعه ، وبهذه الوسيلة كانا ، من حين لآخر، يختلسان من الكنوز قدر ما يشتهيان ، وقد أثار هذا الأمر دهشة هيريوس وحيرته، إذ كانت أقفاله وأختامه سليمة لا تمس ، وعلى الرغم من هذا كانت ثروته تتضاءل باستمرار وأخيرا نصب شركا للسارق، وقع فيه أجاميديس .

وإذ عجز تروفونيس عن إخراجه من الشرك ، ولخشيته أن يعترف بشريكه في الجريمة ، إذا ما وجدوه وأرغموه بالتعذيب ، قطع رأس أخيه ، وقيل إن الأرض ابتلعت تروفونيس نفسه بعد ذلك بقليل .

وكان موطن وحى تروفونيس بمدينة ليباديا في بواتيا ، وخلال فترة جدب شديد اكتسح بواتيا ، فأرشد الإله في دلفي الأهلين إلى التماس العون من تروفونيس في لبباديا ، فتوجهوا إلى هناك ولكنهم لم يستطيعوا أن يعثروا على موطن وحى ، ولكن تصادف أن شاهد أحدهم سرب نحل ، فتبعه إلى فجوة في الأرض ، اتضح أنها المكان المنشود .

وكان على الشخص الذى جاء للاستخارة ، أن يؤدى شعائر خاصة ، وبعد القيام بهذه التمهيدات ، يهبط إلى الكهف عن طريق ممر ضيق ، وما كان المرء ليستطيع أن يلج المكان إلا ليلا ، ثم يعود من الكهف عن طريق الممر الضيق نفسه ، ولكن بسيره القهقرى ، فيبرز وهو حزين مبتئس ، ومن هنا نشأ القول المأثور الذى يطلق على شخص مكتئب كسير النفس « كان يستخير وحى تروفونيس . »

***

مهبط وحى أيسكولابيس

وثمة مهابط وحى متعددة كانت لأيسكولابيس ، بيد أن أشهرها كان في أبيدورس ، هنا كان المرضى ينشدون ردودا على استخاراتهم ، وشفاء من أمراضهم ، عن طريق نومهم في المعبد ، وتبين من القصص التى انحدرت إلينا ، أن علاج المرضى كان شبيها بما يسمى الآن المغناطيسية الحيوانية أو التنويم المغناطيسى .

وكانت الحياة مقدسة عند أيسكولابيس ، ولعل هذا عائد إلى خرافة تزعم أن لتلك الحيوانات قدرة على تجديد شبابها بتغيير جلدها .

وأدخلت عبادة أيسكولابيس إلى روما في عهد تفشى فيه المرض تفشيا ذريعا ، وأرسلت سفارة إلى معبد أبيدورس تلتمس عون الإله ، فاستجاب أيسكولابيس ، ورافق السفينة ، عند عودتها ، في هيئة ثعبان ، وحين وصلت السفينة إلى نهر التيبر ، انساب الثعبان منها ، واحتل جزيرة في النهر ، وهناك شيد معبد تكريما له .

***

مهبط وحي أبيس

وفي ممفيس كان العجل المقدس أبيس يرد على أولئك الذين يستخيرونه ، بمسلكه في قبول أو رفض ما يقدمونه إليه من هدايا ، فإذا رفض العجل طعاما من يد السائل اعتبر هذا علامة غير محمودة ، والعكس إذا تناوله .

وثار الجدل حول ردود الوحي ، وما إذا كان من الواجب إسنادها إلى التدبير البشري المجرد ، أو إلى فعل الأرواح الشريرة ، وكان الرأي الثاني أكثر شيوعا في العصور القديمة ، وراجت نظرية ثالثة ، منذ استرعت ظواهر التنويم المغناطيسي الانتباه ، إلى أن شيئا شبيها بالغيبوبة المغناطيسية ، كان يستولي على كاهنة أبوللو ، وبصحبة هذا الشيء تأتي فعلا ملكة الكشف أو الجلاء البصري .

وثار جدال آخر حول الوقت الذي انقطعت فيه مهابط الوحي الوثنية عن الرد ، فالكتاب المسيحيون القدماء يؤكدون أنها كفت عن الكلام فلا تبين عند مولد السيد المسيح ، فلم يسمع لها أحد بعد ذلك التاريخ نأمة ولا ركزا ؛

ويأخذ ملتون بهذا الرأى فى قصيدته « ترنيمة عيد الميلاد » ، فيصور فى أبيات من الجمال الرفيع الوقور ، ما أصاب الأصنام الوثنية من هلع ، عند مجىء المخلص :

« خرست مهابط الوحى فهي بكماء ،
لا صوت ولا جلبة طنانة شنعاء ،
تصلصل بكلمات خداعة بالأقبية والأبهاء .
فأبوللو من داخل محرابه ،
لم يعد يجرؤ أن يوحى بكتابه ،
بل بصيحة جوفاء غادر دلفى وصحابه .
فلا غشية فى الليل أو تعويذة شيطانية ،
تهبط بالوحى على الكاهن الأعشى من المقصورة النبوية . »

***

وفى قصيدة كاوبر « بلوطة ياردلى » توجد بعض إشارات أسطورية جميلة ، وأولى الاثنتين التاليتين تتعلق بأسطورة كاستور وبولكس ، أما الثانية فهى أكثر ملاءمة لموضوعنا الراهن ، وفيها يخاطب ثمرة البلوط قائلا :

« سقطت ناضجة ، وفى التربة الخصيبة
إذ أنت تعجين بقوة غريزة الإنبات
انفلقت بذرتك ، كما حدث للتوأمين الأسطوريين
الكوكبين حاليا ، وانقسمت بالتساوى فلقتين ناتئتين ،
ونبتت ورقة شجر خضراء فى إثرها ورقة أخرى ،
وكل العناصر تكفلت ، فى عطف ، رعاية
نموك الناقص ، حتى أصبحت غصنا .

من عاصرك حينذاك ؟ ألا تستطيعين الكلام ،
كما كانت أشجار البلوط زميلاتك ، وهي في دودونا ،
تستنبأ فتتنبيء ، لن يدفعني الفضول لاستكناه
المستقبل ، فأحرى أن يظل خفيا ، ولكن من فلك
المدقق ، ينساب الماضى الأقل غموضا . »

* * *

ويشير تنيسون فى قصيدته « الدلوطة الناطقة » إلى أشجار البلوط بدودونا ، فى الأبيات التالية :

« وسأشتغل فى النثر والشعر ،
وأمدحك فى الاثنين أكثر مما
مدح الشاعر الزان والزيزفون ،
أو ذلك الدغل فى ثيساليا ،
حيث حطت الحمامة المطوقة الداكنة
ونطقت بالعبارات الخفية الغامضة . »

* * *

ويشير بيرون إلى موطن الوحى بدلفى ، حين يتكلم عن روسو الذى يرى أنه كان لكتاباته أثر كبير فى قيام الثورة الفرنسية ، فيقول :

« لأنه عندئذ هبط عليه الوحى ، ومنه صدرت ،
كأنها من كهف بثيا الخفى فى الزمان الغابر ،
تلك النبوءات التى أشعلت النيران بالعالم ،
ولم يخب أوارها حتى تلاشت الممالك من الوجود . »

* * *

الخامس والثلاثون

أصل علم الأساطير ـ تماثيل الآلهة والإلهات ـ شعراء الأساطير

أصل الأساطير

وثمة بحث يفرض نفسه علينا، بعد أن وصلنا إلى ختام سلسلة أقاصيصنا عن الأساطير الوثنية. «متى برزت هذه القصص؟ أبها أساس من الصحة، أم أنها مجرد أحلام من صميم الخيال؟» بسط الفلاسفة بضع نظريات عن الموضوع وهي:

١ — نظرية الكتب المقدسة، وهي تذهب إلى أن جميع القصص الأسطورية مشتقة من روايات الكتب المقدسة، ولكن الوقائع الصحيحة استترت وتغيرت، وعلى هذا فديوكاليون هو اسم آخر لنوح، وهرقل لشمشون، وأريون ليونان أو يونس ... إلخ، ويقول سر ولتر رالى فى كتابه «تاريخ العالم» إن يوبال (Jubal) وطوبال (Tubal) وطوبلقاين (Tubal-Cain) هم بالترتيب مركيورى، وفولكان، وأبوللو، مبتكرو الرعى والحدادة والموسيقى، وإن التنين الذى كان يحرس التفاحات الذهبية هو الحية التى أغوت حواء، وإن برج نمرود هو محاولة العمالقة ضد السماء، ولا شك أن هناك كثيرا من المطابقات المماثلة، ولكن النظرية لا يمكن - دون إغراق فى التأويل - الإفساح فى آفاقها، حتى تتسع لتفسير أكبر نصيب من الأقاصيص.

٢ — النظرية التاريخية، وهي تذهب الى أن جميع الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى الأساطير، كانوا يوما ما كائنات بشرية حقيقية، وأن الأساطير

والروايات الخرافية المنسوبة إليها ، ليست سوى زيادات وزخارف أقحمت فى عهود متأخرة ، وعلى هذا يزعمون أن قصة أيولس ملك وإله الرياح ، قد نشأت من الحقيقة ، وهى أن أيولس كان حاكما لبعض الجزائر فى البحر التيرانى (Tyrrhenian Sea) ، حيث حكم كملك عادل تقى ، وعلم الأهلين فائدة الأشرعة للسفن ، وكيف يتكهنون من علامات الجو بتقلبات الطقس والرياح ، وكادموس الذى تزعم الأسطورة أنه بذر الأرض بأنياب التنين ، ومنها نبت محصول من الرجال ، كان فى الواقع مهاجرا من فنيقية ، واستحضر معه إلى اليونان معرفة حروف الهجاء التى علمها للأهالى ، ومن مبادىء العلم هذه نشأت المدنية ، التى يميل الشعراء دائما إلى وصفها ، كانحطاط للانسان من مرتبته الأولى – إبان العصر الذهبي للبراءة والبساطة .

٣ — النظرية المجازية ، وهى تفترض أن كل أساطير الأقدمين مجازية ورمزية ، واحتوت على بعض الحقيقة الأدبية أو الدينية أو الفلسفية ، أو على الواقع التاريخى ، فى شكل مجاز ، ولكن بمرور الزمن استوعبها الناس على أساس ظاهرها الحرفى ، وعلى هذا فزحل الذى يلتهم أطفاله ، هو نفس القوة التى سماها الإغريق كرونوس أو الزمن ، الذى يصح القول بحق إنه يدمر كل شىء أوجده ، وفسرت قصة أيو بطريقة مماثلة ، فأيو القمر ، وأرجوس السماء المتألقة بالنجوم ، التى تظل ساهرة تحرس القمر ، وأسفار أيو الأسطورية تصور انقلابات القمر المتواصلة ، التى أوحت أيضا إلى ملتون بنفس الفكرة :

« إذ ترى القمر الطواف ،
ممتطيا قرب قمة مجده ،
مثل فرد ضل السبيل ،
فى طريق السماء الرحب المسدود . »

* * *

٤ — النظرية الطبيعية ، وبمقتضاها كانت عناصر الهواء والنار والماء ، هي محط العبادة الدينية ، وكانت الآلهة الرئيسية مشخصات من قوى الطبيعة ، ويسهل التحول من تشخيص العناصر إلى فكرة تسلط الكائنات الخارقة على مختلف مواد الطبيعة وحكمها . واليونانيون ذوو الخيال الخصيب ، جعلوا الطبيعة بأكملها ، مأهولة بكائنات غير مرئية ، وزعموا أن كل شيء ، من الشمس والبحر ، إلى أصغر ينبوع ونهير ، كان يحظى بعناية إله معين ، وقد أبرز وردزورث بأسلوب بديع ، في قصيدته « السياحة » ، هذه الفكرة عن الأساطير اليونانية :

« في هذا الطقس البديع استلقى الراعي وحيدا
فوق العشب اللين في أصيل أحد أيام الصيف ،
وقد هيأت له الموسيقى هجعة مسترخية ،
فإن تصادف ، وهو في نوبة من الإجهاد ،
أن خفتت أنفاسه ، ومن ثمة طرقت مسامعه
نغمة بعيدة ، أشجي كثيرا من الأصوات
التي استطاع عزفها بحذقه الهزيل ، بحثت مخيلته ،
داخل عربة إله الشمس بأشعتها المتوهجة ،
عن شاب أمرد يعزف على قيثارة ذهبية ،
ويملأ الآجام المتألقة مرحا وحبورا .
وللصياد القوى الجرىء ، حين رفع عينيه
نحو الهلال ، وبفؤاد رضى شاكر
نادى الجوال الجميل ، الذى أغدق
ذلك الضوء في حينه لمشاركته رياضته البهيجة ،
رأى كأن إلهة متهللة بصحبة حورياتها ،

عبر الخميلة ، وخلال الدغل المعتم ،
(ليست غـير مصحوبة بأنغام رخيمة
يضاعفها الصدى المتردد من صخرة الـكهف)
عالقة في عاصفة الطراد ، بينما القمر والنجوم
تلمع متعجلة خلال السماء ذات الغيوم ،
حين أخذت الرياح تهب كالإعصار . وأطفأ المسافر
ظمأه ، من نبع أو من نافورة دافقة ، وشكر
حورية النهر ، وأشعة الشمس فوق التلال البعيدة ،
وهي تنساب مسرعة مع حاشيتها من الظلال ،
قـد تتحول ، بمساعدة بسيطة من المخيلة ،
إلى سرب من حوريات الجبال يتريضن مرئيات .
والنسمات العابلة ، حين تهب ، فهي ذات أجنحة ،
وهي من فرط الحب ، تغازل كل الـكائنات الجميلة
بهمسات رقيقة . وأغصان الأشجار الذاوية
التي جردتها الشيخوخة من أوراقها وعساليجها ،
وجعلتها نشازا فى البساط السندسى الـكثيف المطل
من الوادى الخفيض أو الجبل الوعر العالى ،
والتى اشتبكت أحيانا بقرون الظباء غير المستقرة ،
المليئة بالحيـاة ، أو بلحية التيس المتدلية ،
هذه هي مسوخ الساتير أو جنيات الأحراج المتربصة ،
وهي فصيلة وحشية من الآلهة اللعوب ، أو بان نفسه ،
ذلك الإله الذى يقدسه الرعاة ويهابونه .

* * *

وكل النظريات المذكورة صحيحة إلى حد ما ، ولذلك فمن الأصح أن يقال إن أساطير أمة ما قد انبثقت من جميع هذه المصادر مجتمعة ، لا من مصدر واحد معين ، ولنا أن نضيف أيضا ، أن ثمة أساطير كثيرة برزت من رغبة الإنسان فى تفسير تلك المناظر الطبيعية التى لا يفهمها ، كما أن عددا غير قليل ظهر من رغبة مماثلة فى تعليل أسماء بعض الأشخاص والأماكن .

***

تماثيل الآلهة

وكانت مهمة التمثيل الدقيق للعين ، تلك الأفكار المقصود نقلها إلى الذهن ، تحت شتى أسماء الآلهة ، مهمة تستدعى استخدام أعلى مواهب العبقرية والفن ، ومن بين المحاولات الكثيرة طبقت شهرة أربع منها الآفاق ، عرفنا أول اثنتين منها عن طريق وصف القدماء لهما فقط ، أما الأخريان فما زالتا موجودتين ، وهما من روائع فن النحت دون منازع .

جوبتر الأولمبى

كان تمثال جوبتر الأولمبى لفيدياس ، يعتبر أرفع عمل فذ في هذا اللون من الفن الاغريقى وكان ذا أبعاد هائلة ، وهو من النوع الذى يسميه قدماء اليونانيين (Cyryselephantine) ومعناه مركب من عاج وذهب ، فالأجزاء التى تمثل اللحم كانت من عاج فوق لب من خشب أو حجر ، بينما كانت الملابس وزخارف أخرى من الذهب ، وارتفاع التمثال أربعون قدما فوق قاعدة تبلغ اثنتى عشرة قدما ، وكان الإله ممثلا وهو جالس على عرشه ، وجبينه متوج بإكليل من أغصان الزيتون ، وكان ممسكا فى يمينه بصولجان ، وفي يساره بتمثال النصر ، والعرش من خشب الأرز الموشى بالذهب والمرصع بالحجارة الكريمة .

وكانت الفكرة التى أراد النحات تجسيدها ، هى فكرة إله الشعب الهلينى (الإغريق) الأعلى متوجاً كفاتح فى مهابة كاملة واطمئنان تام ، وهو يحكم العالم الخاضع بإيماءة ، وصرح فيدياس بأنه أخذ الفكرة من الصورة التى ساقها هوميروس فى السفر الأول من الإلياذة ، بالفقرة التى ترجمها بوب كما يلى :

« تكلم وفى مهابة أحنى جبينه القاتم ،
وهز خصلات شعره العطرة وأعطى الإيماءة ،
وهى دمغة القدر وترخيص الإله .
فتلقت أجواز السماء الإشارة الرهيبة بإجلال ،
وأولمبوس بأكمله اهتز من أساسه . »(1)

منيرفا البارثينون

وهذه أيضاً من عمل فيداس ، ونصبت فى البارثينون » أو هيكل منيرفا بأثينا ، وكانت الإلهة تمثل وهى واقفة ، حاملة رمحاً فى يد ، وتمثالاً للنصر

(1) وترجمة كاوبر أقل بلاغة ولكنها أصدق نقلاً عن الأصل :

« توقف ، وتحت جبينه القاتم إيماءة
بها تمت كفالة التوثيق . فكل ما حول
رأس الملك الخالد من خصلات الشعر المعطر
اهتز مؤيداً ، وترنح الجبل الهائل . »

وقد يهم قراءنا أن يروا كيف تبدو هذه الفقرة فى ترجمة أخرى شهيرة ، تلك التى صدرت تحت اسم تيكل ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه ترجمة بوب ، وإذ نسبها الكثيرون إلى إديسون ، فقد أسفرت عن خصومة شجرت بين إديسون وبوب :

وحين قال هذا ، أحنى الملك جبينه الأشم ،
فتهدلت خصلات الشعر الفاحم من الخلف فى مهابة ،
وقد أرخت ظلاً ثقيلاً على جبين الإله الصارم ،
فترنح أوليمبوس حين تلقى هذه الإيماءة العظيمة .

في اليد الأخرى ، ويعلو خوذتها بزينتها الرفيعة منمنمة لأبي الهول ، وكان ارتفاع التمثال أربعين قدما ، ومثل تمثال جوبتر ، كان مركبا من العاج والذهب ، وله عينان من الرخام ، لعلهما ملونتان لتصوير الحدقة والإنسان ، وكذلك شيد البارثينون ، الذى نصب فيه هذا التمثال ، تحت إدارة وإشراف فيدياس ، فواجهته كانت مزينة بتحف رائعة أكثرها بيد فيدياس ، ومنها تحف لورد الجين (Elgin Marbles) الموجودة حاليا بالمتحف البريطاني .

وقد فقد كلا تمثالي جوبتر ومنيرفا اللذان صنعهما فيدياس ، ولكن هناك ما يدعم اعتقادنا بأن لدينا ، فى عدد من التماثيل الكاملة والنصفية ، اتجاهات النحات في ملامح كل منهما ، التى تتميز بالجمال الشجى الوقور ، والتحرر من أى معنى عابر ، وهو ما يسمونه فى لغة الفن بالتجريد .

فينوس مديشى

أطلق هذا الاسم على تمثال فينوس مديشى إذ كان فى حيازة الأمراء الذين يحملون هذا الاسم في روما ، حين استرعى الأنظار لاول مرة منذ حوالي مائتى عام ، وثمة نقش على القاعدة يزعم أنه من إنتاج كليومنيس ، وهو نحات أثينى عاش عام ٢٠٠ ق . م ، ولكن حقيقة النقش مشكوك فى أمرها ، وهناك قصة تقول إن النحات استخدمته السلطة القائمة كي يصنع تمثالا يعرض كال الجمال الأنثوى ، ولمساعدته فى مهمته ، أمدته السلطة بأكل ما تستطيع المدينة أن توفره له من أشكال ، لعمل نماذج منها ، وهذا ما يشير إليه تومسون في قصيدته « الصيف » :

« هكذا يقف التمثال الذى يفتن العالم ،
فينحني محاولا ستر التفاخر المعدوم النظير ،
الذى تمتزج فيه ألوان جمال اليونان الرفيعة . »

***

ويشير بيرون إلى هذا التمثال ، حين يتكلم عن متحف فلورنسا فيقول :

« وهناك ، أيضا ، تحب الإلهة في الحجر ، وتملأ
الجو حولها بالجمال ... » إلخ .

***

وفى البيت التالي :

« الدم والنبض والصدر تثبت جائزة راعي داردون . »

***

طالع هذه الإشارة الأخيرة مشروحة بالفصل السابع والعشرين .

***

أبوللو بلفدير

وأقيم جميع روائع فن النحت القديمة الباقية ، تمثال أبوللو المسمى بلفدير ، الذى اشتق اسمه من جناح بقصر البابا فى روما كان موضوعا فيه ، والنحات غير معروف ، ويظن أنه من إنتاج الفن الرومانى ، حوالي القرن الأول من التاريخ الميلادى ، وهو تمثال منتصب من الرخام ، يزيد ارتفاعه على سبع أقدام ، وهو معرى لا يستره سوى عباءة مثبتة حول العنق ، ومدلاة فوق الذراع اليسرى الممدودة ، والرأى أنه يمثل الإله فى اللحظة التى أطلق فيها السهم ليقضي على المسخ بيثون (انظر الفصل الثالث) ، والإله المنتصر آخذ فى الخطو إلي الأمام ، والذراع اليسري التى تبدو أنها كانت ممسكة بالقوس ، مبسوطة ممدودة ، والرأس متحول فى نفس الاتجاه ، وجلال التمثال الرائع لا يبزه شيء فى الهيئة

والتناسق ، حيث يستقر إحساس القوة الظافرة فى كمال الجمال الإلهى النضير .

***

ديانا الظبية

يمكن اعتبار ديانا الظبية ، بقصر اللوفر ، صورة مطابقة لأبوللو بلفدير ، فالهيئة شديدة الشبه بهيئة أبوللو ، والأحجام متفقة وكذلك أسلوب التنفيذ والإنجاز ، والتمثال تحفة من أرفع مستوى ، ولكنه لا يعدل تمثال أبوللو على أى وجه ، ووقفة التمثال تكشف عن حركة متلهفة عجلى ، والوجه لصيادة فى نشوة الطراد ، واليد اليسرى مبسوطة فوق جبهة الظبية ، التى تعدو إلى جانبها ، والذراع اليمنى ممتدة إلى الخلف ، من فوق الكتف ، لأخذ سهم من جعبة السهام .

***

شعراء الأساطير

إن هوميروس الذى أخذنا من أشعار ملحمتيه الإلياذة والأوديسا ، الجزء الأكبر من فصولنا عن الحرب الطروادية وعودة الإغريق ، تكاد أن تكون شخصية أسطورية مثل الأبطال الذين نشيد بذكرهم ، والقصة المتواترة أنه كان موسيقيا جوابا ، ضريرا طاعنا فى السن ، راح يذرع البلاد من مكان لآخر ، منشدا قصائده وهو يعزف على قيثارته ، بقصور الأمراء وأكواخ الفلاحين ، معتمدا فى تحصيل قوته على عطايا سامعيه الاختيارية ، ويسميه بيرون « رجل جزيرة سكيو الصخرية الهرم الضرير » ، وثمة أفكوهة شعرية منوهة بعدم التثبت من حقيقة محل ميلاده تقول :

« سبع مدن ثرية تتنابز لأجل هوميروس بعد أن لاقى حمامه ،
وكان هوميروس ، وهو حى ، يذرعها مستجديا طعامه . »

***

هذه المدن السبع هى : سميرنا ، وسكيو ، ورودس ، وكولوفون ، وسلاميس ، وأرجوس ، وأثينا .

ويشك الدارسون المعاصرون فيما إذا كانت أشعار هوميروس من إنتاج قريحة واحدة ، وهذا ناتج من صعوبة الاعتقاد بأنه كان فى الاستطاعة تدوين قصائد بهذا الطول ، فى عصر مبكر مثل هذا العصر الذى نسبت إليه ، وهو أقدم من تاريخ أية نقوش أو قطع عملة ما زالت باقية ، ولم يكن بعد قد تيسر استخدام أية مواد يمكن أن تحتوى مثل هذا النتاج الوافر ، ومن الجانب الآخر هناك من يتساءلون كيف أمكن انتقال قصائد بهذا الطول من جيل إلى جيل عن طريق الذاكرة فقط ، ويجيبون عن هذا بوجود طبقة محترفة آنذاك ، يطلقون عليها اسم « الرواة : RhaPsodists » يتلون قصائد الآخرين ، ومهمتهم أن يؤجروا لاستذكار وسرد الأساطير الوطنية والشعبية .

ويبدو أن رأى العلماء السائد ، فى هذا الوقت ، يذهب إلى أن إطار القصائد وجزءا كبيرا من مبناها يخص هوميروس ، ولكن هناك حشواً وزيادات كثيرة أقحمها آخرون .

وتاريخ هوميروس ، وفق ما أثبته هيرودوت ، هو ٨٥٠ قبل الميلاد .

* * *

فيرجيل

وكان فيرجيل الذى يطلق عليه اسم أسرته ، مارو ، والذى اقتبسنا من ملحمته الشعرية « اينياد AEneid » قصة إينياس ، أحد الشعراء العظام الذين أشادوا بحكم العاهل الرومانى ، أغسطس ، حتى اشتهر باسم عصر أغسطس ، وولد فيرجيل بمنتوا عام ٧٠ قبل الميلاد ، وملحمته العظيمة تلى فى المرتبة ملاحم هوميروس ،

فى أرفع ضرب من فنون الشعر ، وهو الحماسي ، وفيرجيل أدنى كثيرا في المرتبة من هوميروس فيما يتعلق بالأصالة والابتكار ، ولكنه يمتاز عنه بالدقة وسلامة الذوق ، ويرى نقاد الأدب الذين من أصل إنجليزى أن ملتون وحده من بين شعراء العصر هو الذى يبدو أهلاً لأن يكون في مرتبة أولئك القدامى البارزين ، وملحمته « الفردوس المفقود » التى استعرنا منها كثيرا من الصور الشعرية ، تعادل ، فى كثير من النواحى ، مؤلفاتهم التليدة العظيمة ، والأفكوهة الشعرية التالية لدرايدون تصور الشعراء الثلاثة ، فى صدق قدر ما يمكن توافره فى مثل هذا النقد اللاذع :

« عن ملتون »

« ثلاثة شعراء ولدوا فى ثلاثة عصور ،
كانوا زينة لليونان وإيطاليا وبلاد الإنجليز
الأول بدا تفوقه فى سمــــو الروح ،
والثانى فى الروعة ، والأخير فى الاثنين .
فالطبيعة إذ عجزت عن السير قدما
لتصنع شخصا ثالثا ، مزجت الاثنين الآخرين . »

* * *

وجاء بقصيدة كاوبر « حديث المائدة » ما يلى :

« انقضت عصور قبل ظهور مصباح هوميروس :
وعصور أخرى قبل سماع بجمة منتوا
وكى تسير الطبيعة أطوالا لم تعرف من قبل :
حتى تنجب ملتون ، استدعت مزيدا من العصور .
وهكذا ظهر العبقرى واختفى فى عهود مرتبة :
وانبثق كالفجر فى أصقاع نائية

معلياً شأن كل قطر يصطفيه ،
فغاص فى اليونان وبرز فى إيطاليا ،
وإذ انقضت سنين الظلام القوطى الشاقة ،
ظهر أخيراً فى جزيرتنا كامل البهاء .
وهكذا تغطس طيور هلكيون فى البحر ،
ثم تظهر ثانية بريشها الزاهى فى مكان قصى » .

***

أوفيـــد

كثيراً ما أشير إليه فى الشعر باسمه الآخر ، ناسو ، ولد عام ٤٣ قبل الميلاد ، وقد نال تعليما يؤهله للحياة العامة ، وشغل بعض مراكز جليلة الشأن ، ولكن قرض الشعر كان هوايته ، فعقد العزم مبكرا على أن يكرس له نفسه ، ومن ثمة راح ينشد رفقة الشعراء المعاصرين ، وتعرف بهوراس ورأى فيرجيل ، ولكن الثانى قضى نحبه ، حين كان أوفيد لا يزال صغير السن ومغموراً لا يستطيع مصادقته ، وعاش أوفيد حياة ميسرة بروما ، مستمتعا بإيراد كاف ، وكان مقربا إلى أسرة أغسطس قيصر ، ويظن أن إساءة بالغة لحقت بأحد أفراد هذه الأسرة ، فأسفرت عن خاتمة قلبت ظروف الشاعر السعيدة ، وملأت المرحلة الباقية من حياته بالغيوم ، فنفى من روما فى سن الخمسين ، وصدر إليه الأمر بأن يلتجىء إلى تومى على حدود البحر الأسود وهنا بين الهمج وأوشاب الناس ، وفى مناخ شديد ، قضى الشاعر ، الذى اعتاد مباهج عاصمة مترفة ، وصحبة أشهر معاصريه ، الأعوام العشرة الأخيرة من حياته ، وقد أنهكه الحزن والهم ، وكان عزاؤه الوحيد فى منفاه ، مراسلته لزوجته وأصدقائه الغائبين ، ورسائله كلها من القريض ، وعلى الرغم من أن هذه الأشعار (« الحزن » و « رسائل من بونتس ») ليس لها موضوع سوى

أحزان الشاعر ، فذوقه المرهف وخياله الخصيب ، خلصاها من تهمة الضجر والملال ، وهي تضفي البهجة على قارئها ، بل وتستحوذ على مشاعره .

وأعظم مؤلفين لأوفيدهما : « التغييرات — Metamorphoses » و « الأيام غير الحرم — Fasti » وكلاهما ملاحم أسطورية ، وقد اقتبسنا من الأولى معظم قصصنا عن الأساطير اليونانية والرومانية ، ويصف شاعر محدث هذه الملاحم فيقول :

« إن أساطير اليونان الخصيبة ، أمدت أوفيد ، كما قد لاتنى عن أن تمد الشاعر والمصور والنحات ، بمواد يستخدمها كل منهم فى فنه ، فروى ، فى ذوق مرهف وبساطة وحنان ، تقاليد العصور الخوالى الأسطورية ، وأضفى عليها مظهر الحقيقة ، الذى لا يستطيع سوى فنان فاره أن يوفره ، فصوره عن الطبيعة رائعة صادقة ، إذ هو يتخير المناسب منها بعناية ، ويستبعد ما لا ضرورة له ، وحين يتم عمله ، فهو مبرؤ من التفريط والإفراط ، ويجد الشباب متعة فى مطالعة « التغييرات » ، ويعيدون قراءتها كلما تقدمت بهم السن فى متعة أوفر ، وذهب الشاعر إلى التكهن بأن أشعاره ستعيش من بعده ، وتقرأ حيثما يكون الاسم الرومانى معروفا . »

والتكهن المشار إليه فيما سبق ، ورد بالأبيات الختامية من مؤلفه « التغييرات » ، وفيما يلى نسوق إليك نصها مترجما :

« والآن أختتم عملى الذى لن يقضى عليه
غضب جوبتر أو ناب الزمان أو سيف أو نار .
وإذن فليحل ، أنى شاء ، ذلك اليوم
الذى له سلطانه على البدن دون العقل ،
وليختطف ما قد يتبقى من حياتى مبتمدا ،

فشطرى الأفضل سيحلق فوق النجوم ،
وستصمد شهرتى وتظل باقية على الزمن .
وحيثما تنتشر قوات روما وفنونها ،
فهناك سيطالع جميع الناس كتابى ،
وإذا تحقق أى جانب من رؤى الشاعر ،
فاسمى وشهرتى لا بد سيخلدان » .

* * *

الفصل السادس والثلاثون

أمساخ عصرية

العنقاء ــ الباسليق

وحيد القرن ــ السمندل

أمساخ عصرية

وثمة مجوعة من الكائنات الخيالية ، تبدو كأنها الأخلاف لمسوخ « الجوجون والهيدرا والخيارا » من الخرافات القديمة ، ولا صلة لها بآلهة الوثنية الزائفة ، ولذلك لم يكن للوثنية أى وجود ضمن العقائد الشعبية بعد ظهور المسيحية وأبطالها بتفوقها عليها ، ولعل ذكر هذه الأمساخ جاء فى سياق ما دونه كتاب الآداب القديمة ، بيد أن شعبيتها وانتشارها ظهر على مايبدو فى عهود أحدث ، ونحن ننشد رواياتنا عنها ، بين دفات كتب التاريخ الطبيعى وقصص المسافرين ، أكثر مما ننشدها فى أشعار القدامى ، والقصص التى نحن بصدد روايتها منقولة عن موسوعة البلنى .

***

العنقـــاء

ويروى أوفيد قصة العنقاء كما يلى: « تنبثق معظم الكائنات من أفراد أخرى ، ولــكن يوجد نوع معين ينسل نفسه ، ويسميه الأشوريون العنقاء ، وهو لا يعيش على الفاكهة والأزهار ، بل على اللبان والصموغ العطرة ، وحين يتم وهو حى خمسمائة عام ، يبنى لنفسه عشا فى أغصان شجرة بلوط ، أو على قمة شجرة نخيل ويجمع فيه أزهار القرفة والطيب والمر ، ومن هذه المواد يشيد محرقة يضع نفسه فوقها ، وحين يأخذ فى الاحتضار ، يلفظ أنفاسه بين الشذى والأريج ، ومن

بدن الطائر الأم ، تنبثق عنقاء صغيرة مقدرلها أن تعيش حياة طويلة مثل سلفها ، وحين تشب هذه ويصلب عودها ، ترفع عشها من الشجرة (مهدها وقبر أمها) وتحمله إلى مدينة هليوبوليس بمصر ، وتضعه بمعبد الشمس . »

هذا هو الوصف كما يسوقه شاعر ، والآن لنرى مايقوله مؤرخ فلسفى ، فاكيتوس – Fabitus يقول : « خلال قنصلية بولس فابيوس (عام ٣٤ بعد الميلاد) عاد الطائر المعجز المعروف للعالم باسم العنقاء ، إلى زيارة مصر ، بعد اختفائه عدة أجيال ، وكان يتبعه فى طيرانه طائفة من الطيور المختلفة ، جذبتها إليه جدته ومنظره الرائع ، الذى كانت تتفرس فيه وهى مبهورة » بعد ذلك يصف الطائر بما لايخرج أصلا عما سبق ، ولكنه يضيف بعض الزيادات « أول مايهتم به الطائر الصغير حين تنمو خوافيه ، ويطمئن إليها فى طيرانه ، هو إقامة مأتم والده ، ولكن هذا الواجب لايتم بتهور ، فيجمع كمية من المر ، وكى يختبر قوته ، يقوم بأسفار متعددة ، وعلى ظهره حمل ، وحين يتدعم إيمانه بقوته ، يحمل بدن والده ، ويطير به إلى هيكل الشمس ، حيث يتركه للفناء فى لهب من الأريج » ، ويضيف كتاب آخرون بعض التفصيلات ، فالمر يعبأ على هيئة بيضة ، فى داخلها جثة العنقاء الميتة ، فمن لحم الطائر الميت المتعفن ، تخرج دودة ، حينما تكبر ويكمل نموها تتحول إلى طائر . ويصف هيرودوت الطائر فيقول : « لم أره بنفسى إلا فى صورة ، فبعض ريشه ذهبى اللون وبعضه قرمزى ، وهو فى الأغلب ، عظيم الشبه بالعقاب ، فى الشكل والجرم . »

وأول كاتب سفه الاعتقاد بوجود العنقاء ، هو سير توماس براون ، فى كتابه « أخطاء فاحشة » الذى نشره عام ١٦٤٦ ميلادية ، فرد عليه بعد سنوات قليلة الكسندر روس ، الذى يقول ردا على من يعترض محتجا بندرة ظهور العنقاء « إن غريزته تعلمه أن ينأى بنفسه عن طريق طاغية الخليقة ، الإنسان ، ذلك لأنه إذا تيسر الوصول إليه ، فثمة ثرى نهم لا بد أن يلتهمه ، ولو لم يكن فى العالم بأسره سواه . »

ويشير درايدون ، فى إحدى قصائده الأولى ، إلى العنقاء فيقول :

« وهكذا حين تهل طلعة العنقاء الوليدة ،
فرعاياها ذوات الخوافى تمتلىء بملكتها هياما ،
وحين تقوم برحلتها الطويلة عبر الشرق ،
تتزايد حاشيتها الكبيرة من كل أجمة ،
وكل شاعر بالفضاء يمدح مشيدا بمجدها ،
ومن حوله ترفرف الطيور وهى تسمعه بابتهاج. » .



وملتون فى « الفردوس المفقود » يعقد الشبه بين الملاك روفائيل حين نزوله إلى الأرض ، وبين العنقاء فيقول :

« . . . هابطا إلى هناك ، منبطحا فى طيرانه ،
مسرعا ، وفى أحشاء السماء الأثيرية الرحيبة
يسبح بين عوالم وعوالم ، بجناح ثابت ،
الآن فوق الرياح القطبية ، ثم بجناح رشيق
يحرك الهواء اللين ، وإذ هو على ارتفاع
النسور المحلقة ، بدا أمام جميع الطيور
عنقاء ، فتفرس فيه الجميع ، كهذا الطائر الفريد ،
حين كان يطير فى مدينة طيبة المصرية ،
ليودع رفاته فى معبد الشمس الساطع .

الحية الديكية أو الباسليق

كان هذا الحيوان يدعى ملك الحيات ، ولتأييد هذا الحق الملكي، قيل إنه كان منعما عليه بقنزعة أو عرف فوق رأسه ، يؤلف تاجا، وكانوا يزعمون أنه خرج من بيضة ديك تم فقسها تحت الضفادع البرية أو الحيات ، وكانت توجد عدة أنواع من هذا الحيوان ، منها نوع كان يحرق كل ما يقترب منه ، وثان كان ضربا من رءوس ميدوسا الجوالة ، تسبب نظرتها رعبا مفاجئا ، يعقبه الموت فورا، وفي مسرحية شكسبير « ريتشارد الثالث » تقول لادى آن ردا على إطراء ريتشارد لعينيها : « ليتهما كانتا باسليقا ، فترديانك قتيلا ! »

وكانت أمساخ الباسليق تنعت بملوك الحيات ، لأن جميع الحيات والأفاعي الأخرى ، إذ كانت في سلوكها كرعايا صالحين ، وبالتزامها الحكمة لرغبتها ألا تحترق أو تصعق ، كانت تلوذ بالفرار حين تسمع فحيح ملكها من بعيد ، حتى ولو كانت منهمكة في التهام فريسة شهية فاخرة ، تاركة الوليمة يستمتع بها التنين الملكي وحده .

ويصفه بليني العالم الطبيعي الروماني فيقول : « إنه لا يدفع بدنه ، كباقي الحيات ، بمضاعفة ثنياته ، ولكنه يسير متشامخا منتصبا ، وهو يتلف الأعشاب لا بمسها فحسب ، ولكن بإطلاق أنفاسه عليها ، كما أنه يهشم الصخور ، ففيه تكمن طاقة هائلة من الشر . » وكان المعتقد من قبل أنه إذا قتل بحربة من فوق ظهر جواد ، فسيال السم الساري في الحربة ، كان لا يقتل الراكب فحسب ، بل ويقضي على الجواد أيضاً ، ويشير لوكان إلى هذا في الأبيات التالية :

« على الرغم من قتل المغربي للباسليق ،

ووتده له بالسهل الرملي دون حراك ،

سرى السم الخبيث بالحربة مرتفعاً ،

فامتصته يد الظافر وخر صريعا . »

وليس من المحتمل إغفال هذه الأعجوبة فى سير القديسين ، ومن ثمة نجدها وردت على النحو التالى وهو أن قديسا معينا كان في طريقه إلى نبع بالصحراء ، فرأى على حين بغتة باسليقا ، وفى الحال رفع عينيه نحو السماء ، وبضراعة تقية خالصة إلى الله ، أردى التنين صريعا عند قدميه .

وشهد على صحة قوة الباسليق العجيبة هذه جمهور من العلماء أمثال جالين وأفيكينا وسكالجر وآخرين ، وحدث أحيانا أن البعض ارتاب في شطر من القصة بينما سلم البعض ببقيتها ، ويعلق جونستون الطبيب العلامة قائلا : «لا يسعنى أن أصدق أنه يقتل بمجرد النظر ، فمن استطاع أن يراه ويظل على قيد الحياة ، ليروى القصة ؟ » ولكن العالم الجليل القدر لم يفطن إلى أن أولئك الذين كانوا يذهبون لصيد الباسليق الذى من هذا النوع ، كانوا يأخذون معهم مرآة ، يعكسون بها النظرة القاتلة صوب منشئها ، وبضرب من العدالة العاطفية يقتلون الباسليق بسلاحه الخاص .

ولكن من ذا الذى كان حريا بمهاجمة هذا التنين المرعب الذى لا يمكن الاقتراب منه ؟ هنالك قول مأثور بأن « لكل شىء آفة من جنسه » وكانت الحية الديكية تجبن أمام ابن عرس ، فالباسليق قد ينظر شذرا ، وابن عرس لا يأبه له ، بل يتقدم في جرأة للقتال ، فإذا نهشه ، ارتد لحظة ليأكل بعض أعشاب السذاب ، وهى النبات الوحيد الذى يعجز الباسليق عن إتلافه ، ثم يعود سليما معافى وقد تجددت قوته لاستئناف القتال ، ولا يترك عدوه قط حتى يخر

صريعا بالسهل ، ويزعمون أن التنين كان شديد النفور من الديك ، حتى ليخيل إلينا أنه قد فطن إلى الطريقة الشاذة التى جاءت به إلى العالم ، وكان على حق فى ذلك ، فهو ما يكاد يسمع صياح الديك حتى ينفق .

وكان للباسليق بعض الفائدة عند موته ، وعلى هذا نقرأ أن جثته كانت تعلق بمعبد أبوللو ، وبالمساكن الخاصة كعلاج فعال ضد العناكب ، كما كانت تعلق بمعبد ديانا ، ولهذا السبب ما كان يجسر خطاف على دخول المكان المقدس .

والرأى عندنا أن القارئ قد وقف الآن على كثير من السخافات ، ولكن على الرغم من ذلك نستطيع أن نتصور تلهفه لمعرفة ما كانت عليه هيئة الحية الديكية، وقد أفاض فى ذلك الدروفاندس ، وهو عالم طبيعى شهير ، ظهر فى القرن السادس عشر ، ومؤلفه فى التاريخ الطبيعى ، من ثلاثة عشر مجلدا ، يحتوى ، إلى جانب ما فيه من ثمين ، على كثير من الغث والخرافات ، وقد أفاض بصفة خاصة فى موضوع الديك والثور ، حتى أصبحت كل قصص ثرثارة سائبة مشكوك فى صحتها تسمى قصص الديك والثور .

وشيلى فى قصيدته « أنشودة لنابولى » المليئة بالحماس ، الذى أثاره نبأ إعلان حكومة دستورية فى نابولى ، عام ١٨٢٠ ، يشير إلى الباسليق على النحو التالى :

« أيجسرون ، وهم فوضويون يلفهم الظلام على الكفر
بالحرية وبك ؟ إنهم بذلك يكررون غلطة أكتيون
وسيصيبهم ما أصابه ، فتلتهمهم كلابهم !
وإذن كونى أنت مثل الباسليق العاهل ،
تقتلين عدوك بجراح غير مرئية !

تمرمى فى الطغيان حتى يذوى مرعوبا ،
فى مأزقه الرهيب ، ثم يختفى من العالم .
لاتفزعى ، بل تمرمى ، فالأحرار يزدادون استبسالا ،
والعبيد، حين ينظرون إلى عدوهم، يزدادون استخذاء .»

∴

وحيد القرن

بلينى ، عالم التاريخ الطبيعى الرومانى ، الذى اقتبست من وصفه لوحيد القرن ، معظم الحيوانات الحديثة ، صفاتها وهيئتها ، يدون عنه ما يلى :

« وحش مغرق فى شراسته ، يماثل الجواد فى تكوين بدنه ، مع رأس ظبى ، وأقدام فيل ، وذيل خنزير برى ، وله خوار عميق ، وقرن أسود وحيد ، طوله ذراعان ، بارز فى وسط جبهته » ويضيف إلى ذلك أنه « لا يمكن أخذه حيا » ولعل عذرا كهذا كان ضروريا فى ذلك العهد لتبرير عدم إبراز الحيوان حيا على مجتلد الملاعب الرومانية .

ويبدو أن وحيد القرن كان لغزا محيراً للصيادين ، الذين تعذر عليهم أن يعرفوا كيف يتوصلون لمثل هذا الصيدالثمين ، وبعض الناس وصف القرن بأنه متحرك وفق رغبة الحيوان ، أو بالاختصار ، سيف صغير ، لايستطيع أى صياد أن يتمكن منه ، مالم يكن مبارزا مفرط الدهاء ، وذهب آخرون إلى أن كل قوة الحيوان مودعة فى قرنه ، وأنه إذا ضيق عليه الخناق فى مطاردته ، قذف بنفسه من قمة أعلى الصخور ، وقرنه بارز إلى الأمام ، كى يستقر من فوقه ، ثم يسير فى هدوء دون أن يكون للسقطة عليه أى أثر .

ولكن يبدو أنهم وقفوا أخيراً على طريقة لخداع وحيد القرن المسكين ،

فقد اكتشفوا أنه من أشد المولعين بالنقاوة والبراءة ، ومن ثمة استولوا على الميدان بعذراء صغيرة السن ، وضعوها فى طريق المعجب الحسن الظن ، وحين رآها وحيد القرن اقترب منها بكل تجمله وتوقير ، وربض بجانبها ، وإذ وضع رأسه فى حجرها ، راح يغط فى النوم ، وعندئذ أعطت العذراء النادرة إشارة جاء على إثرها الصيادون ، واقتنصوا الحيوان الساذج .

ورفض علماء الحيوان العصريون فكرة وجود وحيد القرن ، لنفورهم من مثل هذه الخرافات ، ومع ذلك فتوجد حيوانات تحمل فوق رءوسها بروزا عظميا ، يشبه القرن قليلا أو كثيرا ، لعل منه نبعت هذه القصة ، فقرن الكركدن أو الخرتيت كما يطلق عليه ، هو بروز أو نتوء على أية حال ، على الرغم من أنه لا يزيد فى ارتفاعه على بوصات قليلة ، وأبعد من أن تنطبق عليه أوصاف قرن الحيوان الأسطورى وحيد القرن ، وأقرب شبيه بقرن فى وسط جبهة ، يمكن تبينه فى النتوء العظمى على جبهة الزرافة ، ولكن هذا أيضا قصير غليظ ، وليس هو بقرن الحيوان الوحيد ، ولكنه قرن ثالث منتصب أمام اثنين آخرين ، والخلاصة أنه على الرغم من أنه قد يكون من التهور إنكار وجود حيوان من ذوات الأربع ، له قرن واحد ، غير الكركدن ، فيصح أن نقرر مع الاطمئنان ، أن إيلاج قرن صلب طويل فى جبين حى لحيوان يشبه الجواد أو الغزال ، من الأمور التى تقرب فى استحالتها من أى أمر آخر .

***

السمندل

وفيما يلى مقتطف من « حياة بنفنوتو شلينى » وهو فنان إيطالى عاش فى القرن السادس عشر ، كتبه عن نفسه : « حينما كنت فى نحو الخامسة من عمرى ، حدث أن كان أبى بحجرة صغيرة ، كانوا يقومون بغسلها ، وكان بها نار متأججة من خشب البلوط للتدفئة ، فتفرس فى اللهب ، ورأى حيوانا صغيرا يشبه العظاية ،

يستطيع العيش فى أشد أجزاء هذا العنصر حرارة ، وحين تبين حقيقته نادانى مع شقيقى ، وبعد أن أرانا الحيوان ، لكمنى بشدة ، فانفجرت باكيا ، فكفكف عبراتى ، وطيب خاطرى ، ثم راح يقول : « يا ولدى العزيز ، لم أكل لك هذه اللطمة ، لوزر ارتكبته ، وإنما لتذكر أن الحيوان الصغير الذى تراه فى النار هو السمندل ، الذى لم يره أحد من قبل ، على حد علمى ، وحين قال هـذا عانقنى ونفحنى ببعض المـال .

ومن خطل الرأى الشك فى قصة كان السنيور شاليني شاهد عيان لها ، أضف إلى هذا أن الكثيرين من الفلاسفة الحكماء ، وعلى رأسهم أرسطو وبلينى يؤيدون ما للسمندل من هذه المقدرة العجيبة ، وهم يقررون أن الحيوان لا يقاوم النار فحسب ولكنه يطفئها أيضا ، فهو حين يرى اللهيب ، يهاجمه كعدو ، يعرف جيدا كيف يقهره .

واعتبار جلد الحيوان ، الذى يستطيع مقاومة تأثير النار ، كواق ضد العنصر ، ليس بالأمر المستغرب ، ولهذا نجد أن القماش المصنوع من جلد السمندل (إذ يوجد حقا حيوان كهذا هو نوع من العظاية) غير قابل للاحتراق ، وذو أهمية كبيرة لتغليف الأشياء الثمينة التى لا يطمئن المرء لوضعها فى غلاف عادى ، وقد تم فعلا إنتاج هذه الأقمشة الواقية من النار ، وقيل إنها كانت تصنع من صوف السمندل ، ولكن الراسخين فى العلم اكتشفوا أن المـادة المصنوعة منها هذه الأقمشة تتكون من الأزبتوس أو الحرير الصخرى ، وهو معدن تنسج أسلاكه المرهفة إلى قماش لين .

وأساس الأساطير الآنفة الذكر ، على ما يظن ، يقوم على حقيقة أن السمندل يفرز فعلا من مسام جسمه ، عصيرا لبنيا ، وهو ينتجه بكميات وافرة حين إثارته ، ومن ثمة يستطيع دون شك حماية بدنه من النار بضع دقائق ، وهو حيوان مسبت ، وفى الشتاء يأوى إلى شجرة خاوية أو أية فجوة أخرى ، حيث يلتف حول نفسه ، ويظل فى حالة سبات ، حتى يحل الربيع فيبعثه ثانية ، ولذلك فقد يحمل أحيانا مع الوقود إلى النار ، ويستيقظ فترة كافية فقط لاستخدام كل قدراته

كي يحمى نفسه ، فعصيره اللزج يؤدى له أجل خدمة ، وجميع من يشهدون بأنهم رأوه ، يقرون بأنه مرق من النار لا يلوى على شيء ، حتى ليعجز مشاهده عن أن يحظى بالحصول عليه ، إلا فى حالة واحدة ، وحين أمسكوا به وجدوا أقدام الحيوان وبعض أجزاء من جسمه محترقة .

* * *

ودكتور يونج فى قصيدته « أفكار الليل » ، فى حذق أكثر من سلامة الذوق ، يقارن بين الشاك الذى يستطيع أن يبقى غير متأثر بتأمل السماء ذات النجوم ، وبين السمندل الذى لا يصطلى بالنار فيقول :

« إن عالما فلكيا غير ورع لمجنون !

* * *

فيا للعبقرية التى تعلنها السموات !
وهل قلب لورنزو كقلب السمندل
بارد جامد وسط هذه النيران المقدسة ؟ »

الفصل السابع والثلاثون

الأساطير الشرقية — زرادشت — الأساطير الهندية —

الطوائف — بوذا — اللاما الأعظم .

زرادشت

إن معرفتنا عن دين الفرس القدماء مأخوذة أصلا عن الزندافستا ، أو كتب ذلك الشعب المقدسة ، وزرادشت هو مؤسس دينهم ، أو بتعبير أدق مصلح الدين الذى تقدمه ، والزمن الذى عاش فيه غير مقطوع بصحته ، ولكن من المؤكد أن مذهبه أصبح الدين السائد بغربى آسيا ، منذ عهد « قورش – Cyrus » (عام ٥٥٠ قبل الميلاد) حتى فتح الإسكندر الأكبر لبلاد فارس ، ويبدو أن مبادىء زرادشت ، تحت الحكم المقدونى ، دب إليها كثير من الفساد ، إذ دخلتها عقائد أجنبية ، ولكنها استعادت رفعتها بعد ذلك .

وعلم زرادشت بوجود كائن أعلى ، وأن هذا الكائن خلق اثنين آخرين من أعظم الكائنات ، وأضفى عليهما من طبيعته بالقدر الذى رآه صالحا ، ومن بين هذين ظل أورمزد Ormuzd . (يسميه اليونانيون أوروسديس – Oromasdes) وفياً لخالقه ، واعتبر مصدر كل خير ، بينما شق أهريمان Ahriman أو أريمانيس Arimanes عصا الطاعة وأصبح مبعث كل شر فوق الأرض ، وخلق أورمزد الإنسان وأمده بكل أسباب السعادة ، ولكن أهريمان شاب هذه السعادة ، بإدخاله الشر إلى العالم ، وبخلقه للحيوانات المتوحشة والزواحف والنباتات السامة ، ونتيجة لذلك اختلط الخير بالشر الآن بكل صقع من العالم ، وأصبحت الحرب سجالا بين أتباع الخير والشر – أنصار أورمزد وأهريمان – ولكن هذه

الحال لن تستمر إلى الأبد ، فسيأتى الوقت الذى ينتصر فيه بكل مكان جميع أنصار أورمزد ، بينما يلقى بأهريمان وأتباعه فى الظلمة الأبدية .

وكانت شعائر العبادة عند قدماء الفرس بسيطة للغاية ، فلم يستخدموا معابد أو مذابح أو تماثيل ، بل كانوا يقدمون قرابينهم فوق قمم الجبال ، وكانوا يقدسون النار والنور والشمس كرموز لأورمزد ، مصدر كل نور ونقاء ، ولكنهم لم يعتبروها آلهة مستقلة ، وكانت الطقوس والحفلات الدينية يقوم بتنظيمها الكهنة الذين يسمون بالمجوس ، وكان علم المجوس متصلا بالفلك والسحر ، اللذين اشتهروا فيهما حتى اقترن اسمهم بكل ضروب السحرة والعرافين .

ويشير ورد زورث إلى عبادة الفرس فيما يلى :

« . . . الفارسى — المتحمس فى نفوره
من المذبح والتمثال ، والأسوار المحيطة
وأسطح المعابد المشيدة بأيد بشرية —
صعد إلى أعلى المرتفعات ، بتاج من
زهور الآس فوق جبينه ، ومن قممها
قدم القرابين للقمر والنجوم ،
وللرياح والعناصر الأولى ،
ولدائرة السماء بأسرها ، فهى عنده
وجود رهيف الحس وإله . . . »

السياحة — الكتاب الرابع

. . .

وفى « الشاب الباسل هرولد » يتكلم بيرون عن العبادة الفارسية على النحو التالى :

أليس عبثا أن جعل الفارسى القديم
معبده الأماكن الشاهقة وقمم الجبال
الشاخصة دواما نحو الأرض ، وهكذا هيأ
معبداً صالحا دون أسوار ، وهناك راح ينشد
الروح الأعلى الذى لايشرفه محراب هزيل
تصنعه أيد بشرية . تعال وقارن
مساكن الأصنام ذات العمد ، قوطية أو يونانية ،
بدولتى الطبيعة للعبادة ، الأرض والهواء ،
ولا ترتبط بأماكن محصورة تقيد صلاتك ،

.·.

واستمر دين زرادشت مزدهرا ، حتى بعد ظهور المسيحية ، وفى القرن الثالث أصبح العقيدة السائدة بالشرق ، حتى ظهور الرسالة المحمدية ، وفتح العرب لفارس فى القرن السابع ، وترك أكبر عدد من الفرس عقيدتهم القديمة ، أما أولئك الذين رفضوا التخلى عن دين أسلافهم ، فقد فروا إلى صحراء كرمان وهندوستان ، حيث مازالوا موجودين تحت اسم « البارسيين – Parsees وهو اسم مشتق من « بارس . Paris » الاسم القديم « لفارس Persia » والعرب * يطلقون عليهم اسم « جيبرز – Guebers * » ، من لفظ عربى معناه غير المؤمنين ، وفى بمباى بالهند ، يعيش البارسيون فى الوقت الحاضر ، كطبقة ثرية ذكية الفؤاد ، كثيرة النشاط ، ويمتازون بنقاوة المعيشة والأمانة ، ودماثة الطباع ، ولهم عدد كبير من معابد النار يقدسونها كرمز للإله .

---

* الأرجح أن المؤلف يريد أن يقول الأتراك لا العرب لأن هذا اللفظ قريب الى لفظ تركي بهذا المعنى .

ويجعل مور من الدين الفارسى موضوعا لقصته « عباد النار » وهى أبدع قصة فى مجموعته « لاللا روخ – Lalla Rookh » فيقول زعيم الجيبرز :

«أجل ! أنا من أولئك القوم الزنادقة ،
عبيد النار ، الذين يدعون خالقهم ،
بكرة وعشيا ، فى محل إقامته
بين أضواء السماء النابضة بالحياة .
أجل ! أنا من أولئك القوم المشردين
إلى إيران وإلى مواطن الانتقام ،
ونقسم أمام عين الإله المضطرمة
أن نحطم أغلال بلادنا أو أن نموت » .

∴

الأساطير الهندية

إن دين الهندوس مؤسس أصلا على الفيداس (Vedas) وهى أسفارهم المقدسة التى ينسبون إليها كل طهر ونقاء ، ويقررون أن براهما نفسه وضعها عند الخلق ، ولكنهم يسندون ترتيبها الحالى ، إلى الحكيم فياسا ، الذى عاش منذ حوالى خمسة آلاف سنة .

والفيداس تعلم دون شك الاعتقاد بإله علوى واحد ، يسمونه براهما ، وصفاته تتمثل فى ثلاث قوات مجسمة هى الخلق والحفظ والتدمير تحمل بالترتيب أسماء براهما وفيشنو وسيفا ، ومن هؤلاء يتكون التريمورتى (Trimurti)

أو ثالوث آلهة الهندوس الكبار ، ومن أهم الآلهة الأقل شأنا : ١ - إندرا - Indra ، إله السماء والرعد والبرق والعواصف والأمطار ، ٢ - أجنى - Agni ، إله النار ، ٣ - ياما Yama ، إله الجحيم ، ٤ - سريا - Surya إله الشمس .

وبراهما هو خالق الكون ، والمصدر الذى انبثقت منه جميع الآلهة الفرادى وإليه تعود فى النهاية فيمتصها ، « وكما يتحول اللبن إلى زبد ، والماء إلى جليد كذلك يتغير براهما مرارا متخذا أشكالا مختلفة دون حاجة إلى وسيلة خارجية من أى نوع » والروح البشرية ، وفق تعاليم الفيداس ، هى شطر من الحاكم العلوى ، كالشرارة التى هى قبس من النار .

فشنو

يشغل فشنو (vishnu) المرتبة الثانية فى ثالوث الهندوس ، وهو تجسم للمصدر الحافظ ، ولحماية العالم فى عصور مختلفة أحدقت بها الأخطار ، نزل فشنو إلى الأرض فى تجسدات مختلفة ، أو أشكال بدنية ، وكل نزول قام به يسمى « أفتار Avatar » ومرات هذه النزول عديدة ، ولكن عشراً منها عينت بصفة خاصة ، وأول أفتار كان كسمكة « Matsya » لحفظ فشنو ، وهو فى إهابها ، « مانو - Manu » جد الجنس البشرى ، فى أثناء طوفان عالمى . وكان ثانى أفتار فى هيئة سلحفاة ، وقد اتخذ هذه الهيئة ليسند الأرض ، حين راجت الآلهة تمخض البحر ، لتهيئة شراب الخلود « أمريتا - Amrita » .

ولنا أن نغفل مرات الأفتار الأخرى ، فجميعها كانت ذات طبيعة عامة مماثلة ، وهى التدخل لحماية الحق أو لمعاقبة المذنبين ، ونأتى للتاسع منها ، وهو أشهر أفاتر لفشنو ، ظهر فيه بهيئة كريشنا - Krishna البشرية ، وهو بطل لا يقهر ، خلص الأرض من الطغاة الذين عاثوا فيها فسادا .

وبوذا - Buddha فى اعتبار أتباع الديانة البراهمية ، تجسد تضليلى لفشنو ، اتخذه ليغوى « الأسورس - Asuras » ، أعداء الآلهة ، على ترك نواهى الفيداس المقدسة ، الأمر الذى انتهى بهم إلى فقدان قوتهم وضياع سيادتهم .

وكلكى- Kalki هو اسم الأفتار العاشر ، الذى سيظهر فيه فشنو ، عند نهاية عصر العالم الحالى ، ليقضى على كل رذيلة وشر ، وكى يرد الجنس الإنسانى إلى الفضيلة والنقاء .

* * *

سيفا

وسيفا Siva هو الشخص الثالث فى الثالوث الهندوسى ، وهو تجسيم للمصدر المدمر ،وعلى الرغم من أنه الاسم الثالث فهو، فيما يتعلق بعدد المتعبدين له وامتداد عبادته ، يتقدم كلا من الآخرين ، وفى البوراناس . Puranas ،(الأسفار المقدسة لدين الهندوس الحديث) لم ينوه بقوة هذا الإله الرئيسية كمدمرة ، فتلك القوة لن تسدعى للعمل إلا بعد انقضاء اثنى عشر مليونا من السنين، أو حين تحل نهاية الكون ، ومن ثمة فمهاديفا – Mahadeva (اسم آخر لسيفا) هو بالأحرى ممثل للتجديد لا التخريب .

وعبدة فشنو وسيفا يكونون شيعتين ، كل منها تعلن تفوق إلهها المختار ، وتنكر حقوق الآخر ، ويبدو أنه بعد أن أنهى براهما ، الخالق ، عمله ، لم يعد يؤخذ فى الاعتبار كعامل إيجابى ، وله الآن معبد واحد فى الهند ، بينما لمهاديفا وفشنو معابد كثيرة ، ويمتاز عبدة فشنو، على وجه عام ، بأخذهم الحياة فى ليونة أكثر ، وامتناعهم عن أكل الحيوانات، وبعبادة أقل قسوة من عبادة أتباع سيفا .

* * *

يجرنوت

تختلف مصادرنا العلمية فى تقرير ما إذا كان عبدة يجرنوت – Iuggernaut يحسبون من بين أتباع فشنو أو سيفا ، ويقع المعبد قرب الشاطىء ، على بعد حوالى ثلاثمائة ميل جنوب غربى كلكتا ، والصنم كتلة منحوتة من الخشب ، له وجه

قبيح مرعب ، مطلى بالسواد ، وفم فاغر مخطوط فى لون الدم ، ويوضع عرش الصنم ، أيام المهرجانات ، فوق برج طوله ستون ذراعا ، يتحرك على عجلات ، ويثبت بالبرج ستة حبال طويلة ، يجره الناس بها ، ويقف الكهنة وأتباعهم حول العرش فوق البرج ومن حين لآخر ، يتحولون نحو المصلين ، بأناشيدهم وإيماءاتهم ، وحينما يتحرك البرج فى طريقه ، يقذف عدد من المتعبدين المتعصبين بأنفسهم على الأرض ، كى تسحقهم العجلات ، والحشد يهتف محبذاً هذا العمل ، كضحية مقبولة لمسرة الصنم ، وكل عام ، وبصفة خاصة ، خلال المهرجانين العظيمين ، فى شهر مارس ويوليو ، يتقاطر الحجاج إلى المعبد من كل فج عميق ، ويقال إن مالا يقل عن سبعين أو ثمانين ألفا يزورون المكان فى هذه المناسبات ، حين تأكل كافة الطوائف مجتمعة .

* * *

الطوائف

إن تقسيم الهندوس إلى طبقات أو طوائف ، ذات حرف معينة ، ظهر منذ أقدم العصور ، ويزعم البعض ، أنه قد تأسس فى حالة غزو البلاد ، فالطوائف الثلاث الأولى تألفت من أمة أجنبية ، أخضعت أهالى البلاد ، وأذلتهم إلى طائفة دنيا ، وآخرون يسندون علة هذا التقسيم ، إلى الرغبة فى الإبقاء ، عن طريق التسلم من أب لابن ، على وظائف وحرف معينة .

وتسوق التقاليد الهندوسية هذا الشرح عن أصل الطوائف المختلفة ، فعند الخلق ، عقد براهما العزم على أن يمنح الأرض سكانا ، ينبثقون من بدنه مباشرة ، ومن ثمة أخرج من فمه أقدم براهما مولود (الكاهن) الذى استأمنه على الأسفار الأربعة المقدسة « فيداس » ، ومن ذراعه اليمنى خرج شاتريا Shatriya (المقاتل) ومن يسراه زوجة المقاتل ، ومن فخذيه خرج فيسياس (Vaissyas)ذكر وأنثى (المزارعون والتجار) ، وأخيراً خرج من قدميه « سودراس ـ Saudras » (الصناع والعمال) .

وإذ جاء أبناء براهما الأربعة إلى العالم بهذه الطريقة ذات المغزى ، فقد أصبحوا آباء الجنس البشرى ، ورءوس طوائفه حسب ترتيبهم ، وصدر إليهم الأمر بأن يعتبروا كتب فيداس الأربعة حاوية لكل قواعد ديانتهم ، ولكل ما هو ضرورى لإرشادهم إلى طقوسهم الدينية ، وكذلك أمروا بأن ينتظموا وفق ترتيب مولدهم ، فيتصدرهم البراهميون لانبثاقهم من رأس براهما .

ويفصل بين الطوائف الثلاث الأولى وبين السودراس خط تحديد قوى ، فمصرح للأوائل أن يتلقوا تعاليم الفيداس ، بينما السودراس غير مصرح لهم بذلك ، والبراهميون مختصون بحق تعليم الفيداس ، وكانوا فى الأيام الخالية يستأثرون بكل معرفة ، وعلى الرغم من أن حاكم البلاد كان ينتخب من طائفة الشتريا ، المسماة أيضا طائفة الراجبوت — RajPutss ، فإن البراهميين كانوا يملكون القوة الحقيقية ، وكانوا مستشارين ملكيين ، وقضاة البلاد وحكامها ، وما كان لأحد قط أن ينتهك حرمة أشخاصهم وما يملكون ، ومهما ارتكبوا من أشنع الجرائم ، فنفيهم من البلاد أقصى ما يمكن اتخاذه ضدهم من إجراء ، وكان يتحتم على الملوك أن يعاملوهم بأكبر قسط من الاحترام ، ذلك لأن « البراهمى ، سواء أكان من الراسخين فى العلم أم من الجاهلين ، فهو إله قوى » .

وحين يبلغ البراهمى أشده يصبح الزواج واجبا يتحتم عليه أداؤه ، ولزام على الأغنياء مده بمعوناتهم ، فلا يضطر لتحصيل قوته بحرفة شاقة أو ميسرة ، ولكن لعدم إمكان طوائف المجتمع العاملة ، أن يقوموا بإعالة جميع البراهميين ، وجد أنه من الضرورى أن يشغلوا مهناً مجزية .

ولا يقتضينا الأمر أن نذكر شيئا عن الطبقتين المتوسطتين ، اللتين قد تبين لنا من مهنهم ، مالهم من مرتبة ، وما يختصون به من حقوق ، والسودراس أو الطائفة الرابعة ملزمة بتأدية أحقر الخدمات للطبقات العليا ، خاصة البراهميين ، ولكنهم قد يزاولون حرفا آلية وفنونا عملية كالتصوير والكتابة ، أو يصبحون تجارا أو مزارعين ، ونتيجة لذلك فإنهم قد يثرون أحيانا ، كما أن البراهميين قد يفتقرون

فى بعض الأحيان ، وهذه الحقيقة لها نتائجها العادية ، فيستخدم السودراس الأغنياء أحيانا فقراء البراهمة فى صناعات حقيرة .

وهناك طبقة أدنى من السودراس ، لأنها ليست من الطبقات الأصلية النقية ، بل نتجت عن تزاوج غير مشروع بين أفراد من طبقات مختلفة ، وهى طائفة المنبوذين – Pariahs ، التى يستخدم أفرادها للقيام بأحقر الأعمال ، ويعاملون بأقصى شدة ، ويرغمون على تأدية ما لا يستطيع غيرهم أن يقوموا به دون أن يتنجسوا ، وهم لا يعتبرون أنجاسا فقط ، بل يدنسون كل شىء يمسونه ، وهم محرومون من جميع الحقوق المدنية ، وموصومون بقوانين معينة ، تنظم طريقة معيشتهم ومنازلهم وأثاثاتهم ، وغير مصرح لهم بزيارة معابد الطوائف الأخرى ، ولكن لهم معابدهم وممارساتهم الدينية الخاصة ، كذلك غير مرخص لهم بدخول منازل الطوائف الأخرى ، وإذا وقع هذا دون احتراس أو لضرورة استلزم الأمر تطهير المكان بطقوس دينية ، ويتحتم عليهم ألا يظهروا فى الأماكن العامة ، وهم مقيدون باستخدام آبار معينة ، مع إرغامهم على إحاطتها بعظام الحيوانات ، لتحذير الآخرين من ورودها ،وهم يعيشون فى عشش حقيرة ، بعيدة عن المدن والقرى ، ولا قيود عليهم فيما يتعلق بالطعام ، وهذه ليست ميزة ، بل هى من دواعى الخزى والمهانة ، كما لو كانوا قد وصلوا من الحطة حداً لا يستطيع شىء معها أن يدنسهم ، ويحرم قطعا على الطوائف الثلاث العليا أكل اللحم ، والطائفة الرابعة مباح لها الطعام بجميع أنواعه ما عدا لحم البقر ، ولكن أدنى الطوائف هى وحدها المرخص لها بتناول أى طعام دون قيد أو شرط .

***

بوذا

يزعم أتباع بوذا ، الذى تصوره الفيداس كتجسد تضليلى لفشنو ، أنه كان حكيما من بنى البشر ، اسمه جوتاما – Gautama ، وينعتونه أيضا ، من قبيل الإطراء ، بسكياسنها – Sakyasinha ، الأسد ، وبوذا ، الحكيم .

وبمقارنة بضع عهود نسبت إلى مولده ، يستدل على أنه عاش حوالى ألف عام قبل المسيح .

وكان ابن ملك ، وعندما تقدموا به إلى مذبح إله ، بعد أيام من مولده ، تمشيا مع عادات البلاد ، قيل إن الصنم أحنى رأسه ، تنبؤا بالعظمة المستقبلة للنبي المولود حديثا ، وسرعان ما بدت على الطفل بوادر نجابة من الطراز الأول ، كما تميز بجمال شخصه غير المألوف ، وما كاد يشب ويشتد عوده ، حتى بدأ يفكر تفكيرا عميقا فيما يعانيه الجنس البشرى من حرمان وتعاسة ، واعتنق فكرة اعتزال المجتمع والاستغراق فى تأملاته ، وعبثا حاول والده أن يصرفه عن هذه الفكرة ، وفر بوذا من رقابة حراسه ، وإذ وجد ملاذاً أمينا عاش ست سنوات لا يزعجه أحد أو يقطع عليه حبل تأملاته الدينية ، وعند انقضاء تلك المدة خرج إلى بنارس كمعلم دينى ، وفى مبدأ الأمر شك فى سلامة عقله أولئك الذين سمعوه ، ولكن سرعان ما حظيت مبادؤه بالقبول ، وبثت بسرعة حتى إن بوذا نفسه عاش ليراها منتشرة فى كل بقاع الهند ، ومات وهو فى الثمانين من عمره .

ويرفض البوذيون بشدة وثيقة الفيداس ، والنواهى الدينية التى تضمنتها ، والتى حرص عليها الهندوس ، ويرفضون أيضا التمييز الطائفى ، ويحرمون جميع الضحايا الدموية ، ويبيحون أكل الحيوان ، وكهنتهم منتخبون من جميع الطبقات ، والمفروض أن يحصلوا على قوتهم بالتجول والاستجداء ، وواجب عليهم ، ضمن أشياء أخرى ، أن يحاولوا استثمار الأشياء التى يلقى بها الآخرون فى سلة المهملات ، وأن يكتشفوا قوة الأعشاب العقارية ، ولكن القوم فى سيلان يعترفون بثلاث رتب كهنوتية لرجال الدين ، وأولئك الذين يؤلفون أعلى مرتبة كهنوتية هم عادة كريمو المحتد موفورو العلم ، وتعولهم المعابد الرئيسية ، التى أغدق ملوك البلاد الأوائل عطاياهم على معظمها .

ويبدو أن البراهميين ظلوا بضعة قرون ، بعد ظهور بوذا ، وهم يتسامحون مع شيعته ، كما يبدو أن البوذية توغلت فى شبه جزيرة الهندوستان من كل جانب ، ثم انتقلت إلى سيلان وشبه الجزيرة الشرقى ، ولكنها عانت فى الهند بعد ذلك

اضطهادا متواصلا طويل الأمد ، أسفر فى النهاية عن استئصال شأفتها من القطر الذى نبتت فيه ، ولكن لتنثرها ، على مدى فسيح ، بالأقطار المجاورة ، ويبدو أن البوذية دخلت الصين حوالى عام ٦٥ ميلادية ، ومن الصين امتدت إلى كوريا واليابان وجاوة .

* * *

اللاما الأعظم

ثمة عقيدة سائدة عند الهندوس البراهميين وفى المذهب البوذى على السواء ، تقرر أن حبس الروح البشرية ، وهى انبثاق من الروح الإلهية ، فى جسم بشرى ، إنما هى حالة من التعاسة ، جاءت نتيجة لهنات وخطايا سبق ارتكابها فى أدوار وجود سابق ، ولكنهم يعتقدون أن بعض أفراد قلائل ظهروا على هذه الأرض ، بين الفينة والفينة ، دون ضرورة للوجود الأرضى ، ولكنهم نزلوا إلى الأرض طواعية للنهوض بالجنس البشرى ورعاية مصالحه ، وأخذ هؤلاء الأفراد تدريجيا يحاكون طبيعة عودة بوذا للظهور المتكرر ، وعلى هذا النحو ، استمر التسلسل حتى الوقت الحاضر ، وفى شتى لامات التبت والصين وأقطار أخرى تنتشر فيها البوذية ، ونتيجة لانتصارات جنكيزخان وخلفائه ، ارتقى اللاما المقيم بالتبت إلى مرتبة كبير كهان المذهب ، وأفرد له إقليم خاص ، يدين له بالولاء ، وإلى جانب زعامته الروحية ، أصبح إلى حد ما ملكا زمنيا ، يحمل اسم دلاى لاما — Dalai Lama .

وأول إرساليات مسيحية ذهبت إلى التبت ، استولى عليها العجب إذ وجدت هناك ، فى قلب آسيا ، مجمعا للأحبار وبضع طقوس كنسية أخرى شبيهة بطقوس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، كما وجدت أديرة للكهنة والراهبات ، واحتفالات وأشكالا من العبادات الدينية ، مصحوبة بكثير من الروعة والبهاء ، حتى دفعت ضروب هذا التماثل الكثيرين إلى اعتبار الديانة اللامية ، نوعا

من المسيحية المنحلة ، وليس من غير المحتمل أن يكون أهل اللاما قد اقتبسوا بعضا من هذه الطقوس من المسيحيين النسطوريين ، الذين استوطنوا بلاد التتر حينما دخلت البوذية إلى التبت .

* * *

القس يوحنا

وثمة قصة قديمة ، لعل التجار هم رواتها ، عن لاما أو رئيس روحي بين التتر ، يبدو أنها بعثت فى أوربا إشاعة الشيخ أو القس يوحنا ، وهو رئيس أحبار مسيحى مقيم فى أعالى آسيا ، فأرسل البابا إرسالية للبحث عنه ، وكذلك فعل لويس التاسع ملك فرنسا ، بعد ذلك ببضع سنين ، ولكن الإرساليتين أخفقتا ، على الرغم من أن جاليات المسيحيين النسطوريين الصغيرة التى وجدت هناك ، ساعدت على أن تثبت بأوربا الاعتقاد بأن مثل هذه الشخصية موجودة بمكان ما فى الشرق ، وأخيرا فى القرن الخامس عشر ، تصادف أن مسافرا برتغاليا ، اسمه بدرو كوفلهام ، سمع بوجود ملك مسيحى فى بلاد الأحباش (الحبشة) ، التى لا تبعد عن البحر الأحمر ، فاستنتج أن هذا الملك هو القس يوحنا دون مراء ، ومن ثمة ذهب إلى هناك ، وتوغل حتى وصل إلى قصر الملك ، الذى يسميه نيجوس ، ويشير ملتون إليه فى «الفردوس المفقود» السفر الحادى عشر ، حيث يصف رؤيا آدم ، عن أعقابه ، فى شعوبهم ومدنهم المختلفة ، وقد انتشروا فوق سطح الأرض ، فيقول :

« ... كذلك فإن عينيه ميزتا
إمبراطورية نيجوس ، لأقصى ثغورها ،
اركوكو ، والملوك الأقل سطوة بالبحار ،
مومبازا وكويلو ومليند . »

***

الفصل الثامن والثلاثون

الأساطير ـ الشمالية مثوى الأبطال

حوريات ولكيريور

الأساطير الشمالية

إن القصص التى شغلت أذهاننا بهذه الصورة ، تتصل إلى حد كبير بأساطير الأقطار الجنوبية ، ولكن ثمة فرعا آخر من الخرافات القديمة ، يلزم ألا نغفله كل الإغفال ، خاصة لتعلقـه بالشعوب التى نستمد منهـا ، عن طريق جدودنا الإنجليز ، أصلنا ، وهى أساطير الشعوب الشمالية ، المسماة بشعوب الإسكندناويين الذين استوطنوا الأقطار المعروفة الآن بالسويد والدانمارك والنرويج وإيسلند ، وهذه المدونات الأسطورية تحويها مجموعتان تسميان كتابي الإده Edda ، أقدمها بالشعر ، ويعود تاريخه إلى عام ١٠٥٦ ، وأحدثهما هى الإده النثرية ، وتاريخها عام ١٦٤٠ .

ووفقا لما جاء بكتابى الإده ، لم تكن هناك سماء من فوق ، ولا أرض من تحت ، إنما فقط بحر لا قرار له ، وعالم من الضباب ، يتدفق فيه ينبوع ، ويخرج من هذا الينبوع اثنا عشر نهرا ، وعندما تدفقت بعيدا عن منبعها ، تحولت إلى جليد ، و بتراكم طبقة فوق أخرى امتلأ البحر العظيم .

وفى الناحية الجنوبية من عالم الضباب يقع عالم النور . ومن هذا العـالم هبت ريح دافئة على الصقيع فأذابته ، وتصاعدت الأبخرة فى الهواء وكونت سحبا ، برز منها أيمر ــ Ymir ، المـارد الجليدى وذريته ، والبقرة أودهمبلا ، التى استمد من لبنها غذاء وطعـاما ، وكانت البقرة تتغذى بلعق الزبد الأبيض والملح من

الثلج ، وذات يوم بينما كانت تلعق أحجار الملح ، ظهر فى مبدأ الأمر شعر رجل ، وفى اليوم الثانى برز الرأس كله ، وفى الثالث الجسم بأكمله ، وقد استكمل أسباب الجمال والرشاقة والقوة ، وكان هذا الكائن الجديد إلها ، خرج منه ومن زوجته ، وهى ابنة من ذرية المارد ، الأشقاء الثلاثة : أودين Odin وفيلى Vili وفى — Vi ، فذبحوا المارد أيمر ، ومن بدنه كونوا الأرض ، ومن دمه البحار ومن عظامه الجبال ، ومن شعره الأشجار ، ومن جمجمته السموات ، ومن دماغه السحب المشحونة بالبرد والجليد ، ومن حاجبي أيمر كونت الآلهة مدجارد (وسط الأرض) المقدر أن يصبح موطنا للإنسان .

ونظم أودين للنهار والليل والفصول أوقاتها ، بوضعه الشمس والقمر فى السموات ، وتعيينه لكل منهما مجراه ومسراه ، وما كادت الشمس تبعث بأشعتها إلى الأرض حتى أزهر عالم النبات وأثمر ، وبعد أن خلقت الآلهة العالم بوقت قليل ، ساروا على شاطىء البحر ، مسرورين بعملهم الجديد ، ولكنهم وجدوه لايزال غير مستكمل ، إذ كانت تنقصه الكائنات البشرية ، ومن ثمة أخذوا شجرة دردار وصنعوا منها رجلا ، كما صنعوا امرأة من شجرة حور ، ودعوا الرجل أسكى Aske والمرأة إمبلا . Embla ، ثم أعطاهما أودين الحياة والروح ، وفيلى العقل والحركة ، وأنعم « فى » عليهما بالحواس والملامح المعبرة والنطق ، وبعد ذلك أعطيت لهما ميدجارد موطنا ، وأصبحا والدى الجنس البشرى .

ويزعمون أن شجرة الدردار العظيمة إيجردراسيل هى دعامة الكون كله ، وأنها انبثقت من بدن أيمر ، ولها ثلاثة جذور هائلة ، واحد ممتد إلى أسجرد (موطن الآلهة) والآخر إلى يوتنهايم (موطن العمالقة) والثالث إلى نيفلهايم (أقطار الظلام والبرد) وبجانب كل من هذه الجذور نبع يرويه ، وكان يقوم على العناية بالجذر الممتد إلى أسجرد ثلاث إلاهات . Norns ، يعتبرن موزعات الأقدار ، وهن : أردر Urdur (الماضى) وفردندى . Verdandi (الحاضر) وسكلد Skuld (المستقبل) ، والنبع الذى فى جانب يوتنهايم هو بئر أيمر ،

الذى تختفى فيه الحكمة والحجا ، أما نبع نيفلهايم فمنه تستقى الأفعى ند هوجى Nidhogge (الظلمة) التى تقرض الجذر على الدوام ، وتجرى أربعة ظباء عبر غصون الشجرة ، وتلتقم البراعم ، وهى تمثل الرياح الأربع ، وتحت الشجرة يربض أيمر وحين يحاول أن يرفع عن كاهله ثقلها ، تزلزل الأرض زلزالها .

وأسجرد هو اسم موطن الآلهة ، ولا يتيسر الوصول إليه إلا بعبور قنطرة بفروست . Bifrost (قوس قزح) ، ويتكون أسجرد من قصور من الذهب والفضة ، وهى منازل الآلهة ، ولكن أجمل هذه القصور جميعاً هو مثوى الأبطال أو الفلهالا . Valhalla ، حيث يقيم أودين الذى كان حين يجلس على عرشه ، يحيط ببصره السماء والأرض جميعا ، وفوق منكبيه الغرابان الفاحمان : هيوجن. Hugin وميونن . Munin ، اللذان يحلقان كل يوم فوق العالم بأسره ، وعند عودتهما يطلعانه على كل ما رأياه وسمعاه ، وعند قدميه يربض الذئبان جيرى Geri وفريكى Freki ، اللذان يعطيهما أودين كل اللحم الذى يوضع أمامه ، إذ لم يكن هو ذاته فى حاجة إلى طعام ، فعسل الميد . Mead كان له طعامه وشرابه ، واخترع الحروف الرونية ، ومهمة إلاهات نورن كانت حينذاك هى نقش حروف القدر الرونية على درع معدنى ، ومن اسم أودين ، الذى يتهجاه البعض وودين Woden ، جاء اسم الأربعاء Wednesday وهو اليوم الرابع من الأسبوع .

وكثيرا ما يطلق على أودين اسم أولفادر Alfudur (All : father وهذا الاسم يستخدم أحيانا بطريقة تبين أن لدى الإسكندناويين فكرة عن إله أعظم من أودين خالد غير مخلوق .

* * *

مباهج فلهالا أو مثوى العظماء

فلهالا هى قاعة أودين الكبرى ، حيث يقصف مع أبطاله المختارين ، أولئك ، الذين سقطوا فى ساحة الوغى مستبسلين ، أما من ماتوا حتف أنوفهم فلم يكن

لهم فيها نصيب وكان يقدم لهم لحم الخنزير البرى ويفيض عن حاجتهم ، إذ على الرغم من أن هذا الخنزير كان يتم طهوه كل صباح ، فكان يعود صحيحاً كاملا كل مساء ، وكان شراب الأبطال هو عسل الميد ، الذى يستمدونه بوفرة من العنزة هيدرم – Heidrum وحين كان الأبطال يكفون عن القصف كانوا يتسلون بالقتال ، وكل يوم كانوا يخرجون إلى الساحة أو الميدان على صهوات جيادهم ويتقاتلون حتى يقطعون بعضهم بعضا إربا ، وهذه كانت تسليتهم ، ولكن حينما كان يحل موعد تناول الطعام ، كانوا يبرءون من جراحهم ، ويعودون إلى القصف بالفلهالا من جديد .

* * *

حوريات ولكيريور

كانت حوريات ولكيريور عذارى مقاتلات ، يمتطين جيادا ويتسلحن بالخوذات والحراب ، وكان أودين ، الراغب فى حشد أكبر عدد من الأبطال فى فلهالا ، لتمكينه من ملاقاة العمالقة يوما ما حين تصبح الموقعة الفاصلة لا محيص من قيامها ، يرسل رسلا إلى كل ساحة قتال لاختيار أولئك الذين يقتلون ، وكانت حوريات ولكيريور هن رسله ، واسمهن يعنى « منتخبات القتلى » ، وحين كن يخرجن راكبات للقيام بمهمتهن ، كانت دروعهن تتلألأ بضوء غريب ، يلمع فوق الأجواء الشمالية ، صانعا ما يسميه القوم « الشفق الشمالى » أو « الأضواء الشمالية (١) .

* * *

ثور والآلهة الأخرى

وثور – Thor ، الرعاد ، بن أودين الأكبر ، هو أقوى الآلهة والبشر ،

---

(١) ان أنشودة جراى « الشقيقات المهلكات » مؤسسة على هذه الأسطورة .

ويملك ثلاثة أشياء ثمينة جدا ، الأولى مطرقة يعرفها عمالقا الصقيع والجبل ، إذ تكلفهما غاليا ، حين يريانها تشق الهواء هابطة عليها ، فطالما حطمت جماجم آباء لهما وأقرباء ، فإذا ألقيت عادت إلى يد ثور من تلقاء نفسها ، وثانى شيء نادر يملكه يسمى حزام القوة ، وحين يطوق به نفسه تتضاعف قوته الإلهية ، والثالث ، ثمين جدا أيضا ، وهو قفازات حديدية ، يلبسها حينما يريد استخدام مطرقته بقوة ، ولفظنا يوم الخميس — Thursday مشتق من اسم ثور — Thor .

وفريى — Frey واحد من أعظم الآلهة شهرة ، وهو قيم على المطر وأشعة الشمس وكل فواكه الأرض ، وأخته فريبا أعظم الإلهات لطفا ، وهى محبة للموسيقى والربيع والأزهار ، وشفوقة ، على وجه الخصوص ، بصغار العفاريت وإناثهم ، وهى شديدة الشغف بالأغانى الغرامية ، وجميع المحبين يحسنون صنعا حين يستغيثون بها .

وبراجى — Bragi هو إله الشعر ، ونشيده تسجيل لمآثر الأبطال ، وزوجته إيدونا — Iduna تحتفظ فى صندوق بتفاحات ، يكفى مجرد تذوق الآلهة لها ، حين إحساسهم قرب الشيخوخة ، حتى يستردوا شبابهم ثانية .

وهيمدول — Heimdall هو حارس الآلهة ، ولهذا فمكانه على حدود السماء كى يمنع العمالقة من شق طريقهم قسرا فوق قنطرة بفروست (قوس قزح) ، وحاجته إلى النوم أقل من حاجة الطير ، ويرى بالليل كما يرى بالنهار على بعد مائة ميل حواليه ، وأذنه حادة السمع فلا يفوته صوت مهما خفت ، حتى ليسمع العشب وهو ينمو ، والصوف فوق ظهر الغنم أيضا .

***

لوكى وذريته

وثمة إله آخر يوصف باعتباره نمام الآلهة ومدبر كل خديعة وشر ، اسمه

لوكى ، وهو جميل المنظر حسن التكوين ، ولكنه مذبذب الخلق جدا ، خبيث الطبع إلى أقصى حد ، وهو من ذرية العمالقة ، ولكنه أقحم نفسه فى صحبة الآلهة ، ويبدو أنه ينعم حين يزج بهم فى المآزق ، ويخلصهم من المخاطر بدهائه وبراعته وسرعة بديهته ، وللوكى ثلاثة أطفال ، أولهم الذئب فنريس — Fenris ، والثانى مدجارد Midgard الثعبان ، والثالث هيلا — Hela الموت ، وكانت الآلهة لاتجهل أن هذه التنانين آخذة فى النمو ، وأنها لابد أن تكون فى يوم ما وبالا على الآلهة والبشر ، لذلك رأى أودوين من الحكمة أن يرسل نفرا لاستحضارها إليه ، فلما حضرت ألقى بالثعبان فى المحيط العميق الذي يحيط بالأرض ، ولكن التنين تضخم حجمه حتى أصبح ، وهو ممسك بذيله فى فمه ، محيطا بالأرض كلها ، أما هيلا فألقاها فى نيفلهايم ، وأعطاها سلطة على تسعة عوالم أو أقطار ، توزع عليها أولئك الذين يرسلون إليها ، أعنى أولئك الذين يموتون بالمرض أو الشيخوخة ، وقاعتها تسمى الفدنر Elvidner ، والجوع مائدتها ، والتفريط سكينها ، والتوقف رجلها ، والبطء خادمتها ، والهاوية عتبتها ، والهم فراشها ، والهلع المتأجج يؤلف ستائر خدرها ، ومن السهل التعرف عليها ، لأن جسمها نصفه بلون اللحم ونصفه الآخر أزرق ، ولها سحنة ممقوتة مفرطة الصرامة .

وسبب الذئب فنريس للآلهة متاعب جمة قبل أن يوفقوا إلى وضعه فى الأغلال ، فكان يحطم أقوى الأصفاد كما لو كانت مصنوعة من نسيج العنكبوت ، وأخيرا بعثت الآلهة رسولا إلى جبل الأرواح ، فصنع لهم السلسلة المسماة جليبنر — Gleipner ، وقد صاغها من عدة أشياء ، الصخب الصادر من وطء أقدام قط ، ولحى النساء ، وجذور الأحجار ، وأعصاب (أحاسيس) الدببة ، ولعاب الطيور ، وحين تم صنعه كان لينا ناعما مثل خيط حريرى ، ولكن حين طلبت الآلهة من الذئب ، أن يسمح بتقييده بهذا الشريط الواهى فى ظاهره ، أساء الظن فى نواياهم ، لخشيته أن يكون مسحورا ، لذلك لم يقبل القيد إلا على شرط أن يضع أحد الآلهة يده فى فمه (فم فنريس) كضمان لرفع القيد عنه بعد ذلك ، فلم يجرؤ أحد على فعل ذلك سوى تير — Tyr (إله المعارك) وحده ، ولكن

عندما تبين للذئب أنه لا يستطيع تحطيم أصفاده، وأن الآلهة لن تطلق سراحه ، قضم ذراع تير ، وظل منذ ذلك الحين بذراع واحدة .

* * *

كيف دفع ثور للعملاق « الجبلي » أجره

ذات مرة ، حينما كانت الآلهة قائمة ببناء مساكنها ، وقد انتهت من تشييد مدجارد وفلهالا ، أتاهم صانع معين وعرض عليهم أن يبني لهم موطنا حصينا يقيهم تماما من غارات عمالقة الصقيع وعمالقة الجبال ، ولكنه طلب أن يعطى الإلهة فريبا ومعها الشمس والقمر كمكافأة له فوافقت الآلهة على طلباته ، على شرط أن يتم العمل كله بنفسه دون أية مساعدة ، وفي فترة لا تزيد على شتاء واحد ، ولكن لو بقي شيء دون أن يتم حتى أول يوم من الصيف أضاع حقه في الجزاء المتفق عليه ، وعند اطلاعه على هذه الإلتزامات اشترط الترخيص له باستخدام جواده سفاديلفارى ، وبناء على نصيحة لوكى سمحوا له بذلك ، ومن ثمة بدأ العمل فى أول يوم من فصل الشتاء ، وجعل جواده يجر الحجر للبناء خلال المساء ، فغمرتهم ضخامة حجم الأحجار بالدهشة ، ورأوا بوضوح أن الجواد يزيد بمقدار النصف على صاحبه فى القيام بالعمل الشاق ، ولكن الصفقة تمت وتأيدت بالمواثيق القوية ، فبدون هذه الاحتياطات لا يتيسر لعملاق أن يظن نفسه آمنا بين الآلهة ، خاصة حين يعود ثور من حملة كان قد شنها حينذاك ضد الشياطين.

وإذ أشرف فصل الشتاء على ختامه ، كان المبنى يرتفع شامخا حثيثا ، والقلاع مشمخرة قوية حتى جعلت المكان أمنع من عقاب الجو ، وبالاختصار عندما لم يتبق سوى ثلاثة أيام لحلول الصيف ، ولم يكن باقيا للانتهاء من المبنى سوى مدخله ، عند ذلك جلست الملائكة على مقاعدها للحكم ، ودارت المناقشة بينهم ، وراحوا يسأل أحدهم الآخر ، عمن جازف منهم بإسداء النصح لتسليم فريبا ، وإلقاء السموات فى الظلمة بالترخيص للمارد أن يحمل معه الشمس والقمر .

فانتهوا جميعا إلى أن لوكي هو مثير كل هذه الأفعال الشريرة ، ولا يستطيع أحد غيره إعطاء مثل هذه النصيحة الضارة ، وأنه لا بد من القضاء عليه بميتة بشعة إذا لم يجد طريقة يمنع بها الصانع من إتمام مهمته والحصول على مكافأته ، وتقدموا للقبض على لوكى ، فاستبد به الهلع ، وأعطى المواثيق على نفسه بأنه مهما كلفه الأمر ، فإنه سيدبر الأمر بحيث يفقد الصانع مكافأته ، وفي ذلك المساء بالذات عندما ذهب الرجل مع سفاديلفارى لنقل الأحجار ، برزت فرسة فجأة من غابة وراحت تعدو وهي ترسل صهيلا مدويا ، فانطلق الجواد يعدو خلفها فى الغابة ، الأمر الذى اضطر معه الرجل أيضا للعدو خلف جواده ، وهكذا بين واحد والآخر ضاع الليل ، حتى إنه عند الفجر لم يكن قد تم من العمل القدر المعتاد ، وإذ رأى الرجل أنه مشرف على الإخفاق عن إتمام مهمته ، استعاد قوامه العملاق ، وآنئذ تبينت الآلهة فى وضوح أن الذى جاءهم هو فى الحقيقة جبل مارد ، وحين أحسوا أنهم غير مقيدين بمواثيقهم ، استدعوا ثور الذى خف فورا لمساعدتهم ، وحين رفع مطرقته دفع للصانع أجره ، لا بالشمس والقمر ، أو حتى بإعادته إلى يوتنهايم ، ذلك لأنه بأول ضربة حطم جمجمته صعيدا جرزا ، وقذف به فى نيفلهايم حيث سقط على أم رأسه .

***

استرداد المطرقة

وحدث يوما ما أن وقعت مطرقة ثور فى حيازة المارد ثريم فدفنها على عمق ثمانية فراسخ تحت صخور يوتنهايم ، فبعث ثور بلوكى ليفاوض ثريم ، ولكنه لم يوفق إلا فى الحصول على وعد من المارد برد المطرقة إذا قبلت فريا أن تصبح عروسا له ، فعاد لوكى وأبلغ نتيجة سفارته ، ولكن إلهة الحب استولى عليها الهلع لفكرة الانعام بمفاتنها على ملك عمالقة الصقيع ، وفى هذا المأزق نصح

لوكى الإله ثور بأن يرتدى ثياب فريا ويصحبه إلى يوتنهايم ، فاستقبل ترِيم عروسه المحجبة بما يليق من التكريم ؛ ولكن الدهشة استبدت به حين رآها تتناول فى وجبة عشائها ثمانى سمكات ضخمة ، وثورا تام النمو ، إلى جانب بعض أصناف شهية من الطعام ، وغمر كل هذا بثلاثة دنان من عسل الميد ، ولكن لوكى طمأنه مؤكدا له أنها لم تذق أى شىء منذ ثمانى ليال طويلة ، إذ كانت متلهفة لرؤية عاشقها حاكم يوتنهايم الذائع الصيت ، وأخيرا دفع حب الاستطلاع ترِيم إلى أن ينظر فى حذر تحت نقاب عروسه ، ولكنه ارتد مذعورا وتساءل ، لماذا تندلع النيران من مقلتى فريا ، فكرر لوكى نفس العذر وقبله المارد ، فأمر باستحضار المطرقة ووضعها فوق حجر العذراء ، وعند ذلك نزع ثور ثياب تنكره ، وأمسك بسلاحه الهائل ، وقتل ترِيم وكل أتباعه .

وكان فرِى يملك أيضا سلاحا عجيبا ، سيفا يبسط من تلقاء ذاته ميدانا للقتال كلما أراد مالكه ، وقد افترق فرِى عن هذا السيف ، ولكنه كان أقل حظاً من ثور ولم يسترده قط ، وحدث الأمر على هذا النحو : اعتلى فرِى مرة عرش أودين ، حيث كان يستطيع المرء أن يرى الكون بأسره ، وإذ هو يتطلع حواليه شاهد على بعد ، فى مملكة المارد ، فتاة جميلة ، وحين رآها استبد به حزن مفاجىء ، حتى إنه من تلك اللحظة جافى النوم جفونه ، وكف عن الشراب والكلام ، وأخيرا انتزع سكرنر Skirnir رسوله سره منه ، وتعهد باستحضار الفتاة عروسا له إذا خلع عليه سيفه مكافأة له ، فقبل فرِى وأعطاه السيف ، وقام سكرنر برحلته ، وحصل على وعد من الفتاة بأنها ، فى ظرف تسع ليال ، ستأتى إلى مكان معين ، وهناك تزف إلى فرِى ، وحين أبلغ سكرنر نبأ نجاح مهمته ، صاح فرِى قائلاً :

« يا لطول ليلة واحدة ،

ويـــا لطول ليلتين ،

فكيف أتحمل ثلاثا ؟
طالما بدا لى شهرا
أقصر في مداه
من نصف هذه المدة المتلهفة . »

* * *

وهكذا حصل فريى على جيردا ـ Gerda ، أجمل نساء العالمين ، زوجة له ، ولكنه فقد سيفه .

الفصل التاسع والثلاثون

زيارة ثور إلى يوتنهايم — بلاد العمالقة

فى أحد الأيام خرج الإله ثور ، مع خادمه ثيالفى ، يرافقهما لوكى فى رحلة إلى بلاد العمالقة ، وكان ثيالفى أسرع جميع الرجال فى العدو ، فحمل حقيبة ثور ، وفيها مئونتهم ، وحينما حل المساء وجدوا أنفسهم فى غابة مترامية الأطراف ، وبحثوا فى كل جوانبها عن مكان يقضون فيه ليلتهم ، وأخيرا وقعوا على قاعة متسعة جدا ، ذات مدخل ، شغل الاتساع الكامل أحد أطراف المبنى ، وهنا رقدوا للمبيت ، وقرابة نصف الليل ، قاموا من نومهم مذعورين ، على زلزلة هزت المبنى من أساساته ، فنهض ثور ونادى على رفاقه كى يبحثوا معه عن مكان أمين ، وعلى اليمين وجدوا حجرة مجاورة ، دلف إليها الآخران ، ولكن ثور ظل واقفا عند المدخل ومطرقته فى يده ، متأهبا للدفاع عن نفسه ، مهما حدث ، وسمعوا خلال الليل زفيرا مرعبا ، وحالما بزغ الفجر ، خرج ثور فوجد ماردا ضخما مستلقيا على كثب منه يغط فى نومه ، على النحو الذي أرعبهم إلى هذا الحد ، ويقال إن هذه هي المرة الوحيدة التى تقاعس فيها ثور عن استخدام مطرقته ، وحين استيقظ المارد بعد ذلك بقليل ، قنع ثور بسؤاله عن اسمه فحسب .

فأجاب المارد : «اسمى سكريمر Skrymir ، ولكنى فى غير حاجة إلى سؤالك عن اسمك ، فأنا أعرف أنك الإله ثور ، ولكن ماذا حدث لقفازى ؟ » وعندئذ تبين لثور أن المكان الذى حسبوه في الليل قاعة لم يكن سوي قفاز المارد ، وأن الحجرة التى دلف إليها رفيقاه لاتذين بها ، هى إبهام هذا القفاز ، بعد ذلك اقترح

سكريمر أن يسافروا جماعة ، وحين وافق ثور جلسوا لتناول الفطور ، وعندما انتهوا من تناوله ، حزم سكريمر كل المؤن فى جراب واحد ، ألقاه فوق كتفه ، وتقدم فى السير بخطوات هائلة عجزوا عن ملاحقتها واللحاق بصاحبها ، وهكذا لزموا السفار طوال النهار ، وعند الغسق تخير سكريمر مكانا يقضون فيه المساء تحت شجرة بلوط ضخمة ، ثم أخبرهم أنه سيفترش الأرض للرقاد ، وأضاف قائلا : « ولكن خذوا الجراب وأعدوا عشاءكم . »

وسرعان ما استغرق سكريمر فى النوم ، وراح يغط غطيطا عاليا ، ولكن عندماحاول ثور أن يفتح الجراب وجد أن المارد قد ربطه بشدة حتى إنه لم يستطع أن يحل عقدة واحدة ، وأخيرا اشتد الحنق بثور ، فرفع مطرقته بكلتا يديه ، ونزل على رأس المارد بضربة عنيفة ، فاستيقظ سكريمر ولم يزد عن أن يسأل عما إذا كانت ورقة شجر قد وقعت على رأسه ، وعما إذا كانوا قد تناولوا عشاءهم واستعدوا للمبيت ، فأجابه ثور بأنهم على وشك الذهاب للنوم ، وحين قال هذا ذهب واستلقى تحت شجرة أخرى ، ولكن الوسن لم يزر جفن ثور هذا المساء ، وعندما ارتفع غطيط سكريمر ثانية ، حتى رددت الغابة صداه ، أمسك بمطرقته وأرساها فوق جمجمة المارد بقوة تركت أثرا عميقا فيها ، وعندئذ استيقظ سكريمر وصاح قائلا : « ما الخطب ؟ أهناك طيور فوق الشجرة ؟ لقد أحسست ببعض الطحلب ساقطا من الأغصان فوق رأسى . كيف أمسيت أنت يا ثور ؟ » ولكن ثور انصرف عنه متعجلا ، قائلا إنه قد استيقظ توا ، وإنه ما دام الوقت لم يتعد منتصف الليل فما زال أمامهم مجال للنوم ، ولكنه عقد العزم على أنه لو أتيحت له فرصة ليكيل له ضربة ثالثة ، لكانت هى القاضية ، وقبل بزوغ الفجر بقليل رأى سكريمر مستغرقا ثانية فى النوم ، فأمسك بمطرقته ، ونزل بها على جمجمة المارد بقوة جعلتها تغوص فيها حتى المقبض ، ولكن سكريمر نهض جالسا ، وتحسس خده وهو يقول : « سقطت ثمرة بلوط على رأسى ، وى ! أما زلت مستيقظا يا ثور ؟ لعل الوقت قد آن لننهض ونرتدى ملابسنا ، ولكن الشقة الآن غير طويلة أمامكم لتصلوا إلى مدينة أتجرد . لقد سمعتكم تتهامسون فيما بينكم بأنى رجل

مترامى الأطراف ، ولكنكم ستجدون ، حين تصلون إلى أنجرد ، كثيرين أطول منى جدا ، ولذلك أنصحكم أن تتجنبوا المفاخرة بأنفسكم حينما تصلون هناك ، لأن أتباع أنجرد ـ لوكى ـ لن يطيقوا مفاخرة أمثالكم من الكائنات الصغيرة ، وعليكم الآن أن تسيروا شرقا ، أما أنا فطريقى إلى الشمال ، ولذلك فلزام علينا أن نفترق هنا . »

عند ذلك وضع جرابه فوق كتفيه ، وافترق عنهم إلى الغابة ، ولم تكن لثور أية رغبة فى وقفه أو طلب المزيد من صحبته .

وجد ثور ورفيقاه فى المسير ، وعند الظهر لمحوا مدينة وسط سهل وكانت شاهقة الارتفاع حتى اضطروا أن يميلوا بأعناقهم إلى الخلف فوق أكتافهم ، كى يروا قمتها ، وعند وصولهم دخلوا المدينة ، وإذ رأوا أمامهم قصرا منيفا ، وبابه مفتوح على مصراعيه ، ولجوه ووجدوا عددا من الرجال ، ذوى أجسام هائلة ، جالسين على مقاعد في القاعة ، وإذ ساروا قدما وصلوا إلى حيث كان الملك ، أنجرد ـ لوكى ـ فحيوه باحترام شديد ، فتطلع إليهم الملك فى ابتسامة ساخرة وقال : « إذا لم أكن مخطئا ، فيقينى إن هذا الصبى الواقف هناك هو الإله ثور » ثم وجه خطابه إلى ثور فقال : « لعلك أعظم مما تبدو ، فما هى أعمال البطولة التى تحسب أنك مع رفيقيك قد برعتم فيها ، إذ إن البقاء غير مصرح به هنا لأحد ما لم يبز الآخرين جميعا فى بطولة ما ؟ »

فقال لوكى : « بطولتى تتجلى فى سبق للجميع عند تناول الطعام ، وإنى على استعداد أن أعطى الدليل ضد أى شخص هنا قد يرى أن ينافسنى . »

فأجاب أنجرد ـ لوكى : « ستحسب لك هذه بطولة دون شك ، إن حققت ما وعدت ، وستتم المباراة فورا . »

عند ذلك أمر واحدا من رجاله ، كان جالسا فى الطرف الأقصى من الصف ،

اسمه لوجى ، أن يتقدم للمباراة مع لوكي ، فوضعوا إناء ضخما مكدسا باللحم فوق أرض القاعة ، وجلس لوكى فى طرف منه ، ولوجى فى الطرف الآخر ، وابتدأ كل منهما يسابق الآخر فى الأكل ، حتى تلاقيا فى وسط الإناء ، ولكن اتضح أن لوكى أكل اللحم فقط ، بينما التهم منافسه اللحم والعظم جميعا ، وأصاب الإناء أيضا ، ولذلك قضت الجماعة كلها بهزيمة لوكى .

ثم سأل أتجرد ـ لوكى عما إذا كان باستطاعة الشاب المرافق لثور القيام بأى عمل من أعمال البطولة ، فأجاب ثيالفى بأنه على استعداد لمسابقة من يشاء فى العدو ، فعلق الملك بأن البراعة فى العدو جديرة بالتفاخر ، ولكن إذا شاء الشاب أن يفوز بالمباراة فعليه أن يبدى قسطا كبيرا من خفة الحركة ورشاقتها ، ثم نهض وتوجه مع جميع الحاضرين إلى سهل به بقعة صالحة للعدو ، وإذ استدعى شابا يدعى هيوجى ، أمره بأن يسابق ثيالفى فى العدو ، وفى أول شوط ، سبق هيوجى منافسه كثيرا حتى إنه كر راجعا ولاقاه على كثب من مكان القيام ، وقاما بشوط ثان وثالث ولكن ثيالفى لم يلاق أى نجاح .

بعد ذلك استفسر أتجرد ـ لوكى من ثور عن جلائل الأعمال التى يتخيرها ليقيم الدليل على بطولته التى طبقت شهرتها الآفاق ، فأجاب ثور بأنه يؤثر أن تكون المباراة على الشراب ، فأمر أتجرد ـ لوكي ساقيه أن يحضر قدحه الكبير ، الذى كان من المحتم على أتباعه أن يعبوه حتى الثمالة إذا ما أخلوا بواجبات ضيافته لهم ، وحين قدمه الساقى إلى ثور قال له أتجرد ـ لوكى : « إن شارب الخمر الممتاز يفرغ هذا القدح فى رشفة واحدة ، ولكن معظم الرجال يفرغونه في رشفتين ، وأسوأهم جميعا فى ثلاث رشفات . »

فتطلع ثور إلى القدح الذى بدا فى حجمه لا يختلف عن المعتاد ، وإن كان طويلا بعض الشىء ، ولكنه إذ كان شديد الظمأ ، رفعه إلى شفتيه ، ودون أن يأخذ نفسا ، عب من القدح عبا متواصلا قدر استطاعته ، كى يفرغه فى رشفة

واحدة ، ولـكنه عندما أنزل القدح وجد أن كية الشراب به تـكاد أن تـكون على حالها لم تتضاءل .

وبعد أن التقط أنفاسه ، عاد ثور إليه بكل قواه ، ولـكنه حين رفع القدح عن فمه ، بدا له كما لو كانت الـكمية التى احتساها أقل من سابقتها ، ولـكن أصبح فى الاستطاعة الآن حمل القدح دون إراقة شىء منه .

فقال أتجرد ـ لوكى : « والآن ماذا ترى يا ثور ؟ عليك ألا ترفق بنفسك ، فإذا كنت تمنى أن تفرغ القدح فى المرة الثالثة فعليك أن تجرعه جرعا ، ولا بد لى من القول إنك لن تحسب بيننا من الأقوياء كما أنت بين عشيرتك ، ما لم تظهر بطولتك فى أى شأن آخر عدا ما تفعله الآن . »

فامتلأ ثور بالغيظ ، ورفع الـكأس إلى شفتيه مرة أخرى ، ولم يدخر وسعا كى يفرغه ، ولـكنه حين تطلع داخله ، وجد الشراب لم ينخفض إلا قليلا ، ولذلك صمم على ألا يحاول مرة أخرى ، بل رد الـكأس للساقى .

وقال أتجرد ـ لوكى : « أرى الآن فى وضوح أنك لست قويا كما حسبناك ، ولـكن ألا تحاول أية بطولة أخرى وإن كنت أرجح أنه من غير المحتمل أن تحمل معك أية جائزة من عندنا . »

فسأله ثور : « أية مباراة جديدة تقترحها ؟ »

فأجاب أتجرد ـ لوكى : « لدينا هنا لعبة تافهة جداً لا يمارسها سوى الأطفال ، وهى لا تزيد على حمل هرى من الأرض ، وما كنت لأجسر على أن أذكر مثل هذا الأمر لثور العظيم ، مالم أكن قد لاحظت أنك لست ما حسبناك بأية حال من الأحوال » .

وما كاد ينتهى من كلامه حتى قفز هر رمادى كبير على أرض القاعة ، فوضع ثور يده تحت بطن الهر ، وحاول بكل قواه أن يرفعه من الأرض ، ولـكن الهر

قوس ظهره ، وعلي الرغم من كل محاولات ثور ، لم يستطع سوى رفع قدم واحدة ، وحين رأى ثور هذا لم يكرر محاولته .

فقال أتجرد ـ لوكى : « لقد أسفرت هذه المحاولة عما توقعته تماما ، فالهر كبير ، ولكن ثور ضئيل إذا ما قورن برجالنا » .

وعندئذ أجابه ثور قائلا : « على الرغم من ضآلتى على حد قولك ، دعنى أرى أيا منكم يجرؤ الآن على أن يتقدم لمصارعتى وأنا فى سورة غضبى » .

وقال أتجرد ـ لوكى وهو يتطلع إلي الرجال الجالسين على المقاعد : « لست أرى أحدا هنا ، إلا ويعتبر مصارعته لك امتهانا لكرامته فليخف أحد إذن لمناداة تلك الحيزبون الشمطاء ، مربيتى إللى ـ Elli ، ولينازلها ثور إذا شاء ، فكم من رجل لا يقل بأسا عن ثور هذا ألقت به أرضا . »

عندئذ دخلت القاعة عجوزدرداء ، فطلب منها أتجرد ـ لوكى أن تمسك بثور ، والقصة تروى فى اختصار ـ فكلما شدد ثور قبضته على العجوز الدردبيس ، ازدادت فى وقفتها قوة وثباتا ، وأخيرا وبعد صراع بالغ العنف ، أخذ ثور يفقد توازنه ، وفى النهاية ركع قسرا على ركبة واحدة ، وعندئذ أمرهما أتجرد ـ لوكى أن يكفا عن النزال ، وأضاف قائلا إن ثور لم يعد يسوغ له أن يسأل أى شخص آخر بالقاعة أن ينازله ، كما أن الوقت أيضا أصبح متأخرا ، ولذلك وجه ثور ورفاقه إلي مقاعدهم ، فقضوا الليلة هناك فى مرح وسرور .

وفى صباح اليوم التالي عند بزوغ الفجر ، ارتدى ثور ورفاقه ثيابهم ، واستعدوا للرحيل ، وأمر أتجرد ـ لوكى فمدت لهم مائدة لا ينقصها أى لون من طعام أو شراب ، وبعد تناول الطعام رافقهم أتجرد ـ لوكى حتى باب المدينة ، وعند الافتراق سأل ثور عن رأيه فى نتيجة رحلته ، وعما إذا كان قد التقى من

قبل بأى رجل أقوى منه بالذات ، فأجابه ثور بأنه لا يستطيع أن ينكر أنه ألحق بنفسه أشنع العار ، ثم أضاف قائلا : « وأشد ما يحزننى أنكم ستدعوننى رجلا هزيل القدر . »

فقال أتجرد ـ لوكى : « لا ، ولزام على أن أفضى إليك بالحقيقة ، وقد أصبحت الآن خارج مدينتى ، التى لن تدخلها ثانية مادمت على قيد الحياة ولى نهجى الخاص ، ويمينا غير محنثة ، لو أنى عرفت من قبل أن لك مثل هذه القوة ، وأنك كنت على وشك أن تلقى بى إلى التهلكة ، لما أبحت لك دخولها هذه المرة فلتعلم إذن أنى خدعتك طوال الوقت بصور وهمية؛ أولا فى الغابة حيث ربطت الجراب بأسلاك من حديد ، كى تعجز عن حلها ، بعد هذا كلت لى ثلاث ضربات بمطرقتك ، وعلى الرغم من أن أولاها كانت أخفها ، فكان من المحتمل أن تقضى على لو أنها وقعت على ، ولكنى تلافيت ضرباتك فوقعت على الجبل، حيث تجد ثلاث وهاد ، إحداها شديدة العمق ، وهى الآثار التى تخلفت عن مطرقتك ، واستخدمت صورا وهمية مماثلة فى المباريات التى قامت بينك وبين أتباعى ؛ ففى الأولى ، التهم لوكى، كما لو كان هو الجوع مجسما ، كل ما وضع أمامه، ولكن لوكى لم يكن فى الواقع سوى « النار » ولذلك أكلت اللحم وأصابت الإناء الذى يحويها معا ، وهيوجى الذى تبارى ثيالفى معه فى العدو هو الفكر ، ومحال أن يعدله ثيالفى أو يلحق به ، ويمينا أنه حين جاء دورك وحاولت إفراغ القدح ، قمت بعمل معجز ، ما كنت لأصدق حدوثه قط ، لو لم أره بنفسى ، ذلك لأن قاع هذا القدح متصل بالبحر وأنت لم تفطن لذلك ، ولكنك ستجد ، إذا ما توجهت إلى الشاطىء ، كيف تأثر البحر بما شربته فانخفض ماؤه ، وحين رفعت الهر قمت بعمل بطولى لا يقل روعة ، وأصارحك أن الرعب ران على أفئدتنا ، عندما شاهدنا أحد مخالب الهر مرفوعا عن الأرض ، ذلك لأن ما توهمته هرا هو فى الواقع ثعبان مدجارد الذى يحيط بالأرض ، وقد تيسر لك بسطه حتى أصبح عاجزا عن أن يحوى الأرض بين رأسه وذيله ، وكانت مصارعتك مع إللى أيضا من أروع أعمال البطولة

فلم يوجد حتى الآن إنسان على الأرض ولن يوجد ، تعجز الشيخوخة – فهذه هي إللى فى حقيقة الأمر – عن القضاء عليه إن عاجلا أو آجلا ، ولكن الآن ، ونحن مقبلان على الافتراق ، دعنى أصارحك بأنه أفضل لكلينا ، ألا يعترض أحدنا طريق الآخر مرة أخرى ، لأنك إن فعلت ذلك ، فسأدافع عن نفسى بصور وهمية أخرى ومن ثمة لن تنال سوى تبديد جهدك وضآلة قدرك . »

وحين سمع ثور هذه العبارات ، رفع مطرقته وهو حانق ، وكان حريا أن يهبط بها فوق أم رأس أتجرد – لوكى لو لم يختف عن بصره ، وحين عاد ثور إلى المدينة لتدميرها ، لم يجد حواليه سوى سهل أخضر .

***

الفصل الأربعون

وفاة بلدور — العفاريت — الحروف الرونية

شعراء سكندناوة القدماء — إيسلندة

. . .

وفاة بلدور

عذبت بلدور Baldur الطيب الأحلام المفزعة ، التي تشير إلى أن حياته في خطر ، وأقضت مضجعه ، فأفضى بها إلى الآلهة مجتمعين ، الذين عقدوا العزم على أن يناشدوا جميع الأشياء تجنيبه الخطر المحدق ، ثم حصلت فريجا ، زوجة أودين على قسم من النار والماء ، ومن الحديد وجميع المعادن ، ومن الأحجار والأشجار والأمراض والوحوش والطيور والسموم والزواحف ، بألا يؤذى أحد منها بلدور ، ولم يقنع أودين بهذا ، لانزعاجه على مصير ابنه ، فصمم على استشارة النبية أنجربود Angerbode ، وهى من المردة ، وأم لفنريس وهيلا ومدجارد الثعبان ، ولم تكن على قيد الحياة ، فاضطر أودين للبحث عنها في أفلاك هيلا ، ونزول أودين هذا يكون موضوع أنشودة جراى البديعة التي يستهلها بقوله :

« نهض ملك الناس متعجلا ،
وأسرج جواده الفاحم توا . »

.·.

ولكن لإحساس الآلهة الأخرى أن ماصنعته فريجا كان كافيا جدا ، راحوا يسلون أنفسهم باستخدام بلدور كهدف للرماية ، فيقذفه البعض بالسهام ، والبعض

بالأحجار ، بينما راح آخرون يغمدون فيه سيوفهم وفئوسهم الحربية ، إذ مهما صنعوا به ، فلم يكن أحد منهم قادرا على أن يمسه بأى أذي ، وأصبحت هـذه هواية يزجون بها وقتهم ، ويعتبرونها ضربا من التكريم لبلدور ، ولـكن عندما شاهد لوكى المنظر تضايق جداً لعدم إصابة بلدور بأذى ، ومن ثمة تنكر فى فى زى امرأة ، وتوجه إلى فنسلر ، منزل فريجا ، وحين رأت الإلهة هذه المرأة المزعومة ، وسألتها عما إذا كانت على علم بما تصنعه الآلهة خلال اجتماعاتها ، أجابت بأنهم يرشقون بولدور بالسهام ويقذفونه بالأحجار ، دون أن يتمكنوا من إصابته فقالت فريجا : « أجل ، فلا الأحجار ولا العصى ولا أى شيء آخر يستطيع إيذاء بلدور إذ أخـذت عليهم جميعاً عهداً بذلك ، فصاحت المرأة قائلة : « ماذا ، هل أقسمت جميع الأشياء ، ألا تصيب بلدور بأذى ؟ » أجابتها فريجا : « جميـع الأشياء سوى عشب صغير ينمو على الجانب الشرقى من فالهالا ، اسمه نبات الدبق ، والرأى عندى أنه صغير وضعيف لا يؤبه لأخذ قسم منه » .

وما كاد لوكى يسمع هذا حتى انصرف ، واسترد هيئته الطبيعية ، ثم انتزع نبتة دبق ، وعاد إلى المـكان الذى تجتمع فيه الآلهة ، وهناك وجد هودر واقفا على انفراد ، دون أن يشترك فى الألعاب ، بسبب عماه ، فتوجه إليه وقال : « لماذا لا تشارك الآخرين وتقذف بلدور بأى شيء ؟ » .

فأجابه هودر : « ذلك لأنى أعمى ، ولست أرى أين يقف بلدور ، أضف إلى ذلك أننى لا أحمل شيئا أقذفه به » .

وقال لوكى : « إذن فاصنع كما يصنع الآخرون ، وأكرم بلدور بقذفه بهذا الغصن ، وأنا سأسدد ذراعك إلى المـكان الذى يقف فيه » .

عندئذ أخذ هودر غصن الدبق ، وسدده ، بإرشاد لوكى ، نحو بلدور ، فأصاب منه مقتلا وخر لا ينطق ولا يتحرك ، ولا مراء فى أن أحدا ، بين الآلهة أو

البشر ، لم يشاهد من قبل فعلة أشد نكرا من هذه ، وحين سقط بلدور صريعا ، أخذت الآلهة غاشية من هول المصاب ، ثم أخذوا يتطلعون كل إلى صاحبه ، وكانوا متفقين فى الرأى على الإمساك بالجانى ، ولكنهم اضطروا لتأجيل انتقامهم احتراما للمكان المقدس المجتمعين فيه ، وأطلقوا لحزنهم العنان بالنحيب والعويل وحين عادت الآلهة إلى أنفسهم ، سألتهم فريجا عمن يرغب منهم أن يستحوذ على كامل حبها وعطفها ، وأضافت قائلة : « فهذا جزاء من سيركب إلى الأقطار السفلى ، ويعرض فدية على هيلا إن هى سمحت لبلدور بالعودة إلى أسجرد * . »

عند ذلك تقدم هرمود ، المنعوت بالرشيق ، ابن أودين ، للقيام بالرحلة ، فأسرج جواد أودين ، سليبنر ، ذو ثمانى السيقان ، الذى يستطيع أن يسابق الريح وامتطاه هرمود وراح ينهب الأرض لتأدية مهمته ، وظل تسعة أيام وتسع ليال يرتاد وهادا عميقة ، لا يكاد من فرط ظلامها ، أن يتبين شيئا ، حتى وصل إلى نهر جيول الذى عبره فوق قنطرة موشاة بالذهب الوهاج ، فسألته الفتاة ، حارسة القنطرة ، عن اسمه ونسبه ، وأخبرته أن خمس جماعات من الموتى ، عبرت القنطرة فى اليوم السابق ، فلم تزلزلها كما زلزلها هو بمفرده ، وأضافت قائلة : « ولكنك مبرأ من صبغة الموت ، فما الذى جاء بك إلى هنا ، فى طريقك إلى الأقطار السفلى ؟ » .

فأجابها هرمود : « إنى فى الطريق إلى الأقطار السفلى لأبحث عن بلدور ، فهل رأيته صدفة مارا من هذا الطريق ؟ » .

فأجابت قائلة : « لقد عبر بلدور قنطرة جيول راكبا ، وهاك الطريق الذى سلكه إلى مواطن الموت » .

فتابع هرمود رحلته حتى وصل إلى أبواب الأقطار السفلى الموصدة ، وهنا

---

* أسجرد فى أساطير الشمال هى موطن الآلهة والالهات والأبطال كما سبق القول .

ترجل عن جواده ، وثبت سرجه، ثم امتطاه ثانية ، وغمزه بالمهمازين معا ، فتخطيا البوابة ، دون أن يمساها ، بوثبـة هائلة ، ووصل هرمود إلى القصر حيث وجد شقيقه بلدور متوسدا أبرز مقعد بالقاعة . وقضى الليلة بصحبته ، وفي صباح اليوم التالي التمس من هيلا أن تسمح لبلدور بالعودة معه ، مؤكدا لها أنه مامن شيء سوى العويل يسمعه المرء من الآلهة ، فأجابت هيلا بأنه لا بد من اختبار يثبت أن بلدور محبوب كما يزعمون ، ومضت قائلة : « فإذا بكي عليه ، كل مافي العـالم من أشياء ، أحياء وغير أحياء ، عندئذ يبعث حيا ، ولـكن إذا لم يحسن ولو شيء واحد الشهادة عنه أو البكاء عليه ، فلن يبرح مكانه هنا » .

ومن ثمـة عاد هرمود على جواده إلى أسجرد وقـدم تقريرا بـكل ما سمع ورأى .

وعلى ذلك أوفدت الآلهة رسلا إلى كل بقاع الأرض ، تطلب من كل الأشياء أن تبكي لخلاص بلدور من الأقطار السفلى ، فاستجابت جميع الأشياء لهذا الرجاء طائعة راضية ، وبكى الناس وكل شيء حي ، كما بكت الأراضي والأحجار والأشجار والمعادن ، كما يحدث لها حين تنقل من مكان بارد إلى مكان حار ، وإذ كان الرسل عائدين وجدوا عجوزا درديس تدعى ثوكت جالسة في كهف ، فتوسلوا إليها أن تبكي بلدور لخلاصه من الأقطار السفلى ، ولـكنها أجابت قائلة :

« ستنوح ثوكت
بدمـــوع متجمسدة
لنار بلدور المتأججة ،
ولـكن لتحتفظ هيلا بخاصتها . »

* * *

والريبة قوية في أن هذه الحيزبون لم تكن سوى لوكى نفسه ، الذى لم يكف قط عن إثارة القلاقل ونثر بذور الفساد بين الآلهة والبشر ، وهكذا حيل بين بلدور وبين العودة إلى أسجرد(١) .

* * *

ماتم بلدور

رفع الآلهة الجثمان وحملوه إلى شاطىء البحر ، حيث رست سفينة بلدور « هرنجهام » أكبر سفينة فى العالم ، ووضع جثمان بلدور فوق المحرقة على ظهر السفينة ، واستبد الحزن بزوجته نانا حين رؤيته حتى انفطر قلبها وماتت ، وحرقت جثتها مع جثة زوجها فى وقت واحد ، وحضر مأتم بلدور حشد ضخم من مختلف صنوف الناس ، فأولاجاء أودين تصحبه فريجا وحوريات ولكيريور وغربانه الفاحمة ، ثم فريى فى عربته التى يجرها الخنزير البرى جلنبرستى ، وامتطى همدال جواده جلتوب ، وفريا فى مركبتها الحربية تجرها القطط ، كما حضر أيضا عدد كبير من عمالقة الصقيع وعمالقة الجبال ، وسيق جواد بلدور مسرجا إلى نصب المحرقة حيث قدم طعمة لنفس النيران مع سيده .

ولكن لوكى لم يفلت من قصاصه الحق ، فحين رأى كيف أثار سخط الآلهة ، فر إلى الجبل ، وهناك بنى لنفسه كوخا بأربعة أبواب ، كى يستطيع رؤية أى خطر يحدق به ، واخترع شبكة يصطاد بها ، كما اعتاد أن يصنع صيادو السمك منذ عهده ، ولكن أودين اكتشف مخبأه فاجتمعت الآلهة للقبض عليه ، وحين رأى هذا حول نفسه إلى سمكة صمون ، واختبأ بين أحجار الغدير ، ولكن الآلهة أخذت شبكته ، وجذبت بها فى الغدير ، وحين وجد لوكى أنه لا مناص

---

(١) من أشعار لونجفللو مجد قصيدة بعنوان « سجاف تجنر » عن موضوع وفاة بلدور .

من الإمساك به ، حاول القفز من فوق الشبكة ، ولكن ثورا أمسك بذيله وضغط عليه ، فأصبحت ذيول هذه الأسماك منذ ذلك الحين نحيفة لطيفة ، فقيدوه بالسلاسل ، وعلقوا ثعبانا فوق رأسه ، يتساقط سمه على وجهه قطرة قطرة ، وتجلس زوجته سينجونا إلى جانبه ، وتتلقى القطرات فى قدح حين سقوطها ، ولكنها حين تخرج بالقدح لتفريغه ، تسقط القطرات فوق لوكى ، فتجعله يهوى فى رعب ، ويتلوى بدنه فى عنف يهز الأرض بأكملها هزا ، فتحدث ما يسميها الناس بالزلازل .

***

العفاريت

ويذكر كتاب الإدة طبقة أخرى من الكائنات ، أقل فى المرتبة من الآلهة ، ولكنها ذات قوة عظيمة ، وهى طغمة العفاريت ، فالأرواح البيضاء ، أو عفاريت النور ، كانت جميلة إلى أقصى حد ، وأشد لمانا من الشمس ، ومتسربلة فى ثياب أنيقة شفافة النسيج ، وكانت تهوى الضوء ، وتعطف على الجنس البشرى ، كما كانت تظهر عادة فى هيئة أطفال لطفاء حسان ، ويسمى موطنهم الفهايم « أرض العفاريت » ويحكمها فريبار Freyr إله الشمس ، الذى كانت هذه الكائنات تلعب دائما فى ضوئه وتمرح .

أما العفاريت السوداء أو عفاريت الليل فهم صنف مختلف من المخلوقات ، وهم أقزام قبيحو المنظر طوال الأنوف ، ذوو لون قاتم قذر ، ولا يظهرون إلا فى الليل ، لأنهم كانوا يتحاشون الشمس كألد عدو لهم ، فأشعتها إن سقطت على واحد منهم حولته فورا إلى حجر ، وكانت لغتهم هى صدى الخلوات ، ومحلات إقامتهم هى الكهوف والشقوق التى تحت الأرض ، ويقال إنهم ظهروا للوجود من الدويدات التى خرجت من لحم جثة ايمر المتعفنة ، ثم أنعمت عليهم الآلهة بهيئة بشرية وبإدراك عظيم ، وتميزوا ، بصفة خاصة ، بمعرفة قوى الطبيعة الخفية والحروف

الرونية التى نقشوها وشرحوها ، كانوا أبرع الصناع بين جميع المخلوقات ، واشتغلوا في المعادن والأخشاب ، ومن أشهر مصنوعاتهم مطرقة ثور ، وسفينة «سكدبلودنر» التى أعطوها لفريار ، والتى كانت من فرط اتساعها تحمل جميع الآلهة مع آلاتهم الحربية والمنزلية ، ولكنها كانت مصنوعة بمهارة ، حتى ليستطيع المرء أن يطويها ويضمها فى جيب ردائه .

***

رجنروك ، شفق الآلهة

كان يسود الشعوب الشمالية اعتقاد راسخ بأنه سيأتى وقت تبيد فيه كل الخليقة المنظورة وآلهة فلهالا ونيفلهايم ، وسكان يوتنهايم والفهايم وميدجارا وكل ما فيها ، ولكن يوم الدمار الفظيع لن يحل بغير نذير ، فأولا سيأتى شتاء ثلاثى ، يتساقط خلاله الثلج من أربعة أركان السماء ، ويشتد الصقيع ، وتقصف الرياح ، ويسوء الطقس ، وتكف الشمس عن بهجتها ، وتنقضى ثلاثة فصول شتوية كهذه دون أن يلطفها صيف واحد ، وسيعقبها ثلاثة فصول شتوية مماثلة أخرى ، تعم السكون خلاله الحروب والفوضى ، والأرض ذاتها تفزع وتأخذها رعشة ، والبحر ينطلق من حوضه ويتركه ، وتتزعزع السموات وتنشق ؛ وتهلك الناس أفواجا ، وتنقض نسور الهواء على أبدانهم التى ما زالت تنبض بالحياة وتتلذذ بنهشها ، ويحطم الذئب فنريس قيوده ، وينساب الثعبان مدجارد من مستقره بقاع البحر ، وينضم لوكى إلى أعداء الآلهة حين يجد نفسه مطلق السراح ، ووسط هذا الخراب الشامل يتقاطر أبناء مسبلهايم تحت قيادة زعيمهم سرتر Surtur واللهب والنيران المتأججة تندلع من بين أيديهم ومن خلفهم ، ويتقدمون وهم على صهوات جيادهم ، لعبور بفروست ، قنطرة قوس قزح ، التى تتحطم تحت سنابك الجياد ، ولكنهم لا يأبهون لسقطتها ، فيتوجهون إلى ميدان القتال المسمى فيجريد ، ويتوجه

إلى هناك أيضا الذئب فنريس ، والثعبان مدجارد ، ولوكى مع جميع أتباع هيلا وعمالقة الصقيع .

وعندئذ يقف هيمدال ، وينفخ فى البوق جيالار ، كى يجمع الآلهة والأبطال للنزال ، ويتقدم الآلهة يقودهم أودين الذي يشتبك مع الذئب فنريس ، ولكن الوحش يصرعه ، فيقتله فيدار بن أودين ، وتطبق شهرة ثور الآفاق لقتله الثعبان مدجارد ، ولكنه يرتد ويخر صريعا ، مختنقا بالسم الذى يتقيأه التنين عليه ، ويتلاقى لوكى وهيمدال ويتقاتلان فيقتلان معا ، وبعد أن يسقط الآلهة وأعداؤهم فى المعركة ، يقذف سرتر ، الذي قتل فريار ، العالم بالنيران واللهب ، فيضطرم الكون كله ويحترق ، وتظلم الشمس ، وتغوص الأرض فى المحيط ، وتتساقط النجوم من السماء ، وينقضى الزمن ويكف عن الوجود .

بعد ذلك سيعمل الفادور (ذو الجبروت) على أن يخرج من البحر أرضا وسماء جديدة ، وستعطى الأرض الجديدة ، المليئة بالخيرات العميمة ، ثمارها من تلقاء ذاتها دون مشقة أو جهد ، ويبطل الشر والشقاء فلا يعرفان فيما بعد ، ويعيش الآلهة والبشر معا فى سعادة غامرة .

* * *

الحروف الرونية

لا يستطيع المرء أن يسافر طويلا في الدانمارك أو النرويج أو السويد ، دون أن تعترضه أحجار ضخمة ، ذات أشكال مختلفة ، عليها حروف منقوشة تسمى بالحروف الرونية ، تبدو لأول وهلة شديدة الاختلاف عما نعرف ، وتكاد الحروف أن تتألف من خطوط مستقيمة ، على هيئة عصوات صغيرة ، فرادى أو مجتمعة ، وكانت الشعوب الشمالية تستخدم هذه العصى لغرض التكهن بالأحداث

المستقبلة ، فكانت العصى تخلط ويعاد تشكيلها ، ومن الأشكال التى تكونها ، اشتقوا ضربا من العرافة .

وكانت الحروف الرونية مختلفة الأنواع وتستخدم أصلا للأغراض السحرية ، والحروف الرونية المؤذية ، أو اللاذعة كما كانوا يسمونها ، كانت تستخدم لصب مختلف المصائب على رءوس أعدائهم ، أما الحروف النافعة فلتجنب الكوارث ، وبعضها كان لعلاج الأمراض ، والأخرى لاستجلاب الحب وغيره ، واستخدمت فى الأيام الأخيرة بوفرة للكتابة وقد عثر على أكثر من ألف منها ، ولغة التخاطب هى لهجة قوطية اختص بها الاسكندناويون القدامى وما زالت مستعملة فى أيسلندة ، ومن ثمة فقد تقرأ الكتابات فى وثوق ، ولكن حتى الآن لم يعثر منها إلا على القليل جدا ، وهذا القليل لا يلقى إلا بصيصا من الضوء على التاريخ ، ومعظم هذه الكتابات هى نقوش على نصب القبور .

وأنشودة جراى عن « نزول أودين » تحوى إشارة إلى استخدام الحروف الرونية فى التعاويذ :

« وإذ استقبل بوجهه الإقليم الشمالى ،
نقل القريض الرونى ثلاث مرات ،
وبلهجة مخيفة ، تلا ثلاثا
نظما مثيرا ، يقيم الموتى
فصدر من أعماق الحفرة
صوت متبرم جاء رنانا . »

***

شعراء اسكندناوة القدماء

كان شعراء اسكندناوة القدماء ، طبقة من الناس كبيرة الأهمية ، فى مرحلة قديمة من المدينة وكانوا منبثين بين كل الطوائف ، وهم الأمناء على كل تراث تاريخى ، ومهمتهم مزج بعض المتعة الذهنية بمهرجانات الأبطال البدائية ، بوساطة سردهم مغامرات أولئك الأبطال ، الأحياء أو الأموات ، فى روائع من الشعر والموسيقى كما تجود قرائحهم ، وكانوا يطلقون على إنتاجهم الأدبى اسم ساجات Sagas أو ، القصص الطويلة ، وقد انحدر إلينا الكثير منها ، وهى تحوى فى التاريخ مادة ثمينة ، وصورة أمينة عن حالة المجتمع فى العهد الذى تتصل به .

***

أيسلندة

وقد وصل إلينا كتابا الادة وقصص الساجات من أيسلندة ، وفيما يلى مقتطف من محاضرات كارلايل عن « الأبطال وعبادة البطل » وهى تعطى صورة حية عن القطر الذى نبعت منه القصص العجيبة التى طالعناها ، فليوازن القارىء لحظة بين هذا القطر وبلاد اليونان فى علم الأساطير القديمة :

« فى تلك الجزيرة العجيبة ، أيسلندة — برزت ، على حد قول علماء طبقات الأرض ، بالنار من قاع البحر ، أرضا بورامن الجدب والحمم ، تكتسحها عواصف سوداء بضعة شهور من كل عام ، ولكنها تتسامق فى جمال فطرى أخاذ ، خلال فصل الصيف ، متشامخة بصرامة فى المحيط الشمالى ، بجبالها الجليدية ، وفوارانها المزمجرة ، وبركها الكبريتية ، وكهوفها البركانية المخيفة ، كساحة قتال آلهة الصقيع والنار الخربة الخالية — وهى ، من بين جميع الأماكن ، آخر مكان نبحث فيه عن الآداب والنصب التذكارية — حيث دون سجل هذه الأشياء ،

وعلى الجانب المطل على البحر من هذه الأرض القاحلة ، حافة معشوشبة ، تستطيع الماشية أن ترعى هناك ، ويستطيع الناس العيش عليها وعلى ما يقدمه البحر لهم ، ويبدو أنهم كانوا قوما عاطفيين مرهفي الحس ، قوما ذوى أفكار عميقة عبروا عنها تعبيرا موسيقيا رائعا ، ولو كانت أيسلندة لم تبرز من البحر ، ولم يكتشفها الاسكندناويون ، لكانت خسارتنا لا تعوض !

* * *

الفصل الحادى والأربعون

الدرويديون (كهنة الوثنيين القدامى)

أيونيا

كان الدرويديون هم الكهان أو خدام الدين عند الشعوب الكلتية ، فى بلاد الغال وبريطانيا وألمانيا ، وقد استعرنا معلوماتنا المتعلقة بهم من الملاحظات التى جاءت بمؤلفات كتاب اليونان والرومان ، ومقارنتها بما خلفته ويلز والغال من بقايا أشعارهما .

وكان الدرويديون يجمعون بين وظائف الكاهن والقاضى والعالم والطبيب ، وكانوا فى علاقتهم بالقبائل الكلتية ، متجانسين تمام المجانسة مع البراهميين فى علاقتهم بالهنود ، والمجوس بالفرس ، وكهنة الفراعنة بالمصريين القدماء .

وعلم الدرويديون بوجود إله واحد ، أطلقوا عليه اسم « بى ـ آل Be,al » ومعناه ، على حد ما يقوله علماء الآثار الكلتية « حياة كل شىء » أو « مصدر جميع الكائنات » والذى يبدو أنه على علاقة بالإله « بعل — Baal الفينيقى » ومما يجعل هذه العلاقة أكثر روعة هو أن الدرويديين ، وكذلك الفينيقيين ، طابقوا بين إلههم الأعلى وبين الشمس ، واعتبروه رمزاً للألوهية ، ويؤكد الكتاب اللاتين أن الدرويديين أيضاً عبدوا آلهة عديدة من مرتبة أدنى .

ولم يستخدموا صوراً يرمزون بها لموضوع عبادتهم ، ولم يحتشدوا فى معابد أو مبان من أى نوع لتأدية شعائرهم المقدسة ، وكانت بقعتهم المقدسة تتكون من حلقة من الأحجار (جميعها أحجار هائلة الحجم عادة) تحيط بساحة قطرها من

عشرين قدماً إلى ثلاثين ياردة ، وأشهر ما تبقى منها حتى الآن حلقة ستونهنج Stonehenge بسهل سلسبورى بانجلترا .

وكانت هذه الحلقات المقدسة تقع عادة قرب نبع ، أو فى ظل دغل أو بلوطة متشابكة الأغصان ، وفى وسط كل حلقة منها مذبح ، وهو حجر ضخم ، موضوع على هيئة مائدة ، فوق أحجار أخرى موضوعة لحملها ، وللدرويديين أيضاً مرتفعاتهم، وتتألف من أحجار كبيرة ، أو كومات من الأحجار ، فوق قمم التلال ، وكانت تدعى « المهرمات Cairns » وتستخدم فى عبادة الإله المرموز له بالشمس .

ولاشك أن الدرويديين قدموا القرابين لآلهتهم ، ولكن هناك بعض الشك فيما يتعلق بنوع هذه القرابين ، كما أننا لا نكاد نعرف شيئاً عن الطقوس المتعلقة بطرائق عبادتهم ، ويؤكد كتاب الرومان القدامى أنهم كانوا يقدمون ضحايا بشرية فى المناسبات العظيمة ، كإحراز النصر فى الحروب أو النجاة من الأمراض الخطيرة ، وقد ساق قيصر وصفا مسهبا عن طريقتهم فى مزاولة هذا ، « كانت لهم أصنام هائلة الحجم يلفون أطرافها بأغصان الأشجار ، ويملئون أطرافها بالأحياء من الناس ، وحين يضعون هذه الأصنام فى النار كانت تحدق اللهب بمن فيها » وكثيراً ما حاول الكتاب الكلتيون زعزعة شهادة المؤرخين الرومانيين عن هذه الواقعة ولكنهم باءوا بالفشل .

وكان الدرويديون يحتفلون بعيدين كل عام ، أولهما فى مستهل شهر مايو ، ويسمى بلتان Beltane أو « نار الإله » ، وفى هذه المناسبة كانوا يشعلون ناراً هائلة ، تكريماً للشمس ، وترحيبا بعودة جودها بعد ظلام الشتاء وخرابه ، وما زال لهذه العادة أثر باق فى الاسم الذى يطلقونه على يوم أحد العنصرة Whitsunday بأنحاء اسكتلندة حتى هذا اليوم ، ولقد استخدم سير ولتر سكوت هذا اللفظ Beltane فى « أغنية الزورق » فى « سيدة البحيرة » :

« ليست شجرتنا نبتة وقعت بذورها صدفة قرب النبع .
فأزهرت بعيد بلتان كى تذبل في فصل الشتاء »

***

وكان عيد الدرويديين الثانى العظيم يسمى «سمه — إن — Samh.in »
أو نار السلام ، وكان يقام عشية عيدجميع القديسين Hallow—eve أول نوفمبر وما زال يحتفظ بهذه التسمية فى بقاع اسكتلندة الجبلية ، وكان الدرويديون يعقدون بهذه المناسبه مجمعاً موقراً ، وسط هذه البقعة ، لتأدية وظائف عشيرتهم القضائية ، فجميع المشاكل ، العامة منها والخاصة ، وجميع الجرائم ، ضد الأشخاص أوالممتلكات ، كانت تعرض عليهم للفصل فيها ، وكان يقرن بهذهالأعمال القضائية بعض مراسيم خرافية ، وخاصة إشعال النار المقدسة ، التى كانت تقبس منها جميع نيران البقعة ، بعد إطفائها عمداً ، وظلت عادة إشعال النيران ، عشية عيد جميع القديسين ، قائمه فترة طويلة ، بالجزائر البريطانية ، بعد تأسيس المسيحية .

وبجانب هذين العيدين السنويين العظيمين ، اعتاد الدرويديون الاحتفال بالبدر ، وبنوع خاص اليوم السادس للقمر ، وفى هذه المناسبة الثانية كانوا يجدون فى طلب نبات الدبق ، النامى فوق أشجار البلوط الأثيرة عندهم ، والتى ينسبون إليها وإلىالدبق قدرة خاصة علىالشفاء ويحيطونهما معاً بهالة من التقديس، وكان عثورهم على الدبق يضفى عليهم بهجة ويهيىء لهم فرصة للتعبد الجاد ، ويقول بلينى : (وهم يطلقون على هذا النبات لفظاً معناه بلغتهم « يشفى الكل » وبعد قيامهم بالاستعدادات المقدسة للعيد وتقديم الضحية تحت الشجرة ، يسوقون إلى هناك عجلين في بياض اللبن ، ويربطون قرونهما لأول مرة ، ثم يتسلق الكاهن الشجرة ، وهو فى ردائه الأبيض ، وينزع عنها نبات الدبق ، بمنجل من الذهب ويلفونه في عباءة بيضاء ، وبعد ذلك يتقدمون لذبح الضحايا ، وفى الوقت ذاته

يضرعون إلى الله أن يفيض ببركاته على من أنعم عليهم بهذا النبات » ، ثم يشربون الماء الذى غمروه فيه ، معتقدين أن فيه شفاء لكل الأدواء ، وإن كان نباتا طفيليا ، وهو لا يوجد دائماً أو كثيراً فوق أشجار البلوط ، بل هو عزيز المنال فإذا وجد زادت قيمته .

وكان الدرويديون معلمى الأخلاق والدين معا ، وثمة نموذج قيم من تعاليمهم الأخلاقية ، ما زالوا يحتفظون به فى ثلاثيات شعراء ويلز الموسيقيين ، ومنها نستنتج أن أراءهم فى الاستقامة الخلقية ، كانت سليمة بوجه عام ، وأنهم كانوا يتمسكون بكثير من المبادىء الأخلاقية النبيلة الثمينة ويغرسونها ، وكانوا أيضاً رجال العلم والمعرفة لعصرهم وشعبهم ، وفيما يتعلق بمعرفتهم للحروف فليس هناك مايقطع الشك باليقين ، ولكن هناك احتمال قوى بأنهم كانوا مطلعين عليها إلى حد ما ، ولكن من المؤكد أنهم لم يدونوا كتابة أى نصيب من مبادئهم أو تاريخهم أوشعرهم ، فتعاليمهم كانت شفوية ، وآدابهم (إن صح استخدام مثل هذا اللفظ فى مثل هذه الحال) حفظت بالتواتر فحسب ، ولكن الكتاب الرومانيين يقررون « أنهم وجهوا اهتماما كبيراً إلى نظام الطبيعة وقوانينها ، وحققوا وعلموا الشباب تحت إشرافهم أشياء كثيرة تتعلق بالنجوم وحركاتها ، وحجم العالم وأقطاره ، كما تتعلق بسلطان الآلهة الخالدين وقوتهم . »

ويتألف تاريخهم من قصص متواترة ، تقوم على تقريظ أبائهم لما أسدوه من جلائل الأعمال ، ومن الجلى أنها كانت منظومة ، وكذلك كونت شطرا من شعر الدرويديين وتاريخهم ، وإذا لم يكن ما لدينا فى أشعار أوسيان Ossian هو الإنتاج الحقيقى للعهود الدرويدية ، فهو يعتبر صورا أمينة من أغانى شعرائهم ومنشديهم .

وكان الشعراء المنشدون قسما حيويا من حكومة الكهنة الدرويديين ، ويقول الكاتب بنانت : « كان الشعراء المنشدون ، على حد ما يزعمون ، ذوى مواهب

تعدل الوحى والإلهام ، وكانوا المؤرخين الشفويين لكل الإنجازات القديمة ، عامة وخاصة ، كما كانوا من النسابة الراسخين فى العلم » إلخ .

ويسوق بنانت وصفا دقيقا لجلسات الشعراء المنشدين والموسيقيين المغنين ، التى كانت تعقد فى ويلز طوال عدة قرون ، وبقيت طويلا بعد زوال كهنوت الدرويديين فى اختصاصاته الأخرى ، ولم يكن مرخصا ، فى هذه الاجتماعات ، لغير الشعراء البارزين أن يلقوا قصائدهم ، ولغير الموسيقيين البارعين أن يعزفوا مقطوعاتهم ، وكانوا يعينون محكمين للفصل فى تقدير مواهبهم ومنح الدرجات المناسبة ، وكان أمراء ويلز هم الذين يعينون المحكمين فى العهد القديم ، ولكن ملوك انجلترا تولوا هذا الأمر ، ببعثات من لدنهم ، بعد فتح ويلز ، وإن كان من المتواتر أن الملك إدوارد الأول اضطهد الشعراء المنشدين ، في قسوة بالغة ، انتقاما منهم لما كان لهم من الأثر فى إحياء مقاومة الشعب لحكمه ، وقد أمدت هذه الرواية المأثورة الشاعر جراى بموضوع قصيدته الشهيرة « الشاعر المنشد » .

وثمة اجتماعات ما يزال محبو شعر ويلز وموسيقاها ، يعقدونها ، بين الفينة والفينة ، تحت اسمها القديم ، ومما نظمته مسز هيمان قصيدة عن اجتماع لشعراء ويلز المنشدين عقد فى لندن يوم ٢٢ مايو عام ١٨٢٢ ، واستهلالها وصف للاجتماع القديم ، ونقتطف منه الأبيات التالية :

« . . . وسط الصخور العالية الخالدة التى تحدت بقوتها
الرومانى بخوذته العالية ، حين كان مصعرا خده ،
وحيث اكفهرت مائدة الدرويديين الحجرية القديمة ،
وهمست أشجار البلوط ، من حولها ، بتمتمات غامضة ،
هناك احتشد الملهمون القدامى ! فى السهل أو النجد ،

في طلعة الشمس ، وتحت عـــين الضوء ،
وكل رأس نبيل ، وهو مكشوف تحت السماء ،
وقف في الدائرة ، حيث لايستطيع غيره وطء المكان . »

. . .

وكان النظام الدرويدى فى أوج عظمته ، عند الفتح الرومانى ، بقيادة يوليوس قيصر ، وصب غزاة العالم جام غضبهم على رءوس الدرويديين باعتبار أنهم أعداؤهم الأصليون ، وحين أنهكت قوى الدرويديين داخل البلاد ارتدوا إلي انجلسى ، وأيونيا ، حيث وجدوا ملاذا إلى حين ، واستمروا في مزاولة طقوسهم الدينية غير الموقرة آنذاك .

واحتفظ الدرويديون بسلطانهم علي أيونيا والجزر المجاورة وداخل البلاد الأصلية ، حتى تم اقتلاعهم وملاشاة خرافاتهم بمجيء القديس كولمبا ، رسول هضبة أيقوسيا ، وهو أول من اجتذب سكان هذه البقعة إلى اعتناق المسيحية .

. . .

أيونيا

هى إحدى الجزائر البريطانية الصغرى ، وتقع قرب ساحل صخرى قاحل شديد الوعورة ، وهى محاطة ببحار مليئة بالأخطار ، ومحرومة من جميع موارد الثروة الداخلية ، واحتفظ التاريخ لأيونيا بمنزلتها الثابتة كمركز للحضارة والدين فى وقت اكتنف فيه ظلام الوثنية جميع أنحاء أوربا الشمالية تقريبا ، وتقع أيونيا أو إيكلمكل فى أقصى جزيرة مول ، التى يفصلها عنها مضيق عرضه نصف ميل ، وتقع علي بعد ستة وثلاثين ميلا من داخل الأراضى الاسكتلندية .

وكان كولمبا من أهالي إيرلندة ، وتربطه صلة رحم بأمراء البلاد ، وكان نور الإنجيل يشع من إيرلندة فى ذلك المهد ، بينما كانت بقاع اسكتلندة الغربية والشمالية غارقة فى ظلام الوثنية ، وقد نزل كولمبا ، مع اثنى عشر صديقا ، بجزيرة أيونيا ، عام ٥٦٣ ميلادية ، وقام بسفرته فى قارب من فروع الأشجار تكسوها جلود الحيوانات ، وقد حاول الدرويديون الذين يحتلون الجزيرة منعه من الإقامة فيها ، وأرهقته الأقوام الهمجية التى على الشواطىء المجاورة بعداوتهم ، وتعرضت حياته للخطر بضع مرات من جراء هجماتهم ، ولكنه تغلب على كل مقاومة بمثابرته وغيرته ، وأنعم عليه الملك بالجزيرة هدية له ، وهناك شيد ديرا كان هو رئيسه ، ولم يهن أو يكل فى عمله على نشر معرفة الكتاب المقدس بجميع بقاع هضبة إيقوسية وجزائر اسكتلندة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أسقفا بل مجرد خادم دينى وراهب ، فقد وصل تبجيل القوم له حدا جعل كل الإقليم بأساقفته خاضعا له ولخلفائه من بعده ، وقد تأثر العاهل البقطى بما تميز به من الحكمة وجلال القدر حتى كان عنده فى أرفع منزلة ، وكان الزعماء والأمراء المجاورون يلتمسون نصيحته ، ويفيدون من عدالته لحسم منازعاتهم .

وحين نزل كولمبا بأيونيا ، كان يرافقه اثنا عشر تابعا ، فألف منهم جماعة دينية ترأسها ، وآخرون كانوا ينضمون إلى هؤلاء ، من حين لآخر حسب الحاجة ، وبهذا كان العدد الأصلى دائما فى ازدياد ، وكانوا يسمون مؤسستهم ديرا ، وكبيرها رئيسا للدير ، ولكن نظامهم كان قليل الشبه بأنظمة الرهبنة فى العهود المتأخرة ، أما الاسم الذى أطلق على أولئك الذين أخذوا بهذا النظام فهو كلديز – Culdees ولعله من « Cultores Dei » اللاتينية ، بمعنى المتعبدين لله ، وهم جماعة من المتدينين اشتركوا متضامنين لأجل هدف معين ، هو التبشير بالإنجيل وتعليم الشباب ، وأيضا كي يدعموا غيرتهم لتكريس أنفسهم عن طريق ممارساتهم

المتحدة للعبـادة ، وكان الأعضاء ، عند التحاقهم بهذه الهيئة ، يرتبطون بنذور معينة ، ولكنها لم تكن تلك النذور التى تفرضها عادة الهيئات الرهبانية ، إذ من هذه النذور ، وهى ثلاثة — العزوبة والفقر والطـاعة — لم يرتبط الكلديز إلا بالثالث منها فقط ، فهم لم يقسروا أنفسهم على الفقر ، بل على النقيض ، إذ يبدو أنهم كانوا يعملون بجد ، كى يوفروا لأنفسهم ، ولمن يعولونهم ، أطايب الحياة ، كذلك كان مصرح لهم بالزواج ، ويبدو أن معظمهم آثروا أن ينعموا به ، وصحيـح أنه لم يرخص لزوجاتهم بالإقامة معهم فى الدير ، ولكن خصص لهن مسكن فى مكان مجـاور ، وتوجد بالقرب من أيونيا جزيرة لا تزال تحمل اسم « جزيرة النساء » حيث أقام الأزواج معهن ، على مايبدو ، إلا حين كان يقتضى الواجب حضورهم بالمدرسة أو بالهيـكل .

* * *

ويشير كبلر فى قصيدته « ريوللورا » إلى رهبان أيونيا المتزوجين كما يلى :

«... الكلديز الأنقياء المتعبدون لله ،
كانوا أوائل كهنة الرب بالجزر البريطانية ،
قبل أن يطأ أية جزيرة منها
أى راهب سكسونى بقدمه ،
وقبل أن يصد التطرف الدينى
رجال الكنيسة عن الزواج المقدس.
فى ذلك العهد اشتهر آوده
بأيونيا حيث بشر بالكلمة فى قوة
وحيث كانت ريوللورا ، نجمة الجمال ،
شريكة له فى خميلته .

* * *

ويسوق مور في أحد « ألحـانه الإيرلندية » قصة القديس سنانوس Senanus والسيدة التي التمست إيواءها بالجزيرة ، ولكن التماسها قوبل بالرفض :

« عجلي بترك هذه الجزيرة المقدسة ،
أيتها السفينة الدنسة قبل طلوع الصباح ،
فعلى ظهرك ، على الرغم من الظلام ،
أرى هيئة أنثى ،
وأنا نذرت أن هذه الأرض المقدسة
لن تطأها أبداً قدم امرأة .

* * *

وفي هذه الخصائص وغيرها ، خرج الكلديز على قواعد كنيسة روما المدعمة وأنظمتها ، ومن ثمة اتهموا بأنهم هراطقة ، وكانت النتيجة أنه كلما ازدادت قوة الأخيرة ، اشتد ضعف الـكلديز ، ولكن هيئات الـكلديز لم تتوقف ، وأعضاءها لم يتشتتوا إلا في القرن الثالث عشر ، ولكنهم ظلوا يعملون فرادى ، ويقاومون هجمات الاغتصاب البابوي قدر استطاعتهم ، حتى أشرق نور الإصلاح الديني على العالم .

وكانت أيونيا معرضة ، من موقعها في البحار الغربية ، لهجمات القراصنة النرويجيين والدانمـاركيين ، التي كانت تعج تلك البحار بهم ، وطالمـا نهبوها ، وحرقوا مساكـنها ، وقتلوا سكانها الآمنين ، فأدت هذه الظروف والأحداث غير المحمودة إلى تقهقرها التدريجي ، وساعد على ذلك تقويض هيئات الكلديز في في جميع أصقاع اسكتلندة ، وأصبحت الجزيرة ، تحت السلطة البابوية ، مركزاً لدير الراهبات ، مازالت آثاره بها حتى الآن ، وعندما قامت حركة البروتستانت الدينية ، صرح للراهبات بأن يعشن جماعة ، بعد تعطيل الدير .

والسبب الرئيسى الذى من أجله يؤم المسافرون أيونيا حاليا ، هو آثارها العديدة من الكنائس والمقابر ، وأهمها جميعاً الكاتدرائية أو كنيسة الدير ، وكنيسة دير الراهبات ، وبجانب هذه الآثار الكنسية القديمة ، توجد أخرى أقدم منها ، وهى تشير إلى ما كان فى الجزيرة من أشكال للعبادة والعقيدة مختلفة عن أشكالها فى المسيحية ، وهذه هى المهرمات المستديرة ، الموجودة فى بقاع مختلفة والتى يبدو أنها من أصل درويدى ، وجونسون يشير إلى جميع آثار هذا الدين البائد حين يهتف قائلا :

« ما أقل ما يغبط ذلك الإنسان الذى لا يشتعل وطنية حين يقف فوق سهول ماراثون أو لا تضطرم تقواه وسط خرائب أيونيا » .

* * *

وفى « سيد الجزائر » يصور سكوت ، فى إبداع ، التباين بين الكنيسة فى أيونيا وكهف ستافا المواجهة لها :

« ستقيم الطبيعة نفسها ، كما يبدو ،
كنيسة لحمد خالقها !
فليس لخدمة أقل شأنا تتسامق
أعمدتها أو تستدير أقواسها ،
ولا لموضوع أقل جلالا تتحدث
تلك الموجة الهائلة التى تهبط وتعلو ،
ولكن عند كل وقفة رهيبة ،
يأتى الجواب من أعلى القبو ،
فى نغمة منوّعة ، مطولة وعالية ،
تذرى بعذوبة أنغام الأرغن ،

وليس عبثا وقوفها بالمدخل الأمامى
لمعبد أيونيا القديم المقدس ،
فصوت الطبيعة يتراءى قائلا
أحسنت صنعاً ياطفلة الثرى الضعيفة !
فقوامك المتواضعة استخدمها ذلك المذبح الملكي
فى رفعة وثبات — ولكن تطلعي لقواى !

الفصل الثانى والأربعون

بيوولف

على الرغم من أن المخطوط الذى يضم بين دفتيه ملحمة بيوولف الحماسية ، كتب عام ١٠٠٠ ميلادية ، فالشعر نفسه كان معروفاً ، وقد ظل المغنون الموسيقيون قروناً يتفننون فى توقيع وسرد المغامرات وأعمال البطولة التى قام بها ابن إيجثيو — Eegtheow ، وابن أخ هيجلاك — Hygelac ملك الجيتيين Geats ، وكانت مملكتهم تشغل ما يسمى الآن بجنوبى السويد .

وأعطى بيوولف ، وهو صبى ، الدليل على جلائل أعمال القوة والبسالة التى جعلته ، فى رجولته ، منقذ هروثجار (Hrothgar) ، ملك الدانمارك ، من المسخ جرندل (Grendel) ، وبعد ذلك فى مملكته من التنين النارى الذى قضى على بيوولف بضربة قاتلة .

وأول شهرة لبيوولف جاءت فى أعقاب هزيمته لعدد كبير من مسوخ البحر حين سبح سبعة أيام وسبع ليال ، قبل أن يصل إلى بلاد الفنلنديين ، وقتل كثيرين من الأعداء ، مساعدة منه فى الدفاع عن أراضى الهتوار (Hetware) ، وكذلك أبدى جلده كسباح ، باستحضاره إلى سفينته دروع ثلاثين من قتلى مطارديه ، وحين عرض على بيوولف تاج بلاده ، وهو فى مستهل رجولته ، رفضه لصالح هيردريد (Heardred) ابن الملكة الصغير السن ، وقام بالعمل كوصى ومستشار حتى شب الملك الصبى واشتد عوده ليحكم بمفرده .

ظل هروثجار ، ملك الدانمارك ، اثنى عشر عاماً ، وهو يعانى من مسخ نهم اسمه جرندل ، كان يعيث فى مملكته فساداً ، وكانت حياة هذا الجرندل محصنة

بالتعاويذ ضد كل الأسلحة التى يصنعها البشر، وكان يعيش فى البرارى، ويتسلل كل ليلة إلى قاعة الملك هروثجار ، فيخطف ويقتل الكثيرين من ضيوفه .

وحين سمع بيوولف من الملاحين أنباء زيارات جرندل الإجرامية القاتلة ، أبحر من جيتلند ، مع أربعة عشر من رفاقه شديدى البأس ، ليقدم إلى هروثجار معونة قوته الهائلة ، وحين نزل بيوولف إلى ساحل الدانمارك ، تحداه القوم باعتباره من الجواسيس ، ولكنه أقنع خفر السواحل بالسماح له بالمرور ، فاحتفى به الملك هروثجار وأكرم وفادته ، وعندما خرج الملك وحاشيته للمبيت ، بقى بيوولف وصحبه بمفردهم فى القاعة ، فاستغرق الجميع فى النوم ، ماعدا بيوولف، فدخل جرندل ، وبضربة قتل أحد رفاق بيوولف النائمين ، ولكن بيوولف ، وهو غير مسلح ، صارع المسخ ، وبلطمة أودعها كل قوته الهائلة ، وفق إلى انتزاع ذراع جرندل من كتفه ، وكانت جراح جرندل قاتلة ، فارتد عائداً ، تاركا أثراً دموياً ، من القاعة إلى وجاره .

وهدأ كل فزع من غارة أخرى يشنها جرندل ، فعاد الدانماركيون إلى القاعة ، بينما خرج بيوولف ورفاقه إلى مكان آخر ، وأقبلت أم جرندل كى تأخذ بثأر ابنها المسخ لجرحه القاتل، وحملت معها نبيلا دانماركيا ومخلب جرندل المنزوعة، فجد بيوولف فى طلب الأم يبغى القضاء عليها ، متتبعا الأثر الدموى ، وجاء إلى حافة الماء متسلحاً بسيفه هرتنج فألقى بنفسه فى اليم ، وسبح إلى حجرة تحت البحر، وهناك تقاتل مع أم جرندل ، وقتلها بسيف قديم وجده فى كهف البحر ، وعلى كثب وجد بيوولف جثة جرندل ، فقطع رأسه ، وحمله كغنيمة حرب إلى الملك هروثجار ، فعظمت سعادة من بالقاعة ، وحين عودة بيوولف إلى جيتلند ، بلغ ترحيب القوم به حداً ليس له من مزيد ، وهناك أغدقوا عليه الضياع الواسعة وأحاطوه بكل ألوان التكريم .

وبعد ذلك بوقت قصير قتل هيردريد ، الملك الصبى، فى حرب مع السويديين ، وخلفه بيوولف على العرش .

وحكم بيوولف شعبه فى سلام وهدوء مدة خمسين عاما ، وعلى حين بغتة ، ظهر تنين استبد به الغضب الشديد ، لسرقة كنز له من مخبأ بمقبرة جبلية ، فراح يعيث بمملكة بيوولف فساداً ، وكان هذا المسخ يترك وجاره ليلا، مثل جرندل عند قيامه بالسطو والقتل .

فعزم بيوولف ، وهو الآن ماهل طاعن فى السن ، على أن يقاتل التنين ، دون معونة من أحد ، فاقترب من المدخل المؤدى إلى وجاره ، الذى كان ينبعث منه بخار حار يغلى ، فخطا بيوولف إلى الأمام ، غير خائف أو متردد ، وهو يطلق صيحة التحدى والقتال ، فخرج التنين وهو ينفث اللهب من فمه ، فاندفع المسخ نحو بيوولف بكل هياجه واحتدامه ، وكاد أن يسحقه فى هجمته الأولى ، واشتدت سورة المعركة وتناهت فى بشاعتها ، حتى لقد هجر بيوولف جميع رجاله سوى واحد ، وفروا يلتمسون النجاة بأرواحهم ، وبقى وجلاف (Wiglaf) ليعاون ملكه الشيخ ، وهجمة أخرى من التنين حطمت سيف بيوولف ، وغرز المسخ أنيابه فى عنق الملك ، فاندفع وجلاف داخل المعمعة ، وساعد بيوولف المحتضر على قتل التنين .

وقبل موت بيوولف أوصى بأن يخلفه وجلاف على عرش جيتلند ، وأمر بوضع رفاته فى ضريح تذكارى ، على قمة صخرة عالية تطل على البحر ، وقاموا بحرق جثمان بيوولف على محرقة رحيبة ، بينما راح اثنا عشر من الجيتيين ، يطوفون على صهوات جيادهم ، حول الربوة ، وهم ينشدون مراثيهم ومدائحهم تكريما للرجل الطيب العظيم ، بيوولف .

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
ت: ٧٦١٣٢١ - القاهرة

الثمن
٣٨

مطابع البلاغ
٢٦ شارع منصور ت ٣٤٩٣٦
القاهرة

